

تاريخ حُكم العرب في إسبانيا

تأليف: خوسيه أنطونيو كنده

ترجمة: لارا نيكولا ڤاليه

مراجعة وتحرير: د. أحمد أيبش

تاريخ حُكم العرب في إسبانيا

يتميّز هذا الكتاب الذي نقدّمه للقرّاء اليوم بخصوصيّة فريدة، فهو أوّل كتاب جامع ألّفه مؤرّخ إسباني عن تاريخ الأندلس الإسلامية، وأول مؤلّف أوروبي يقدّم عرضاً متكاملاً لهذا التّاريخ، يعتمد فيه صاحبه للمرّة الأولى على مصادر مخطوطة عربيّة أصيلة كانت محفوظة في مكتبة دير الإسكوريال بالكاستيل، ومن أشهرها الخزانة الزيدانية. وأول ما يلفتُ النّظر في كتاباته التّقدير الكبير للحضارة الإسلاميّة في الأندلس، والصورة المشرقة التي يقدّمها للوجود العربي في إسبانيا، إلى حدّ الإلحاح على المقارنة بين ما بلغتْه بلاده في ظل الحكم الاسلامي من تقدّم وازدهار، وما آلتْ إليه بعده من تخلّف حضاري وثقافي.

وممّا يؤسف له أشدّ الأسف أنّ الأيّام الحاسمة الأخيرة في تاريخ الدّولة الاسلاميّة بالأندلس وملوك الطّوائف (من بني الأحمر) الذين دالت دولتهم وانتهت إلى الأبد بسقوط غرناطة عام ١٤٩٢ م، لا وجود لمصادر عربيّة معاصرة لها تفيد في ذكر رواية صادقة وأمينة لأحداثها الأليمة، التي أطّرت انهياراً مؤلماً أصاب كاهل عالمنا الإسلامي في نهاية القرون الوسطى. ولذا نؤكّد أنّ مصدرنا الأوّل في تاريخ تلك المرحلة إنّما هو كتاب كونده هذا بالذّات! صحيح أنّه ناقل، والنّاقل لا يُقاس بمثابة الأصل، ولكنّه ناقلٌ عن شاهد. وهذه هي التّرجمة العربيّة الأولى للكتاب، الذي لم يبادر أحد إلى تعريبه منذ صدوره عام ١٨٢١.

السعر: 80 درهماً







روّاد المشرق العربي

تاريخ حكم العرب في إسبانيا

خوسيه أنطونيو كوندِه

ترجمة

لارا نيكولا ڤاليه

مراجعة وتحرير

د. أحمد إيبش

فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

DP102 .C7312 2013
Conde, José Antonio, 1765-1820

تاريخ حكم العرب في إسبانيا/ خوسيه أنطونيو كونده؛ ترجمة: لارا نيكولا فاليه؛ مراجعة وتحرير: أحمد إيبش. -ط. 1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2013.
ص. ؛ سم.-(رواد المشرق العربي)
ترجمة كتاب : Historia de la dominacion de los arabes en España
تدمك: 2- 280 – 17 – 9948 – 978
1. العرب في إسبانيا -- تاريخ. 2. إسبانيا – تاريخ، 1516-711.
أ. Vallee, Lara Nicolas . ب. إيبش، أحمد. ج. العنوان. ب. السلسلة.





دار الكتب الوطنية

الطبعة الأولى 1435هـ 2014م

أبوظبي – الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@tcaabudhabi.ae
www.tcaabudhabi.ae

تاريخ حكم العرب
في إسبانيا

سلسلة
روّاد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للسّياحة والثقافة» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من هذه السّلسلة الثّقافيّة التّراثيّة تحت عنوان: «روّاد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشّرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثّقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشّريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تُراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نؤكّد على أنّ ثمّة تيّاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلات هيرودوتوس ونيارخوس، ورحلة الأناباسيس لكسينوفون الأثيني)، وكذلك في عصر الرّومان (كرحلة إيليوس غالوس، وتطواف البحر الإريثري). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطّمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشّام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها أخفقت وارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثّقافيّة والحضاريّة من علاقات الشّرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشّائقة الشّيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثّمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تتابع «هيئة أبوظبي للسّياحة والثّقافة» اليوم نشره بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطّباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسّياحة والثقافة

هذا الكتاب

يتميّز هذا الكتاب الذي نقدّمه للقرّاء اليوم بخصوصيّة فريدة، فهو أوّل كتاب جامع ألّفه باحث مؤرّخ إسپاني عن تاريخ الأندلس، بل له فضل الرّيادة على اعتباره أول مؤلَّف أوروبي يقدّم عرضاً متكاملاً لتاريخ الأندلس الإسلامية، يعتمد فيه صاحبه للمرّة الأولى بتاريخ الاستشراق الإسپاني إلى مصادر مخطوطة عربيّة أصيلة كانت محفوظة في مكتبة دير الإسكوريال بالكاستيل، ومن أشهرها مخطوطات الخزانة الزيدانية.

ولد خوسيه أنطونيو كوندِه إي غارثيّا José Antonio Conde y García في لا پيراليخا La Peraleja في كوينكا Cuenca عام 1766، وتلقّى تعليمه في جامعة القلعة Alcalá. ابتدأ مسيرته العلميّة بدراسة بعض النّصوص اليونانيّة الكلاسيكيّة، وبنشره لكتاب *Anacreon* عام 1791 حصل على منصب في المكتبة الملكيّة عام 1795. وتابع العمل على نصوص إغريقيّة أخرى، تلتها عام 1799 نشرته لـ«وصف الأندلس» للإدريسي بالعربيّة، مع ترجمة إسپانيّة وتعليقات، وكان هذا مبدأ اهتمامه بالتّراث العربي المخطوط، فغدا من أوائل المستشرقين الأوروپيين الذين نشروا نصوصاً بالعربيّة.

في عام 1902، أضحى كوندِه عضو الأكاديميّة الإسپانيّة، وخَلَفَ توماس أنطونيو سانتشيث دي أوريبِه Tomás Antonio Sánchez de Uribe في كرسيّه. كما كان عضواً في أكاديميّة العلوم والآداب في برلين. وفي عام 1804، تم قبول كوندِه عضواً

في الأكاديميّة الملكيّة للتّاريخ، وعيّن ترجماناً لجوزيف بوناپارت، وهرب إلى فرنسا عام 1813 ثم عاد إلى وطنه إسپانيا بعد عام. وكمتعاطف مع الفرنسيين، طُرد من أكاديميّة التّاريخ والأكاديميّة الإسپانيّة عام 1814، كما لم يُسمح له بالإقامة في مدريد حتى عام 1816. لكن بعدها بعامين أُعيد إلى منصبه في الأكاديميتين المذكورتين.

وكانت وفاة خوسيه أنطونيو كوندِه عن 54 عاماً في مدريد، فقيراً معوزاً، في 12 يونيو عام 1820، فتكفّل بدفع نفقات جنازته بعض أصدقائه من الباحثين الإسپان والأميركان.

❊ ❊ ❊

أمّا كتابه الأشهر «تاريخ حكم العرب في الأندلس» *Historia de la Dominación de los Árabes en España* فقد نُشر بمدريد بين عامي 1820-1821، لكنّه لم يُتح له أن يتمّ غير الجزء الأول منه قبل وفاته، ثم تابعه من بعده استناداً إلى أوراقه المكتوبة بخط يده الباحث خوان تينيو Juan Tineo. وتمّت ترجمة الكتاب إلى الألمانيّة عام 1824-1825، وإلى الفرنسية 1825، والإنكليزيّة عام 1854.

وكما أسلفنا، كان كوندِه أول كاتب إسپاني حاول أن يقدِّم عرضًا متكاملاً لتاريخ المسلمين في الأندلس، ولذا فله فضل الرّيادة. وأول ما يلفتُ النّظر في كتاباتِه التّقدير الكبير للحضارة الأندلسية، والصورة المشرقة التي يقدّمها للوجود العربي في إسپانيا، إلى حدّ الإلحاح على المقارنة بين ما بلغتْه بلاده في ظل الحكم الإسلامي من تقدّم وازدهار، وما آلتْ إليه في أيامه من تخلّف حضاري وثقافي.

ويورد الدّكتور محمّد عبد الله عنان في كتابه «نهاية الأندلس» (ص 313) تعليقاً لكوندِه في خاتمة تاريخه عن مأساة مسلمي الأندلس وعنه نقله دي مارلِس De Marles، من المستحسن إثباته هنا:

«وهكذا اختفى من الأرض الإسپانية إلى الأبد ذلك الشّعب الباسل الفَطِن الذّكي المُستنير، الذي أحيا بهمّته وجِدّه تلك الأراضي التي أسلمتها كبرياء القُوط الخاملة

إلى الجَدب، فدرّ عليها الرّخاء والفيض، واحتفر لها العديد من القنوات. ذلك الشّعب الذي أحاطت شجاعته الفيّاضة في السّعود والشّدائد معاً عرش الخلفاء بسياج من البأس، والذي أقامت عبقريته بالمران والتّقدّم والدّرس في مدنه صرحاً خالداً من الأنوار التي كان ضوؤها المنبعث ينير أوروپا، ويبثّ فيها شغف العلم والعرفان. والذي كان روحه الشّهم يطبع كلّ أعماله بطابع لا نظير له من العظمة والنُّبل، ويُسبغ عليه في نظر الخَلَف لوناً غامضاً من العظمة الخارقة».

وحول سقوط هذه الإمبراطوريّة العظيمة، يقول كوندِه في كتابه «مصرع غرناطة»: «العرب هُزموا عندما نسوا فضائلهم التي جاؤوا بها، وأصبحوا على روح متقلّبة تميل إلى الخفّة والمرح، والاسترسال بالشّهوات».

ويتابع عنان، وهو من أهمّ الباحثين العرب المعاصرين في تاريخ الأندلس: أمّا الرّواية الإسلامية فهي ضنينة في هذا الموطن كل الضّنّ كما أسلفنا. ويمرّ معظم المؤرخين المسلمين على تلك الحوادث العظيمة، بالصّمت أو الإشارة الموجزة كما سنرى. غير أنّ المؤرّخ الإسپاني كوندِه يقدّم لنا خلاصة من أقوال ينسبها الى الرّواية الأندلسيّة المسلمة.

لم نقف في أي المصادر العربية التي بين أيدينا على أصل هذه التّفاصيل التي يقول كوندِه إنه اقتبسها من الرّواية العربية، ولم يذكر هو مصدر اقتباسه. ولعلّه نقلها عن بعض مخطوطات الإسكوريال أو المجموعات الخاصّة، وقد فُقدت آثارها اليوم، كما فُقدت مخطوطات كثيرة من المجموعة الأندلسيّة بالإسكوريال. ولعلّه أيضاً نقل شيئاً منها من شذور لابن حيّان وابن بَشكوال كانت موجودة في عصره ولم تصل الينا. ويلوح لنا أنّ الحجاري في كتابه «المسهب في فضائل المغرب» قد تناول هذه الحوادث بالتّفصيل، حيث نقل المقّري عنه شذرة تفيد بذلك. (نفح الطّيب، 1: 139)، ولعل كوندِه وقف على شيء منها. على أننا لم نعثر خلال بحوثنا في مجموعة الإسكوريال على أثر لمثل هذه المخطوطات أو الأوراق. (انتهى كلام عنان).

وفي كتابه دولة الإسلام في الأندلس (4: 506)، يضيف عنان: وبالرّغم من أنّ

مؤلَّف كوندِه يحتوي على كثير من الأخطاء التّاريخيّة، فقد كان أوّل مجهود غربي من نوعه يعرض للغرب قضيّة العرب في إسپانيا من النّاحية العربيّة، وفيه يقف الغرب لأوّل مرّة على وجهات النّظر الأندلسيّة، وخواص النُّظم والسّياسة الإسلاميّة. ويبدي كوندِه في كثير من المواضع حماسة في الدّفاع عن العرب، والإشادة بخلالهم ومواقفهم وحضارتهم. ويُصدر في بعض المواطن أشدّ الأحكام على أمّته وسياسة مواطنيه.

أمّا الباحث المغربي الكبير الدّكتور محمود علي مكّي فيقول:

أصدر خوسيه أنطونيو كوندِه كتابه عن تاريخ الأندلس (وهو أول كتاب من نوعه) في سنة 1820 وكان بدوره متعاطفاً مع الحضارة الأندلسية، ولكن كوندِه وقع في أخطاء كثيرة مرجعها إلى أن مصادره كانت كلها مخطوطة. وقد هاجمه المستشرق الهولندي راينهارت دوزي مهاجمة عنيفة أدّت إلى أن كتابه المذكور لم يلقَ قبولاً من جانب العلماء الأوربيين والإسپان.

❊ ❊ ❊

أخيراً، إذا كان كوندِه الأوّل في افتتاح سلسلة الاستشراق الإسپاني، فعلينا أن نعدّد من أتى بعده وسار على خطاه من أهم المستشرقين الإسپان: فبعد كوندِه جاء پاسكوال دي غايانغوس (1809–1897)، الذي تخرّج على يديه عدد من التّلاميذ: إدواردو ساڤيدرا، وفرانثيسكو سيمونيت، وإيميليو لافوينتِه ألكنتَرا (القنطرة). على أن أبرز هؤلاء التّلاميذ، حسب مكّي، كان فرانثيسكو كوديرا (1836–1917) الذي أعطى الاستشراق الإسپاني دفعة قوية إلى الأمام، ويعدّ كوديرا مؤسِّس الاستشراق الإسپاني الحديث، وقد تخرّج على يديه عددٌ كبير ممَّن واصلوا مسيرته، منهم: خوليان ريبيرا تاراغو (1858–1934)، وميغيل أسين پالاثيوس (1871–1944)، ولعل أعظم منجزات ريبيرا وپالاثيوس هي رعايتُهما وتخريجهما لعددٍ كبير من المستشرقين الإسپان، كان في طليعتهم إميليو غارثِيا غوميث.

ونختم بقول هذا المستشرق الإسپاني الكبير غوميث: «ما أشبه عنايتَنا بالتّراث

العربي الأندلسي بشجرة وارفة، كان غايانغوس تربتَها الخصبةَ، وكوديرا الجذر الراسخ، وريبيرا الجذع المتين، وأمّا أسين پالاثيوس فكان زهرتها المتفتّحة». لكن تراه نسي أن يقول: كان كوندِه بذرتها!

❊ ❊ ❊

عملنا في هذا الكتاب

كانت بداية العمل على هذا الكتاب (في جزئه الثالث) بناءً على ترجمة إنكليزيّة قامت بها مسز جوناثان فوستر، وطبعت بلندن عام 1900. غير أنّني عندما تلقّيت التّرجمة العربيّة بقلم السّيدة الفاضلة لارا ڤاليه وجدتها مع الأسف مشحونة إلى حدّ هائل جداً بالأغلاط في أسماء الأماكن والأشخاص، وأنا في ذلك لا ألوم السّيدة المترجمة، فليس مطلوباً منها الإلمام بتاريخ الأندلس وبأسماء ملوكها وشخصياتها ومدنها وباقي مسمّياتها المعقدة. والذي زاد الطّين بلّة أنّ كوندِه لم يقم في هذا الكتاب بعمليّة تأليف اعتياديّة، بل استند إلى التّرجمة عن أصول تاريخية عربيّة مخطوطة، كانت في دير الإسكوريال كما أسلفنا.

المعضلة الشّائكة هنا، هي: هل يجوز لنا إعادة ترجمة نص هو مترجم أصلاً عن العربيّة؟ أم نبذل كل ما في وسعنا لاسترداد صيغته الأصليّة بحذافيرها كما كانت؟ لا ريب أن الرّأي الثاني هو الوحيد المقبول علمياً، ولا يقوم مقامه شيء، اللهم إلا في حالة واحدة وهي قطع الشّكّ باليقين أنّ أصوله العربيّة بادت، كما أشار مَن سبقنا.

لذلك، وجدت أمامي واجبين لازمين اثنين: الأول أن أعود إلى النّص الأصلي للكتاب كما ألّفه كوندِه بالإسپانيّة:

Historia de la Dominación de los Árabes en España

وأذكّر أنّ هذا الجزء الثّالث قد طُبع عام 1821 بعد وفاة الرّجل، وبالتّالي لم يقم هو ذاته بمراجعته، ولذا فنسبة أخطاء التّرجمة وقراءة الأسماء العربيّة للأشخاص والأماكن سوف تزداد. على أيّ حال، حصلت على الكتاب بالإسپانيّة، بطبعة لاحقة

صدرت في برشلونة عام 1844 واستندتُ إليها في مراجعة الكتاب كما هو الآن بشكله الحاضر هذا.

الآن، المعضلة الأهم تكمن في البحث عن الأصول العربيّة التي ترجم عنها كوندِه وبنى مادّة كتابه. هل هي موجودة أم بادت فعلاً؟ وهل يمكن إعادة فحوى الصّيغة الأصليّة العربيّة بكاملها أو بإجمالها؟ أو من جهة أخرى، إن تعذّر ذلك فهل يجوز لنا أن نترجم عن الإنكليزيّة أو الإسپانيّة نصّاً ذا أصل عربيّ، ثم نقول: هاكم عملاً علمياً وبحثاً أكاديمياً؟ لنبحث في هذه المسألة.

رأينا أولاً أنّ عملاقي البحث في تاريخ الأندلس في عالمنا العربي: الباحث المصري د. محمّد عبد الله عنان، والمغربي د. محمود علي مكّي (رحمهما الله تعالى)، يؤكّدان كلاهما أنّ كوندِه إنما نقل عن مصادر عربيّة مخطوطة، وأنّ هذه المصادر قد بادت، وفوق ذلك كان عندما ينقل لا يشير أصلاً إلى مواضع النّقل.

للأسف الشّديد، بعد البحث المطوّل والمُضني بين كل ما وصلت إليه يداي من مراجع منشورة في التّاريخ الأندلسي (كالتّميمي، ولسان الدّين ابن الخطيب، وابن عذاري المرّاكشي، والمقّري التّلمساني، وابن الأبّار، وابن بسّام الشّنتريني، وابن حيّان، وابن بشكوال)، لم أجد أبداً ما يشفي الغليل وينقع الغلّة. ربما تطابقت معي بعض الشّذرات الضّئيلة ها هنا وهناك، وأمّا استرجاع النّصّ الأصلي بحذافيره كما كان، فأمرٌ أجزم اليوم أنّه بات ضرباً من المستحيل، اللهم إلا إن جادت الأيّام بمخطوطات جديدة تميط اللّثام عن النّصوص الضّائعة. هذا أمرٌ يبقى وارداً، ويأتيكَ بالأخبار مَن لم تزوِّد.

سأذكر في آخر الكتاب ثبتاً بالمصادر والمراجع التي عدتُ إليها، ومنها أشياء كانت مسبقاً (في أيّام د. عنان مثلاً) في حكم المفقود، أعني بذلك خصّيصاً قسم مملكة الموحّدين من كتاب «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» الثّمين للمؤرّخ والأديب ابن عذاري المرّاكشي، الذي عُثر عليه بعد سنين طويلة من نشر الأقسام الأولى من الكتاب، في مخطوطة بتامكروت بالمغرب، وبنسخ أخرى في الخزانة

العامّة بالرّباط، ونشر في بيروت عام 1985. وَقَرَ في ظنّي بدايةً أن يكون كوندِه قد ترجم عن هذا القسم في تاريخه بجزئه الثالث، ولكن لا، أسفر البحث مع الأسف عن نتيجة سلبيّة.

ومن خلال مراجعة نص كوندِه، نجده بالضّبط كما بيّن الأستاذان عنان ومكّي، لا يعيّن مصادر ترجمته تقريباً على الإطلاق، بل يكتفي هنا في الجزء الثالث بإشارة الخاطفة إلى لسان الدّين بن الخطيب، وابن الأبّار القضاعي، كما يشير إلى اسمين لا أدري مدّى صحّة لفظهما: ابن خشيب والمطروق. وهذا إن دلّ على شيء فعلى أنّ مصادر الكتاب بنسبتها الكبرى قد استندت بالفعل إلى مخطوطات لا سبيل لنا إلى الوصول إليها اليوم، ولا نحن حتى نعرف عناوينها وأسماء مؤلّفيها.

أخيراً، ممّا يؤسف له أشدّ الأسف أنّ الأيّام الحاسمة الأخيرة في تاريخ الدّولة الإسلاميّة بالأندلس وملوك الطّوائف (وهنا نعني بني الأحمر النّصريين) الذين دالت دولتهم وانتهت إلى الأبد بسقوط غرناطة عام 1492 م، لا وجود لمصادر عربيّة معاصرة لها تفيد في ذكر رواية صادقة وأمينة لأحداثها الأليمة، التي أطّرت انهياراً مؤلماً أصاب كاهل عالمنا الإسلامي في نهاية القرون الوسطى. وإذا كان الأستاذ عنان، كما أشرنا أعلاه، يقول: «المؤرّخ الإسپاني كوندِه يقدّم لنا خلاصة من أقوال ينسبها الى الرّواية الأندلسيّة المسلمة»، فإنّني أؤكّد هنا بعد شهور طويلة عشتُها أعمل على هذا الكتاب النّفيس، أنّ مصدرنا الأوّل في تاريخ تلك المرحلة إنّما هو كتاب كوندِه، نعم الأول! صحيح أنّه ناقل، والنّاقل لا يُقاس بمثابة الأصل، ولكنّه ناقلٌ عن شاهد، وهذا ما لدينا الآن.. والميسور لا يُترك بالمعسور، وما لا يُدرك كلّه لا يُترك جُلّه.

ناهيك عن أنّ رواية كثير من كبار الباحثين (وعلى رأسهم عنان ذاته) لأحداث تلك المرحلة المظلمة التي أُسدل فيها السّتار نهائياً على دولة المسلمين بالأندلس، إنّما ينقلون عن كوندِه، استناداً إلى مؤرّخيه العرب المتوارين خلف حُجُب الغيب. حتى أنّ كثيراً من تسميات كبار الشّخصيات آنذاك نقلها باحثونا مغلوطة عن ترجمة مسز فوستر الإنكليزيّة ولم يرجعوا إلى ترجمة كوندِه الأصليّة بالإسپانيّة القشتاليّة، وفيها

مخارج حروف تنبو عن اللفظ الإنكليزي وتختلف، فقالوا: الأيسر بدلاً من الأيسري، والزّغير أو السّكّير بدلاً من الصّغير في اسم أبي عبد الله محمّد الحادي عشر ملك غرناطة الأخير (أبو عبديل)، وموسى بن أبي الغسّان بدلاً من موسى الغزاني.

أمّا هذا الغزاني موسى بن أبي ... (لا ندري كنية أبيه)، فقد كان بطلاً عظيماً وفارساً شهماً شجاعاً، وكان بمثابة صيحة العزّ والإباء العربيّة الأخيرة في وجه التّقاعس والهزيمة والقنوط السّقوط. وكان مصدرنا الوحيد في سيرته الموجزة ما نطالعه هنا في كتاب كونده، حتى أنّ نهايته واستشهاده يكتنفهما الكثير من الغموض، إلا اللّهم من نصّ جميل رواه المؤرّخ أنطونيو أغاپيدا Antonio Agapeda. والأمر كذلك حول الشّيخ ناصر (؟) Xeque Macer الذي لا يذكر أحد سواه خطبته الرّاعدة إبّان سقوط غرناطة.

بذلتُ غاية الجهد في تصحيح عبارة المؤلف كما جاءت بالأصل في لغته الإسپانيّة، وتوخّيتُ قدر الإمكان تقريبها إلى لغة مؤرّخي ذلك العصر بالعربيّة، مع التأكيد الشّديد على تصويب أسماء الأعلام والمواقع الجغرافيّة الأندلسيّة، وكنت مراراً ما أكتبها بصيغتها الإسپانيّة، لكن المعيار الأول كان لي منطوقها العربي الأندلسي، من أمثال: شاطبة وشريش وجيان وشَلبَطَرّة والبشرات وطرّاكونة وشقر وقرطاجنة. وكانت المسؤوليّة في نقل هذا النّصّ الثّمين أكبر ممّا يسعني التّعبير عنه هنا بكلمات، فالحمد لله على توفيقه.

* * *

حول قواعد اللفظ الإسپانيّة

لا بدّ لنا من الإشارة إلى أنّ ثمّة خصوصيات تنفرد بها هذه اللغة عن سواها، لا يستقيم لفظ أسماء الأعلام والأماكن إلّا بها. كحرف V الذي يلفظ باءً بالقشتاليّة كقولهم: «پور فابور» por favor أو «برابو» bravo، ومع ذلك فقد فضّلتُ في بعض الأحيان الإبقاء على حرف ڤ بدلاً من (ب) لأنّ الأخير يبقى لفظاً عامياً كما يطالعك

في مدريد مثلاً اسم: غران بيا Gran Via (أحد أشهر شوارع العاصمة). ولذلك أكتب: دي لا پولڤورا بدلاً من پولبورا، وأونتيڤيروس بدلاً من أونتيبيروس. والمسألة على أيّ حال تبقى سجالاً ما بين لهجات الكاستيّانو والآراغونيس والقَطلانو، والخوض فيها هنا أمرٌ لا طائل منه.

أمّا حرف H فهو في الإسپانية يُكتب ولا يُلفظ إطلاقاً، مثل: آستا مانيانا hasta mañana. ولذلك أكتب: لوس إيدالغوس Los Hidalgos، أوميناخِه Homenaje، لاس إرماناس Las Hermanas. ومن الخطأ أن نكتب بالعربيّة: هرناندز، هندوراس، هاڤانا (صوابها آبانا Havana).

وأمّا حرف S فهو يلفظ في الإسپانية سيناً بالمُطلق، وحتى قد يأتي مشوباً بشين كقولك: پاشكوال Pascual أو: ريوش كاتوليكوش. ولا يُلفظ زاياً أبداً مهما أتى بعده من حروف علّة فهو لا يأبه لها شروى نقير، كقولهم في اسم البرازيل: «براسيل»، وفي اسم ملكة قشتالة إيزابيل: «إيسابيل». لكنني اضطررت لكتابة اسمها كما هو شائع بالعربيّة.

وغنيّ عن التّعريف أنّ حرف Z يلفظ ثاءً، كقولهم: إيبيثا Ibiza أو إرناندِث Hernandez أو ثارا Zara. ومثله حرف C إن أتى متبوعاً بحرفي العلّة e أو i كقولهم: ثِنترو centro، ثيوداد ciudad. وسماعيّاً، قد يلفظ الحرف D ذالاً في آخر الكلمة، كقولهم: مَدريذ Madrid غراناذا Granada. وقد تُلفظ الجيم اللّهويّة G غيناً، كقولهم: آراغون Aragón، پريغونتا pregunta.

وأمّا حرف X فهو من الأحرف غير النّظاميّة في اللغة الإسپانيّة، ويمثل دليلاً على أنّ المعايير اللّفظيّة فيها لا تنتظمها قواعد ثابتة. فكثيراً ما يلفظ هذا الحرف كالإنكليزية في وسط الكلمة، وخاصة إن تلاه حرف ساكن غير معتلّ، مثل: expedición إكسپيديثيون. ولكن إن جاء في أول الكلمة (وهذا نادر وغير إسپاني) فهو يلفظ سيناً، مثل: xenofobia سينوفوبيا. ولكنه في اللهجة القطلانيّة ولهجة الباسك يلفظ شيناً، مثل: Xavi شاڤي. وهذا ما نراه في بعض لهجات أميركا اللاتينيّة وأميركا الوسطى،

ولو أنّ لهجة المكسيك ترمي بهذه القاعدة عرض الحائط، فتلفظ اسمها Mexico «ميخيكو» كلفظ حرف J في الإسپانية. وكذلك في الأندلسيّة: خيريث Xerez، كيخوتِه Quixote.

ومن خصائص الإسپانية حرف ñ الذي يُلفظ (ني) كقولهم: España، واللام المثنّاة ll التي تلفظ ياءً مشدّدة مثل: Tendilla تِنديّا، وثنائية ch التي تلفظ (چ – تش)، مثل: Echeveria إچيبيريا.

أخيراً، فلفظ الحرفين G و J ما بين الجيم اللّهويّة والخاء أو الشّين، أمرٌ متشعّب ويتعذّر تفصيله هنا، ويمثّل إحدى أعسر المهارات اللفظيّة التي تواجه الطلّاب الأجانب عندما يشرعون بدراسة الإسپانيّة. هذا طبعاً ما عدا اختلاف اللفظ ما بين إسپانيا وأميركا اللاتينيّة. فالإسپان يسمّون لغتهم: كاستيّانو Castellano بينما يسمّيها أهل الأرجنتين: كاستيجانو. ويقول الإسپاني: يو سوي إسپانيول، بينما يقول الأرجنتيني: جو سوي آرخنتينو.

ومن شاء الاستزادة في أصول ضبط اللفظ الإسپاني بمنطوقه القشتالي، فخير مرجع هو:

Mariano Velázquez de la Cadena, Edward Gray, Juan L. Iribas: *A New Pronouncing Dictionary of the Spanish and English Languages*, D. Appleton, London, New York, 1900-1902.

* * *

أمّا بالنّسبة للحواشي فقد ميّزتُ ما كتبه المؤلف عن حواشي مسز فوستر، وما أضفته أنا. وأرجو أن يكون في عملنا هذا ما يفيد ويمتع.

والحمد لله على ما وفّق وأعان.

جبيل، *12 سبتمبر 2013*

د. أحمد إيبش

نقاط حول الترّجمة

عند ترجمة الحروف والاسماء الأجنبيّة، يواجه القارئُ العربي دوماً خللاً كبيراً لم تتمكّن مجامعنا اللغويّة من حسمه إلى اليوم. لكن بما أنّ هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقتصر هنا على ذكر سبع نقاط:

1 - بخصوص حرف الجرّ الفرنسي de أو du لا أتّبع أبداً طريقة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتّباع طريقة اللغة الترّكيّة العثمانيّة القديمة: (دی) بالمطلق. هذا في الاسماء الفرنسيّة، أمّا في الاسماء الإيطاليّة والإسپانيّة فأتركه: دي.

2 - الحرف (چ) يُلفظ: تش، كما في اسم: چركس، لاچين، سَلچوق. وهو ليس بحرف عربي، ويماثله في الإنكليزيّة ch كقولك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسپانيّة كقولك: leche, mucho, chica. وكذلك يماثله في الإيطاليّة حرف c المتبوع بحرفي العلة e أو i كقولك: ciao, Cesare. ويماثله في الترّكيّة حرف ç كقولك:,çay çok, çınar. لكن مع أنني أكتب بعض الأسماء: چِستر، فرانچيسكو، چيكو، بحرف (چ) فثمّة أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشارلز، تشرشل، تشيلي. وحرف (چ) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحبّچ، شلونچ، پاچِة. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوط جداً (فيكتبون: چورچ) لترجمة الجيم المُعطشة المرقّقة، التي يُعبّر عنها في الترّكيّة العثمانيّة والفارسيّة والأورديّة بحرف: ژ، ويماثلها في الفرنسيّة والپرتغاليّة j والإنكليزيّة zh والرّوسيّة ж والپولونيّة ż والچيكيّة ž.

3 - أمّا عقدة التّرجمة الكبرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغويّة، فاسم Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشّام: غوغل، وفي العراق: گوگل، وفي السّعوديّة: قوقل، وفي المغرب بكاف موسومة بثلاث نقاط، وفي تونس: ڨوڨل، وفي فلسطين: چوچل، إذ يعرّبون لوحات الطّرق: چلعاد، چدعون، چَدُول، رامات چان (علماً أن גן هي ذاتها جَنّة بالعربيّة أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدّة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: أهي ليدي غاغا أم جاجا أم قاقا؟ وكم أشعر بالغرابة عندما أقرأ: لقزس، قوديز، كِلوقز، قَلف. ومن مظاهر التّشويش الذي يفرضه الأمر أن بعض الكلمات صارت تُلفظ مغلوطة بجيم شجريّة: جَلَنط Galant، كتالوج Catalogue جَندول Gondol.

هذا الحرف تصنّفه اللسانيّات العربيّة باسم (الجيم اللهويّة) تمييزاً له عن (الجيم الشّجريّة) المُشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أنّ أصله في لهجات العربيّة القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليَمَن ومصر) فأرى الأجدى والأدق (في الوقت الحاضر) اتّباع أسلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كما عرّبوا مثلاً: غرناطة، البرتغال، بُرغُش، أراغون. لكن على أن نَسِمَه بثلاث نقاط: (ڠ) تمييزاً له عن الغين العربيّة المُشبعة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: أي جيم موسومة برمز مميّز: وليكن بقلم المُسنَد الحِميَري اليماني، أو جيماً كنعانيّة، تحتها أو فوقها على طريقة حروف لغة الأُردو. لكن متى ترانا نفعل؟! ولماذا الجيم دون الغين أو الكاف؟ لأن «اللّسانيّات التّيمانيّة» تحتمل الإقلاب بين الجيم المشبعة وهذه الجيم اللّهويّة، التي حافظت عليها القبطيّة بمصر كاليونانيّة γ المفتقرة إلى جيم مشبعة، وبقيت في لهجة اليمن عن أصل العربيّة الجنوبيّة القديمة، وما زالت في العبريّة والسّريانيّة كالجيم المصريّة.

الواقع أنّ الفرنسيين كانوا أكثر حذقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم شجرية وجيم لهويّة، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (غيرير) أو كما

في اسم: Guillaume (غيّوم). وكذلك حلّ الطّليان المشكلة بإضافة حرف h كقولهم: Ghisi (غيزي). وهذا طبعاً في الاسماء التي يتبع الحرف G بها حرفا العلّة e أو i، أما عندما يتبعه حرفٌ ساكن أو حرفا العلّة a أو o فلا مشكلة، ويُلفظ جيماً لهويّة. والأمر ذاته مع حرف C في الإيطاليّة فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تش)، كقولهم: chiaro (كيارو)، Chievo (كييڤو).

وأمّا الأتراك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشكل حاسم قديماً وحديثاً: فبالعثمانيّة القديمة تُكتب الجيم الشّجريّة كالعربيّة ج، وأمّا اللهويّة فاستعاروها من الفارسيّة گـ. وفي التّركيّة الحديثة بالأبجديّة اللاتينيّة جاء الحل بشكل سهل وذكي، فخصّصوا حرف g للجيم اللهويّة، كقولهم: gerçek (غِرچك)، وحرف c للجيم الشّجريّة، كقولهم: geceler (غِجلار)، Avcı (آوجى)، Cem (جم).

أمّا الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشكلة، إذ ليس لديهم جيم شجريّة أصلاً بل لهويّة فحسب، كما في: Gewehr (غِڤير)، وإن أرادوا رسم الاسماء العربيّة لقوا التّباريح، كقولهم في «جبل»: Dschebel، حيث أن حرف J (يوت) هنا لن يفيد، فهو يُلفظ ياءً بالمُطلق. وأمّا لدى الإسپان، فحرف G له أحكام يطول شرحها، فالأصل في القشتاليّة أن يُلفظ جيماً لهويّة (ݣ)، وإن تلاه e أو i يلفظ خاءً، ولذا يضيفون u عند اللزوم كما في: Miguel ميغيل. ومن الناحية الصّوتيّة اللفظيّة ثمّة مناطق تلفظه غيناً لهويّة، وسمعتُ بأذني في غرناطة مَن يلفظ اسم Aragón: «آراغون»، وليس آراݣون. هذا عدا عن أنّ حرف G يلتبس لفظياً مع J الذي يُلفظ أيضاً خاءً مع كل حرف صوتي، كقولك: Jerez, Jiménez, Jaén, Juan, Jordi.

لكنّ التّعبير في العربيّة عن حرف الجيم اللهوي بكتابته جيماً (كما في مصر) أو بقاف (كما في السّعوديّة) يمكن حسم بُطلانه بلحظة واحدة: احتكِموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شجري مُشبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهوي مُشبع، وكلاهما من حروف القلقلة. ثم إنّ الجيم لا تصلح للتّعبير عن جميع الكلمات الأجنبيّة، وحتى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتب: جرناطة، بُرتُجال،

بلجاريا، مجنطيس، إجريق، شيكاجو.. أم هل نسمّى البُرغُل مثلاً: بُرجُل؟ (وهي كلمة معرّبة عن التّركيّة bulgur).

4 – ثمّة أسماء في اللغة الفَرنسيّة تنتهي بكسرة مُمالة ممدودة، على غرار اسم: Colet أو René أو Garnier أوGervais ، ونظراً لانعدام وجود الكسرة المُمالة في العربيّة (كما هي في السّريانيّة والعبريّة مثلاً) فإنّ التباساً ينشأ في طريقة نقل الاسم إلى العربيّة. وفي المغرب العربي تشيع طريقة غير صحيحة البتّة باستخدام الياء وحدها كقولهم: لويز كولي (وهي أديبة ورحّالة فرنسيّة)، رغم أنّ اسمها هو: Louise Colet والياء هنا لا تؤدّي المنطوق الصّحيح أبداً. كذلك نلاحظ في أسماء الأرمن مثل: Vahé, Shahé أنهم يكتبونها بالعربيّة في لبنان وسوريا: واهي، شاهي.

فإذا عدنا إلى عهد عظماء كتّاب العربيّة في العصر العبّاسي، نجد أنّ هذه المعضلة التي واجهتهم في الأسماء الأعجميّة قد حلّوها على نحو أدقّ باستعمال ياء وهاء، كقولهم: سيبويه، خسرويه، خُمارويه، خالويه، نفطويه. وهذا يضارع أسلوب زمرة اللّغات الكنعانيّة باستعمال الكسرة والهاء، كقولك: أرييه، موشيه. وهو قطعاً الحلّ الأمثل للمعضلة، وسنتّبعه فنكتب الأسماء الفرنسيّة: كوليه، رُنيه، غارنييه، جِرڤيه. والأسماء الإسپانيّة: خوسيه، پيكيه.

أمّا في الأسماء الإنكليزيّة، فرغم تشابه حرف a أو ثنائيّة ay مع الكسرة المُمالة، تبقى مَدّتها طويلة، ولذا نكتب Gray: غْراي، Mabel: مايبل.

أمّا في الأسماء التي تنتهي بكسرة مُمالة قصيرة، فتكفي بالعربيّة كسرة وهاء، كما في الاسم الإسپاني Condé كوندِه، أو Enrique إنريكِه، والألماني Porsche پورشِه، أو Pritzke پريتسكِه، والهولندي Goeje خوْيِّه، والپولوني Tyskie تيسكِه، والإيطالي Simone سيمونِه، أو Michele ميكيلِه.

5 – نصرّ في هذه السّلسلة على كتابة الأسماء الأجنبيّة كما ترد في لغاتها، لا كما تمّت قولبتها بالإنكليزيّة والفرنسيّة. فالأصح بالألمانيّة: مدينة لايپتسيك وليس

لايبزغ، زولنغِن وليس سولنجن، كولن وليس كولونيا، ڤِلهِلم وليس وليَم، ريخارد وليس ريتشارد. ثم نكتب أميرِكا وليس أمْريكا، ڤارشاڤا وليس وارسو، پراغا (پراها) وليس براغ، بيجينغ وليس پكين. وفي الپرتغاليّة الأصح لفظ: كريشتيانو، كوشتا، جوزيه، جُواو. ولكنّ ثمّة أسماءً رسخت بشكل مغلوط في الأذن العربيّة مثل: برشلونة (وصوابها بالقطلانيّة: بارثيلونا)، دون كيشوت (وصوابه بالقشتاليّة: دون كيخوتِه)، باريز أو باريس (وصوابها بالفرنسيّة: پاري)، لويس (لوي)، ملك القدس جاي أوف لوزجنان (غي دى لوزينيان)، وليَم الصُّوري (غِيّوم)، برج إيڤِل (وصوابه: آيفِل).

لكن أعجب ما أسمعه هنا في لبنان، أنّ أحفاد كنعان العاشقين للفرنسيّة يصرّون على لفظ الكنى الأرمنيّة المنتهية جميعها بلاحقة: ian بلفظ فرنسي فيه غُنّة، كما لو كانوا يلفظون اسم Evian أو Christian، حتى لم يسلم من ذلك الاسم التّركي إردوغان Erdoğan الذي بات وكأنه فرنسي ابن فرنسيّ، علماً أنّ ثمّة شيئاً في التّركيّة يسمّى: Yumuşak Ge أي الجيم الطريّة، تلفظ كمَدّة مكبوتة لا كغين، كقولك: Doğan دوآن، أو: Ağaç آآچ.

6- حرف H يُكتب ولا يُنطق بجميع اللغات اللاتينيّة: الإيطاليّة والإسپانيّة والپرتغاليّة والفرنسيّة والرّومانش والرّومانيّة، ما خلا حالة في الپرتغاليّة بآخر الكلمة مع الألف والواو فيُلفظ ياءً، مثل: Covilhã كوڤيليا، filha فيليا، ilha إيليا، Mourinho مورينيو. وعلى ذلك، فمن الخطأ لفظ الاسم الفرنسي Henri هنري بل أُنري، وهو بالإيطاليّة إنريكو، والإسپانيّة إنريكِه. وأيضاً ڤيكتور أوغو Victor Hugo وليس هيجو أو هيغو.

7 - وأغرب الأمثلة هي الأسماء العربيّة التي ترد على ألسنة المسلمين من غير العرب، فنستوردها بصيغ لفظيّة مختلفة دون انتباه لأصولها العربيّة، كالاسم التُّركي ميرڤَت Mervet الذي ترنّمت به الأسماع دون إدراك أنّ أصله: مَروَة. أو اسم فتاة الشّاشة التّركيّة Tuba الذي يُكتب لدينا بالعربيّة «توبا» على أنّه اسم تركي فريد، وما هو إلا اسم من القرآن الكريم: طوبَى.

وثمّة كنية عريقة في لبنان: جانْبَيْه، يطيب للنّاس أن يلفظوها بلكنة فرنسيّة: -Jean

Béy بينما الاسم تركي قديم يعود إلى عصر المماليك، ولفظه بالتّركيّة: Can-Bey (جان بيه)، ومعناه: رُوح أو نَفْس. وكذلك اسم قَبَلان، وصوابه: Kaplan ومعناه بالتّركيّة: نمر.

والأعجب من هذا وذاك اسم سوريا، الذي هو صيغة هيلّينيّة (إغريقيّة) Συρία (سُوريّا) مقولبة لاسم «آشور» الدّولة العظيمة في بلاد الرّافدين، سُمّيت بها بلاد الشّام الواقعة على البحر الأبيض بما يشمل اليوم سوريا ولبنان، على اعتبارها كانت في وقت مضى تتبع لها. غير أنّ المضحك أنّ حرف الشّين لا يوجد في الألفباء اليونانيّة، فأُقلب سيناً وما زلنا إلى اليوم نلفظه مغلوطاً بعد 27 قرناً من الزّمان. وكذلك فمن الخطأ كتابته: سورية، لأن الهاء بآخر الكلمة ترد بالتّسميات العربيّة والكنعانيّة، لا اليونانيّة.

وللبحث صلة..

د. أحمد إيبش

HISTORIA

DE LA

DOMINACION DE LOS ÁRABES

EN ESPAÑA,

SACADA DE VARIOS MANUSCRITOS Y MEMORIAS

ARÁBIGAS;

por el Doctor

D. JOSÉ ANTONIO CONDE.



BARCELONA,

IMPRENTA Y LIBRERÍA ESPAÑOLA,

CALLE ANCHA,

1844.

إحدى الطبعات القديمة للكتاب بالإسبانية، برشلونة 1844

HISTORY

OF THE

DOMINION OF THE ARABS IN SPAIN

TRANSLATED FROM THE SPANISH OF

DR. J. A. CONDÉ

BY

MRS. JONATHAN FOSTER

IN THREE VOLUMES

VOL. I.



LONDON
GEORGE BELL & SONS
1900

الترجمة الإنكليزية بقلم مسز فوستر، طبعة لندن 1900



Francisco Pradilla: La rendición de Granada, 1882

الملك أبو عبد الله الصّغير يسلّم مفتاح غرناطة

لملكي قشتالة وأراغون فرناندو وإيزابيل، مطلع يناير عام 1492

لوحة زيتيّة للرّسّام الإسباني فرانثيسكو پراديّا، عام 1882

تاريخ حكم العرب في إسپانيا

الجزء الثالث

الفصل الخامس والأربعون

العمل البطولي - مرور عبد المؤمن في إسپانيا - عودته إلى أفريقيا

بعد إنهاء الفتح في شرق أفريقيا، أكمل عبد المؤمن بن علي مسيرته متجهاً نحو طنجة تحدوه العزيمة للوصول إلى بلاد الأندلس. فمرّ في المغرب العربي وصولاً إلى مدينة «وهران»، هناك صرف الملك جنوده ظنّاً منه أن العرب قد يعودون إلى ديارهم، إلا أنه في قبل ذلك قام باختيار ألف رجل من كل قبيلة مع زوجاتهم وأولادهم وعائلاتهم وجعلهم يقطنون مدينة «بجاية» التي أنشئت حديثاً.

وقد كان الدّاعي الكامن وراء قيام هذه الدّولة الآتي: بعد أن لاحظت بعض فرق الموحّدين أنّ ملكهم يوسّع فتوحاته، وبعد أن قام بتأجيل إقامته في الشّرق لوقت أطول من الذي أملوا به للعودة إلى ديارهم، ضاقوا ذرعاً بخدمته، واعتقد هؤلاء الرّجال أن السّبيل الوحيد الذي سيشبع رغبتهم التوّاقة بالعودة إلى الوطن الأم هو قتل الملك عبد المؤمن. وتآمراً للوصول إلى هذه الغاية، اتفقوا فيما بينهم على أن أجدى طريقة لتحقيق مأربهم هذا هي قتل عبد المؤمن ليلاً وهو نائم في جناحه، وهذا ما عقدوا العزم على القيام به.

إلا أن أحد الشّيوخ الفضلاء والأعيان، تمكّن من مسك بعض خيوط هذه المؤامرة، فما كان منه سوى التوجّه إلى الملك وإطلاعه عمّا يعرفه حيال المكيدة التي وضعت والمتعلقة بإنهاء حياته. كما أنّه توسّل لعبد المؤمن بإخلاء فراشه في تلك الليلة والسّماح له بالنّوم مكانه، دون أن يدري أي أحد بهذا الأمر، وأن يذهب خلسةً إلى خيمة الشّيخ.

وقال الشّيخ[1]: «بهذه الطّريقة، يا مولاي المعظّم سوف أفتدي حياتك بحياتي أنا التي تعدّ بلا قيمة، ونخدع هؤلاء المتآمرين من أجل المنفعة العامة للمسلمين أجمع. وأنا من جهتي أرجو أن يثيبني الله بعشرة أضعاف من الجزاء، وأن ينتهي هؤلاء الخبثاء الملاعين إلى النّهاية المرجوّة، وإن لم يكن كذلك، فسأكون على الأقل قمت بواجبي لحفظ الأمن، وفي الحالتين إنّ الله هو المكافىء».

اعتبر عبد المؤمن أنه يجب عدم الاستهانة بمثل هذا التّحذير، لذلك وافق على عرض الشّيخ، الذي بقي للنّوم في جناح الملك وفي سريره، في حين تسلّل عبد المؤمن إلى خيمة الشّيخ. وفي تلك الليلة استشهد الأخير وانقضّ عليه المتآمرون بخناجرهم فطعنوه وقتلوه في سرير الملك. في ساعة الفجر من صباح اليوم التالي قام الملك عبد المؤمن بالصّلاة على روح الشّيخ، وعندما وجده مقتولاً، قام بذاته بتجهيزه للدّفن، ووضعه على جمل وأطلق له العنان ليهيم على وجهه إلى أي مكان دون مرافقة أي فرد. فدار الجمل يميناً ويساراً إلى أن أُرهق وسقط.

على أثر ذلك أمر عبد المؤمن بن علي بنصب ضريح الشّيخ في البقعة نفسها التي سقط عليها الجمل. ثم واراه هناك، ناصباً مسجداً يواجهه صحنٌ فسيح. وقام أخيراً بإنشاء بلدة كبيرة محيطة بالمسجد. بعدها أمر الملك بوجوب بقاء عشرة رجال من كل قبيلة ومن جميع العشائر المغربية والمكوث في هذه البلدة، ومنذ ذاك الوقت أصبح ضريح الشّيخ الذي لقي حتفه بشرف، مبجّلاً ومعظماً من قبل النّاس القادمين من الإمارات المجاورة، الذين أمّوا المكان ولا زالوا حتى يومنا هذا.

عندما عاد عبد المؤمن إلى مدينة تلمسان بعد حملاته في شرق أفريقيا، قام باعتقال وسجن الوزير أبي سليم بن محمّد الكومي؛ بعد ذلك، أمر عبد المؤمن بدسّ السّم وتقديمه له في كأس من الحليب، وبذلك تخلّص من أبي سليم. بعدها غادر الملك

---

(1) يتعذّر العثور على نصّ كلام الشّيخ بحذافيره لضياع الأصول التي نقل عنها كوندِه، ولهذا السّبب القاهر سنقنع في هذا الكتاب بالتّرجمة دون المقدرة على الحصول على النّصوص الأصليّة في الغالب. (أحمد)

«تلمسان» متجهاً نحو طنجة في منتصف شهر ذِي الحجة من العام 555 هـ. وفي ذلك الشّهر شيّدت الحصون التي كان قد فرض على شعبه بناءها في جبل طارق وكان البدء فيها في اليوم التاسع من شهر ربيع الأول من العام نفسه. وقد أجري تنفيذ هذه الأعمال بأمر من عبد المؤمن بن علي، تحت إشراف ولده السّيد أبي سعيد عثمان والي غرناطة وتحت إمرة كبير مهندسي الأندلس الحاج يعيش Yaix.

وفي مطلع عام 556 هـ عبر الملك عبد المؤمن جبل الفتح على ساحل إسپانيا، وهو في الواقع جبل طارق. وهنالك أعاد النّظر في تنظيم وإنشاء تلك المدينة واستكملت الحصون وفقاً لأوامره ورضاه الكامل وموافقته. أقام هناك مدة شهرين، حيث تلقى زيارات من جميع الولاة وقادة الأندلس، وتحدّث إليهم وأعلمهم بنفسه عن كل الأمور المرتبطة بأوضاع إسپانيا، لا بل بالأحرى كل مقاطعة فيها. وكانت تأتي كل يوم وفودد هائلة من الشّيوخ والأعيان ليحيّوا ملكهم، وكان من بينهم العديد من الفقهاء والعلماء، وبعض الشّعراء الأندلسيين المتميزين الذين كتبوا أبياتاً في مديح عبد المؤمن. وكان من بين هؤلاء الشّعراء والخطباء، الذي قدم نفسه للملك عبد المؤمن بن علي، أبو جعفر بن سعيد الغرناطي، الذي كان في ربيع شبابه، وأذن له بالدّخول لأنه كان بصحبة والده وإخوته، وجاء ليحيي الملك فألقى أمامه الأبيات التالية[1].

أمر الملك أن الغزو أو حرب الجهاد المقدّسة يجب أن تنقل إلى مناطق الغرب، حيث بعث قوّة مؤلفة من ثمانية عشر ألف فارس من الموحّدين للهجوم على الصّليبيين، الذين احتلوا الحصون في إمارة إسپانيا. وفي الوقت عينه تقدّم الشّيخ أبو محمّد عبد الله بن أبي حافظ من قُرطُبة ضد الكفرة. وكان معه قوّة منظمة جيداً، فتمكّن من الاستيلاء على حصن أطرنيقِس Hisn Atarnikes الواقع على تخوم بطليوس Badajoz، وفي الهجوم قتل كل صليبي فيه حتى آخر رجل. وأتى ملك طليطلة ألفونسو على التوّ لمساعدة شعبه، إلا أنه وجد أن الموحّدين قد سيطروا على الحصن وساروا لمواجهته ومحاربته. دارت بين الفريقين رحى حرب ضروس، غير أن الله ألقى بالكسرة على

(1) ترد في نصّ كوندِه قصيدة شعريّة مطوّلة مترجمة إلى الإسپانيّة على عدّة صفحات.

الكفار، الذين خسروا ستة آلاف من جنودهم، بالإضافة إلى سقوط العديد أسرى بيد الموحّدين المنتصرين الذين اقتادوا أعداداً هائلة منهم إلى إشبيلية وقُرطُبة.

خلال هذه الحملة تمّ استرداد العديد من الحصون التي كانت في أيدي الصّليبيين ومدن باجة وبطليوس، وبيرة كما استولى الموحّدون أيضاً على حصن القصر، فعيّن عبد المؤمن محمّداً بن علي ابن الحاج والياً على تلك المقاطعة وعلى تخومها؛ وعندما نفذ ذلك، عاد الملك إلى أفريقيا، وذهب للاستجمام في مدينة المغرب.

وفي أوائل عام 557 هـ، أمر عبد المؤمن بن علي بتعديل وتنظيم جميع القطاعات وترسيم حدودها، من أجل نظام أفضل لمختلف التقديمات، وأكثر تحديداً للتحقّق من إمكانية كل مقاطعة لجهة إرسال قوات أرضية أم بحرية في زمن الحرب ضد الكفار، أو أيّ عدو آخر للمملكة. وفي كل هذه الأنظمة، قدّم الاهتمام المناسب والكافي للشّعب في كل مقاطعة، وأيضاً لسكان السّاحل وكل أمر خاص مميّز غيره. وقد تمكّن عبد المؤمن وفق المخطط الذي وضعه من تقسيم المملكة إلى أربعمئة ساحة عامة ومئة وعشرين مرفأً، ومئة في طنجة، سبتة وواحة أفريقيا ووهران ومرسى حنين وثمانين في الأندلس. كما أنه حدّد نوعية وكمّية السّلاح الذي يجب أن تتزود بها كل مقاطعة، وعدد الأحصنة والبغال والجمال، التي ستعاونه كل منها في حروبه.

إلى ذلك حدّد كمية الأسهم والسّيوف والرّماح، وغيرها، المصنّعة في مملكته؛ ومن أن عشرة قناطير من الأسهم صنعت فيها؛ بالإضافة إلى الأسهم والرّماح وغيرها من الأسلحة القتالية والدّفاعية، التي لا تعدّ ولا تحصى، تمكّن الملك من تسليح كل شعبه، الإفريقي والإسپاني، إذا ما رغب في ذلك. وكان لدى قبيلة كومية وحدها أعداد هائلة من المخزون والذخائر بالإضافة إلى عشرين ألف حصان، وفرض شيوخ القبيلة هذه التقدمة الكبيرة على أنفسهم ككفارة، إذ أنه تبين أن المتآمرين الذين ينوون قتل الملك في المناسبة المذكورة أعلاه، عندما افتداه الشّيخ بروحه، كانوا رجالاً من قبيلة كومية. ولم يعاقبهم عبد المؤمن بل ترك أمر تقرير العقاب المناسب لشيوخهم.

وكان هذا القرار لصالح الملك، حيث أن كل رجل قادر على حمل السّلاح في هذه

القبيلة عرض خدماته للمشاركة في الحرب؛ كما أن الشّيوخ ذهبوا إلى أبعد ممّا وعدوا به، وساروا مع أربعين ألف فارس، مجهزين ومتمرّسين في فنون القتال على أعلى مستوى. بعدها عاد قادتهم إلى المغرب مع هذه القوة وسخّروا أنفسهم لخدمة الملك أياً كانت الأراضي التي ينوي فتحها؛ وبما أن احداً لم يكن على دراية بمخططهم فقد دُهش سكان البلاد لرؤية أعداد الجيوش الجرّارة الزّاحفة، وتناقلت الأخبار عن مدى قوتهم، فعندما رأى الموحّدون الوحدات الهائلة التي وصلت إلى وادي أم ربيع، أرسلوا أنباءً بذلك دُهش لها الملك. وقالوا إنهم بعد أن تحرّوا عن هؤلاء وبلادهم ونيّتهم قالوا لهم: «نحن من بني زناتة من قبيلة كومية أتينا لرؤية أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي ولتحيّته بالنّيابة عن قومنا».

عندما سمح القائد أبو حافظ بتقدّم هذه القوة الكبيرة، جمع فرسانه حول الملك، الذي قدّر هذا التدبير والاحتياطات، وأمر كل رجال الموحّدين أن يكونوا على أهبة الاستعداد لأيّ طارئ قد يحدث، غير أنه أمرهم بالمقابل بعدِم القيام بأيّة خطوة أو قتال قد يعرّضه لأيّة مخاطر أو قد يتسبّب بأيّ نزاع، وإلا أنزل بهم أشدّ العقاب. عُدّ يوم دخول زناتة من الاحتفالات، وخصّص لهم الملك الذي استقبلهم مكاناً بين قبيلة تينمل وقبيلة كومية، وأحلّهم في مكانة تلي مباشرة المرتبة التي خصّصها لحراسه. استعرض بعدها عبد المؤمن الجنود التي أتت زيادة إلى قواته، وقد أدّى هؤلاء أعمال فروسية استثنائية في حضوره، وقدّموا أبرز المهارات وحَنوا رؤوسهم عند مرور الملك، وجعلوا أحصنتهم تجثو على أرجلها؛ حدث كل شيءٍ بسهولة ونظام وجمال، وذلك باعتراف الأعيان الذين اجتمعوا بعدها ليعبّروا عن مدى روعة ما شاهدوه.

* * *

الفصل السّادس والأربعون

الحرب بين المرابطين والموحّدين - تحضيرات الملك عبد المؤمن بن علي للذهاب إلى إسپانيا - وفاته

في سنة 557 هـ حشد القائد محمّد بن سعد جيشه في منطقة جيان Jaén بعد أن جمعه من قادش، والمُنكّب Almuñécar، وعذرة، والبشرات Alpujarras. وبعد جمع الجيش القوي المؤلف من الفرسان وجنود المشاة، ازدادت قوّته أضعافاً عن قوات القادة الآخرين الذين جمعوا قواتهم بصحبة محمّد بن سعد، وكان هؤلاء: إبراهيم ابن أحمد حمزة، وأبو إسحاق بن هَمُشَك Hamusec، الذي نصّب نفسه سيداً على Kenenat وأحمد أبو جعفر ابن عبد الرّحمن الوشقي Eloski، وهو قائد شجاع كان والياً على حدود غرناطة، وجيان، ومُرسية. كان أحمد بن جعفر رجل علم واشتهر بكونه شاعراً عبقرياً وقائداً باسلاً. سار كل هؤلاء ضد القادة الموحّدين الذين كانوا يحمون مدينة غرناطة للملك عبد المؤمن بن علي.

وعندما بلغ المدافعين عن المكان أنّ قادة المرابطين يقتربون منهم، زحفوا برّاً لمقابلتهم تصاحبهم قوة ضخمة من الفرسان، والتقى الجيشان في الڤيغا[1] يوم الخميس[2] الواقع في الثّامن والعشرين من شهر رجب. نظّم القادة ترتيباتهم للمعركة التي حُشدت لها قدراتٌ هائلة، ودارت بينهم معارك ضارية وصفت بالمذبحة الأكبر في تاريخ إسپانيا. حارب الفريقان ببسالة متماثلة وحميّة لا توصف، ولكن الموحّدين أظهروا عزماً بطولياً كبيراً، على الرّغم من بسالة فرسان محمّد بن سعد الذين أظهروا

(1) يذكر القراء أن المروج السّهليّة التي تحيط بغرناطة كان يدعى الڤيغا. (فوستر)

(2) يؤكد ابن الأبّار أن المعركة جرت نهار جمعة وفي مارغارّكاد Margarracâd. (كوندِه)

ضروباً من الشّجاعة، إلا أن الجزء الأكبر منهم بقوا أمواتاً في ساحة المعركة؛ ولولا حلول الليل لما تمكّن من بقي منهم من الفرار من براثن الموت المحتّم. كانت الخسارة فادحة للطّرفين كليهما، وأهرقت الدّماء بشكل مرعب وكأنها أنهار تجري بين المقاتلين، حتى أنّ المعركة سمّيت بمعركة Asabicaut أي إراقة الدّماء.

عاد القادة الأندلسيون الشّجعان من الجبال تحت ستار الليل، والجزء الأكبر من بقايا جنودهم بقيت في ساحة القتال. عاد أبو اسحق بن هَمُشَك إلى جيان، وهناك ترك الوالي أبو جعفر أحمد بن عبد الرّحمن الوشقي الذي دعم المدينة وحصونها وبعدها عاد ابن هَمُشَك إلى مُرسية. إلا أن هؤلاء القادة الأندلسيين، كانوا تواقين للانتقام، فاستدعوا جميع الشّعب لمساعدتهم، وجمعوا فرقاً هائلة من البشرات Alpujarras، وقادش، وغيرها من المدن، وعدة فرسان من أقطاع مختلفة، وبما أنهم لم يكونوا واثقين من هذه القوات طلب القادة المسلمين في الأندلس مساعدة الصّليبيين، وأرسل لهم هؤلاء الكفار مجموعة على أتم الجهوزية من الفرسان من طليطلة.

كان مقرّراً أن تتّحد هذه القوات في إمارة قُرطُبة، وفي سهول أبذة Úbeda، ومن ثم تمضي قدماً ضد الموحّدين، وقد وضعت خطط محكمة للانقضاض على العدو؛ اندفعت القوات بجهوزيةٍ تامة للمواجهة، دون الشّعور بالخوف أو القلق سواء من محمّد بن سعد، ابن أبي إسحاق، ابن أبي حمزة، أو من مساعديهم الصّليبيين. التقى الجيشان وجهاً لوجه في السّهول المحيطة بقُرطُبة، وتلت ذلك معركة، قاتل فيها الجميع بشراسة النّمور وجشع الذئاب. إلا أن شجاعة الموحّدين انتصرت مرة أخرى على غضب المسلمين والصّليبيين العارم بقيادة ابن سعد، الذي لاذ بالفرار خوفاً، بعد مجزرةٍ مريبة، خلفت وراءها ساحة معركة مغطاة بالجثث. هذه المواجهة الدّامية وقعت يوم الأحد في الثّاني عشر من شهر شوال سنة 557 هـ. وانسحب القادة الأندلسيون محمّد بن سعد وأبو جعفر من المنطقة إلى جيان Jaén ومُرسية، بعد فترةٍ وجيزة من السّيطرة على الأخيرة المذكورة التي قامت بالاستسلام.

في أفريقيا، كان عبد المؤمن من جهة أخرى يقوم بتجهيزات للذهاب إلى إسپانيا،

وعقد العزم على الجهاد في تلك المنطقة في سبيل الله. ولبلوغ هذا الهدف رحل من المغرب يوم الخميس الواقع في الخامس من شهر ربيع الأول، وعندما وصل إلى رباط الفاتح، أرسل من ذلك المكان رسائل إلى مقاطعات المغرب، وأفريقيا، القبلة، سوس، وكذلك إلى كل القبائل التي تقدّم الولاء لحكمه، حاثاً لها على المشاركة في الجهاد، أو الحرب المقدّسة، التي سيقوم بشنّها في الأندلس.

ردّاً على مطالبه هذه، حشد الموحّدون من كل مقاطعات وإمارات عبد المؤمن بن علي. وجاء العرب من مختلف القبائل وخاصّة قبيلة زناتة، مندفعين لتلبية الدّعوة، وفي وقت قصير جمع الملك أكثر من ثلاثمئة ألف فارس، بينهم ثمانية آلاف من قدامى المحاربين المتمرّسين جيداً في الحرب، ومعهم مئة ألف من الرّماة، وكثير من الجنود المشاة. ارتعدت الأرض تحت وقع أقدام هذه القوات التي لا تعدّ ولا تحصى. وغطت معسكرات الملك المرتفعات والسّهول والوديان العميقة على حدّ سواء، إلى درجة أن كل مدينة سلا، من وعين جيد Ain Gied إلى عين شميس Ain Chamis، قد توارت تحت خيامهم، التي امتدت على طول السّاحل وحتى إلى المعمورة Holie Almamora.

حال المرض الذي أصيب به الملك عبد المؤمن بن علي دون أن يقوم الأخير برؤية جيشه الباسل يحارب. وكان سقم المرض يزداد خطورة كل يوم، وأصبحت آلامه أكثر حدّة، حتى شعر أنّ أيامه باتت معدودة، فاتخذ التدابير النّهائية المتعلقة بشؤونه وشؤون مملكته. ومن أول ما قام به عبد المؤمن بن علي كان إزالة اسم ابنه السّيد محمّد، الذي كان حتى تلك اللحظة يُذكر في الخطبة رأساً بعد اسمه، وهو فعلٌ أعلن فيه أن الأمير مخلوع عن الخلافة، بعد أن كان سابقاً منحازاً لصالحه. كان الملك عبد المؤمن مجبراً على اتخاذ هذا القرار وذلك بعد عصيان السّيد محمّد، الذي بدأ بتحضيراتٍ للثّورة على والده، بهدف خلعه عن العرش، حتى قبل وفاته.

تم الإعلان عن قرار الملك المتعلق بالسّيد محمّد نهار الجمعة، في اليوم الثّاني من شهر جمادى الثّانية من العام 558 هـ، وأرسل فوراً بلاغاً بذلك إلى كل المقاطعات في

المملكة، ونشر القرار الملكي في كل أنحاء الأرض. في ذلك الوقت كان مرض الملك يتفاقم، وفي مساء نهار الجمعة، الثّامن من الشّهر نفسه أو كما يؤكد بعض الكتّاب، في ساعة فجر العاشر منه، انتقل عبد المؤمن بن علي إلى رحمة الله. تبارك الله السّرمدي، مالك المُلك، الذي لا بداية له، الذي لا يحول ولا يزول.

كان رحيل هذا الملك في مدينة سلا، حيث أقام خلال فترة مرضه؛ وكان قد أتم الثّالثة والسّتين من عمره يوم وفاته، وذلك في العام 558 هـ كما ذكر آنفاً. أكّد ابن خشيب[1] Aben Choxeb أنّ عبد المؤمن يوم وفاته كان له من العمر أربعة وستين عاماً؛ وعلمنا من صاحب سلا أن بقاياه أرسلت إلى بلدته الجبلية في تينمل[2] لتدفن بجانب قبر الإمام المهدي. تولّى عبد المؤمن بن علي الحكم لمدة ثلاثة وثلاثين عاماً وخمسة أشهر وثلاثة أيام. كان أولاده: أبو يعقوب، الذي خلفه على العرش؛ السّيد أبو حافظ، الأخ التوأم لأبي يعقوب والسّيد محاد Mohad، اللذان حرما من العرش كما ذكر. أما أبناء عبد المؤمن الآخرون فهم: السّيد عبد الله والي بجاية، والسّيد عثمان والي غرناطة، والسّيد الحسن والسّيد الحسين والسّيد سليمان والسّيد عمران، الذي أصبح لاحقاً حاكم المغرب لصالح أخيه يوسف أبي يعقوب. كما كان للملك ابنتان وهما: عائشة Aixa وصفيّة Zafia.

تمّ التكتّم على خبر وفاة عبد المؤمن بن علي لبعض الوقت، ولم يعرفه إلا وزراؤه وأبو يوسف الذي كتب للأمير السّيد يوسف أبو يعقوب، وريث العرش، فسارع الأخير بالعودة إلى سلا، وأقسم الولاء لأفريقيا في الحادي عشر من شهر جمادى الثّانية العام 558 هـ. وقد تمكّن من التّغلّب على الصّعوبات والعراقيل التي نشأت في خلافته، بسهولة وفي وقت قصير بعد وصوله.

---

(1) قراءة الاسم فيها بعض شك. (أحمد)

(2) تقع مدينة تينمل المغربية على بعد 100 كلم جنوب شرق مدينة مراكش، على الطريق المؤدّية إلى تارودانت عبر ممرّ تيزي نتاست. وتنتشر أطلالها على الضفة اليسرى لواد نفيس وسط جبال الأطلس الكبير، على علو يناهز 1230 م. ولا زال الموقع والمسجد والقرية الحالية تحمل الاسم القديم «تينمل». وأهل تينمل هم قبائل شتى يجمعها اسم هذا الموضع. (أحمد)

كان الملك عبد المؤمن بن علي حسن الطلعة أبيض البشرة، مليح العينين، شعره أشعث، طويل القامة، وكان قوي البنية؛ يحرّك حاجبيه باستمرار، وأنفه حسن الشّكل، ولحيته ناعمة وكثيفة، أما شخصيته فكانت بشكلٍ عام كريمة وطيّبة. كان الملك بليغاً في الخطاب عن الحياة العادية والعادات، محبّاً للحكمة، وللرجال البارعين، وعمل الخير. عمل عبد المؤمن بن علي على رفع شأن الفنون والآداب التي ازدهرت خلال عهده في جميع أرجاء المملكة، وخاصّة في إسپانيا على الرّغم من القلق المستمرّ من الحرب الذي كان يعمّ المدينة. كان عبد المؤمن بن علي من أكثر الرّجال شجاعةً وبسالة، يحثّ على العمل، ولا يهاب أقصى درجات الخطر، لا يهوى القتال على الرّغم من ميله الطّبيعي وعبقريته البالغة في الحرب؛ لا يحبّ القمار او الأكل، بل كان متقشفاً: قام بفتوحات كثيرة، ويمكن أن يطلق عليه لقب المدافع عن الإسلام في أفريقيا وإسپانيا، وفي الشّرق كما في الغرب.

أمّا المدن والمناطق التي خضعت لحكم عبد المؤمن في إسپانيا فهي: المَريّة Almería، يابرة Evora وبريا، بيّاسة Baeza، بطليوس، قُرطُبة، غرناطة، وجيان Jaén، التي استولي عليها بقوة الجيش. شملت فتوحاته في أفريقيا والمملكة أجمع. وتلقى عبد المؤمن بن علي ولاء العديد من الأراضي، وحكم على بلاد يتطلب التجوال فيها أربعة أشهر من السّفر من شرق الحدود فيها إلى غربها. أي من أطرابلس Atrabol إلى سوس الأقصى Sûs Alaksa. وخمسين يوماً من الشّمال إلى الجنوب بدءاً من مدينة قُرطُبة في الأندلس ووصولاً إلى سجلماسة في أفريقيا. حكم عبد المؤمن من وقت وفاة المهدي، ثلاثة وثلاثين عاماً، وثمانية أشهر، وخمسة وعشرين يوماً؛ حسب ابن يحيى بن عميرة، ومات في مدينة سلا، التي كانت تسمى El Hetah ودُفن في تينمل، حسب ما ورد سابقاً، وكان مأتمه مهيباً.

وكان الوزراء أو الأمناء الرّئيسيون لعبد المؤمن: أبو جعفر بن عطية وأخوه يحيى ابن عطية، مع أبي الحسن بن عيّاش وميمون الوبري وعبد الله بن جبال. وكان أبو جعفر قارئ عبد المؤمن، وبعد فضيحة هذا الوزير، تولّى المنصب أبو سليم الكومي،

الذي افتضح أيضاً وأُعدم في سجنه بعد أن دُسّ السّم له في الحليب، كما ورد آنفاً، وخلفه ابن الملك نفسه، السّيد أبو حافظ. ومن بعد ذلك تولى الحكم إدريس بن جمعة. أما قضاة هذا الملك فهم السّيد أبو حافظ، أبو مروان، موسى بن Sohar من تينمل، وتلاه أبو يوسف حجة بن يوسف، وأبو بكر بن ميمون من قُرطُبة وهو رجل عالم ومتميّز جداً.

أكّد بعض الكتّاب أنّ الجهاد أو الحرب المقدّسة التي بدأها عبد المؤمن في إسپانيا، اندلعت في العام 556 هـ عندما أغار على جبل الفتح وأمر باستعادة هذه المدينة، حيث أمر ببناء عدة حصون. وهؤلاء المؤلفون يؤكّدون أن عوارض المرض الذي أدّى إلى هلاكه أصابته هناك؛ بعد العبور إلى الشّاطئ والوصول إلى مدينة سلا. اعتمد الكتاب تاريخ 558 هـ الذي يدلّ على الزّمان الذي فارق فيه عبد المؤمن بن علي الحياة؛ والذي هو أيضاً تاريخ الحادثة التي ذُكرت أعلاه، إذ أنه مُثبت في الوثائق المحفوظة بالدّيوان الملكي في المغرب.



الفصل السّابع والأربعون

أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن

لُقّب أمير المؤمنين يوسف، ابن الملك عبد المؤمن بن علي الكومي، بأبي يعقوب. كان اسم أمّه عائشة Aija، وكانت ابنة الفقيه والقائد أبي عمران من تينمل. ولد أبو يعقوب يوم الخميس في الثّالث من شهر رجب من العام 533 هـ. وكان جميلاً، ذا بشرة معتدلة اللون، وجميل القوام، شعره مجعد وأنيق جداً، كذلك لحيته، الأكثر دقة من شعر رأسه؛ كانت عيناه رائعتين، وأنفه متناسقاً مع وجهه، كانت شخصيته بشكل عام من حيث الملامح والنّفسية، وقورة، ملكيّة ومهيبة. أما ميوله فكانت متحرّرة ومتسامحة.

كان أبو يعقوب الأول من بين أمراء الموحّدين الذي شنّ الحرب المقدّسة بنفسه، فتح العديد من المدن، واستعبد الكثير من النّاس، جمع الغنائم والثّروات الهائلة، وحافظ على قوة الجيش. امتدّت مملكته من سويفة Suifa في أقضية بني معتوق Beni Muteouk في شرق أفريقيا، إلى بلاد نول متاخم سوس الأقصى وإلى أقصى حدود القبلة. وفي إسپانيا، امتدّ حكم هذا الملك من مدينة تطيلة التي تقع في شرقي القضاء، إلى مدينة شنترين Santarém في الغرب، ولم يدخل أيّ سلطان أجنبي إلى بلده. حافظ على حصونه بأساليب ممتازة من الحماية والدّفاع؛ فكان النّاس على الحدود، وكذلك الذين في المدن، يعيشون بطمأنينة وكان الأمن مستتباً؛ وكل من قدّم الولاء لحكمه تمتع بالسّلام والثّقة التامة وبعدل ملكهم المطلق.

كانت اهتمامات أبي يعقوب موجّهة إلى كل مصالح مملكته على حدّ سواء، وكان

يبدي حذره فوق كل شيءٍ سواء للقريب أو البعيد. وكان يشرف شخصياً على كل الدّوائر في حكومته، ولم يخفَ عنه شيء، وكان يولي اهتماماً حتى بالأمور غير الهامة. لم يتحمّل أيّ من أولاده ووزرائه النّفوذ المفرط في مجالس هذا الملك الحكيم، ولم يُسمح لأولئك الذين يعيشون معه صداقة حميمة بالتأثير على قرارته التي كان يأخذها عن دراسة ووعي. كان لديه ثمانية عشر ولداً، البكر الذي خلفه يعقوب الذي يلقب بالمنصور، وأخوه التوأم يحيى. يليهما إبراهيم، موسى، إدريس، عبد العزيز، أبو بكر، عبد الله، أحمد، يحيى الصّغير، محمّد، عبد الرّحمن أبو محمّد، عبد الواحد «المخلوع»، عبد الحق، إسحاق، وطلحة الذي كان حاجبه، والذي كان يبلغ من خلاله أوامره. لم يتمكّن أبو حافظ، أخوه، الذي قاد لاحقاً ثورة ضده، وأكثر وزرائه ثقةً، من التأثير عليه أو على ديوانه وبلاطه. كان وزراؤه أبو العلاء وإدريس بن جمعة وأبو بكر الذي كان معاون ابنه يعقوب في المحكمة العليا، التي تولّاها الأمير.

وكان فقهاء أبي يعقوب: أولاً، أبو يوسف الغازي، ثانياً أبو موسى بن عمران؛ ثالثاً، أبو العباس من قُرطُبة. أما أمناء سرّه فكانوا: أبو الحسن عبد الملك بن إياس، وراويه أبو الفضل بن طاهر من بجاية. وكان الأخير رجل فقه من أصحاب المعرفة والبلاغة، خدم ابنه يعقوب المنصور، وتوفي في عهد حفيده النّاصر. وكان الوزير أبو بكر بن طفيل طبيب الملك، وتوفي في العام 581 هـ وخلفه أبو مروان عبد الملك بن قاسم من قُرطُبة. وكذلك شغل الفقيه اللامع، أبو الوليد بن رشيد، المنصب هذا في الدّيوان الملكي في المغرب قبل أن يستدعيه أمير المؤمنين في العام 578 هـ ويعيّنه رأساً قاضياً على قُرطُبة، وحلّ أبو بكر بن زُهر مكانه في المغرب. بعدها، استدعي أبو الوليد مرةً أخرى إلى المغرب حيث استقرّ هناك، وعاد فترة وجيزة إلى إسبانيا، إلى أن انتهت الحملات ضد شنترين Santarém، حيث رافق الأمير يعقوب المنصور، ابن أبي يعقوب.

لم يكن أبو الوليد طبيباً متميّزاً فقط، بل كان ضليعاً بأمور عدّة مختلفة في المعرفة. أكّد لنا ابن الجدّAben Alged[1] أنه كان شاعراً بارعاً، وطلب منه إعادة جمع صحيح

(1) نسبة إلى ابن الجدّ الفهري الإشبيلي المالكي، أسرة شهيرة ظهر منها عدّة علماء بالأندلس. (أحمد)

البخاري. توفي في المغرب يوم الحادي والعشرين من شهر ذي الحجة من العام 595 هـ بعد أن وصل إلى عمرٍ يناهز تسعاً وأربعين سنة. خلال أيامه الأخيرة، خدم أبو الوليد ملكه كوالٍ على الخزينة أو أميناً لبيت المال بعد أن استدعي من إشبيلية لهذا الغرض. بالعودة إلى الملك يوسف أبو يعقوب، فقد أُعلن عن خلافته في أفريقيا رأساً بعد وفاة والده، عبد المؤمن بن علي، وفي الغرب في إسپانيا، في العام 558 هـ. توفي خلال حملة شنترين Santarém، عام 580 هـ وكان أبو يعقوب قد بلغ الأربعين من عمره. حكم لمدة إحدى وعشرين سنة، وشهراً، وبضعة أيام. يقال إنه أُعلن ملكاً في الثّالث عشر من شهر جمادى الثّانية من العام نفسه، ويصف المؤلفون هذا الاحتفال بالطّريقة التالية: عندما توفي الملك عبد المؤمن بن علي، كتم على خبر وفاته، بسبب غياب الخليفة المعني، وهو يوسف أبو يعقوب، الذي كان في ذلك الوقت في الأندلس. وفي الواقع لم يُنشر خبر رحيل الملك على النّاس إلى أن مرّ الأمير يوسف من إشبيلية؛ على الأقل هذا ما نقله ابن خشيب[1] Aben Chaxeb، الذي قال إنّ كل الأمور كانت منظمة باهتمام وحذر على يدي القاضي أبي الحجّة يوسف بن عمر.

أكّد المؤرّخون أن خلافة يوسف أبو يعقوب أتت عامة وجماعية، بعد مرور سنتين على وفاة والده، في العام 560 هـ، وذلك يوم الجمعة الثّامن من شهر ربيع الأول في ذلك العام. وعلى الرّغم من أن الشّيوخ، والنّاس على السّواء، وافقوا جميعاً على تعيينه، فإنّ أخوي أبي يعقوب، السّيد محمّد والي بجاية والسّيد عبد الله والي قُرطُبة عارضا ذلك، ورفضا مبايعته. وأظهر الأمير أبو يعقوب برهاناً عن تواضع إستثنائي، حيث رفض تنصيبه رسمياً وعلناً ما لم يوافق أخواه على حلف اليمين للانضواء تحت رايته؛ كما أنه لم يتّخذ لقب أمير المؤمنين، بل أطلق على نفسه لقب أمير إلى أن نجح بفضل أسلوبه اللطيف في الإقناع بتليين كل العقول المعارضة.

---

(1) قراءة الاسم فيها بعض شك. (أحمد)

يروي المطروق[1] Matruk ما حدث على نحو مختلف قليلاً في تاريخه، حيث يشير إلى أن يوسف أبا يعقوب، كان في إشبيلية ساعة وفاة والده، فأخبره الوزراء سرّاً عن الأمر، غير أنهم أخفوها بحكمةٍ عن النّاس. وأضاف أن يوسف قام برحلةٍ سريعة وغير اعتيادية من إشبيلية إلى سلا، وقدم بوقتٍ وجيز جداً، وعُيّن دون صعوبة أو معارضة، وأنّ أولئك الذين تجرّأوا على إظهار أيّ رأي معارض كانوا قلّةً ولم يولهم أحد أي انتباه. أمر يوسف أبو يعقوب بعد تسلّمه سدّة الحكم أن توزّع جميع الجيوش التي جمعها عبد المؤمن بن علي حول سلا، وأن يرسل كل رجلٍ إلى بيته. وعندما تم ذلك، رحل الملك الجديد من المدينة وعاد أدراجه إلى المغرب، حيث كتب إلى كل المقاطعات لاستدعاء الشّيوخ والقادة إلى الاحتفالات الرّسمية لإعلانه ملكاً. لم ترفض أيّة مقاطعة تحت حكم الموحّدين، سواء في شرق أفريقيا في المغرب أو القبلة، وفي الأندلس تقديم فروض الطّاعة والولاء لولاية أبي يعقوب، وبحسب المطروق، حتى قُرطُبة وبجاية عملتا بالمثل، على الرّغم من أن أخوي الملك كانا الواليين على هاتين المدينتين. وقد تم الإعلان في وقت واحد في أفريقيا وإسبانيا عن خلافته وبايعه الكل. وخلال احتفالات حلف يمين الولاة، قدّم الملك يوسف أبو يعقوب كنوزاً هائلة للنّاس وكذلك للموحّدين وقادة جميع القبائل والجنود.

في العام 559 هـ (وما زلنا نتابع من وصف المطروق[2] Matruk)، قدم إلى بلاط الملك أبي يعقوب، أخواه، السّيد أبو محمّد والي بجاية والسّيد أبوعبد الله والي قُرطُبة، مع عدد كبير من الشّيوخ والفقهاء، ورجال العلم، فرحّب الملك بهم جميعاً، وأظهر الاحترام اللائق لكل واحد منهم، ومنح كلاً منهم هدية قيمة، وكان الملك يوسف أبو يعقوب سامياً ومتحرّراً لأبعد الحدود، كما أوردنا سالفاً.

(1) لم أجد أيّة معلومات حول هذا المؤرّخ المفترض، ولعلّ اسمه أيضاً ورد مصحّفاً عن أوراق كوندِه التي جُمعت لطباعة هذا الكتاب بعد وفاته. كما أنّ قراءة الاسم فيها بعض شك. أيضاً أذكّر القارئ أنّ كوندِه نقل عن مخطوطات لمؤرّخين أندلسيين كانت محفوظة في دير الإسكوريال، وباد قسم منها، فلعلّ هذا أحدها. (أحمد)

(2) راجع ما تقدّم أعلاه في الحاشية. (أحمد)

وقبل نهاية العام نفسه قام المتمرّد الصّنهاجي[1] بحضّ شعب غمارة على العصيان المسلّح، منصّباً ذاته ملكاً وسكّ النّقد ونقش عليه هذه العبارة[2]: «من ... الغريب نصر الله قريب» Men Juria Algoraib Nasraha Alahi coraib. أعلن العديد هذا الرّجل ملكهم واجتمعوا في غمارة وصنهاجة، وقادهم لغزو قُمارِش التي رفض سكانها مبايعته، فذبح وأسر القوم العُزّل، الذين لم يتحضّروا لمثل ذلك الهجوم الضّاري. وسيطر على مدينة تاردا Medina Tarda بقوة الجيش، وارتكب فيها فظائع مروّعة ومجازر؛ فأرسل أمير المؤمنين يوسف بن يعقوب قوّة من الموحّدين لمحاربة المتمرّدين، وهزمهم في معركة دامية. وشاء القدر أن يموت الصّنهاجي وهو يقاتل، فقُطع رأسه وأرسل إلى المغرب.

في العام 560 هـ قام الجيش الصّليبي المؤلف من ثلاثة آلاف رجل بالانضمام إلى المجموعة التي يقودها محمّد بن سعد بن مردنيش، مرافق القائد المشهور أحمد أبي جعفر بن عبد الرّحمن. وسار هؤلاء بمن فيهم أبو إسحاق بن هَمُشَك، وغيرهم من القادة والشّيوخ، ضد حشود الموحّدين، بقيادة السّيد أبي سعيد بن عبد الرحمن. التقت هذه القوات في سهولٍ واسعة وجميلة، بالقرب من مُرسية، حيث جرت عادات السّكان بإقامة مهرجان سنوي للاحتفال، وعقد معرض أو سوق كبير. التقى الجيشان وجهاً لوجه في فجر يوم السّبت الثّامن من شهر ذي الحجة، ودار باتفاقٍ مشترك وعزمٍ متساوٍ، قتالٌ ضارٍ. ووقعت صدامات عنيفة دوّى فيها صيحات المقاتلين الشّرسين، الذين طفقوا يشتبكون بكل ضراوة، وسُمعت على مسافة بعيدة من مكان القتال. وجرت مذابح ضارية وغطّت الجثث السّهل بكامله، إضافةً إلى السّهول المجاورة، وبقيت وليمة للطّيور الجارحة والحيوانات البرّية. كل فئةٍ حاربت بشجاعةٍ لا توصف؛ غير أن جيوش محمّد بن سعد هُزمت أخيراً على الرّغم من بسالتها، وذُبح الجزء الأكبر

---

(1) هو مزيزدَغ الغماري الصّنهاجي، راجع أخباره في كتاب «أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحّدين» لأبي بكر الصّنهاجي المكني، ص 124؛ وكتاب «روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينه فاس» لابن أبي زرع الفاسي، ص 137. (أحمد)

(2) العبارة الواردة بالأصل الإسپاني غير مفهومة، وقلنا إنّ كتاب كوندِه طُبع عن أوراقه بعد وفاته، ولم يُتح له مراجعته. (أحمد)

من مساعديهم الصّليبيين، وقلّةٌ منهم نجوا من حنق وشراسة الجنود الموحّدين.

إن الجلبة والصّياح الصّاخب الذي صاحب هذه المعركة، كان السّبب في أن يطلق عليها اسم (يوم الجلّاب)[1]، وتقول إشاعات أنه بعد انتهاء القتال بعدّة أيام كانت الصّرخات المرعبة والأصوات لا تزال تسمع في أنحاء المنطقة، وعلى هذا الأساس أطلق على المكان منذ ذلك الحين اسم فحص الجلّاب.

كتب الأمير السّيد أبو سعيد عن هذا الانتصار لأخيه الملك يوسف أبي يعقوب؛ من جهته عبّر محمّد بن سعد بن مردنيش، عن مدى استيائه لنتائج هذه المعركة المحزنة كلماتٍ شعر بعدها أحمد أبو جعفر الوشقي وحماه أبو إسحاق بن هَمُشَك Aben Hamusek، بإهانة شديدة فتخلّيا عنه؛ فنأى أبو جعفر بنفسه علناً عن حزبه وعاد إلى مالقة، حيث أقام لفترةٍ قصيرة ليعود بعدها إلى المغرب، متأملاً أن يُسمح له بالانضمام إلى الموحّدين، كما كان قد عقد العزم بمطلق حرّيته.

في السّنة التالية، نقل الملك يوسف أبو يعقوب حكم بجاية إلى أخيه، السّيد أبي زكريا، وكلّفه بالقيام بحملات رقابة، ليس فقط على كل الأجزاء فيها، ولكن على كل المقاطعات الأخرى في أفريقيا. ومن ضمن التعليمات التي أعطاها الملك يوسف أبو يعقوب لأخيه كانت، أن يسمع بقلبٍ رحيم وشفقة شكاوى الفقراء، ومساعدتهم، والتّخفيف عمّن يشعرون بالاضطهاد؛ وقمع وإذلال الظّالمين والرّجال القساة الذين يرهقون الضّعفاء بكبريائهم، وإنفاق ثرواتهم على المحتاجين الذين لا يستطيعون مقاومتهم؛ مستخدمين تأثيرهم لترغيب حكّام المناطق، أو من أجل كسب هؤلاء المسؤولين لصالحهم عبر رشوتهم بالهدايا. وأوصى الملك أبا زكريا أن يكون صارماً وغير متساهلٍ، وألا يسمح لأيّ رجل التدخّل في شؤونه أو إعاقة سبيله في إقامة العدل. وفي العام 561 هـ أشعل يوسف بن منعفاد[2] Juzef Ben Monkefaid ثورة،

(1) تعرف المعركة باسم: فحص الجلّاب. (أحمد)

(2) بل اسمه: سبع بن منعفاد، كما يذكر ابن صاحب الصّلاة في كتابه: «المنّ بالإمامة على المُستضعفين». (أحمد)

ولكنه حبس نفسه في الجبال، ولم تُرسل أيّة جيوش ضدّه في ذلك العام، ولا حتى في أوائل العام التالي، عندما تقدّم أمير المؤمنين بنفسه ضد المتمرّدين مع قوة من فرسان الموحّدين، وطاردهم. وطارد زعيم الثّورة في الجبال، فدارت بين الجيشين معركة سحق فيها جنود المتمرّدين وهزمهم، وتبعه بعد فراره إلى أن قبض عليه فأعدمه وأرسل رأسه إلى المغرب.

خلال هذه الحملات، أُعلن الملك يوسف أبو يعقوب ملكاً في جبال غمارة وقبل نهاية عام 563 هـ كان قد أخضع جميع المناطق لطاعته، كما أنّ الأقوياء بل والشّجعان والمخلصين المقيمين في تلك الأراضي رحّبوا به وبايعوه أميراً للمؤمنين عليهم. وكان ذلك في شهر جمادى الثّانية من العام المذكور.



الفصل الثّامن والأربعون

الخلافات التي نشأت بين الموحّدين في إسپانيا - إرسال رسل إلى أمير المؤمنين - تراجع يوسف أبي يعقوب إلى إشبيلية

نشبت خلافات ونزاعات في الشّرقية Axarquia بين القادة الرّئيسيين في حزب عبد الله محمّد بن مَرْدَنيش صهر إسحاق بن هَمُشَك، ملك زروقة، بعد أن فصل نفسه عنه، ورفض الطّاعة له، عندها أهانه فطلق ابنة ابن هَمُشَك. أسف ابن سعدي، واسترجع زوجته، ساعياً إلى إعادة إحياء الصّداقة التي انقطعت، إلى سابق عهدها. كما راسل القائد أبو جعفر بن عبد الرّحمن، طالباً منه ترك المغرب والعودة إلى إسپانيا، حيث عرض عليه القيادة وغيرها من المصالح في الولايات؛ عندها قرّر أبو جعفر العودة إلى بلنسية، وردّ بأسلوبٍ يتواءم مع رغبات عبد الله بن سعد. من جهةٍ أخرى استمرّ الأخير بتحالفه مع الصّليبيين، وترك بعضاً من جنودهم في بلنسية؛ وسبب هذا الأمر حنق السّكان الذين خرجوا من المدينة واشتروا بيوتاً لهم في قرى الإمارة وبلداتها.

في أفريقيا كان الملك يوسف أبو يعقوب يستجمّ في المغرب بعد حملته في الجميرة، غير أن بعض الرّسل وصلوا من مناطقه في إسپانيا، مع آخرين من المغرب، والقبلة، والشّرقية Axarquia في أفريقيا، لتهنئته على نجاح جيشه، وأيضاً لتقديم تقاريرهم التي تتعلّق بأحوال المناطق في مقاطعاتهم. كان من ضمن هؤلاء، قادة وفقهاء، وخطباء، وشيوخ، مع أشخاص مهمّين آخرين، قدموا إلى الملك رأساً عند وصولهم إلى المغرب، بعد أن سبق أن بعثوا خصابات لمبايعته. لقي جميعهم التّرحاب من يوسف أبي يعقوب، وكرّس يومه للرّد على جميع مطالبهم ومقترحاتهم وشكواهم وشكوكهم وغيرها من الأمور خطياً. فشكر هؤلاء الملك، واستأذنوه للعودة إلى مناطقهم. في

هذا العام، حصل مشهد عظيم يوم الاحتفال بعيد الفطر الذي يلي شهر رمضان، فقد اصطاد القائد الأندلسي أبو جعفر بن عبد الرّحمن من طلبيرة Talavera الذي كان حاضراً وقتها، أسداً بحربته وهو على الحصان وبدأ الاحتفال بهذا المهرجان بأبيات من الشّعر راقية. وحدث كل ذلك بعد انتهاء شهر رمضان من العام 564 هـ.

في العام 565 هـ، أرسل أبو يعقوب أخاه أبا حافظ إلى الأندلس، لإكمال الحرب المقدّسة ضد الصّليبيين، فحشد الفرسان الشّجعان، وجمع خلال وقتٍ قصير حوالي عشرين ألفاً من فرسان الموحّدين وخيرة فرسان المغرب لمرافقته. وما إن عبرت الجيوش المضيق - عند قصر الجيز، في طريف Tarifa، حتى بدأت على الفور غارات على حصون العدو، وهجمات على الكفار. أمّا في شرق إسپانيا فكانت الخلافات التي نشأت بين أبي سعدي وأحمد بن محمّد بن جعفر بن سُفيان المخزومي مستمرّة. فالأخير الذي كان من أصحاب السّيادة والتّرف والعظمة والتحرّر حدّد مكان إقامته المترفة على جزيرة شقر Gezira Xúcar، كما أنه تخلص من الولاء الذي قدمه سابقاً لابن سعد؛ ولكن خوفاً من هجوم ذلك القائد الصّنديد، كتب إلى الموحّدين مقدماً ولاءه لملكهم في حال أكّدوا له حمايتهم. من جهةٍ أخرى، حصّن نفسه في جزيرة شقر، حيث جمع في ذلك المكان العديد من مناصريه، ومن ضمنهم القائد الحازم والباسل أبو الـ... أحمد بن معاذ Maad من أوديش Udes، مع غيره من القادة، ممن يثق بهم المخزومي. وبعدها سحب ولاءه من ابن سعد بن مَرْدَنيش علناً، الذي خلعه عن عرشه، واصفاً إياه بالمثال السّيء للمسلم وبصديق الكفّار.

خلال العام 566 هـ، بدأ الأمير سيّد أبو حافظ بتحصين القنطرة Akantara Tensifa، وبدأت الأعمال، يوم الأحد الثّالث من شهر صفر في العام المذكور. في المرحلة نفسها قرّر يوسف أبو يعقوب الذهاب إلى إسپانيا، من أجل ضمان وتحصين حصونه، ولكن بشكلٍ أساسي من أجل إعادة إحياء الحرب المقدّسة ضد الكفار. ولقد عبر بحر الزُّقاق بسعادة بالغة، ودون التوقف لخوض حروب أخرى، مواصلاً تقدمه إلى مدينة إشبيلية. كان يوم دخوله إلى تلك المدينة يوم ابتهاج كبير؛ ورافقه الفرسان الرّئيسيون

في المنطقة، وأخصّ فرسان تلك الإمارات، وهتف له الجميع وهلّلوا لقدومه. وبعدها تلقى الزّيارات من قادة وحكام المدينة، والعلماء والفقهاء، الذين سارعوا من كل جزء في إسپانيا للترحيب بملكهم. ثم قام الملك بالتحقق عن حالة المقاطعات والمدن، من شخصياتٍ بارزة تؤمّن الهدوء والأمن والعدل.

في اليوم السّابع من شهر ذي الحجة من العام 566 هـ، أُعلن انتهاء بناء برج مارتلة Mértola، الذي شيد بناءً على طلب السّيد أبي عبد الله بن علي حافظ، وأشرف على هذا العمل الفقيه والقائد أبو بكر بن علي بربشتر Barbostar.

في هذه الأثناء كان الوالي محمّد بن قاضي بن مَرْدَنيش محتفظاً بحكمه على الأجزاء الشّرقية من إسپانيا، كما ورد، ولكن بقلقٍ وذعرٍ مستمرّين. بعد هزائم أسابيكات Asabicat وأغيلب Agilaub النّكراء ضعفت قوته بشكلٍ ملحوظ، كما أن الخلافات التي عمّت بين أقاربه والقادة أضعفت يوماً بعد يوم حزب ابن سعدي، ولم يكن سهلاً عليه الحفاظ على المدن والمعاقل في مملكته. أمضى معظم وقته في بلنسية، ومن ذلك المكان كان يذهب بين الحين والآخر إلى المناطق والمدن التي يحكم عليها والتي تمتدّ على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط من طرّاكونة Tarragona إلى قرطاجنة Cartagena الحرف Alhalfe، والبلدات المحصنة مربيتر Murbiter، وشقر، وشاطبة Xativa، ودانية Dénia، ولوكانت، وقاغورا، ولورقة. وأضيفت على هذه المدن، مدينة مُرسية مع كل إماراتها، وعددٌ غير قليل من المدن الموجودة على حدودها.

قام حمو محمّد ابن سعد بن مَرْدَنيش، إبراهيم بن هَمُشَك الذي حكم مدينة مُرسية، بإبطال الصّداقة التي كانت قائمة سابقاً بينهما، لأن ابن سعدي عزا أن المحن التي عانت منها جيوشه في المعركة جاءت نتيجة لنقص شجاعة إبراهيم بن هَمُشَك؛ فاستاء الأخير من هذا التوبيخ، ولذا انسحب من مُرسية عائداً إلى مدينة شغورة Xegura، ومنها أعلن نفسه سيداً مستقلاً. بالإضافة إلى ذلك، وضع أبو إسحاق بن إبراهيم بن هَمُشَك تدابير لتحصين قصره من محمّد بن سعد، وكان يُعرف بالأخص باسم نضر Nodar بن هَمُشَك.

بأسلوبٍ مماثلٍ واصل أبو بكر بن سُفيان، والي جزيرة شقر Gezira Xúcar، الذي فقد الثّقة في ابن سعد بعد معركتي أسابيكات Asabicat وأغيلب Agilaub المشؤومتين، فتخلّى علناً عن حزبه، معلناً الحرب على صديقه السّابق، وحصّن نفسه في مدينة شقر، كما ذكرنا آنفاً. ومع ذلك، خشية وخوفاً من أن يتقدّم محمّد بن سعد مع قوة ضدّه تفوق قدرته على المقاومة، كتب إلى القادة الموحّدين طالباً منهم المساعدة. كما قام ابن سعد عامداً بإرسال ابنه أبي الحجّاج يوسف للسّيطرة على إمارات جزيرة شقر، ومحاصرة أبي بكر بن سُفيان في تلك المنطقة.

فرض أبو الحجّاج، الذي كانت تحت إمرته مجموعةٌ كبيرة من الفرسان وجنود من المشاة مجهّزين على أعلى مستوى، حصاراً على البلدة بشكلٍ وثيق وذلك من شهر شوال عام 556 هـ إلى شهر ذي الحجة من العام نفسه، ولم يتمكّن أيّ مخلوقٍ على وجه الأرض ما عدا النّسور من دخول هذه المدينة؛ كما دمّر ابن سعد بن مَرْدَنيش الإمارات في الجزيرة بأكملها في غضون شهرٍ. وبعد أن انتهت مؤن المحاصرين، أُرهقوا ولم يعد المدنيّون قادرين على تحمّل الحرمان الذي يعانونه، ولم ينقضِ وقت طويل حتى بدأوا بالتذمّر علناً من ابن سُفيان. وبعد زمن طال، قام رجلٌ من أهم الأعيان يدعى أبا أياب Ayab بن هلال بالتّشاور مع كبار المواطنين، فأقنعوا القوّات الحامية أن القلعة لم تعد قادرة على التصدّي للعدو، فالشّعب ضعيف للغاية لا يقوى على المشي ناهيك عن القتال؛ حتى أن الأكثر شجاعة من بينهم سيجد نفسه عديم القوة للدّفاع عنها. وكان هذا أمراً حميداً، فقد هزل الشّعب والجنود من شدة الجوع بحيث أن الأقوى من بينهم بقي ضعيفاً ومريضاً طوال فترة حياته.

بعدها سيطر ابن مَرْدَنيش على المدينة، وعندما عاد إلى مُرسية أخذ معه أبا أياب بن هلال، الذي احتفظ به وعامله بكل تقدير. ثم طلب من ابن سعد لاحقاً الدّفاع عن تلك الحدود من قبل أخيه. وإن الرّسالة التي بعث بها أبو بكر بن سُفيان، طالباً مساعدة من الموحّدين حين الحصار على شقر، لا تزال محفوظة، وفيها إسهاب كبير عن المشاق التي تحمّلها المدافعون عن المدينة. بعد ذلك، وجد ابن سُفيان ملاذه عند الموحّدين،

بعد أن وجد وسيلة لإقامة تفاهم سرّي مع بعض أهالي بلنسية، كما أنّه حقّق نجاحاً باهراً في الدّخول إلى المدينة، التي كان سكانها مستائين جداً، ولديهم رغبة عارمة في أن يكونوا تحت وصاية أمير قوي مثل يوسف أبي يعقوب، بدلاً من حاكمٍ أقل عظمة. وكانت جميع هذه الأحداث في العام 556 هـ.

أرسل عبد الله بن محمّد بن سعد ابنه على الفور مع جيشٍ لإبطال أهداف أبي بكر بن سُفيان، وقامت هذه القوات بفرض حصارٍ على المدينة لمدة ثلاثة أشهر، من محوري اليابسة والبحر؛ إلا أنّ أبا بكر بن سُفيان دافع جيداً عن المكان الذي عُهد به إليه من قبل ملك الموحّدين، كما أنّ أبا الحجّاج بن عبد الله تلقى في نهاية السّنة المذكورة رسائلَ من والده تتضمّن أوامر بالذهاب لنجدة طرّاكونة Tarragona، حيث كان الصّليبيّون يشنّون حرباً قاسية ضده، عندها رفع الحصار عن مدينة بلنسية دون أيّ إبطاء. وأمر بعدها أبو الحجّاج قائده، علي بن قاسم، بالإبحارإلى طرّاكونة، في حين قاد فرسانه الذين يشكّلون مجموعة كبيرة جداً إلى المكان نفسه من محور اليابسة. قاتل أبو الحجّاج في العديد من المعارك ضد الصّليبيين بين طرطوس وطرّاكونة، وكانت الغلبة تارة مع فريق وطوراً مع الآخر؛ ولكن القائد علي بن قاسم هزم الكفار في مذبحةٍ مريعة خلال قتالٍ بحري ضار، حيث استولى على العديد من سفنهم وأحرقها، ملحقاً بهم خسائر فادحة، بالإضافة إلى قتل المئات.



الفصل التاسع والأربعون

حملات الموحّدين على مقاطعات الصّليبيين - التّغلّب على قائد الكفار، سانچو أبو البردة - الاستيلاء على مقاطعة طرّاكونة - زواج أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن في إسپانيا - عودته إلى أفريقيا

كان الموحّدون من جهةٍ أخرى يحققون انتصاراتهم على حدود الصّليبيين؛ كما أن الملك يوسف أبو يعقوب مضى قدماً لمواصلة الغزوة أو الحرب المقدّسة. سار من إشبيلية بقوة هائلة، واجتاح المناطق في طليطلة، حيث أحدث فيها خراباً. بعد أن جعل نفسه سيداً على حصون قنطارة السّيف وحدود وإمارات هذه المقاطعة، نهب الملك المدن فيها وتركها خراباً؛ وأخضع النّاس بحد السّيف، وأسر عدداً كبيراً من الصّليبيين. ثم عاد منتصراً إلى إشبيلية، وجنوده محمّلين بالغنائم، والأسرى.

في أوائل عام 567 هـ أمر أمير المؤمنين أبو يعقوب بن عبد المؤمن بضرورة إنشاء جامع رائع في إشبيلية، وجرى تنفيذ الأعمال باجتهادٍ لا نظير له، وانتهى بناء المبنى في شهر ذي الحجة من العام نفسه. وعُيّن أبو قاسم بن جعفر عبد الرّحمن، المشهور والضّليع في العلوم، خطيباً أساسياً فيه؛ ولم يكتفِ بالجامع، فأنشأ أيضاً جسراً فوق النّهر، صنعه من قوارب مقيّدة جميعها بالسّلاسل بعضها مع بعض، ناصباً صروحاً ضخمة على طرفي الجسر، خصّصت أخيراً كمستودعات. كما أمر أبو يعقوب بوجوب رفع وترميم سور Zalelic، واستكمال تأسيس باب الجوهر، وبناء أقنية للمياه وأرصفة لتفريغ السّفن جهزها بمواضع لوضع الأقدام حتى على شفير المياه.

وبالإضافة إلى ذلك، طلب الملك أن تضخ المياه من قلعة الكبير إلى مدخل

إشبيلية؛ أنفق أبو يعقوب مبالغ طائلة على هذه المشاريع ومثيلاتها في الأندلس، خلال فترة أربع سنوات وعشرة أشهر. لم يعد الملك إلى المغرب حتى شهر شعبان المبارك عام 571 هـ وقبل مغادرة إسپانيا قام بحملاتٍ ناجحة ومتعدّدة في الشّرقية Axarquia مستولياً على بلداتٍ عديدة، وأقرّت بعض منها بسلطته بمحض إرادتها، فيما أخضع الأخرى بقوة السّلاح.

وفي عام 567، فارق أبو عبد الله بن سعد بن مَرْدَنيش، أمير إسپانيا، الحياة في جزيرة ميورقة. صحيحٌ أن هذا التاريخ لم يعتمد من قبل جميع الكتاب حيث يؤكد البعض أن أبا محمّد بن مَرْدَنيش توفي عام 561 هـ فيما بقي آخرون مقتنعين أن هذه الحادثة لم تقع إلا عام 569 هـ. فخلفه ابنه أبو الحجّاج يوسف بن محمّد بن سعد بن مَرْدَنيش الذي أصبح بعدها أميراً على كل إسپانيا الشّرقية.

صرّح أبو الفدير Abul Feder، متحدّثاً باسم العائلة، أنه حين وفاة الأمير عبد الله محمّد بن مَرْدَنيش، الذي كان أميراً على مُرسية وبلنسية وغيرها من المدن، اتخذ أولاده ملجأً لهم في أفريقيا مع الملك يوسف أبي يعقوب، مسلّمين ولايتهم إلى هذا الملك، ومقتنعين جميعاً بعدم قدرتهم على الحفاظ عليها بأنفسهم، لأن الصّليبيين شنّوا حرباً ضدهم، وبالتالي أبقوا البلد في اضطرابٍ دائم. لهذه الأسباب وضعوا جميع ولايتهم، بين أيدي أمير المؤمنين أبي يعقوب، الذي حقّق بضربة حظ ما كان يصعب عليه تحقيقه بقوة الجيش. ومنح ولايات وألقاباً أخرى على آل السّعدي، واتخذ شقيقة هؤلاء الأمراء زوجة له بعد فترةٍ وجيزة من وفاة عبد الله محمّد بن سعد بن مَرْدَنيش. وفي ذلك الوقت كان يوسف أبو يعقوب قد بنى مدينةً بالقرب من جبل الفتح وذلك لوضع جنوده المئة ألف.

في العام 578 هـ، هاجم الأمير السّيد أبو بكر المناطق التي تخضع لحكم الملك الصّليبي المجاورة لطليطلة، ووصل حتى إلى أبواب المدينة، ذابحاً أعداداً هائلة من النّاس، ومعتقلاً آخرين، ومدمّراً البلدات، وحارقاً الأرياف، وتالفاً الحقول المزروعة. ووصل الصّليبيون المذعورون إلى حدّ تسليم أنفسهم لسلطته، وعندما عرف قائد

الكفار سانچو[1] المتعارف عليه باسم أبو البردة، بذلك حشد مجموعة كبيرة من القوات، وزحف ضد الموحّدين. ولقد أطلق لقب أبو البردة Abulbarda على القائد سانچو لكونه كان يستخدم سرجاً ودثاراً ثمينين، زُيّنا بزخرفةٍ رائعة وبراعةٍ غنيّة بالذّهب والأحجار الكريمة. وعندما التقت مجموعة الموحّدين مع تلك التابعة للقائد المذكور في المعركة، انتصرت القوات المسلمة على الكفار بعون الله، واستشهد بعض قادتهم حتى بشجاعةٍ وهم يقاتلون كما يليق بالأبطال. بل، إن المذبحة التي حصلت بين الصّليبيين في تلك المناسبة كانت ساحقة، حيث أن كل الفرسان والقوات المسلمة لم تترك شخصاً واحداً يفلت من بين أيديها، حيث أن ما لا يقل عن ست وثلاثين ألف شخص لقوا حتفهم من جهة الصّليبيين في ذلك الصّراع.

لم يكن نصيب أمير المؤمنين يوسف أبي يعقوب أقل ازدهاراً في عام 559 هـ بعد أن نصب نفسه سيداً على مدينة طرّاكونة Tarragona في شرق إسپانيا، وقد حلّ جنوده القاهرون بالإمارات كما الصّاعقة؛ واجتاحوا البلاد، وأتلفوا الحقول، ورووها بدماء المزارعين. ومَن لم يسقط شهيداً من السّكان أُسر مع كل الغنائم والمحاصيل. عندما انتهت هذه الحملة النّاجحة، عادت قوات الموحّدين إلى إشبيلية. في العام 570 هـ عمد الملك يوسف أبو يعقوب، الذي رغب في تأمين السّلام والهدوء في إسپانيا، إلى مصاهرة عبد الله محمّد بن سعد بن مَرْدَنيش فتزوج من ابنته الجميلة، التي كان أخوها آنذاك صاحب سيدونيا (شذونة)، وشاطبة Xativa، وعلى الجزء الأكبر من إسپانيا الشّرقية. من أجل استقبال وتشريف تلك السّيدة، أقام أمير المؤمنين مهرجاناً رائعاً، لا يفي بوصفه الكلام بخصوص ما بُذل فيه من سخاء، وروعة، وبخصوص حجمه. وبحلول عام 571 هـ زار الأمير يوسف الأراضي الإفريقية الخاضعة له، ومن ثمّ عاد إلى المغرب. في تلك السّنة تفشّى وباءٌ خطير ألحق الخراب في كل أرجاء المغرب؛ ومات من هذا المرض العديد وكان من بينهم ثلاثة أبناءٍ للملك عبد المؤمن بن علي، وهم: السّيد أبو ابراهيم، والسّيد أبو سعيد، والسّيد أبو زكريا، حاكم بجاية، مع الشّيخ

(1) يذكره المؤرخون الأندلسيون باسم: شنجة.

أبي حافظ بن يحيي من قبيلة هنتاتة، مؤسس سلالة أبي حافظ، والقاضي يوسف حجاج بن يوسف. وفي السّنة التالية توفي الشّيخ أبو إسحاق إبراهيم بن هَمُشَك في مكناس شهر صفر من تلك السّنة؛ وفي عام 574 هـ توفي الشّيخ عبد الرّحمن بن طاهر في مدينة المغرب، وكان والي مُرسية إلى أن خلعه ابن عيّاض، فخرج إلى أفريقيا وانضم إلى حزب الموحّدين في المغرب وتوفي هناك بحسب ما ذُكر سابقاً. وقد ألّف الأندلسي الذي نتكلم عنه أبياتاً رائعة من الشّعر، لا زالت تلك التي أهداها إلى ابنه عبد الحق محفوظة، كما كانت أهازيجه في الحبّ المؤلفة على شرف ابنة الوزير عبد العطيّة[1] وغيرها ذات الأهمية الأخلاقية، التي لا يشير إليها عادةً الزّياري El Zieari في خطاباته ومحادثاته.

في الوقت نفسه، توفي القائد المعروف لمحمّد عبد الله بن سعد مَرْدَنيش، وهو أحمد بن عبد الرّحمن، من طلبيرة Talavera، الذي عاد أيضاً إلى المغرب بعد انفصاله عن حزب ابن سعد، وأمضى العديد من السّنوات في هذه المدينة؛ إلا أنه خرج لاحقاً إلى الأندلس ومات في مالقة في العام 574 هـ. وبسبب تميّز عبقريته وكذلك قدرته في الحرب، كان لأحمد بن عبد الرّحمن الوشقي كثير من المعجبين، وكان دفنه مهيباً في فحص (مرج) ڤيغا Vega مالقة. وكان المكان الذي اختاره أصدقاؤه كمثوى أخير له جميلاً جداً؛ وزرعوا حول القبر اثنتي عشرة شجرة جميلة، وكذلك وضعوا الزّهور والفاكهة عليه. إن أبياته التي ألقاها يوم صيد النّمور في المغرب عام 564 هـ لا تزال قائمة حتى الآن، وكذلك هو الشّعر الذي كتبه أحمد بن عبد الرّحمن الوشقي حول زهرة شجرة اللوز، التي تعلن لنا عن بدء الرّبيع، وتكون أول ابتسامة مشرقة في السّنة، تسبق فصل الابتهاج المتوهّج.

بقي الملك يوسف بن يعقوب في بلاطه في المغرب حتى بدء عام 575 هـ، حيث وصله نبأ أنّ غزوةً اندلعت في بلاد أفريقيا، حيث جمع القائد ابن زيري جيوشه، ودفع شعب قفصة Cafisa إلى العصيان، ونجم عن ذلك وقوع اضطرابات في المنطقة كلها.

---

(1) كذا يرد الاسم بالأصل. (أحمد)

ثم كتب الملك إلى ولاته آمراً إياهم بحشد قواتهم دون تأجيل أو إبطاء؛ وبعد أن جمع قوّة كافية، سار أمير المؤمنين يوسف أبو يعقوب بنفسه إلى بلاد أفريقيا.

قبل الوصول إلى قفصة، حاصر المدينة بحماسةٍ مطّردة ومتواصلة، ولم يعطِ المدافعين عنها أيّة هدنة، وكان يهاجمهم باستمرار، حتى تمكّن من دخولها عنوة بقوة جيشه. ودار القتال الأخير في ميدان قفصة، حيث هُزم أتباع ابن زيري وذبح منهم الكثيرون، ومات قائدهم وهو يقاتل. فانتهى التّمرّد والعصيان. إلا أن الغزوات لم تُقمع بشكلٍ نهائي إلا عند بدء العام 576 هـ بعد أن وجد الملك يوسف بن يعقوب وسيلةً لقهر القبائل المتمرّدة؛ وعندها هدأ روع الجميع، فعاد منتصراً إلى بلاطه في المغرب، إلى عام 577 هـ.

عند انتهاء السّنة السّابقة الذكر كان عدد الوفيات في أفريقيا كبيراً، كما نزح العديد من السّكان بسبب ما ذُكر. في السّنة عينها بايع ابن زرقان Aben Zargan مسعود ابن سلطان Rihai، الملك ابن يعقوب وسلّمه قيادة قوّة كبيرة ومُبهرة من الفرسان. وخلال العام 578 هـ، قام أمير المؤمنين برحلة بهدف إعادة النّظر بمختلف الأعمال التي أمر القيام بها في المدن Almadenes، أو الموانىء Mines، وفي ذلك الوقت شيّد حصن الإسكندر Zicandar، الذي يُطلق اسمه على تلك المدن.

* * *

الفصل الخمسون

عودة أمير المؤمنين إلى إسپانيا- حصار شنترين - بقاؤه منفرداً - وفاة الملك يوسف أبو يعقوب - خلافة يعقوب المنصور

خلال عام 579 هـ، انتقل الملك يوسف أبو يعقوب إلى إسپانيا ودخل بحملته الثّالثة في الحرب المقدّسة (الجهاد). كان قد رحل من المغرب يوم السّبت، الواقع في الخامس والعشرين من شهر شوال في تلك السّنة، تاركاً المدينة من باب دلالة Delala، عاقداً العزم للوصول إلى مقاطعة أفريقيا؛ ولكن عند وصوله إلى سلا قام القائد أبو عبد الله بن محمّد بن إسحاق باستقباله مع التأكيد له بأن السّلام والهدوء قد حلّا في المقاطعة بأكملها. عندها عدل أمير المؤمنين عن الاستمرار بالمسيرة، وقرّر المرور بإسپانيا، فغادر سلا يوم الخميس في الثّلاثين من شهر ذي القعدة، في السّنة المذكورة أعلاه. وبعدها وصل أبو يعقوب مبتهجاً إلى Dhaher de Velad، ودخلها في الجمعة الثّانية بعد رحيله من سلا. ويوم الأربعاء السّادس من شهر ذي الحجة، دخل أمير المؤمنين مكناس مجدّداً، حيث بقي إلى بعد عيد الأضحى، في نهاية شهر ذي الحجة. ومن ثم أكمل طريقه إلى مدينة فاس، حيث أكمل نهاية الشّهر. وفي أوائل عام 580 هـ، تحديداً في اليوم الرّابع من شهر محرّم، غادر الملك يوسف أبو يعقوب مدينة فاس متجهاً إلى سبتة، حيث أمر القادة بحشد الجيوش لاصطحابهم معه إلى إسپانيا. وكان أوّل من عبر البحر قبائل زناتة، ومَصمودة، ومغراوة، والثّغري، والهوارة، مع غيرهم من القبائل والبربر. تعاقبت جيوش الموحّدين والغزاة والرّماة؛ وعندما اجتازت مجموعة كبيرة من الجنود المضيق، عبر الملك أبو يعقوب الطّريق مع حرّاسه ووزرائه والأعيان المرافقين له. حدث هذا يوم الخميس، الخامس من شهر

صفر، في السّنة المذكورة أعلاه. وبقي في جبل الفتح، الملاذ الفسيح والآمن لتلك المدينة.

انطلاقاً من جبل الفتح أكمل الملك مسيرته إلى الجزيرة الخضراء، ومن هناك أكمل إلى جبل السّلف Asulf، ومن ثم إلى قلعة شولان Calat-Chulan، وأوكش Aukes، وخيريث (شريش)، ونبريشة Nebrija، ووصل أخيراً إلى إشبيلية. يوم الجمعة في الثّالث والعشرين من شهر صفر، ثم دخل أبو يعقوب وادي البقر Guad-Bagar، وذكر أنه أرسل إلى ابنه سيّد أبي إسحاق، وفقهاء وشيوخ إشبيلية المرافقين له، الذين غادروا المدينة لمقابلته ومبايعته، آمراً إيّاه انتظار قدومه في المَريّة Almería.

بعد أداء صلاة الظّهر، اعتلى أبو يعقوب حصانه، ووصل أخيراً حيث كان الأمير والشّيوخ بانتظاره. ترجّل جميعهم عن أحصنتهم لحظة ظهور ملكهم، ونزل الملك وحضن ابنه؛ وبعدها اعتلى جميعهم أحصنتهم وتوجهوا تواً إلى مدينة شنترين Santarém، في غرب إسبانيا وهكذا بدأت الغزوة أو حرب الجهاد المقدّس، ووصل الأمير ومرافقوه إلى تلك المدينة في السّابع من شهر ربيع الأول عام 580 هـ. وفوراً نصب أبو يعقوب معسكره على مشارف شنترين، محاصراً المكان بشكلٍ مُحكم، وهاجمه بمختلف الآلات والمعدات الحربية. ودكّ معسكرات المدافعين، وبقي هؤلاء على أهبة الاستعداد ليلاً نهاراً فأُرهقت قواهم. وفي مساء الخامس والعشرين من ربيع الأول، أصدر الملك أوامر بانتقال معسكره إلى شمال وغرب البلدة، وعارضه في ذلك قادته المخضرمون، ولكن لم يجرؤ أحد على مناقشة إرادته. وبعد حلول الظّلام في هذا اليوم، بعد أن أدّى الملك صلاة العشاء، استدعى ابنه السّيد أبا إسحاق، فأمّر الأمير قبل فجر اليوم التالي، على منطقة لشبونة Lisbona؛ وفرض على السّيد أبي إسحاق أخذ جنودٍ معه من الأندلس، والمضيّ نهاراً، لإحراز انتصارات ناجزة في الجهاد المقدّس.

والذي جرى أنّ هذه الأوامر لم تُفهم على نحوٍ صحيح؛ فلقد اعتقد أبو إسحاق أنّ والده أصدر أوامر بترك المعسكر والعودة إلى إشبيلية في المساء؛ وألقى الشّيطان

بذوره في صفوف الجنود، ومفادها أنّ أبا يعقوب قد أمر بوجوب رحيل الجنود من المعسكر في تلك الليلة؛ فتحرّكت القوات كلها، فوجاً بعد فوج، وغادرت، حيث اعتقدت أنها مأمورة بالقيام بذلك، وسارت طوال الليل. كان الفجر قد حان عندما تحضّر أبو إسحاق للمسيرة، كما عزم للقيام بما أمره به والده؛ لذلك ما إن انبلج الفجر حتى رحل هو ومرافقوه، وتبعهم حالاً آخرون كثر. وكان الملك في تلك الغضون قابعاً في جناحه، غير عارفٍ بما حصل.

في الوقت الذي استيقظ فيه أمير المؤمنين لأداء صلاة الفجر، كان الفجر قد تحوّل إلى نهارٍ ساطع، فاكتشف أبو يعقوب أنّ معسكره خالٍ من الجنود، إلا قلّة من حراسه، وخدّامه مع بضعة أندلسيين من الحراس الإسبان، ومجموعة من العاطلين الذين يحومون حول المعسكر، إلا أنهم لا ينفعون إلا للتسبّب بالفوضى، وزيادة الويلات في المصاعب التي قد تنشأ صدفةً وسط طوارئ الحرب. لم يكن لدى هذه الفرقة القدرة على الإسراع في حركتها إلى حدّ أنهم لم يستطيعوا المغادرة مع المجموعة الأساسية. وعندما أشرقت الشّمس، اكتشف الصّليبيّون من أعالي الأسوار أن المعسكر خالٍ من الجنود ما عدا قلة لخدمة الملك. ووصلتهم أنباء أن جيش الموحّدين غادر السّاحة لضرورةٍ ما. عندها فُتحت الأبواب على مصراعيها، وتقدمت كل قوات المدينة، صارخة: «هيا يا رجال انقضّوا عليهم جميعاً.. انقضّوا على الملك أين هو». ثم هاجم الفرسان الصّليبيون خيم الحرّاس، وذبحوا كل من وجدوه، ودخلوا في وقتٍ قصير إلى جناح أبي يعقوب؛ فمزقوا أغطية السّرير والسّتائر بغضبٍ عارم، وأحاطوا بأمير المؤمنين، الذي لم يكن يملك سوى سيفه للدّفاع عن نفسه، فقتل أول ستة أشخاصٍ من مهاجميه؛ إلا أن الأعداد التي تجمعت حوله انتصرت عليه فنحروه برماحهم، وسقط أرضاً بفعل جراحه. وبالطريقة نفسها، قتل الكفرة آنسات من حريمه، كُنّ في خيمٍ تقع ضمن نطاق جناح الملك.

بعد وقت قليل من سقوط الأمير، وبعد أن قاوم أعداءه ببسالةٍ وشجاعة، خرق فارسان من الموحّدين يترأسان قوة مخضرمة في القتال بإذن الله صفوف الكفّار،

وقاموا بمذبحةً ففرّ الذين لم يقتلوا على أيديهم ولجؤوا إلى القلعة. وبعد ساعاتٍ قليلة عاد أيضاً الجزء الأكبر من الجيوش، وعندها تجدّد الحصار، وهوجمت المدينة برغبةٍ جنونية في الثأر، ولم يقدر أيّ شيء على احتواء هذا الغضب؛ ودارت المعارك فجأة كالإعصار، وسقط أكثر من عشرة آلاف شخصٍ تحت سيوف الموحّدين. وحارب المحاصَرون حرب اليائسين، فقد علموا أنهم هالكون حتماً. ومات العديد من المسلمين في ذلك اليوم، بعد أن حاربوا كالأسود الجارحة والنّمور المستشرسة.

فُضّ المعسكر وسار الجنود من المدينة المشؤومة، دون أن يعرفوا إلى أين ودون أن يدركوا ما ألمّ بهم. وبصمتٍ وحزن، تابع الجنود التحرك، وعادوا إلى إشبيلية. قضى في تلك الحملة المحزنة الملك الشّهير يوسف أبو يعقوب، بسبب نزف الدّماء من جرّاء جروحه العديدة والخطيرة. ووقعت هذه الحادثة المفجعة، بحسب المطروق، يوم السّبت، في الثّاني عشر من ربيع الآخر عام 580 هـ ويؤكد هذا الكاتب أن الملك توفي بالقرب من الجزيرة الخضراء، عندما كان في طريقه للعودة إلى أفريقيا، ومن ثم نقل جثمانه إلى تينمل، ودفن بالقرب من قبر والده عبد المؤمن. ويقول البعض إنه لم يقض قبل الوصول إلى المغرب، ومن هناك، نقل جثمانه إلى تينمل، بطلبٍ من ابنه الذي خلفه، يعقوب بن يوسف، الذي تولّى أمر الجيوش بعد أن أصيب والده ومات.

لكن على نقيض ذلك كله، يؤكد ابن يحيي بن عميرة أن الملك توفي وهو في طريقه إلى تاغوس Tagus، أي فوراً بعد فضّ المعسكر في شنترين Santarém؛ غير أن خبر وفاته بقي سراً، ونُقل الجثمان إلى إشبيلية، حيث حُنّطت لتنقل بعدها إلى أفريقيا. وأضاف، عند الوصول إلى سلا، بقيت رُفات الأمير لبعض الوقت في ضاحية تلك المدينة وتدعى الفتح، حيث دفنت بعدها إلى جانب قبر عبد المؤمن بن علي في تينمل. ودام حكم يوسف أبي يعقوب اثنين وعشرين سنة وشهر وستة أيام. وتمّ التّكتّم على خبر وفاة الأمير، كما يدّعي ابن يحيي، بطلبٍ من ابنه، إلى أن وصلت قوات الموحّدين إلى سلا، حيث أذيع الخبر. فسبحان الله الدّائم. لا إله إلا الله وحده هو يتولّاه رحمته؛ ولا ملجأ لنا إلا الله.

كان أمير المؤمنين يعقوب بن يوسف، ابن يوسف أبي يعقوب، يدعى عبد الله يعقوب، وأضاف إلى اسمه لقب المنصور بفضل الله. كانت أمّه ابنة وزير أبيه، وولد في قصر جدّه عبد المؤمن بن علي في المغرب عام 555 هـ. وكان هذا الملك يدعى إضافةً إلى الأسماء السّابق ذكرها، بأبي يوسف. ونقش على خاتمه الكلمات التالية: «ثقتي بالله». كان يعقوب المنصور والذي يدعى بفضل الله، متوسط الطّول، وذا قوام متناسق بشرته وردية اللون، وعيناه جميلتان، ورموشه طويلة، وحاجباه معقودانٍ؛ ووجهه مستدير، وأنفه رائع، ورقبته نحيلة، وكتفاه عريضان. كان هذا الملك متحرّراً، وقلبه طيب ورحيم؛ كان مثابراً وشجاعاً، بليغاً ومتعلماً صديق الحكماء، وجميع الرّجال الذين يملكون خصالاً تعود بفائدة على الدّين والولاية. كان يدعو إلى اجتماعاته الرّجال ذوي أصحاب الوجاهة دون سواهم؛ ولم يكن يكرّم هؤلاء خلال حياتهم فقط، ولكن بعد مماتهم أيضاً، نظراً إلى عادته بالسّير في جنازاتهم إلى قبورهم؛ كما أنه كان كثيراً ما يقوم بزيارة قبور هؤلاء الأموات المكرمين، في الآونة الأخيرة. احترم جميع النّاس الأمير يعقوب المنصور وأحبوه. كان لديه أربعة أولاد: عثمان، الذي خلفه على الحكم، وأبو عبد الله النّاصر، وأبو محمّد عبد الله الفاضل، وأبو العُلى إدريس المأمون. أما وزراؤه والخطباء وأمناء سره فكان أولئك على أيام والده، كما أنه احتفظ بالأطباء نفسهم. كان من أوائل قادته، أبو العباس من قُرطُبة، ولاحقاً أبو عمران ابن القائد عيسى بن عمران.

أعلن يعقوب المنصور أميراً للمؤمنين في التاسع عشر من شهر ربيع الآخر عام 580 هـ ورسمياً يوم السّبت، في الثّاني من جمادى الآخرة، من العام نفسه، حيث أن الظّروف التي أجبرته على التكتّم على خبر وفاة والده سبّبت تأجيل الإعلان إلى وقتٍ طويل. توفي هذا الملك يوم الخميس في الثّاني والعشرين من شهر ربيع الأول، عام 595 هـ أو كما يذكر آخرون يوم الجمعة في الثّالث والعشرين منه عند انتهاء الليل في مدينة المغرب. نقلت رفاته إلى تينمل للدّفن، ووضع بالقرب من قبر والده، أبي يعقوب، وجدّه، عبد المؤمن بن علي. أتمّ يعقوب المنصور سنّ الأربعين يوم وفاته،

ودام حكمه خمسة آلاف يوم ومئة ويومين، أو، كما يقال، أربعة عشر عاماً وأحد عشر شهراً وأربعة أيام.

بعد حلف اليمين، جمع يعقوب بن يوسف مئة ألف قطعة من الذهب من خزينة دولته، وقام بتوزيعها على الفقراء والمحتاجين في أرياف المغرب. ثم كتب رسائل إلى ولاة المقاطعات، معطياً أوامره بإخلاء سبيل كل السّجناء الذين حُبسوا بسبب تهمةٍ بسيطة فقط. بالإضافة إلى أنه أمر بأن يتمّ الإيفاء بكل الالتزامات التي طالب بها الملك دون أي تأخيرٍ أو تأجيل. وسامح الأتباع الفقراء من تسديد الدّيون العائدة إليه، كما أنه خفّف من الضّرائب المستحقة عليهم لخزينة الدّولة.

عيّن يعقوب المنصور عدداً كبيراً من القضاة، ممّا حسّن وضع الفقهاء أيضاً. وكان يزور جميع المقاطعات في مملكته، ويستفسر عن حاجاتها، ويطّلع بنفسه بدقة على جميع الأشياء المتعلقة بتحسين أحوال رعاياه. كما حصّن حدود مقاطعته جيداً، وزوّدها بحامياتٍ كافية واختار الجنود والفرسان والمشاة على السّواء بعناية فائقة، وعيّن لجنود الموحّدين مرتّبات مالية جيدة. بعناية متساوية، وضبط يعقوب المنصور جميع مستلزمات الدّين والدّولة؛ فهو الأول من بين أمراء الموحّدين، الذي اعتمد عادة استهلال رسائله ووصاياه بخط الكلمات التالية: «الحمد لله وحده»! وبالتالي رفع الله مملكته ووسّعها، وجعلها الأكثر بروزاً واتّساعاً في الشّرق والغرب والجنوب كله، سواءٌ في أفريقيا أو إسپانيا. وفي الختام، كان يوم معركة الأرك المجيدة محفوظاً لهذا الملك، وبعدها أصبح اسمه لامعاً بحق.

قام يعقوب المنصور بجولةٍ تفتيشية في كل أنحاء الممتلكات الأفريقية، من بلد نول Velad Noul حتى البركة Alberca، وحصّن جميع الحصون، وخاصّة حصون المملكة. وبنى المساجد والمدارس في المغرب، وأفريقيا، وإسپانيا، وأنشأ المستشفيات للمرضى وشملها برعايته، والجامعات للمتعلّمين، الذين كانوا متميّزين على اختلاف اختصاصاتهم. كذلك منح الجوائز والمكافآت للأطباء، والعلماء، والمعالجين في المستشفيات، وأمر بوجود عدد كافٍ منهم في كل مقاطعة لمعالجة

المشوّهين والعُرجان والعميان. وقد أنشأ هذا الملك العظيم أيضاً أبراج مراقبة، ورمّم الجسور وشيّدها، وأنشأ مستوعبات للمياه، وحفر الآبار لتأمين المياه في الطّرق العامّة وفي الصّحراء.

كما أمر بالمحافظة على الخانات، وأماكن لاستضافة المسافرين، فأقيم العديد منها في سوس الأقصى وحتى سويقة مسموق Suica Mascuc. لذلك، وبالنّظر إلى كل خصاله الحَسَنة، وهب الله الازدهار وحُسن الطالع للإسلام على زمنه، وكان قادته منتصرين دائماً على أعدائهم، ولم تأتِ أيّة شائبة أو محنة أو شدّة بإفساد نجاح مشاريعه ومخططاته.

وفي العام نفسه الذي شهد وفاة أمير المؤمنين، بدأ يوسف أبو يعقوب بن عبد المؤمن سيّد ميورقة بتجهيز نفسه للتحرّك. وما إن سمع علي بن إسحاق، من سلالة بني غانية Aben Ganias، من أمراء المرابطين، بوفاة أبي يعقوب حتى جمع جيشه العظيم واتجه إلى أفريقيا، فحاصر بجاية، التي سيطر عليها عنوة، بعد سلسلةٍ طويلة من الحملات المفاجئة والاعتداءات. وأخرج بعدها والي بجاية، سليمان بن عبد الله، حفيد عبد المؤمن بن علي، من المدينة، وأسقط اسمه من الخطبة، وأمر أن يُذكر في الصّلاة اسم النّاصر لدين الله Nayr Edin Allah خليفة بغداد، بدلاً منه. كما أنه وجد الوسائل لتأليب قبائل وبلدات تلك الإمارات، وحملها على العصيان على ملكها، أمير المؤمنين يعقوب المنصور.

* * *

الفصل الحادي والخمسون

الحملات التي قادها أمير المؤمنين في إسپانيا - تخريب المنطقة وتدميرها - عودته إلى أفريقيا - ملك الصّليبيين يرسل إنذاراً إلى يعقوب المنصور - ردّ الأمير

خلال عام 582 هـ، شكّ يعقوب المنصور بأخويه، السّيد أبي يحيى والسّيد عمر، وعمّه السّيد أبي الرّبيع، ولهذا السّبب قتلهم جميعاً. في العام نفسه، كانت مدينتا قفصة وقابس اللّتان في مقاطعة أفريقيا، في حالة ثورة وعصيان، وذلك لأنّ والي المرابطين، علي بن إسحاق، حرّض السّكان على الثّورة، كما أسلفنا الذكر.عندها جمع يعقوب المنصور جيشه على الفور، وغادر المغرب ليتقدّم ضد المتمرّدين في الثّالث من شهر شوال من العام 582 هـ. وفرض الحصار على قافيصا على رأس قوة هائلة؛ ولكن رجال المدينة دافعوا عن أنفسهم ببسالة وشجاعة لا متناهية، وبقي الحصار لمدة طويلة. كانت المعارك التي جرت خلاله ضارية وتسبّبت بمعاناةٍ دائمة للسّكان في الإمارات، وللمقاتلين على السّواء؛ ولكن إبّان عام 583 هـ تمكّن يعقوب المنصور من دخولها بقوة الجيش.

بعد إخضاع قفصة حيث قام بملحمة كبيرة ورهيبة ذبح فيها أعداداً هائلة من الثّائرين ضده، ولقّنهم درساً مرعباً، بدأ أمير المؤمنين حملةً على المغرب في أفريقيا، حيث هزم وشتّت القوات التي أتت ضده بقيادة ثائرين، ولم يعدل عن القتل والصّراع إلا بعد أن قدّمت جميع القبائل الطّاعة والولاء له؛ وقد أُجبر بعض من هؤلاء الرّجال على محاربة المتمرّدين، الذين قدموا له براهين عن إخلاصهم وولائهم. وبعد تحقيق الانتصارات في كل أنحاء المغرب، وتهدئة كل الاضطرابات عاد يعقوب المنصور إلى

بلاطه في المغرب. وعقب انتهاء هذه الحملة في أفريقيا، واستراحة الملك، توجهت اهتماماته نحو إسپانيا؛ فحشد جيشه، لمواصلة الجهاد المقدّس في الأندلس، وخاصّة في الغرب. كانت هذه حملة يعقوب المنصور الأولى ضد الكفار؛ فدخل إلى إسپانيا لهذه الغاية، فأبحر من قصر المجاز Alcazar Algez، إلى الجزيرة الخضراء، حيث رسى يوم الخميس الثّالث من ربيع الأول من العام 585 هـ.

من الجزيرة الخضراء، سار بالجنود إلى شنترين Santarém، وأرسل فصائل من الفرسان للتّخريب والعبث في المنطقة، حتى مدينة لشبونة. اجتاح أمير المؤمنين كل البلاد فأتلف السّهول المزروعة، وقطف ثمارها، وقتل السّكان وأسر منهم، ودمّر الأرياف، وحرق كل المحاصيل حتى حبوب الذُّرة؛ وتمادى في التخريب في الإمارات إلى حدّ أنه تركها أرضاً قاحلةً. في هذه الحملة، جمع الملك كميةً هائلةً من الغنائم من أرض العدو، ولم يعد إلى الشّواطئ الأفريقية بأقل من ثلاثة عشر ألف امرأة وطفل، أُخذوا أسرى، كغنيمةٍ قسريّة للعنف والإرهاب في الحرب الأكثر ضراوة وانتقاماً وقتالاً وكرهاً شُنّت بين أمّتين حتى الآن.

وصل يوسف المنصور المنتصرإلى مدينة فاس في آخر عشرٍ من شهر رجب من العام 585 هـ. وبقي هناك لبضعة أيام. وعندما كان الملك يستريح أُنبئ أن ثورة اندلعت في مدينة المُعزّ Almeiz، الواقعة في شرق أفريقيا، فترك مدينة فاس في الثّامن من شعبان، من العام نفسه، ووصل إلى مدينة تونس في الأول من ذي القعدة. هنا علم أن الحال في مدينة المُعزّ قد هدأ، وأن زعيم الثّورة هرب إلى الصّحراء عندما سمع أن أمير المؤمنين كان يتقدّم لمواجهته. وفي العام 586 هـ استولى الصّليبيون، الذين استمرّوا في الاعتداء على الحدود في الغرب، على مدن شلبة Xelbe أو ولبة Huelba، مع باجة Beja وبيرة Vera، وأماكن أخرى أقلّ أهمية؛ وجهّزوا أنفسهم للتحرك بعد أن عاد يعقوب المنصور إلى أفريقيا، وكانوا على أتم الجاهزية لعلمهم أنه كان منهمكاً بإخضاع المتمرّدين الذين ثاروا ضده. وسُرّ الكفرة لهذه الانتصارات بعد أن انتهزوا فرصة غياب أمير المؤمنين.

وصلت هذه الأنباء السّيئة إلى يعقوب المنصور، الذي تكبّد خسائر مفجعة وفادحة. وشعر بالاستياء والحنق من قادته في الأندلس، فكتب الملك رسائلَ، منتقداً إياهم بشكل جارح ومرير، ورامياً على عواتقهم الملامة في كل ما حدث. وبالإضافة إلى ذلك، أمرهم بمراقبة خطواتهم بحذر، وبالبقاء على أهبة الاستعداد لاستعادة الغرب، معلناً أنه قد يحضر قريباً بشخصه، مقترحاً في الواقع التأهّب فور استلام رسائله.

بعد أن تلقّى القادة الموحّدون في الأندلس، هذه الأوامر من ملكهم، وحّدوا صفوف قواتهم مع تلك التابعة لمحمّد بن يوسف، والي قُرطُبة، وأبحروا قدماً يصاحبهم حشدٌ قوي، مؤلف من الموحّدين والعرب والأندلسيين، نحو وشقة، وحاصروها دون إعطاء المدافعين أيّة فترةٍ للرّاحة، لا ليلاً ولا نهاراً. وبعد القتال الضّاري قرّروا اقتحام المكان وقصر أبي دانس Abi Denis ومدينتي باجة وبيرة، وسيطروا عليهما بقوة السّلاح.

بعد إنجاز هذا كلّه، عاد الوالي منتصراً إلى قُرطُبة، مصطحباً خمسة عشر أسيراً، من بينهم ثلاثة آلاف من الصّليبيين المقيّدين في فرقٍ مؤلفة من خمسين رجلاً. وهكذا دخل محمّد بن يوسف حاكم قُرطُبة المدينة في شهر شوّال من العام 587 هـ. وفي الوقت عينه عاد يعقوب المنصور من ولاية أفريقيا إلى الجزء الغربي لمملكته، واستراح في تلمسان حتى نهاية العام. وخلال شهر محرم وعند بدء سنة 588 هـ رحل الملك من تلمسان عائداً أدراجه إلى مدينة فاس حيث وقع طريح الفراش من جرّاء مرضٍ خطير، ومكث على هذه الحال سبعة أشهر. وعندما استعاد قوته، تقدّم الأمير نحو المغرب، حيث بقي في بلاطه حتى العام 590 هـ. وفي ذلك الوقت غادر المدينة ليقوم برحلةٍ على السّاحل، فأبحر إلى إسپانيا، حيث قرّر إعادة قيام الحرب المقدّسة مرةً أخرى. ثم حصل انتصار معركة الأرك الشّهير والباهر، وكانت هذه الحملة الثّانية ليعقوب المنصور في إسپانيا. وأمل النّاس أن يتلقاه الله بعين الرّضا والقبول لهذا السّبب.

إنّ غياب أمير المؤمنين المطول عن إسپانيا، كما ورد سابقاً، بسبب مرضه الذي فتك به في أفريقيا، جعل أعداءه يستفيدون من هذا الوضع، فأصبحوا أكثر تجبّراً، وحصلوا على منافع كثيرة. وانقضّ الصّليبيون على أراضي المؤمنين، تماماً كما

تنقضّ الذّئاب على الخراف، واضطهدوهم وهجموا عليهم بوحشية مرعبة، وتركوا البلدات والحقول مقفرة. ولم يتركوا حيّاً في إسپانيا لم يعيثوا فيه خراباً ودماراً. في تلك الأثناء لم يجد المسلمون الفقراء نصائح ولا حتى مساعدة يستطيعون من خلالها ردّ عنف أعدائهم عنهم، حتى أن جحافلهم الملعونة كانت تتقدّم بسرعة، محققة النّصر تلو الآخر، إلى أن عسكروا بزهوٍّ قبالة الجزيرة الخضراء، حيث كتب ملك الصّليبيين إنذاراً إلى أمير المؤمنين يعقوب المنصور، مخاطباً إياه بغرورٍ غير اعتيادي. وجاء في هذه الرّسالة المتكبرة والمتغطرسة ما يلي:

«باسمك اللهم فاطر السّموات والأرض، وصلّى الله على السّيّد المسيح روح الله وكلمته الرّسول الفصيح، أمّا بعد:

فإنّه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذي عقل لازب أنك أمير الملّة الحنيفية كما أنّي أمير الملّة النّصرانية، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التّخاذل والتّواكل وإهمال الرّعيّة وإخلادهم إلى الرّاحة، وأنا أسومهم بحكم القهر وجلاء الدّيار، وأسبي الذراري وأُمثّل بالرّجال، ولا عذر لك في التّخلّف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة، وأنتم تزعمون أنّ الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منّا بواحد منكم، فالآن خفّف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا لا تستطيعون دفاعاً، ولا تملكون امتناعاً، وقد حُكيَ لي عنك أنك أخذت في الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال، وتماطل نفسك عاما بعد عام تُقدم رجلاً وتؤخّر أخرى، فلا أدري أكان الجبن أبطأ بك أم التّكذيب بما وعد ربك؟ ثم قيل لي: إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلاً لِعلّةٍ لا يسوغ لك التّقحّم معها، وها أنا أقول لك ما فيه الرّاحة لك وأعتذر لك وعنك على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرّهان، وترسل إليّ جملة من عبيدك بالمراكب والشّواني والطّرائد والمسطّحات، وأجوز بجملتي إليك وأقاتلك في أعزّ الأماكن لديك. فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جُلبت إليك وهديّة عظيمة مثلت بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك واستحقّيتُ إمارة الملّتين والحُكم على البرّين. والله تعالى يوفّق للسّعادة ويسهّل الإرادة، لا ربّ غيره ولا خير إلا خيره إن شاء الله تعالى».

عندما قرأ يعقوب المنصور هذه الرّسالة، استشاط غضبه أشدّ وأكثر؛ واضطرمت غيرته على الإسلام من جديد، وقرّر الانتقام للإهانات التي تعرّضت لها الأمّة. عندها أمر الأمير أن تقرأ رسالة ملك الكفار أمام جميع جيوشه؛ الموحّدين، والعرب، وقبيلة زناتة، ومَصمودة، وغيرها. وعندما أصبح جميع محاربيه وعناصره مطلعين على محتوى الرّسالة، شعر جميعهم بغِلٍّ ملتهب للانتقام، وقدم كل رجلٍ دليلاً كافياً عن رغبته الجادّة في خوض المعركة المقدّسة، وتجمّع الجنود بعنفٍ هائج، مطالبين التقدم لمواجهة العدو. ثم استدعى يعقوب المنصور ابنه وخليفته، السّيد محمّد، مسلماً إياه رسالة ألفونسو الملعون، طالباً منه الرّد عليها. وبالتالي عندما قرأها الأمير، كتب الرّد التالي على ظهر الرّسالة: «﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾. الجواب ما ترى لا ما تسمع».

أعاد بعدها السّيد محمّد الرّسالة إلى والده، الذي قرأ ما كتبه، فمدح بلاغة الكاتب. فكّر ملياً لبعض الوقت؛ ولكن بعد مضيّ هذه الفترة سلّم الرّسالة إلى رسوله، وبعثها مباشرة إلى ملك الكفرة. عندما تمّ ذلك، أصدر الأمير أوامره بأن يُجلب السّيف الأكبر إلى خيمته، وأصدر أوامره وتوجيهاته إلى الموحّدين والجيوش الأخرى للمضيّ مباشرة نحو موقع الجهاد المقدّس. وأيضاً، كتب المنصور إلى كل المغرب، وأفريقيا، والقبلة، بقصد حشد قوّاتهم لخوض حرب الجهاد المقدّس؛ وعند سماع مطلبه تجمهر النّاس من كل الأنحاء، رجالاً وشباباً من مختلف الأعمار ومن كل منطقة، وسكان الأرياف النّائية والجبال الشّامخة من أقصى بقاع الأرض.

❊ ❊ ❊

الفصل الثّاني والخمسون

مرور يعقوب المنصور في إسپانيا - الاستعداد لمعركة الأرك

خرج الأمير من بلاطه في المغرب يوم الخميس في التاسع عشر من شهر جمادى الأولى عام 591 هـ، على رأس جيش منظّم أمر بتأمين الطّعام له مرتين في اليوم، واتخاذ كل التدابير الأخرى لضمان تقدّمه النّاجح بقيادة أكثر القادة حكمةً ودراية في فنون القتال. فعلى ذلك تهيّأت هذه الحشود غير المحدودة، ومضت قُدُماً. كانت أعداد الفرسان والمشاة في ذلك الحشد لا تعدّ ولا تحصى، كما لو أن الأرض بالكاد تكفي لإطعامهم، أو حتى الأنهار لتؤمّن لهم المياه ليرووا ظمأهم، وكان الجميع يسير نحو هدف واحد ألا وهو مقاتلة أعدائهم الكفار.

عندما وصل الجيش إلى قصر المجاز Alcazar Algez، بحسب الترتيب الذي اتخذ عبر البحر بعد أن قسم إلى جماعاتٍ، واحدة تلو الأخرى. كان رجال القبائل العربيّة أول من اجتاز المضيق؛ وتبعهم بعدها رجال قبائل زناتة، ومَصمودة، وغمارة، يصاحبهم متطوّعة من قبائل المغرب والجزائر؛ وتبع هؤلاء الرّماة، والموحّدون، والحرّاس، وجيوش الجزيرة الخضراء؛ وبعد أن نزلت هذه الجيوش البرّ، أبحر أمير المؤمنين بنفسه، مع حشد هائل من الشّيوخ والوزراء والفقهاء الموحّدين من المغرب؛ ويسّر الله هذا المرور فتمّ بنجاح، وفي وقتٍ وجيز كانت القوات كلها قد عسكرت في الخضراء.

وصل يعقوب المنصورإلى إسپانيا بعد ساعة من صلاة الجمعة في العشرين من شهر رجب في السّنة المذكورة مسبقاً، وواصل زحفه فوراً، راغباً في المسير قُدماً لمواجهة العدو

قبل أن تبرد حماسة الجنود الذين سارعوا بشغف للمشاركة في حرب الجهاد المقدّس. ولم تتغيّر عزيمة الرّجال، فكل منهم كان يشعر بالفخر لأنه اختير لرفع راية المجد والدّفاع عن أمّة الإسلام. بدايةً أظهر العدوّ رغبة في التّراجع، لكنه لم يفعل حيث وصلت أنباء لأمير المؤمنين بأن ألفونسو الملعون لم يكن يحضّر للانسحاب الكلي، بل عسكر وجيشه على مشارف مدينة الأرك. عندها أمر يعقوب المنصور بأن تتحرّك جيوش المؤمنين ضدّه، واثقين بالله وبقدرته وقوّته. وحضّهم جميعاً على السّير بثبات في طريق المجد وطاعة الله والجهاد بكل شرف، دون تقاعس ودون أن يخامر أذهانهم أيّ اهتمام آخر، سوى الثأر ولا شيء غير الثأر، فسار المدافعون عن الإسلام في طريقهم بتصميم ثابت ووصلوا إلى نقطةٍ تبعد عن الأرك مسافة يومين، حيث عسكر العدو، وكان ذلك يومَ الخميس في الثّالث من شهر شعبان من العام 591هـ.

في ذلك المكان، عقد أمير المؤمنين اجتماعاً يسبق الحرب، فنصح قادته، والشّيوخ، والرّجال الحكماء، بإعداد التّرتيبات المُثلى التي تمكّنهم من التّغلّب على أعداء الله في المعركة التي توشك على النّشوب، معتبرين أنّ هذا ما أمر به الله، وجاء على لسان النّبي، وأمرهم به وفق آيات القرآن الكريم التي جاء فيها: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾. وأيضاً في آية أخرى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

استدعى الأمير بداية إلى اجتماعه شيوخ الموحّدين، وبعدها شيوخ العرب، وقبائل زناتة ومَصمودة وغمارة والغزاوة مع رؤساء المتطوّعة. فأبدى كلّ رجلٍ منهم رأيه حول التّدابير المناسبة لنُصرة الإسلام في حربهم، وفي النّهاية دعا أمير المؤمنين قادة الأندلس إلى مقرّه. فاستقبلهم الملك بالتّرحاب، وألقى يعقوب المنصور عليهم الخطاب التالي[1]: «يا أهل الأندلس! لا مراء في أنّ الشّيوخ والقادة الذين شاورتهم فرسان شجعان وحكماء، وقديرون بأمور الحرب، وذوو ثبات وقوة في القتال؛ كما أنهم بغاية الحميّة لنصرة الإسلام، لا يعرفون الكلل في الدّفاع عنه. إلا أنهم مع هذا

---

(1) تعذّر علي العثور على نصّ خطابه الحرفي. (أحمد)

كلّه لا يعرفون خطط القتال كما يفعل الكفّار. أما أنتم فتعيشون حالة حرب دائمة مع الكافر، وأنتم على دراية بكل أفعاله ومخطّطاته وأساليبه في تنظيم معركته، والحيل والخدع التي يمارسها الصّليبيون في معاركهم».

فردّ الأندلسيون على هذا: «يا أمير المؤمنين! جميعنا نثق بدراية وبسالة ومعرفة وتبصّر قائد عالم جداً بأمور الحرب، وبجميع الأحوال المرتبطة بها والتي ألفها؛ كما أنه متمرّس جداً، وتوّاق لكل ما فيه إعلاء كلمة المسلمين. إنه القائد الشّريف والبارز أبو عبد الله بن صناديد، الذي أتى إلى هنا بصحبتنا. وبعد فإنّ رأيك وقرارك سوف ينفذ أخيراً بمشيئة الله وسيكون الأكثر عدلاً وإفادة. وإن شاء الله تعالى تجد فيه الرّضا والسّعد».

اجتمع جميع القادة بعدها ووافقوا على ضرورة الاستماع إلى قرارات ابن صناديد، فأمر الأمير فوراً بحضوره؛ وعندما أصبح بحضرته قال: «يا أمير المؤمنين! صحيح أنّ الصّليبيين، الملاعين يتمتعون بالمكر والخداع؛ ولديهم براعة في الحيل والاختراعات، وخدع الحرب، لذلك أنصح أن نعاملهم بالمثل. فرأيي، مع كلّ الاحترام لرأيك، أيها الملك، أنه إذا خضنا معهم المعركة، أن نرسل في الطّليعة الموحّدين المعروف عنهم بسالتهم وتقواهم، مع الأندلسيين المسلمين بقيادة شيوخهم، تحت إمرة قائد واحد شجاع وذي خبرة، قادر على اختيار أكثر قادتك خبرة وخيرة القوات التي لا يضاهي خبرتها قوة في إسبانيا، لبدء الحرب والقيام بالمعركة الأولى. ويأتي بعدهم رجال من جميع قبائل العرب، زناتة ومَصمودة وغزاوة وغيرها من المقاطعات، والمتطوّعة الأكثر شجاعة. بهاتين المجموعتين سوف نتمكّن بإذن الله من كسر الكفار والانتصار عليهم إن شاء الله. ثم يا مولاي تقوم بنفسك مع بقية الموحّدين، الذين يشملهم الله برحمته ويحفظهم، وكتائب العبيد وحرّاسك، بتهيئة الحشود بالقرب من ساحة المعركة، في مكانٍ بعيد عن الأنظار؛ ثم بعون الله تغير على العدو لهزيمته وتدمير قواته. وفي حال لم يكن الانتصار حليف لهذه القوّات التي ذهبت أولاً، عندها تنتهز والقوة التي بقيت معك الفرصة المناسبة خلال القتال لتقديم المساعدة لها. وفي هذه

الحالة يقوم جنود الاحتياط بتشكيل حاجز لقمع غارة العدو، والمقاومة على جبهة جديدة. هذا هو التّدبير الذي أراه لهذه المعركة أيها الملك، وإن شاء الله سيكون النّصر حليفك».

فردّ المنصور على هذا قائلاً: «سبحان الله! إن النّصائح التي قدّمتها تبدو وكأنها منزلة من عند الله، فلتكن مشيئته وليمنحنا النّصر في مسعانا».

ثم اجتمعت الجيوش ووزّعت على مواقع عدّة، بينما أمضى أمير المؤمنين تلك الليلة على سجّادة الصّلاة، متوسلاً إلى الله العظيم منحه وقواته حمايته العظيمة، ومستصرخاً إياه مؤازرته وعونه للمسلمين، وببعث روح الإرباك والهزيمة بين حشود الكفار. كان ذلك ليلة الجمعة، في الرّابع من شهر شعبان في سنة 591 هـ. وفي ساعة الفجر الأولى غلبه النّعاس فنام الأمير لوقتٍ قصير، إلى أن استيقظ سريعاً بعدها شاعراً بالفرح وبالحيوية وبالأمل. استدعى بعدها شيوخه وفقهاءه من الموحّدين، وعندما حضروا، قال الأمير: «استدعيتكم إلى هنا لأخبركم بالرّؤية التي أظهرها لي الله في حلم في هذه السّاعة السّعيدة. بينما كنت أؤدّي صلاتي، غلبني النّعاس، فاستلقيت للنّوم. ثم رأيت أبواب الجنّة مُشرعةً على مصراعيها، وفي اللحظة ذاتها ظهر فارسٌ ذو طلعةٍ بهيّة وهيئة مباركة على حصانٍ أبيض، يحمل في يده لواءً أخضر وعليه رسم لمساحة الأرض كلها. فحيّاني قائلاً: «السّلام عليك!» وقلت له: «من أنت؟ يحفظك الله». فأجاب: «أنا ملاكٌ من ملائكة الجنّة السّابعة؛ جئتُ بأمرٍ من ربّ العالمين لأبلغك أن النّصر سيكون حليفك وحليف مَن يجاهدون معك، فقاتلوا تحت راية الإيمان، تنالوا جنّة أعدّها الله لعباده الصّالحين».

* * *

الفصل الثّالث والخمسون

معركة الأرك - عودة أمير المؤمنين إلى المغرب - وفاته

في يوم السّبت الخامس من شعبان، وضع الأمير يعقوب المنصور من مقرّه في الجناح الأحمر آخر التّرتيبات لمقاتلة العدو. فاستدعى أبا يحيى بن أبي حافظ المشهور، وزيره الأول وأحد أكثر قادة الموحّدين تميّزاً. وكان رجلاً ذا طباع صارمة وأخلاق فاضلة، ومجاهداً مقداماً متمسّكاً بالدّين. أمره الملك بقيادة الجيش ووضع تحت إمرته الأندلسيين وقوة مختارة من العرب، ورجال قبيلة زناتة، وغيرها من قبائل المغرب (في غرب أفريقيا). وعيّنه القائد الأعلى، وأوكل اليه أمر إعطاء الأوامر وغيرها. ثم حضّرت الرّايات فوراً، وقُرعت الطّبول للتحرّك.

وضعت قبيلة هنتاتة وجنود الأندلس تحت إمرة أبي عبد الله بن صناديد[1] Ben Senanid، بينما قاد العرب جرمون بن رباح ومراد المغراوي قبائل المغاروة ومعين بن أبي بكر رجال المزني Mezani، وقبائل عبد الوادي جابر بن محمّد بن يوسف، وعبد العزيز الطّحاني قبائل طحان. أما قبائل هسكورة، وبعضاً من مَصمودة فكانوا تحت إمرة قائد الثّغر، ورجال غمارة تحت إمرة محمّد بن منافد Aben Menafid. وقاد المتطوّعة الحاج الصّالح أبو حارث الوربي Abu Hariz Ala Warbi وقاد الجميع وكان جميع هؤلاء القادة تحت إمرة الوزير الأكبر أبي يحيى بن أبي حافظ. بقي أمير المؤمنين يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن مع القوات الاحتياطية قوات الموحّدين وحرّاسه. وبعد أن نُظّمت الحشود، أُعطي الأمر للهجوم. وفوراً بدأ الجنود

(1) هكذا يرد اسمه في المراجع المعتبرة، بينما يثبت كوندِه اسمه: ابن صنانيد. (أحمد)

بالتحرّك؛ اعتلى الشّيخ أبو يحيى أبو حافظ حصانه، وسار في طليعة الجيوش، مع القائد الأندلسي ابن صناديد، وغيره من الفرسان والقادة الأندلسيين، ولحقت بهم خيرة القوات. وكان أمير المؤمنين يضع معسكره مساءً في المكان الذي انطلق منه الشّيخ أبو يحيى وجنوده صباحاً، للقيام بالاستعدادات التي بقيت سرّية حتى طالعت الجيوش التابعة لأبي يحيى مربط حشود الصّليبيين. وكانوا على حدور تلةٍ تقع على سفح جبلٍ حرجي ذي تكوين غير سويّ فيه منحدرات ووديـان عميقـة وأخاديد. كانت جحافـل الكفار تسيطـر على السّهـل في سفـح الجبل، حتى الأرض التي تسبق الأرك.

ارتفعت أصوات جيش المسلمين بالتّكبير وتقدّموا نحو العدو، حين أشرقت شمس اليوم المجيد، يوم الأربعاء في التاسع من شهر شعبان من العام 591 هـ. نظّم أبو يحيى قواته للقتال، وأمر القادة بتوحيد صفوفهم وأعطاهم الرّايات وأوكلت الرّاية الخضراء إلى المتطوّعة. وطلب من قوات الأندلسيين اتخاذ مواقعهم على جهة اليمين، في حين وضع رجال زناتة ومَصمودة وغيرهم من قبائل أفريقيا الغربية في جهة اليسار، أما المتطوّعة، والرّماة فكان مركزهم الوسط؛ وبقي أبو يحيى نفسه مع قبيلة هنتاتة، وسط المجموعة الرّئيسة وفي مقدمتها.

بعد توزيع المواقع والتّجهيز التّام للقتال كان الجميع بانتظار لحظة الهجوم بثباتٍ تام وانتظامٍ جيد، فانطلق قائد العرب، ابن رباح، بين كل جموع المسلمين، مر بين كل مجموعَة، موصياً إياهم بالتّحلّي بالشّجاعة، ومردّداً للجنود الآيات القرآنية التالية: «يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصُرْكُم ويثبّت أقدامكم». من جهةٍ أخرى، كان الصّليبيون الأعداء، لعنهم الله، يقفون بانتظام على طول المرتفعات فأمروا فصيلة من فرسانهم، تعدّ ما لا يقلّ عمن سبعة إلى ثمانية آلاف عنصر، مدجّجة بالدّروع الحديدية بالهجوم. سارت هذه الفصيلة للقتال ودوّى صراخ جنودها المدرّعين والمحميين بخوذاتهم الحديدية بضجّةٍ صاخبة ومرعبة بهدف صبّ غضبهم على المسلمين، كالأسود المتعطشة للدّماء.

وانتظر المسلمون قدومهم، فهتف القائد الشّجاع أبو يحيى[1]: «تشجعوا أيها المؤمنون! وثبّتوا أقدامكم، ولا تدعوا أي رجل يشتّت تراصفكم. قاتلوا في سبيل الله؛ ودافعوا عن أمّة الإسلام، فإن الله ذو العزّة والجلال سيمنحنا النّصر إن شاء الله. قاتلوا، واطلبوا الشّهادة وتفكّروا بالثّواب وبجنّة الخلد، وبكل الغنائم».

وانطلق القائد بعد أن أصدر توصياته الأخيرة فمرّ من مجموعة إلى أخرى، هاتفاً بالجنود: «عليكم بالشّجاعة يا عباد الله! الشّجاعة! فإن الله يقاتل من أجلكم، وأنتم عبيده. فكل من يتبع راية الله منتصر، اعلموا أن الله قد وضع العدو بين أيدينا؛ فتشجّعوا واقضوا عليهم».

هاجمت قوة الفرسان الصّليبية العنيفة، المؤمنين بضراوة شديدة، وتقدّموا إلى درجات قريبة للغاية منهم فقابلت أحصنتهم رؤوس رماح المسلمين، فتراجعوا ليعودوا بضراوةٍ أكبر لكنهم صُدّوا بالطّريقة نفسها. وللمرة الثّالثة أعدّ الصّليبيون أنفسهم لمواجهةٍ عنيفة، عندها هتف ابن صناديد قائد الأمير: «اثبتوا في أماكنكم، كالإخوة والأصحاب! تشجعوا أيها المسلمون! إن الله ينصركم من عرشه في العُلى!» في تلك اللحظة، هاجم الكفار الوسط بحماسةٍ ملتهبة، معتقدين أنّ أبا حافظ بن يحيى يعطي من ذلك المكان أوامره، وبأنّ أمير المؤمنين يقاتل بنفسه فاخترقوا صفوف الجنود وأوقعوا البلبلة في صفوف المسلمين الشّجعان، وقاتل يحيى أبو حافظ بشجاعة كاللّيث، غير أنه استشهد، فداءً لأمّة الإسلام. قام الصّليبيون بمجزرةٍ مريعة بين صفوف قبيلة هنتاتة، التي أحاط بها أبو يحيى، وكذلك بين المتطوّعة وآخرين غيرهم، الذين اختارهم الله لنيل حُسنى الشّهادة، واجتباهم في ذلك اليوم لنيل نعم الجنّة التي لا تُعدّ ولا تحصى.

ومن جهةٍ أخرى كانت قبائل المتطوّعة العرب والمغاربة، والرّماة تشنّ بدورها هجوماً على الكفار بشجاعةٍ غير متوقعة، فأحاطوا بفرق الصّليبيين، من جميع الجهات. فتصاعد الدّخان والضّباب في ساحة القتال فاختفى ضوء الشّمس، وتحول

---

(1) النّصوص الثّلاثة الواردة أدناه منقولة عن ترجمة كوندِه بالإسبانيّة، وليس بفحواها الحرفي بالعربيّة كما هو بالأصل. (أحمد)

النّهار إلى ليل. تقدم ابن صناديد، وقواته من أندلسيين وغيرهم، باتجاه المرتفعات، حيث كان ألفونسو[1] بنفسه يتولّى القيادة، وهناك هزموا جنوده وزرعوا في صفوفهم الفوضى والبلبلة وأبادوا قواته وفرسانه والتي قيل إن عددها يبلغ أكثر من ثلاثمئة ألف رجل.

في تلك الأثناء ذُبح عشرة آلاف فارسٍ صليبي ممّن كانوا مسلّحين بالدّروع الفولاذية، من المجموعة الأولى التي بدأت الهجوم، والتي كانت خيرة فرسان ألفونسو. كان هؤلاء يؤدّون صلاتهم المسيحية قبل بدء المعركة، ويقسمون أنهم لن يدعوا ساحة القتال ما دام هناك رجل منهم قادر على القتال؛ غير أن الله كان يودّ نصرة المؤمنين دون سواهم. وفي محاور أخرى من ساحة المعركة، كان القتال أكثر هلاكاً للكفّار، وقواتهم، فبعد أن اعتقدوا أنهم قد خسروا المعركة على الأرض، تبدّدوا واتجهوا نحو المرتفعات حيث كان ألفونسو، آملين الاستفادة من حمايته، إلّا أن المسلمين قطعوا عليهم طريقهم، وحيثما وجدوا كانوا يقهرون الجميع ويبدّدون شملهم. فشعرت قوات الكفرة بالإحباط والرّعب، وانكفأت عائدة إلى حدودها، فراراً من المسلمين بفوضى لا مزيد عليها. إلا أنّ العرب والمتطوّعة ومعهم رجال هنتاتة، والمغاربة، والرّماة، تبعوهم وطاردوهم وفصلوهم إلى شراذم، إلى أن أبادوا كل فرد منهم. وهكذا لم يبقَ أيّ فرد حياً من قوة ألفونسو وفرسانه.

سارع بعض الفرسان العرب إلى أمير المؤمنين، المختبىء، ليخبروه كيف أن الله دفع أعداءه للفرار؛ فسار يعقوب المنصور مسرعاً مع الموحّدين، قدماً فوصل إلى ساحة القتال حيث كان الله يقضي على قوة الكفار. علم الأمير أن ألفونسو كان لا يزال محافظاً على تقدّمه في بعض المحاور مع فرسانه بشجاعةٍ وضراوة. فسار فرسان الأمير الشّجعان مع الرّايات، وتلاهم المشاة، وسط التّهاليل والتّكبيرات وأصوات الأبواق والطّبول، فاهتزّت الأرض تحت أقدامهم، وكانت أصداؤها تهدر في التلال والوديان.

(1) ألفونسو الثّامن أمير قشتالة ابن عم ألفونسو التاسع أمير ليون. (فوستر)

في اللحظة التي ظهر فيها أمير المؤمنين، صادفت أن رفع ألفونسو عينيه فرأى الرّاية البيضاء التابعة ليعقوب المنصور بجواره مباشرةً، وأنها لا زالت تتقدم، وتمكّن من قراءة ما كتب عليها: «لا إله إلا الله، محمّد رسول الله؛ ولا غالب إلا الله». قال ألفونسو عندها، «ماذا يعني هذا؟» فتلقى عندها الجواب المريب: «يعني أنكم أعداء الله، وأن أمير المؤمنين الحاضر أمامكم سوف يهزمكم، بعد أن وصل في آخر المعركة، وبعد أن استطاعت طليعة جيشه فقط أن تسحقكم».

دبّ الله الرّعب في قلب ملك الصّليبيين، ففرّ هارباً، فتبعه المسلمون وقتلوا عدداً كبيراً من رجاله، دون نزع الرّماح من خواصر الهاربين أو السّيوف من أعناقهم إلى أن أشبعوا رغبتهم في الانتقام من أعداء الله وأشبعوها من دماء الصّليبيين. وأحكم المسلمون حصاراً على حصن الأرك، معتقدين أن ألفونسو قد احتمى هناك، إلا أنه دخل من البوابة الأولى وغادر من أخرى؛ وهكذا فرّ أعداء الله؛ دون أيّة غنيمة. بعد ذلك دخل المنتصرون دخولاً ظافراً إلى الأرك، فحرقوا الأبواب وذبحوا كل من دافع عن المكان. كذلك نصب المؤمنون أنفسهم أسياداً على الغنائم الوافرة التي تُركت في معسكر الصّليبيين، من أسلحة وكنوز، ومؤن من كافّة الأنواع، وأسلحة للدّفاع في الحروب، وأخذوا العديد من النّساء والأطفال كأسرى. وكانت أعداد الصّليبيين الذين ذُبحوا لا تعدّ ولا تحصى، ولا يعرف عددهم سوى الله الذي خلقهم. وأُخذ في الأرك حوالي عشرين ألف سجين، كان الأمير قد حرّرهم عندما أصبحوا تحت سلطته، ولم يُرض هذا الموحّدين وبعض المسلمين، الذين اعتبروا هذا الفعل غلوّاً يتصف به الملوك.

وقع هذا الانتصار العظيم والفريد يوم الأربعاء التاسع من شهر شعبان الفضيل من العام 591 هـ. والفترة التي انقضت بين يوم الأرك ومعركة الزّلاقة الشّهيرة كانت حوالي مئة واثنتي عشرة سنة. غير إن انتصار الأرك هو الأكثر شهرة للإسلام، وكذلك الأعظم بالنّسبة إلى انتصارات الموحّدين، الذين مجّدهم الله فيه، إذ أنهم شاركوا في تمجيد أمّته. بشّر يعقوب المنصور بالنّصر برسالة وجّهها إلى كل مقاطعات

المسلمين الخاضعة لسلطته، في إسپانيا وكذلك المغرب، والقبلة، وأفريقيا. حصل الأمير على خُمس الحصّة من الغنائم، وقسم الباقي إلى حصص وزّعت بين قواته من الموحّدين.

واصلت القوات المسلمة تحركها للقيام بغزواتٍ على مقاطعات الصّليبيين، فسيطرت على مدنهم، واستولت على خيولهم، وحرقت بلداتهم، وأريافهم، ومزارعهم، وذبحت سكانهم أو خطفتهم، ونهبت ثرواتهم. واستمرّت هذه الغزوات إلى أن وصلت الفرق المسلمة إلى جبل سليمان، حيث عادت محمّلة بالغنائم، ولم يجرؤ الكفّار على القيام بأيّة محاولةٍ لردعهم. ثمّ عاد جميعهم إلى إشبيلية، المدينة التي دخلها الأمير يعقوب أبو يوسف المنصور منتصراً. وأمر بعدها بإنشاء جامعٍ رائع هناك، معطياً توجيهات على أن تكون المئذنة بارزة وعالية جداً.

في أوائل عام 592 هـ، غادر الأمير إشبيلية للدّخول في حملة أخرى ضد الكفّار، حيث سيطر على حصن قلعة رباح Calatrava مع وادي الحجارة، و Mahubat، وجبل سليمان، وفيح Fih، وقيش Kis، على حدود طليطلة. كان الملك ألفونسو يقيم في هذه المنطقة، فحاصره الملك يعقوب المنصور فيها. دمّر الأمير بعدها الحدائق، وأتلف الحقول المجاورة لطليطلة، وضغط عليها بشكلٍ كبير، وقطع عنها الماء. وكذلك دكّ الأمير بالآليات الحربية أسوارها، وبعد أن تبيّن له أن الحصار سيمتدّ، انطلق مواصلاً زحفه على المدينة وتلامنكا Talamanca، التي دخلها والسّيف بيده، فأعدم جميع السّكان الذكور، وأسر النّساء والأولاد. ثم نهب المدينة، وأضرم النّيران في المكان، وهدم الأسوار، وترك المدينة خراباً. وبعدما تم ذلك، عادت القوات إلى إشبيلية بعد أن استولت على حصون عدّة في طريقها، من بينها البلاط Albalat وتورغييلا Torgiela ودخل إلى إشبيلية منتصراً في شهر صفر من العام 593 هـ.

أمر الملك عندها بمواصلة بناء الجامع مع المئذنة الشّامخة التي بدأ العمل عليها

مسبقاً، بأسرع ما يمكن لإنهائها. كما أنه أصدر أوامرَ للتحضيرات لصنع قبّة كرويّة ضخمة وجميلة ليس لها مثيل، ذات قطر كبير لم يستطيعوا إدخالها من المئذنة. كان وزن عمود الحديد الضّخم الذي يحمل القبّة ألف رطل، وقام بتصميمها ورفعها وتثبيتها ابن الليث الصّيقلي، وكانت مقدّرة بحوالي مئة ألف دينار[1].

في هذه الأثناء وخلال الحملات الإسبانية جميعها، كان العمل قائماً على إنشاء القصبة أو قلعة المغرب، مع أبراجها العالية دون انقطاع، بأمرٍ من أمير المؤمنين، الذي أيّد كذلك فكرة إعادة ترميم منبر جامع الكتبيين. وفي جوار سلا، قام يعقوب المنصور أيضاً بتأسيس مدينةٍ جديدة، تدعى رباط الفتح، مع جامعٍ رائع. وفضلاً عن ذلك، أصدر الأمير أوامرَ لتأسيس مدينةٍ جديدة في إسبانيا على سواحل الوادي الكبير أو النّهر الكبير؛ وسمّيت حصن الفرج. وبدأ العمل فيه عند إنهاء الجامع العظيم في إشبيلية، وعندما تم إنجازه، عاد يعقوب المنصور إلى مقاطعاته الإفريقية. وصل إلى بلاطه في المغرب في شهر شعبان من عام 594 هـ فوجد أنّ العديد من الأعمال التي كان يشرف عليها مثل القصبة، والقصور، والجوامع مع صروحها، قد أُنجزت. وأنفق الأمير عليها خُمس الثّروة التي جمعها من الصّليبيين.

وقد أنجز مهندسون معماريون هذه المشاريع على حسابهم الخاص، إلا أنّ كلفة المواد المختلفة كانت هائلة جداً وأمسى رأسمالهم معدماً ونادراً ما وجدوا الموارد المالية لتلبية الطّلبات المتوجّبة عليهم، غير أنهم لم يجرؤوا على الضّغط من أجل دفع المبالغ المستحقة لهم من خزينة الأمير. وفي أحد الجوامع بنى المهندسون المعماريون سبعة أبواب، نسبة إلى أبواب الجنة السّبعة. وحينما دخل يعقوب المنصور لأول مرة إلى المبنى عبّر عن رضاه التام، وكان ممتناً للغاية من الأبواب، ومن براعة صنعها. عندها أردف للمهندس المعماري قائلاً: «ما هذه الأبواب الجميلة؟» فأجابه أن هذه الأبواب تمثّل أبواب الجنة السّبع، وأنّ الباب الذي دخل

(1) أزيلت هذه القبّة عندما بلغت مئذنة الخيرالدا La Giralda ارتفاعها الحالي، ووضع عليها الصّليب. (فوستر)

منه أمير المؤمنين هو الباب الثّامن، أو باب الثّواب؛ فعندما سمع الملك كلماته، رد عليه قائلاً: «هذا ما أدركته تماماً، وفرحت كثيراً بالفكرة المبتكرة والبديعة والبارعة في التّصميم الذي قمت به».

بعد أن أخذ الأمير قسطاً من الرّاحة في بلاطه، قام بالترتيبات المتعلّقة بقسم يمين الولاء لابنه الأمير محمّد أبي عبد الله، الملقب بالنّاصر لدين الله، الذي أُعلن أنه خليفة والده المستقبلي. أقسم شيوخ الموحّدين الكبار اليمين، كما فعل أولئك في جميع المقاطعات، وتمّت مبايعة محمّد أبي عبد الله ولي العهد لعرش الأندلس، والمغرب والقبلة وأفريقيا، من أطرابلس حتى سوس بلاد الأقصى، وصحارى القبلة. واعترفت به كل الشّعوب في جميع المدن الكبرى، والحصون، والقلاع، والأرياف، والجبال والوديان، والمثقفين، والقبائل الرُّحّل، وأضيف اسم الأمير في الصّلوات يوم الجمعة على مدار العام.

لم ينقضِ وقتٌ طويل من يوم أداء هذه المراسم، حتى قبول محمّد عبد الله المشاركة في الحكومة؛ ولكنه نادراً ما شعر بأنه ملك على العرش وحاكم المملكة باسمه، خلال فترة حياة والده وبأمرٍ منه، وبعد أن قرّر الأمير الاستراحة من مسؤوليات الحكم تحت ظلال أكاليل الغار وسط الحدائق السّاحرة لقصره، فقد كان المرض فتك به إلى أبعد الحدود.

تفاقم مرض الأمير، وعلم أن أيامه أصبحت معدودة وأنه سيصبح قريباً في عداد الأموات. فصرّح يعقوب المنصور لوزرائه أنّ هناك ثلاثة أشياء لا زالت تعذّب ضميره حتى هذه اللحظة لا أكثر. أولها أنه أحضر العرب إلى غرب أفريقيا، على الرّغم من أنه كان يعلم أنهم أناسٌ من أصولٍ مختلطة؛ بعدها، بناء مدينة رباط الفتح التي كلفت الدّولة مبالغ كبيرة؛ وأخيراً، وأهمّها، أنه حرّر عشرين ألف صليبياً كانوا تحت إمرته وسلطته في مدينة الأرك.

وبعد فترةٍ من التلفّظ بهذه الكلمات، مات الملك يعقوب المنصور، رحمه الله. وأقيمت جنازته في القصبة في المغرب رأساً بعد صلاة العشاء، من ليلة الجمعة الثّاني

والعشرين من شهر ربيع الأول عام 595 هـ. والله وحده مالك المُلك والدّائم على الدّوام.

كان يعقوب المنصور أحدّ أهم ملوك المسلمين وأكثرهم شجاعة، وأفضل أمراء الموحّدين، حكيماً في المشورة، ذا شجاعة متميّزة، وخيّراً. رحمه الله وتغمّده برحمته وغفر له ذنوبه، فهو وحده القادر على مغفرة عباده ومثوبة المؤمنين.



الفصل الرّابع والخمسون

خلافة أمير المؤمنين محمّد أبي عبد الله

كان أمير المؤمنين محمّد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي الموحّدي يلقب أيضاً بأبي عبد الله النّاصر لدين الله وهو ابن أم عطاء الله ابنة السّيد أبي إسحاق، ابن الأمير عبد المؤمن بن علي، ومن نفس السّلالة الملكية للأمير محمّد بن يعقوب. نُقشت على ختم محمّد عبد الله الكلمات التالية: «ثقتي بالله، وهو القائم بالحق»[1]؛ وكان يكتب على راياته هذه العبارة: «الحمد لله وحده». كان محمّد حسن المظهر ذا مظهر متناسق أبيض البشرة صغير العينين. وكانت لحيته سوداء وكثيفة جداً، وحاجباه عريضين وأهدابه طويلة، وملامح وجهه وقورة وجدّية. وكان محمّد أبو عبد الله يبدي حكمةً وتبصّراً في مختلف الأعمال التي يتولاها، سواء في احترام السّلام أو الحرب، وكانت تعيبه ثقته العمياء بوزرائه، وعدم ظهوره كثيراً في المناسبات الهامة. كان وزراؤه: ابن سعيد وابن مثني Aben Motani؛ وكان حاجبه أو وزيره الأعلى أبا سعيد بن جمعة. وقد جدّد يمين الولاء الذي مُنح له في حياة والده، رسمياً بعد وفاة الملك، من قبل الشّيوخ الموحّدين، في جميع مقاطعات المملكة؛ وكان اسم محمّد أبو عبد الله بن يعقوب يُذكر في الخطبة في جميع المساجد، وأُعلنت خلافته للعرش على المنابر.

خلال الفترة المتبقية من شهر ربيع الأول بعد وفاة والده، بقي محمّد أبو عبد الله في بلاطه في المغرب، وكذلك خلال شهر ربيع الآخر؛ وفي أوائل جمادى الأولى، من

---

(1) العبارة ترجمة عن الإسبانيّة، وليست النّصّ بحذافيره. (أحمد)

العام 595 هـ رحل من المغرب وعاد إلى فاس حيث بقي هناك حتى الخميس الأخير من ذلك الشّهر. ثم زحف الأمير إلى جبال غمارة، حيث قتل الودان الغمري Aludan El Gamri الذي أعلن ثورة وقام بتهدئة المدن المجاورة، وأخضع المنطقة بأكملها، وعاد الأمير بعدها منتصراً إلى مدينة فاس. بقي لبعض الوقت في تلك المدينة، مشغولاً في بناء القصبة أو القلعة، وترميم الأسوار التي دمّرها جدّه الكبير عبد المؤمن بن علي عندما استولى على تلك المدينة. وهنا لازم محمّد أبو عبد الله بلاطه حتى العام 598 هـ حين تلقّى أنباء مفادها أن زعيم المرابطين الميورقي كان يوسع فتوحاته إلى أفريقيا، وأنه قد نصّب نفسه سيداً على بلداتٍ عديدة.

ثم غادر الملك أبو عبد الله بن يعقوب الملقب بالنّاصر لدين الله مدينة فاس، وأبحر نحو مقاطعة أفريقيا؛ وعندما وصل إلى الجزائر في مقاطعة مزغنة Mezgana، أمر أن يزحف جزء من قواته ضد الميورقي، من تلك المدينة، وأن تسيطر هذه القوة على المدن والحصون التي احتلها الثّوار؛ دخلت الجيوش مدينة أفريقيا، والسّيوف في أيديها، في شهر ربيع الأول من العام 600 هـ فقدّم السّكان أنفسهم إلى الأمير مؤكّدين له طاعتهم لسلطته، ومُقسمين له يمين الولاء والطّاعة. فعفى الملك النّاصر لدين الله عنهم ووضعهم تحت وصايته، وسلّم أمرهم إلى القاضي الإمام المحدّث عبد الله بن حفالة Ben Hufala. بعد هذه الترتيبات، واصل الأمير مسيرته في المقاطعة بأكملها، فوضعها تحت إمرته.

اضطرّ الميورقي وأنصاره للفرار قبل وصول الأمير، فأخذوا الأسرى إلى الصّحاري، وحصّن القائد نفسه في مدينة المَهديّة، التي كان يعتبرها ملكاً له منذ أن عيّن والياً عليها. كان يحيى بن إسحاق الميورقي جندياً ذا سمعة رفيعة، وقائد عالم بجميع استراتيجيات الحرب وكان تابعاً للأمير النّاصر لدين الله، إلى أن حصره هذا الأخير في المَهديّة، عندما حاصر الملك المكان بإحكامٍ قوي، وهاجم الأسوار بآليات حربية. لم يتمكّن المدافعون عنه من الرّاحة في الليل أو فيّ النّهار، فقد كان يهاجمهم بين الحين والآخر وفي كل ساعةٍ وكانت جنوده من الموحّدين من المغرب تقاتلهم ببسالة متناهية.

إلّا أنّ الميورقي، وهو قائد بالغ الشّجاعة ومحنّك، قد دافع عن المنطقة بكل حميّة، دفعت الموحّدين إلى الشّعور باليأس من النّجاح، حيث طال الحصار عليه.

مرّت أشهر عدة وقعت فيها هجمات يومية ضارية بين المعسكرين، دفعت الأمير إلى تطويق المكان بشدة أكثر من ذي قبل. فاستخدم آليات حربية لم يستخدمها أحد من قبل ضد الأسوار، فدمّرت المدينة، وكان السّكان يشعرون وكأن السّماء تمطر وابلاً من النّيران والحجارة عليهم ممّا أحدث دماراً خطيراً في ممتلكاتهم وزهقت أرواح الكثيرين. أيضاً أطلق الملك كراتٍ حديدية على المَهديّة، لذلك قام القائد الميورقي بعد أن تبدّى له المنظر الفظيع الذي آلت إليه المملكة وبعد أن فقد الأمل في السّيطرة عليها، بإرسال مبعوثين إلى الملك النّاصر لدين الله، يلتمسون عفوه ورحمته، وينشدون الأمان لحياته، أو أقلّه لحياة السّكان البائسين. وبالتّالي عفى الأمير عنهم مانحاً الأمان الذي اقتضاه للمدنيين؛ وعامل الميورقي بفائق الاحترام، وبعد أن تمكّن من لمس وفائه بعد ذلك وقيادته الحكيمة للموحّدين منحه الملك بيتاً رائعاً. ثم تلقّى محمّد أبو عبد الله يمين الولاء من شعب المَهديّة بعد أن قام بفتحها في سنة 601 هـ.

في العام 602 هـ ورث محمّد أبو عبد الله حكومة مقاطعة أفريقيا من الشّيخ أبي محمّد عبد الواحد، ابن أبي بكر بن حافظ. وعندما كان الحاكم في طريق عودته إلى المغرب، وفي نقطة وادي شلاف Guadi Xelaf، طالعته جنود الميورقي وقبائل صنهاجة وزناتة قد حشدها المتآمر مرّة جديدة. فقاتلت جنود الملك الثّوار وأبادتهم وفرّ الميورقي. ووقع هذا الصّراع يوم الخميس في اليوم الأخير من شهر ربيع الأول من العام 604 هـ. بعد استبعاد المرابطين وأتباع الميورقي من أفريقيا، أعدّ الملك النّاصر لدين الله العدّة لإرسال حملةٍ ضد جزر ميورقة، حيث كان شقيق يحيى بن إسحاق، عبد الله بن إسحاق ملكاً. أرسل الأمير قواته إلى تلك الجزر بحراً على متن سفنٍ عديدة؛ وعلى الرّغم من أن المرابطين دافعوا عن أنفسهم جيداً، فإنّ قوات محمّد أبي عبد الله تمكّنت من التّغلّب عليهم وحاصروا الملك عبد الله بن إسحاق في ميورقة، وسيطروا عليها بسرعة، جاعلين من عبد الله سجينهم. قاموا بعدها بقطع

رأسه وإرساله إلى المغرب؛ وعلّقوا جثته على أسوار المدينة. واستسلمت أصغر جزر مَنورقة وهي إيبيثا (إيبيزا، وبالعربيّة يابسة) بعد التّوقيع على اتفاقية استسلام.

في العام 604 هـ أمر الملك محمّد أبو عبد الله بإعادة بناء مدينة الوحيدة Medina Alwuhida، وبدأت الأعمال بجهدٍ كبير، ورمم المكان قبل نهاية شهر رجب من العام نفسه. بالإضافة إلى ذلك، أصدر الأمير أوامرَ بترميم أسوار مدينة المزمة Mezma في بلاد الرّيف، كما أنه بنى قلعة بيديس Bedis. غادر الملك محمّد مدينة فاس عائداً إلى بلاطه في المغرب، في شهر شوال؛ وقبل رحيله من المدينة أمر بأن تفتح القناة أو ما كان يعرف بالسّقيّة Azaquia الموجودة في حي الأندلسيين، فمرت مياه الينابيع بسهولة ودون أي حواجز وأمر أن تجري حتى البوابة الشّمالية وجامع الأندلسيين. أنفق أمير المؤمنين على هذه الأعمال مبالغ طائلة من الأموال، وبنى مسجداً في حي القيروانيين وطلب تأدية الصّلاة فيه عوضاً عن جامع الأندلسيين؛ وأجبرهم خلال خمس سنوات على أداء صلواتهم حصرياً فيه قبل أن يعودوا للصّلاة في مسجد الأندلسيين، وأصبح كلاهما مكاناً للعبادة بالتّناوب.

في العام 605 هـ، كان الملك النّاصر لدين الله في المغرب، عندما تلقّى أنباءً من الأندلس بأنّ ألفونسو اللعين زحف مجدداً نحو أراضي المسلمين، فأتلف حقولهم، ونهب محاصيلهم، وحرق بلداتهم، واحتلّ حصونهم، وأخذ السّكان الذين لم يقم بذبحهم أسرى. ناشد الشّعب المنكوب العون من أميرهم، وبالتّالي أمر محمّد أبو عبد الله بحشد قواته من أجل القيام بحرب مقدّسة في إسپانيا. وزّع الملك مبالغ هائلة على قادته، وعلى جنودهم، كما أنه كتب رسائل إلى جميع مقاطعات المغرب، وأفريقيا، والجنوب، موصياً شعبه القيام بواجب الجهاد من جديد. تلقّى الملك محمّد أبو عبد الله ردوداً على هذه الرّسائل، تؤكد إرادة أتباعه بالانقضاض على الكفار، معلنين عن استعدادهم للتجمّع فوراً لنُصرة راية الإسلام.

لم ينقض وقتٌ طويل قبل أن تحتشد أعدادٌ هائلة من الجنود المشاة من جميع القبائل في جزئي المملكة، وقوّة كبيرة من الفرسان؛ وبالإضافة إلى القوات العسكرية

أتت أعدادٌ هائلة من النّاس، من جميع الأعمار، للتطوّع من كل قُطر في المملكة. وعندما أصبحت هذه القوات جاهزة، غادر الملك النّاصر لدين الله بلاطه في المغرب للمرة الثّانية، في التاسع عشر من شعبان من 607 هـ وسار بها إلى أن وصل إلى قصر المجاز Alcazar Algez. عسكر هناك، وبقي فيه حتى وصل الجيش الزّاحف إلى إسپانيا، ومعهم أسلحتهم، والذّخائر الحربية، وجميع الأشياء المتطلبة للجهاد.

بدأ الإنزال في شهر شوال، واستمرّ حتى نهاية ذي القعدة من العام المذكور أعلاه. وعندما مرّت جميع القبائل، أبحر أمير المؤمنين محمّد النّاصر لدين الله، على متن سفينةٍ، تابعاً الموحّدين. ورسا على ساحل طريف Tarifa، حيث استعد جميع القادة في الأندلس، ومعهم الشّيوخ والفقهاء، لاستقباله وقدّموا له جميعهم الطّاعة وهنّأوه على وصوله بالسّلامة. بعد استراحة دامت ثلاثة أيام في طريف، واصل الملك تقدمه باتجاه إشبيلية، على رأس جيشٍ لا يعد ولا يحصى، كما الرّمال في الصّحراء، سار في مجموعاتٍ غطّت الحقول والجبال، والسّهول والوديان؛ وقد رقص قلب محمّد أبو عبد الله فرحاً عند رؤية هذا الحشد ولم يُخفِ ذلك حيث أنه كان من المستحيل عليه جمع القوة هذه بمفرده. قام الأمير بتقسيم القوة المهاجمة إلى خمسة أقسام: الأول، يتألف من العرب وقبائل زناتة ومَصمودة وصنهاجة وغمارة، وغيرها من القبائل؛ والثّاني الرّجال القادمون من المغرب؛ والثّالث المتطوّعة، وقد بلغ عددهم ما لا يقلّ عن مئة وسبعين ألف رجل، وزّعوا بين جنود مُشاة وفرسان. أمّا الأندلسيون وقادتهم، فقد شكّلوا المجموعة الرّابعة، وكانت الخامسة تضمّ الموحّدين. أمر الأمير أن تعسكر كل فرقة منفردةً؛ وبعدها زحف الجنود نحو إشبيلية، حيث وصلوا في السّابع عشر من شهر ذي الحجة، في العام 607 هـ، ونصبوا هنالك معسكراً لبعض الوقت.

خلّفت الإشاعات حول هذه الاستعدادات صدىً في جميع مناطق إسپانيا؛ وعندما وصل الأمر إلى مسامع الصّليبيين حول الحشد الهائل الذي يتقدّم باتجاههم، ارتعدوا خوفاً، وحل الرّعب في قلوب ملكهم. فسارعوا إلى تحصين الحصون والقلاع الواقعة على حدودهم، وفي الوقت عينه تركوا جميع الحصون للمسلمين والتي كانوا قد

استولوا عليها على تلك الحدود. وكتب بعض القادة الصّليبيين إلى أمير المؤمنين، يستعطفون السّلام، ويتوسّلونه للتخلّي عن مخطّطه بالهجوم عليهم، ومن ضمن هؤلاء ملك بيانة[1] Baena الذي قدّم طوعاً طاعته وخضوعه الذّليل؛ وقد مُلئ قلب الكافر بالخوف وارتعد لوصول أمير المؤمنين إلى إشبيلية، وبما أنه اعتبر أنّ الأفضل لسلامة نفسه وأراضيه، كان الاستسلام والاسترضاء فقد أرسل مندوباً إلى أمير المؤمنين، طالباً السّماح له بزيارته، وعندما قبل طلبه جاء إلى حضرته وطلب منه العفو عن بلاده.

أصدر الأمير أوامره لكل المدن والمقاطعات التي سيمرّ بها الملك المسيحي، أن تُحسن ضيافته وأن ترحّب به خلال الأيام الثّلاثة؛ ولكن في اليوم الرّابع، وعندما كان على وشك الرّحيل، ألزم قائد المدينة الأخيرة التي حلّ عليها أن يتم اعتقال ألف من الفرسان الذين كانوا برفقته وتم ذلك. ثم غادر الكافر الملعون بلاطه وسار مع شعبه لزيارة الأمير. وعندما دخل منطقة المسلمين، تقدّم القادة وجنودهم لاستقباله، وعاملوه طبقاً للأوامر التي تلقوها، استقبل بالتّرحاب وبأحسن آداب الضّيافة. غير أنهم اعتقلوا في اليوم الأول 1000 فارس من مرافقيه، ولم يكفّوا عن فعل ذلك إلى أن وصل إلى مدينة قرمونة Carmena، حيث لم يبقَ معه سوى ألف رجل.

بعد مرور أيام الضّيافة الثّلاثة، وحلول وقت الرّحيل، طُوّق هؤلاء الفرسان واعتُقلوا فدهش ملك بيانة وسأل قائد قرمونة قائلاً: «كيف عساي أرحل دون مرافقين من سوف يمضي في صحبتي؟» فردّ القائد على هذا قائلاً: «سوف تمضي رحلتك تحت حماية النّاصر لدين الله، أمير المؤمنين، وتحت ظلال سيوف المسلمين». وبالتالي تقدّم هذا الملعون على هذا النّحو من قرمونة مع زوجته وخدمه. وأحضر الكافر معه مُصحفاً ليقدّمه إلى محمّد إلى عبد الله، فوضعه في علبةٍ ذهبية مليئة بالعطور الفاخرة ومغطّاة بالحرير الأخضر النّفيس، الأنيق المزخرف، والمرصعة بالذهب والياقوت والزّمرد وغيرها من المجوهرات التي لا يمكن تقديرها بثمن. وكان قد ورث هذه الهدية عن

(1) ونعني به في هذا السّياق دون أدنى شك الملك سانچو السّابع ملك ناڤار الذي يذكر القراء بالتأكيد الخلاف الذي دبّ بينه وبين البابا كليستين الثالث. (فوستر)

أجداده، فأحضرها بيديه المدنّستين[1]، لتقديمها إلى أمير المؤمنين.

تبلغ المسافة بين قرمونة وإشبيلية حوالي أربعين ميلاً، وكان الأمير قد أمر باصطفاف الجنود على طول هذه المسافة. من بوابة المدينة إلى تلك الموجودة عند مدينة إشبيلية، وبوابة قرمونة، التي سيدخل منها الصّليبيون، وقد أُمّنت طريق الكافر بواسطة الجنود المتراصّين على طول الخط الذين يحملون الرّماح أو السّيوف مستعدّين للقتال. وهكذا واصل ملك بيانة Baena مسيرته من قرمونة إلى إشبيلية، شاقاً طريقه تحت ظلال سيوف المسلمين ورماحهم. في هذه الأثناء طلب أمير المؤمنين بوجوب إقامة جناحه الأحمر على مسافةٍ معينة من بوابة قرمونة، وأن يوضع في وسطه ثلاث وسائد أو أرائك؛ عندما تم ذلك، استدعى محمّد أبو عبد الله القائد الأعجمي أبا الجيوش، وقال له الكلمات التالية:

«كما ترى يا أبا الجيوش، أنا هنا مستعد للقاء هذا الكافر، وعندما يمثل أمامي، لن استطيع أن أرفض تكريمه بشكلٍ وافٍ، ولكن إذا فعلت ذلك، ودخل جناحي، يجب علي أن أقوم من مجلسي ويمكنني بعدها أن أندم على هذا، وسوف يكون هذا إهانة لشرعنا ولسنتنا أن نكرم كافراً كل هذا التكريم؛ ولكنني إذا بقيت جالساً، سيكون هذا قلة احترام واهتمام من قبلي، لا يجب أن ننسى أن الكافر ملك عظيم وقوي جداً، أتى من بعيدٍ لزيارتي. وبالتالي أود منك القيام بما سأمليه عليك اجلس على الوسادة الواقعة في الوسط وعندما يدخل الزّائر من الباب، سأدخل أنا من الباب الآخر؛ عندها ستقوم لمصافحتي وتجلسني على وسادة الجانب الأيمن، وتصافحه أيضاً وتأخذ بيده لتجلسه على جانبك الأيسر». وهكذا تم تنظيم الاستقبال. جلس أبو الجيوش في الوسط وتم ما اتفق عليه عندما دخل الملكان.

جاء بعدها إطراءات الترحاب بالضّيوف فأردف أبو الجيوش بدايةً: «هذا أمير المؤمنين، ملكنا، أثابه الله». وبعدها، جلس القائد معهما وعمل بصفة مترجم

(1) يلاحظ القارىء أن الكاتب العربي الذي ترجم كوندِه أعماله قد استرسل في الذّم ولم نكن نقرأ قط مثل هذه التّعابير في مطلع الكتاب التاريخي هذا، لكنّ كوندِه أراد أن تظهر كما وردت بكل أمانة. (فوستر)

للمباحثات التي وردت بينهما حيث تباحثا مطولاً في كل الأمور. عندما انتهى اللقاء، اعتلى الأمير حصانه، وكذلك فعل ملك بيانة Baena ودخلا المدينة مع قادة الموحّدين والشّيوخ وقوّات من الحرس. ثم استبقى الأمير ضيفه لبعض الوقت، محضراً له هدايا ثمينة، ونفيسة جداً تليق بملك. بعد ذلك خرج الصّليبي من حضرة محمّد أبي عبد الله وهو ممتنّ للغاية من الاستقبال المشرّف الذي لقيه لدى أمير المؤمنين، النّاصر لدين الله. ولقي ملك بيانة على طول الطّريق المؤدّية إلى مملكته كل ما شاء بأحسن أساليب الضّيافة والكرم العربي.



الفصل الخامس والخمسون

معركة العقاب – عودة أمير المؤمنين إلى المغرب – وفاته

لم ينقضِ وقتٌ طويل على رحيل ملك بيانة، قبل أن يقدم محمّد أبو عبد الله على الحرب المقدّسة، فزحف أولاً نحو مقاطعة قشتالة بعد أن غادر من إشبيلية في اليوم الأول من شهر صفر من العام 608 هـ ولم يتوقف إلا بعد أن سيطر على شَلبَطَرَّة Sarbaterra، وهي حصن منيع على قمّة جبل شامخ وكأنها معلّقة بين الغيوم. لم يكن لذلك الحصن طريق، إلا ممرٌّ واحد عبر المضائق الجبلية التي تحيط بها الهاويات المرعبة. عسكر المسلمون هناك، وفرضوا حصاراً على المكان، وهاجموه بضراوةٍ متناهية، فدكّوه على الأقل بأربعين مقلاعاً كبيراً، وغيرها من الآليات الحربية. ودمّروا جميع الأسوار؛ ولكنهم لم يتمكّنوا من التقدّم أكثر.

كان كبير وزراء أمير المؤمنين أبا سعيد ابن غانية، ولم يكن من نسل الموحّدين بل ألدّ أعدائهم، فما إن عُيّن حاجب الأمير وكبير وزرائه حتى قام بإذلال وقهر أعيان الموحّدين، فاستعفى العديد من الشّيوخ والفرسان المميّزين الذين ساهموا بشجاعتهم في تمجيد مملكة الموحّدين، وتنحّوا عن خدمة الملك. وبطش للغاية حتى ترك الجميع ملكهم ولم يبقَ سواه وشخصٌ يثق به يدعى ابن منسى Aben Muneza في خدمة الملك الذي لم يكن يقوم بكبيرة أو صغيرة دون استشارة هذين الرّجلين. وقد تمكّنا بطريقة ما من تسييره وفق رغباتهما. بعد المرور على حصن شَلبَطَرَّة Sarbaterra في الحملة ضد قشتالة، أعجب الملك بالقوة الخارقة التي أظهرها ذلك الحصن، وقال له كلاهما: «أيها الأمير، لا يحسُن بالجيش أن يخرج من المدينة منهزماً دون السّيطرة

على القلعة المنيعة هذه بقوة السّلاح، وستكون هذه العملية بمشيئة الله أول انتصار لنا». واستمرّ الحصار وقتاً طويلاً ويقال إن طيور السّنونو بنت عشّها فوق جناح الأمير، ووضعت بيضها هناك وأطعمت صغارها إلى أن أصبحت طيوراً ورحلت بعيداً، بالإشارة إلى طول وقت الحصار. بدأ الحصار الذي دام ثمانية أشهر في فصل الشّتاء؛ وازدادت قساوة الطّقس وأُرهق الفرسان وجاعت الخيول وبدأ الجنود يهلكون بأعدادٍ كبيرة، من الجوع، ومن الطّقس العاصف، وسادت الفوضى في صفوف المؤمنين المجاهدين.

عندما علم ألفونسو بجميع هذه الأمور، وبأنّ قوة وشجاعة المسلمين قد تقلصت ابتهج قلبه كثيراً؛ واغتنم الفرصة التي قدّمت له، فرفع الصّلبان ورايات الكفر وحشد أتباعاً من ملوك الصّليبيين فجمعوا قواتهم وانضم إليه رجال من جميع الأقطار. تمكّن الملك الصّليبي من حشد جيش عظيم، فبلغ اغتباطه أعظم مبلغ؛ وتقدم بلهفةٍ للصّراع وللانتقام. سار مسلمو سانتا ماريّا (شنتمرية) لمواجهته غير أنهم قاموا بذلك بشكل متسرّع فتمكّن ألفونسو من هزيمتهم. ثم تابع قدماً على طول خط الحدود مع المسلمين، فاجتازه، ودخل إلى مقاطعتهم، وفرض حصاراً على قلعة رباح Calatrava.

وكان هذا المعقل بقيادة القائد الشّجاع والمحنّك، أبي الحجّاج بن قادش Ben Cadis، فدافع مع سبعين فارساً من المسلمين عن الحصن، غير أنّ ألفونسو حاصرهم بإحكام وجدد هجماته عليهم في الليل والنّهار ودار العديد من الصّراعات الدّامية بين الطّرفين؛ إلا أن ابن قادش دافع وقومه عن المكان بشجاعةٍ وثبات ولم يتمكّن الكفار من التّغلّب عليه. ومع ذلك كانت قواته تعيش حالة من الضّيق وكان ابن قادش يرسل يومياً رسائلَ إلى أمير المؤمنين ليعلمه عن الحالة المزرية التي وصل إليها طالباً منه المساعدة؛ ومعلناً أنه في حال لم يستلمها سوف يسلّم الحصن إلى أيدي الكفرة.

لم يطّلع محمّد أبو عبد الله على هذه الرّسائل أبداً فقد عمد وزيره إلى إخفائها، خشيةً من أن يغادر شَلبَطَرَّة Sarbaterra قبل السّيطرة على تلك القلعة. وكان الوزير يقوم بمثل هذا الفعل في العديد من الأمور الأخرى المتعلقة بشؤون الدّولة، حيث لم

يطّلع الأمير على أي منها؛ ولا حتى على اعتراضات وشكاوى أتباعه. وطال الحصار على قلعة رباح Calatrava وفقد ابن قادش الجزء الأكبر من رجاله، جوعاً أو على أثر إصابتهم بجروح، وقد تمكّن من التّخفيف عمّن بقي منهم بعد أن طلب هدنة من ألفونسو، على أن يقوم عند انقضائها بتسليم الحصن في حال لم يتمكّن من رفع الحصار عنه وقد قام بذلك آملاً أن يرسل له أمير المؤمنين العون. مضى الوقت المحدّد، ولم تُرسل النّجدة فأُجبر القائد على تسليم الحصن إلى ألفونسو، والتزم العدو بالشّروط التي حُدّدت في المعاهدة وخرج كل من كان داخل الأسوار أحراراً وفي حال قرّروا البقاء برضاهم، أن يعاملوا بكل احترام؛ إلا أن جميع المسلمين غادروا الحصن، وبعدها استولى الصّليبيون عليه.

غادر ابن قادش مع جيش أمير المؤمنين، وحَميه، الذي كان فارساً شجاعاً وقوياً جداً، قدّم له العديد من الخدمات ودعمه خلال الحصار. وكان ابن قادش يهاب أن يموت الرّجل نظراً لسنه على الطّريق غير أنّ حماه كان يحبّه للغاية قرّر أن يرافقه حيثما ذهب، وبما أنهما لم يموتا معاً في الحصن فإنه يتمنّى أن يموت بصحبته في أي مكانٍ آخر. بكلمة واحدة لم يترك القائد العجوز لصديقه وصهره أيّ خيارٍ بل أجبر ابن قادش على مرافقته.

عندما اقترب ابن قادش من معسكر الأمير، قدم بعض قادة الأندلس الكبار لمقابلتهم والترحيب بهم وسائلين إياهم عن المستجدات. ولم يكن ابن قادش يشكّ لحظة بما يخبئ له القدر. علم الوزير ابن غانية بقدوم ابن قادش وحميه فأمر أن يبقيا بحراسة الزّنوج البربر وأن يعاملا بقسوة فرُبطت أيديهما وراء ظهريهما، واحتجزا كسجينين. ثم هرع الوزير إلى جناح الأمير، وعندما استفسر محمّد أبو عبد الله منه قائلاً: «ماذا حدث لابن قادش لماذا لم يأتِ بعد لتحيّتي؟» فأجابه أبو سعيد: «إنّ الخونة أيها الملك يجب ألّا يحضروا أمام أمير المؤمنين». وقام بشحن رأس الأمير بالشّرور والأكاذيب حتى زاد من حنقه عليهما، فأمر الحراس باستدعائهما ووجّه إليهما كلماتٍ قاسية، متّهماً إياهما بالخيانة وهما منها بريئان ورفض أن يستمع إلى

أيّ من أقاويلهما. وأمر محمّد أبو عبد الله بإعدامهما فوراً، برماح الحرّاس.

شعر كل الجيش بالاشمئزاز للمشهد الفظيع، وساد جوّ من البلبلة في صفوف القوات، فأدان الأندلسيون هذا الفعل وفقدوا الحماسة للقيام بالحرب، بل أصبحوا لا مبالين بها وتشوّشت ضمائرهم وتكدّرت لما شاهدوه. وعندما علم الوزير بشكاوى أولئك الجنود، أمرهم بالتجمع في الجناح الملكي، وأعلن لهم بحضور الأمير أنه لا يوجد أي وجه شبه بينهم وبين الموحّدين، وبالتالي فعليهم أن يعسكروا بمعزلٍ عن الجميع، وأن يؤدّوا نوعاً آخر من الخدمات.

كان الملك النّاصر لدين الله قلقاً للخسّارة التي تكبدها في قلعة رباح Calatrava؛ وشعر بالإهانة والغضب وامتنع عن الأكل والنّوم. وبعد أن علم بأنّ جيش ألفونسو كان على مقربة من معسكره، كان راغباً في فضّ الحصار الذي حجزه لمدةٍ طويلة. لذلك أمر القيام بهجمات متكرّرة على الحصن إلى أن أجبر الصّليبيين الذين خسروا الجزء الأكبر من رجالهم على الاستسلام بعد توقيع معاهدة وضعت شروطها في اليوم الأخير من شهر ذي الحجة من العام 608 هـ ووقع حصن شَلبَطَرَّة Sarbaterra في أيدي الأمير.

عندما علم ألفونسو أنّ حصن شَلبَطَرَّة قد استسلم، زحف لمواجهة الملك النّاصر لدين الله، ومعه كل الملوك الصّليبيين الذين جاؤوا لمناصرته؛ وكان أمير المؤمنين على يقين بأن هذا الأمر واقع لا محالة، فحشد جيشه وخرج للقائهم. تقابل الجيشان في مكانٍ يدعى حصن العقاب فأقام كل منهما معسكراً له. بعدها قام الملك النّاصر لدين الله باستعراض جنوده، وأمر بإقامة جناحه الأحمر وكانت تلك إشارة لرغبته في شنّ الحرب. وبالتالي نصبت الخيمة على هضبةٍ صغيرة، حيث اتخذ الملك مقرّه، ووقف حرّاسه على شكل دائرة حول جناحه، مشكّلين حاجزاً من جميع الجهات. وأمام الحراس اصطفّت جموع الجيش ومعهم الرّايات والطّبول، وكان الوزير والقائد ابن غانية وسط الجنود.

تقدّم حشد الصّليبيين لبدء المعركة، بأعداد وافرة وكأنها أسراب من الجراد لا تعدّ

ولا تحصى. وانطلق المتطوّعة في جيش الأمير في مجموعة مؤلفة من مئة وسبعين ألف رجل، لمواجهة الكفار؛ وبما أنهم لم يكونوا من المتمكّنين في فنون القتال فقد عمّت الفوضى صفوفهم وفشلوا في مهاجمة العدو الذي أحاطهم من كل صوب بجحافله التي لا تعدّ، ودارت مجزرة رهيبة وقع ضحيتها آلاف الجنود المسلمين الذين نالوا شرف الاستشهاد في ذلك اليوم بعد أن قاتلوا بكل عزم وشجاعة وماتوا وهم يقاتلون حتى لفظ آخر رجل منهم أنفاسه الأخيرة.

ثم قام الصّليبيون بهجوم مفاجئٍ لم يتمكّن الموحّدون والعرب من مقاومته، على الرّغم من الملاحم وفصول الشّجاعة التي أظهروها في ساحة القتال. ولكن في خضمّ المعركة، وبينما كان المقاتلون من الطّرفين متسربلين بالدّماء، وفي وسط الغبار المتصاعد من ضراوة الصّراع، قام القادة الأندلسيون وجنودهم بالفرار من ساحة المعركة. وحرّضهم على هذا فعل الكراهية والرّغبة في الانتقام التي ألمّت بقلوبهم من اللحظة التي لمحوا فيها الموت الموجع والظّالم الذي نزل بقائدهم الشّجاع والنّبيل ابن قادش؛ وجاءت أمامهم الفرصة للانتقام للإهانات التي تلقوها من الوزير ابن غانية، ومن وقاحته التي لا تحتمل تجاه مجموعتهم.

عندما رأى الموحّدون والعرب وغيرهم من قبائل المغرب فرار الأندلسيين، وأدركوا أيضاً أنّ جيش المتطوّعة قد تفرّق إلى شراذم، وبما أن الصّراع كان يزداد حدةً وقسوةً عليهم، والهجوم الصّليبي كان يزداد في كل لحظة، عمّت بينهم الفوضى، وبدأوا بالفرار أمام عدوهم. تبعهم المقاتلون الصّليبيون بحنقٍ أكبر يهاجمونهم ويخترقون صفوفهم من جميع الاتجهات إلى أن هزموهم نهائياً.

قامت جنود الكفّار بعدها بمهاجمة الحرّاس الزّنوج الذين كانوا يحيطون بالأمير، ووجدوه جداراً منيعاً لم يتمكّنوا من زحزحة صفوفهم فامتطوا أحصنتهم الهائجة، وصوبوا رؤوس حرابهم على الحراس الشّجعان، غير أنهم مرة أخرى عادوا أدراجهم خالي الوفاض، غير أنهم استطاعوا أخيراً خرق فرق الزّنوج وتدمير الحماية التي كانوا يؤمّنوها. كان الأمير محمّد أبو عبد الله في تلك الغضون قابعاً في جناحه، فقال «الله

هو الحق، والشّيطان هو الرّجيم». تسلل الصّليبيون حيث كان جالساً، بعد أن مات من كان يدافع عنه بشجاعة وهم يقاتلون، ولم يبقَ سوى القليل من العشرة آلاف زنجي الذين كانوا يحرسونه، فدخل عليه عربي يمتطي فرساً سريعة وقال: «إلى متى ستبقى جالساً أيها الأمير؟ فإنّ حكم الله قد لفظ مسبقاً، وانهزم المسلمون شرّ هزيمة». ثم قام محمّد أبو عبد الله من مكانه وكان على وشك أن يعتلي حصانه، فقال له العربي: «مولاي عليك أن تعتلي فرساً من سلالةٍ نبيلة عربية كهذا، لا تعرف كيف تخذل فارسها في ضيقه، وعسى الله أن يخلّصك إذ أن في حياتك سلامة الجميع».

بالتالي اعتلى الملك محمّد فرسه، بينما أخذ العربي حصانه، وفرّا سوياً، محاطين بمجموعة من الفارّين ممّن تبقى من جنود وحراس الأمير محمّد بن يعقوب. تبعهم الصّليبيون مباشرةً، وتابعوا ذبح المسلمين حتى ساعةٍ متأخرةٍ من الليل، ولم تتوقّف سيوفهم حتى أبادوا المسلمين كافة بعد أن أمرهم ألفونسو بعدم أخذ أيّ أسرى، بل بقتل جميع المسلمين؛ لم يؤخذ أيّ أسير في معركة العقاب الضّارية فالكلّ نحر بحد السّيف.

وقعت هذه الهزيمة النّكراء للمؤمنين يوم الإثنين في الخامس عشر من شهر صفر من العام 609 هـ. ومنذ ذلك اليوم بدأت قوة المسلمين تضمحلّ في إسپانيا، وتوقّفت أعمالهم عن الازدهار وأصبح أعداؤهم الصّليبيّون أسياداً على منطقة بعد أخرى، واستولوا تدريجياً على معظم الأراضي[1]. غير أنّ أمير المؤمنين أبا يعقوب يوسف الذي يدعى المستنصر بالله، ابن النّاصر لدين الله - رحمه الله - تمكّن من لملمة بعض أجزاء الخسارة هذه بعد أن أعاد بعض الشّيء السّيادة للمؤمنين وقام بتشييد الجوامع والمآذن مرةً أخرى، ونجح إلى حدٍّ معين في إخضاع الكفار، حيث استولى على جزء معقول من أراضيهم، بقوة السّلاح.

بعد نصر ألفونسو - لعنة الله عليه - ابتهج الصّليبيون ومرّ مع جيشه المنتصر إلى

---

(1) ساهم سانچو السّابع بهذا الأمرإلى حد كبير، فقد قام الملك بغض النّظر عن زيارة محمّد أبي عبد لله كما ورد بهذه الحملات أو لعل هذه الزّيارة كانت السّبب في ذلك.

مدينة أبذة Úbeda التي سيطر عليها بسرعة، ولم يترك مسلماً واحداً فيها على قيد الحياة، سواءٌ أكان ذا شأنٍ عالٍ أو وضيع، كبيراً كان أم صغيراً. وأكمل بعدها مباشرةً ليجعل نفسه سيداً على أماكن أخرى، إلى أن سيطر أخيراً وبنجاح على جميع المدن الرّئيسة في الإمارات، حتى أنه لم يبقَ سوى جزء صغير جداً من الدّولة في أيدي المؤمنين، وكان هو أيضاً على طريق الزّوال بسبب الخلافات المستمرّة فيه، إلى أن وضعها الله بين أيدي ملك بني مَرين الذي منحه الله بمشيئته الازدهار والتوفيق(1).

يقال إنّ جميع ملوك الصّليبيين الذين شاركوا في معركة العقاب وساعدوا في الاستيلاء على أبذة Úbeda ماتوا مع نهاية السّنة ولاقى جميعهم نهايةٌ عسيرة. وصل أمير المؤمنين بعد فراره إلى مدينة إشبيلية أثر هزيمته في معركة العقاب خلال العقد الأخير من شهر ذي الحجة في العام المذكور أعلاه. تبجّح الأمير كثيراً بنفسه، ويظنون فارغة وتافهة حيث تباهى بالأعداد الهائلة من الجنود التي تمكّن من جمعها من أجل هذه الحملة من الفرسان والمشاة، كما لم يفعل أي ملكٍ من قبل، ولأعداد المتطوّعة التي ناهزت مئة وسبعين ألفاً وثلاث مئة ألف جندي، من جنود الموحّدين وقبائل زناتة والعرب. وهذا إذن كان ظنّ محمّد أبي عبد الله، وكذلك كانت ثقته كبيرة بهذه الأعداد الهائلة من الرّجال، وكان يعتقد بأنه لا يوجد أيّة قوة بشرية قادرة على قهرهؤلاء وهزيمتهم. ولكن الله القدير والقادر على كل شيء أظهر له حقيقة أن النّصر هو من عند الله وحده، فهو الله ذو القدر والجلال المجيد العظيم.

عندما عاد أمير المؤمنين إلى المغرب بعد حملة العقاب البائسة، وضع ترتيبات للإعلان عن خلافة السّيد أبي يعقوب يوسف الذي يلقب بالمستنصر بالله،. أقسم

---

(1) إن الجزء الأخير من النّص الذي يشير إلى معركة طلوشة أو العقاب، وفق ما ورد في نص الكاتب العربي، هو جزء من تاريخ بني مرين وسلالتهم في الكتاب الذي يحمل عنوان: "The Odour of the Rose" الذي ألفه إسماعيل بن يوسف حول مملكة هؤلاء. (فوستر)
قلت: والمؤرّخ الذي تذكره فوستر هو المؤرخ الأديب أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر بن يوسف بن القائم بأمر الله النّصري، صاحب كتاب: «روضة النّسرين في دولة بني مَرين». نشر في المغرب عام 1962، المطبعة الملكيّة، بتحقيق عبد الوهاب بن منصور.

شيوخ الموحّدين يمين الولاء للأمير وأضيف اسمه إلى الخطبة في جميع منابر المملكة. وحدث هذا الأمر في نهاية شهر ذي الحجة من العام 609 هـ[1] عندما كان الأمير في العاشرة من عمره.

عندما انتهت حتفالات الولاء، انسحب أمير المؤمنين محمّد أبو عبد الله وانكفأ عن الاهتمام بالشّؤون المتعلقة ببلاطه، بعيداً عن الأنظار حابساً ذاته في قلعته، حيث استسلم للكسل والملذات السّرّية وحدائقه. وهكذا وضع زمام أمور الحكومة بين أيدي الأمير ووزرائه، الذين أشبعوا رغبتهم في الانتقام، وقاموا بأعمال البطش باسمه وأهانوا الجميع. أكّد بعض الكتاب أنّ محمّد أبا عبد الله خرج من بلاطه بعد اليأس الذي ألمّ به من جرّاء معركة العقاب، والذي سبّب له حزناً عميقاً لا يمكن التّغلّب عليه؛ إلا أن آخرين يعتقدون أنه أقنع بالاستقالة بسبب ضعفه وكسله وبؤس روحه كونه لم يكن يرغب بفعل أي شيءٍ سوى التمتّع بملذات الحياة. سلّم الأمير محمّد أبو عبد الله الملقب بالنّاصر لدين الله أمور حكومة مقاطعة أفريقيا إلى نسيبه الشّيخ أبي محمّد بن خالد بن أبي حافظ عمر بن يحيى، من قبيلة هنتاتة، أسلاف بني مَرين ملوك تونس.

وكان من بين وزراء محمّد بن عبد الله واحدٌ ذو ذكاءٍ بسيط يدعى ابن مثنّى Aben Mutenna، وقد أدّى إلى أن يموت الملك قبل أوانه فقدّم له شراباً مسموماً بسم قوي فمات صبراً بعد ساعاتٍ قليلة من شربه. وكان رحيل الملك إلى دنيا الله يوم الأربعاء في الحادي عشر من شهر شعبان من العام 610 هـ بعد أن حكم مدّة خمس عشرة سنة وأربعة أشهر وثمانية عشر يوماً، أولها الجمعة في الثّاني عشر من شهر ربيع الأول، من العام 595 هـ عندما أُعلن خليفة، وكان يومه الأخير في الثّامن عشر من شعبان كما تقدّم في اليوم الذي توفي فيه.

* * *

---

(1) يرد التاريخ في النّص 690 غير أن هذا خطأ مطبعي. (فوستر)

الفصل السّادس والخمسون

خلافة المستنصر بالله - إدارة الحكومة قبل بلوغ الخليفة سن الرّشد - وفاته - وحرب الخلافة

كان أمير المؤمنين يوسف المستنصر بالله الملقب بالمنصور بالله، أبو محمّد عبد الله بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي النّاصر، حديث السّن عند وفاة والده، حيث أنه لم يكمل الحادية عشرة من عمره. كان اسم أمه فاطمة، وكانت ابنة ابن علي يوسف بن عبد المؤمن بن علي من نفس سلالة والده الملكية. والاسم الأكثر تداولاً له كان أبا يعقوب. وكان متوسّط القامة بنيته جيدة، بشرته متورّدة وجميلة، وشعره أسود طويل، وعيناه سوداوتان جميلتان، ملامحه متعجرفة ومتكبّرة بعض الشّيء. كان كتّابه أولئك الذين خدموا والده ووزراءه من أقاربه والشّيوخ الموحّدين الموثوق بهم. وحكم أعمامه ولايات الملك الشّاب بقوةٍ استبدادية ومطلقة، ووزعوا المقاطعات فيما بينهم.

استغلّ الصّليبيون بشغفٍ الفرصة التي عرضت بسبب هذه الحالة البائسة، ولم يشغلهم سوى توسيع فتوحاتهم التي كانوا قد بدأوها في السّابق. بعد نصر العقاب الذي لقوا فيه ظفراً وخضدوا أمة الإسلام صمّم هؤلاء على الاستفادة من هذا الوضع. كما أنه لم يخفَ على الكفّار أنّ المسلمين كانوا مرتاعين ومحبطين من حملة العقاب المشؤومة؛ كما عرفوا أيضاً أنه بدلاً من أن تنصبّ كل اهتماماتهم على التّعويض عن خسائرهم واستعادة سيادتهم، أصبح المسلمون منقسمين إلى أحزابٍ وفصائل، وكان هذان السّببين الأساسيين لانحطاط مملكتهم وانهيارها.

بعد انتهاء مراسم الاحتفال بتنصيب المنتصر بالله قام عمه السّيد أبو محمّد عبد الله

بن المنذر بالخروج من المغرب نحو إسپانيا حيث حكم بلنسية وشاطبة ودانية Dénia ومُرسية وكل المناطق التابعة لها وكأنها له وكان نائبه يحكم باسمه وهو الشّيخ سعيد بن برقان Aben Bargan أهم قادة الموحّدين. أمّا عم المستنصر بالله الثّاني عبد الله الأكبر فسيطر على أفريقيا حيث عمل على إطفاء كل الثّورات التي قام بها الميورقي، ولم يحكم السّيد أبو عبد الله فقط على الأندلس كحاكم بل كملك، فقد كان يعطي القادة والحكام والقضاة والجميع الأوامر ويقيلهم ويعيّنهم، وقد قام بمنح المناصب الرّفيعة إلى أفراد لا يستحقونها فدبّت الفوضى ولم يعد هناك من عدل، وبطش بكل مناطق الإمارة وشعبها.

وكان القضاة يعيّنون وفق المبالغ التي يسدّدها لهم الأثرياء الذين حوّلوا القانون لصالحهم وتمكّنوا بفضل ثرواتهم من شراء القلوب والعقول كما يحلو لهم، ومن حاول من القضاة تحكيم ضميره كان يقال، وساد العدل بالمال بدل العدل بالقانون والشّرع وأصبحت البلاد تُحكم بالبطش والظلم من قبل الأثرياء.

حشدت القوات الصّليبية، ودخلت أراضي المسلمين، وأتلفت الحقول وأخذت الغنائم وأحرقت البساتين، وأكملت مسيرتها التّخريبية دون أن يقوم رجل واحد بالتّصدّي لها، إلى أن وصلت القوات هذه إلى مدينتي أبذة Úbeda وبيّاسة Baeza. وسيطرت على هذه المدن لفترة معينة، إلا أنها لم تبقَ فيها طويلاً، نظراً إلى أنهما في عمق حدود المسلمين ولن يتمكّنوا من السّيطرة عليها وحكمها بسلام.

في العام 613 هـ استولى الصّليبيون على بلدة دانية Dénia وعلى معقل حصن بيخور Hisna Bejor، وواصلوا بعدها محاصرة حصن القصر وصمد المكان بنجاح لبعض الوقت، ولكن بعد شهرين من الصّراع المضني، وعدم وصول العون للمدافعين وبعد ضياع كل الآمال أُجبرت قواته على الاستسلام، وواجهت بلداتٌ أخرى أضعف داخل المقاطعة مصيراً مماثلاً.

من ناحيةٍ أخرى كان الصّليبيون في الغرب أو القسم الغربي من إسپانيا يقومون بأعمالٍ مرهبة فيجتاحون المنطقة بجحافل دامية، ويخربون الحقول، ويأسرون النّاس

أو يقتلونهم. كما فرض العدو أيضاً حصاراً على حصن القنطرة على التّاغوس Tagus، وبعد مقاومةٍ قصيرة جعلوا أنفسهوم أسياداً على المكان بقوة السّلاح.

في شهر جمادى الأولى من العام 614 هـ، تقدّم الصّليبيون وعسكر من بلاد الفرنجة ضد قلعة الفقيه، كان المكان محصناً جداً من قبل عبد الله بن محمّد بن وزير، والي الحصن، بعد أن ورث قيادته عن أبيه. إلا أنّ الكفّار استطاعوا اقتحام الحصن بالقوة بعد العديد من القتالات الضّارية، فقاموا بقطع رؤوس أكثر من ألف فارسٍ مسلم. نجا عبد الله بنفسه وأُخذ أسيراً. وبعد أن أطلق صراحه مقابل فديةٍ، مرّ في المغرب، ولكنه عاد بعد فترةٍ وجيزة إلى إسپانيا، ومات ميتةً محزنة، هو وأخوه إبراهيم بن محمّد في الفتنة التي كان أبو عبد الله بن يوسف بن هود الجُذامي قد أشعل فتيلها.

في العام نفسه تقدم الصّليبيون حتى حدود طليطلة، فزحفت فرقهم المخربة من قلعة رباح Calatrava وكونسوغريا Consugrea وأخضعوا المنطقة وواصلوا تقدّمهم إلى ما قبل مدينة بيّاسة Baeza، المدينة التي فرضوا عليها حصاراً. إلا أن الشّيخ السّيد محمّد، عمّ الملك المستنصر بالله، والذي كان يحكم مقاطعة قُرطُبة وحدودها، قدم إلى مدينة بيّاسة مع قوة من الفرسان المجهّزين تماماً؛ وهزم العدو في العديد من المناوشات والهجمات المفاجئة، مجبراً جحافل الصّليبيين على ترك معسكرهم والانسحاب إلى حدودهم.

كانت حكومة إشبيلية بين أيدي السّيد أبي علي، بينما كان شيوخه يشغلون سيدونيا (شذونة)، وخيريث Jerez (شريش)، وإستجة Écija، وقرمونة Carmena. سارع هؤلاء القادة إلى مساعدة غربي إسپانيا، حيث كان الصّليبيون يسيطرون على الإمارات بجيشٍ قوي، وكانوا قد فرضوا حصاراً على قلعة أبيدينيس Abidenis. تقدّم والي خيريث لمواجهتهم بقوّة عتيدة من الفرسان من قُرطُبة وإشبيلية، لتقديم العون للمحاصرين؛ ولكن جيوش العدو تصدّت للوالي وبعد صراعٍ دامٍ، أظهر فيه المسلمون ضروباً في الشّجاعة، أجبر الصّليبيون السّيد محمّد علي بعد هزيمته على الفرار. تبع الكفار بعدها بحميّة جنود المسلمين وذبحوا أعداداً كبيرةً منهم، فأبادوهم.

كانت خسارة قلعة أبيدينيس النّتيجة المباشرة لهذا الانهزام، وتقدّم الصّليبيون وقاموا بقتل كل من وجدوه على قيد الحياة هناك من رجالٍ ونساءٍ وأطفال دون استثناء أيٍ كان من المسلمين، وحدثت هذه الواقعة المشؤومة عام 615 هـ. في العام نفسه، أمر أبو إبراهيم إسحاق بتشييد قلعة السّيد، وهو صرحٌ كبير على ضفاف نهر شنيل Xenil، خارج مدينة غرناطة ومكان لدفن الملوك، أمام ذلك الصّرح. في العام 616 هـ، قام الفاتحون الصّليبيون بعد النّجاحات السّابقة، بمحاولة السّيطرة على مدينتي كازيرش Cazires وتورغييلا Torgiela، فحصاروا المكان إلا أنّ الفرسان المراقبين لحدود الغرب والمتعطّشين للانتقام والشّغوفين للقتال، انقضوا على معسكر الصّليبيين في فجر أحد الأيام، مداهمين عدوّهم بعنفٍ رهيب لا مثيل له، مباغتةً، فهزموا وذبحوا قبل أن يتسنّى لهم الوقت للدّفاع عن أنفسهم. ولم ينجح قادة الكفّار بتهدئة الجنود الذين فرّوا من الخوف، ولاحقتهم قوات المسلمين من فرسان خيريث وإشبيلية، وغطّوا ساحة المعركة بجثثهم. سيطر المسلمون على الخيام، والمعدّات الحربية، والمقاطعات، والأسرى الذين كانوا في ذلك الحين تحت سلطة الكفار، بعد أن تركوا فرسان الصّليبيين فيها جثثاً هامدة لتلتهمها الوحوش والطّيور الجارحة.

كما لاقت غزوة الكفار على منطقة بلنسية المصير نفسه. فبعد تدمير ألمانشا Almanxa وريكينا Rekina، كان الجنود الصّليبيون يتقدمون محمّلين بغنائمهم، إلى إمارة بلنسية، عندما زحف حرس الحدود لمواجهتهم عند القبضات Alcaudete، ودارت بين الجيشين معركة طاحنة، فلقي الكفرة شرّ هزيمة وذُبح معظمهم واستعاد المسلمون أسراهم والغنائم كافة.

كان أمير المؤمنين يوسف المستنصر بالله خلالها، يقضي أيامه قابعاً في قصره في المغرب، محاطاً بالجواري والعبيد؛ ولم يقلق نفسه بأيّ شيء فكان يقيم الاحتفالات وأهمل القيام بواجبه كراعٍ لشعبه، وشغل نفسه بتربية الحيوانات التي يملكها. كان يتحدث فقط مع العبيد، والمزارعين، والرّعاة، وسائسي الخيل، وقد عاش حياة مرفهة

للغاية فيها كل أنواع الملذّات فأُرهق وتوفي في ربيع شبابه، في الثّالث عشر من شهر ذي الحجة من العام 620 هـ.

كانت نهاية حياة المستنصر بالله مفاجئة وغير منتظرة، وبما أنه لم يترك خليفة له، فقد وقعت حربٌ أهلية بين أقاربه حول خلافة المملكة، وعرفت بالفتنة أو انتفاضة الحافظين، وأومأ موته بالخلاف الذي استشرى فوراً بعنفٍ مرعب في كل مكانٍ في العالم.

وكان أول من استولى على السّيادة عمّ المستنصر بالله، الأمير عبد الملك بن عبد الواحد، ابن أبي يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، الذي تولى العرش دون أيّة صعوبةٍ كبيرة؛ ولكن القوة الجامحة التي مارسها الشّيوخ في كل منطقة زادت من ظهور فصائل لا تحصى أراد رؤساؤها الاستيلاء على العرش. وهكذا جعل الأمير أبو محمّد عبد الله بن يعقوب المنصور والمعروف بالعادل بالله نفسه سيداً على مُرسية، وبمساعدة حزبٍ قوي، أعلن نفسه ملكاً في تلك المنطقة، وكانت الخلافات والاضطرابات فيها على غرار المناطق الأخرى من المملكة المشتّتة.

كان أبو محمّد عبد الله هذا رجلاً حكيماً وفاضلاً، أمل في إيجاد الحل للمحن التي ألمت بالبلاد وأرض إسپانيا؛ إلا أنّ صرامته أدّت إلى كرهه من الشّيوخ الذين أرادوا التمتّع بمناصبهم في الولايات، والحكومة، والقيادة، وغيرها من الوظائف المثمرة، وكانوا يبحثون عن مصالح شخصية في ظلّ الفتن التي أشعلت هنا وهناك. وبالتالي كلّما حاول أبو محمّد عبد الله قمع شر المشاغبين، أوجد لنفسه الكثير من الأعداء؛ كما أنّ الولاة الذين عيّنهم أساؤوا الأمانة، وبدلاً من إضعاف سوء استخدام النّفوذ أصبح كل واحدٍ منهم خصماً خطيراً له يبحث عن وسيلة لخلعه. ومع ذلك، نجح الأمير أبو محمّد في الحفاظ على سلطته، وانتصر على مشايخ حزبه في المغرب وتم الإعلان عنه أميراً للمؤمنين، بعد أن خلع الأمير الذي تم تنصيبه على العرش في تلك المدينة، عبد الملك بن عبد الواحد. حدث هذا في الثّالث عشر من شهر صفر من العام 621 هـ. وأُجبر عبد الملك على التّنازل عن عرشه بعد أن هدّد بالقتل وقد عفي عنه بعد

أن أعلن فروض الولاء للملك الجديد، أبي محمّد عبد الله. وبعد ثلاثة أيام من خلع عبد الملك بن عبد الواحد قام مناصرو أبي محمّد عبد الله بقتله، خوفاً من الخطوات التي قد يتخذها، إذا حالفه الحظ، لاستعادة العرش الذي حُرم منه رغماً عن إرادته، وفزعاً من انتقامه الوحشي عندما تتسنّى له الفرصة. ولقد حكم عبد الملك مدة ثمانية أشهرٍ وتسعة أيام.

كان الصّليبيون في تلك الغضون يواصلون تدمير إمارات المسلمين في إسبانيا فدخلوا منطقة بلنسية بجيشٍ قوي، ودمّروها ونهبوها كعادتهم. كانت قوّاتهم مؤلفة من أعتى الجنود الذين لا يقهرون فدمّروا بها الأندلس. اقترح محمّد والي بيّاسة Baeza أن يصبح من أتباع الملك الصّليبي، الذي قبل العرض وفق شروطٍ معينة، كان أهمها أنه يجب على محمّد مساعدته في فتوحاته المستقبلية ودفع جزية له. وفقاً لهذه الشّروط، ترك الوالي حكومته في بيّاسة، وقدّم عونه للصّليبيين في حروبهم ضد الإسلام. في هذا الوقت قام الكفّار بالاستيلاء على حصن أويخادا Huejada كبيرة وخسروا الكثير من الجنود، وكذلك المسلمون حيث وقعت بين الطّرفين مذبحة مروّعة.

كما تبيّن لم يسمح الأمير الجديد أبو محمّد عبد الله للشّيوخ بممارسة قوتهم الاستبدادية أو اضطهاد النّاس، فقد دفعه حبّه للعدل إلى رفض العديد من الطّلبات التي قدّمت له، حتى انقلب الرّجال نفسهم الذين أعلنوه ملكاً عليه وعلى حكمه، وفكّروا بوسيلة لتدميره. لم ينتظروا وقتاً طويلاً الفرصة المناسبة لتحقيق غايتهم، فقد هاجم الصّليبيون بمساعدة والي مدينة بيّاسة Baeza مناطق أبي محمّد عبد الله بجيشٍ عتيد، واستولوا على حصون عديدة؛ من بينها أندوجر Andújar، ومارتيس Martis، وشودار Xudar؛ وبما أن الملك لم يكن يملك القوة الكافية لقمع خصومه، أو مواجهتهم في ساحة المعركة، قام بعقد هدنة معهم، والتّوصّل أخيراً إلى قرار السّلام، آملاً بذلك الحصول على الرّاحة لتثبيت نفسه على عرشه، وتحسين ظروفه الخاصة، وكذلك لتأمين مصالح الدّولة.

ووجد الشّيوخ الفرصة التي كانوا يتحيّنونها، فاستهجنوا تصرفاته ووصفوه بالمسلم

السّيء، وحثّوا النّاس على الانتفاضة ضدّه، وعملوا على إقناع الكثيرين بعدم دفع جزية الطّاعة المتوجبة عليهم بعد الآن؛ وبالإضافة إلى ذلك، رفضوا المساهمة العامة على منتجاتهم، ونأوا بأنفسهم عن خدمة الدّولة التي كانوا ملزمين بأداءها. وفي نهاية المطاف أظهروا أبا محمّد عبد الله على أنه حاكم غير شرعي ومغتصب للعرش في كل التّصريحات الرّسمية والعامة؛ وقام الشّيوخ بعد أن تمكّنوا من كسب ثقة الضّباط حرسه، بالدّخول إلى مسكنه خلسةً، وخنقوه في مضجعه. وهكذا انتهت حياة الملك الفاضل أبي محمّد عبد الله، الذي توفي عام 624 هـ بعد أن أمسك بزمام أمور المملكة ثلاث سنوات وثمانية أشهر وتسعة أيام.



الفصل السّابع والخمسون

انتخاب سيد أبي العُلى إدريس المأمون بن يعقوب المنصور - رفض الأمير اقتراح الشّيوخ - قهر الصّليبيين - مروره في أفريقيا - وفاته - مملكة الموحّدين تصل إلى نهايتها

بموافقة عامة أعلن شيوخ الموحّدين السّيد المأمون أبا العُلى إدريس بن يعقوب المنصور، أميراً عليهم. وكان قائداً معروفاً، وفقيهاً بالشّريعة عظيماً، ومفكراً فاضلاً وقد جعلته انتصاراته في مقاطعة شرق أفريقيا أكثر شهرة، وعيّن حاكماً على مدينة إشبيلية، حيث كان الجميع يبجّله ويحترمه. أمر بتشييد قلعة مالقة، والتي تدعى صرح السّيد alcázar llamado de Seid؛ وأشرف على أعمال بنائها في العام 623 هـ. ولم يمرّ وقتٌ طويل على إعلان الملك النّبيل أميراً للمؤمنين حتى بدأ باتّباع المثال الحسن الذي تركه أخوه العادل أبو محمّد عبد الله، فقمع كل التجاوزات وصحح السّلطة وحد من تسلط شيوخ الموحّدين وإخضاعهم. بدأ أبو العُلى إدريس عمله بكتابة كتاب ضدّ سياسة وقوانين المهدي، مشيراً إلى تناقضها ممّا يجعل جلياً الاضطرابات وسوء الحكم التي خلفتها هذه الأحكام، وقرّر تصحيح الدّستور وتحسين الحكومة التي أسّستها سلالة الموحّدين الحاكمة.

كان أمير المؤمنين مدعوماً ببراعة في جميع هذه الأمور من قبل وزيره أبي زكريا بن أبي عامر، وهو رجل حكيم وسياسي مخضرم، اقترح في الواقع العديد من الحلول إلى الملك، أبي العُلى إدريس المأمون المنصور، للتخلّص من عيوب الدّولة وتعميم الإصلاحات المطلوبة، ووافق الملك عليها كلها، إذ أنها كانت مقنعة جداً ولأنه كان على يقين أن القوانين الإلهية يجب أن تسيطر وأن لا يكون هناك سلطة تتجاوز إرادة الحاكم.

بدأت الرّيبة تخامر قلوب الشّيوخ الموحّدين، فبحثوا بجدّية عن وسائل لتجنّب انهيار سلطتهم، والحفاظ على أنفسهم في الحكم والسّلطة السّيادية التي كانوا قد اغتصبوها. فعبّروا بوضوح عن اعتراضهم لأهدافه، وبغية حمل النّاس على الثّورة أعلنوا أن انتخاب أبي العُلى إدريس جاء بالقوة، وأكّدوا أن حكمه جاء نتيجة لاضطرابات شعبية. وأخذوا يرفعون الأصوات مطالبين الإعلان عن حاكمٍ آخر؛ وفرضوا قراراتهم بالقوة بدلاً من الإرادة الحرة، وكان الشّيخ الذي اختاروه ضعيفاً وعاجزاً وهو زكريا يحيى بن النّاصر، فقدموا إليه يمين الولاء فوراً. وبعدها بفترةٍ قصيرة أعلنوه رسمياً بموكبٍ عظيم ملكاً عليهم والخليفة الشّرعي للأمير أبي محمّد عبد الله، وأعلنوا أن الشّيخ السّيد المأمون أبا العُلى إدريس مغتصبٌ متطفّلٌ على عرش الموحّدين.

فوراً بعد الاحتفال الرّسمي لقسم يمين الولاء، أرسل الشّيوخ حاكمهم الجديد إلى إسبانيا ومعه قوة من الفرسان، آملين أن يستطيع طرد الملك الشّرعي من المملكة. وعندما سمع أبو العُلى إدريس بوصول يحيى بن النّاصر، جمع جنوده، وبمساعدةٍ من فرسان الصّليبيين الذين كانوا وقتها في إشبيلية، تمكّن من التقدم وواجهه في إمارات سيدونيا (شذونة). ودارت بين القوتين صراعات كبيرة كان الظّفر فيها حليفاً لفريق وفي مرحلة لاحقة لفريق آخر؛ وتمكّن أبو العُلى إدريس المأمون من سحق جيش منافسه يحيى بن النّاصر الذي أُجبر على الفرار إلى الجبال للحفاظ على حياته وحياة من بقوا معه.

لم يلحق أبو العُلى إدريس المتطفّل على العرش، إذ أنّ ما بقي من قوته كان قليلاً ولا يشكل أيّة مدعاة للقلق فعاد إلى الحدود، لحصر عدوانية الكفار. في الواقع كان غرور الصّليبيين قد وصل في ذلك الوقت إلى درجة سبّبت الذعر في كل الأندلس فقاموا بتوسيع غزواتهم حتى إلى أعماق البلاد، وبدأت قواتهم بتخريب حقول شنيل Xenil؛ بل، واستولت على لوشة والدّار الحمراء، وقاموا بعدها بفرض حصارٍ على جيان Jaén. وتقدّم أمير المؤمنين أبو العُلى إدريس المأمون فوراً لمساعدة شعبه؛

فانقضّ على معسكر الصّليبيين، بالقرب من جيان، وهزمهم شرّ هزيمة أجبرت قوّاتهم على رفع الحصار عن المدينة؛ والفرار على عجل من المنطقة، تاركين الحصون التي كانوا قد استولوا عليها هناك، والغنائم والأسرى التي أخذوها في غزوتهم.

بعد أن أمّن المأمون أبو العُلى إدريس حدوده، صمّم على معاقبة وقاحة الشّيوخ المتمرّدين عليه في المغرب، وواضعي العقبات في طريق تلقّيه يمين الولاء من شعوب جنوب وشرق أفريقيا على السّواء. لذلك، ترك أكثر قادته أهلاً للثّقةً ليحكموا إشبيلية وغيرها من المدن الأقل أهمّية في الأندلس، وسار إلى المغرب، وعبر نحو العدوة المقابلة للبحر في الثّاني والعشرين من شهر شوال من العام 624 هـ.

وخـلال شهر رمضان من عام 626 هـ وقعت معركة جبل طارق الكبرى، وفي ذلك الصّراع توفي إبراهيم بن غانم، أمير الأسطول البحري في المغرب، ووالي سبتة[1].

وصل أمير المؤمنين أبو العُلى إدريس المأمون إلى المغرب، ومعه مجموعة من الفرسان المخضرمين، بسرعةٍ كبيرة وسرّية فائقة، بحيث أنّ أعداءه لم يعلموا البتّة بوصوله وتفاجأواعندما أصبح وسطهم. دخل أبو العُلى البلاط حيث كان الشّيوخ والمستشارون، الذين يُعدّون من ألدّ أعدائه، يحكمون بسلطةٍ مطلقة بكل الهيبة التي تصلح لأمير. ودخل بعدها القصر وأمر أن يستدعى الشّيوخ من المجلسين، فأنّبهم بشدّة أمام حرّاسه لعدم وفائهم، ولوقاحة ادّعاءاتهم واقتراحاتهم لممارسة السّلطة التعسفية. لم يرفض الاستماع إلى التبرئة التي قدموها، ولكنه كان مقتنعاً في نفسه وكل من حوله بخيانة ونوايا هؤلاء الأعيان، وحكم الأمير عليهم جميعاً بالموت، ونفّذ حراسه فوراً هذا الأمر فقطعوا رؤوس أكثر الشّيوخ هيبة وأكبرهم وأهمّهم والرّؤوس المدبرة لخلعه من سلطته.

---

(1) إن الإشارة إلى هذا المقطع الذي لا يترابط مع النّص والذي يشير إلى واقعة حدثت بعد سنتين لافت للانتباه، غير أنّ المترجم عمل على ترجمة النّص كما ورد وحافظ على أيّة مقاطع من هذا النّوع لتشويق القارىء ولتوضيح بعض الأمور. (فوستر)

أمّا من تغيّب منهم فقد أصدر أبو العُلى إدريس بحقهم حكماً مماثلاً، وعلى كل الذين دافعوا عنهم وقاموا بحمايتهم؛ وأرسل أوامرَ حرفية بذلك على أن يطاع أمره وينفّذ في الحال، وخلال بضعة أيام وُضع ما لا يقلّ عن أربعة آلاف رأس أمام أمير المؤمنين، الذي أمر أن تُعلّق على خطاطيف أسوار المدينة.

دبّ الرّعب في قلوب الجميع بعد تصرّف الملك هذا؛ وكان حرّاسه الزّنوج والأندلسيون يحلّون الرّعب في المغرب؛ لدرجة أنّ الكلّ عمل على طاعته وهم يرتجفون ونفّذ الجميع الأوامر المفروضة من أبي العُلى الصّارم. وأعدم الشّيوخ سنة 627 هـ. وبما أن السّبب وراء جميع العلل كان قانون المهدي ودستوره، فقد قام أبو العُلى إدريس بإلغاء هذا القانون وعدّل الدّستور. وحصر سلطات المجلسين، وحدّ من مهامهما إلى درجة أن أعضاءهما أصبحوا كأعضاء مجلس القضاة، لا يملكون أيّة صلاحية للتدخّل في أيٍّ من شؤون الدّولة. ومُنعوا من المشاركة في إقامة العدل، فيما عدا القضايا العامة فقط، والمسائل الاعتيادية بين الأفراد.

وبغية سحق غرور النّاس تحت قدميه، أمر أمير المؤمنين أبو العُلى إدريس المأمون بأن يُحذف اسم المهدي من الصّلوات العامة والخُطب؛ وبحذف الكلمات المشيرة إليه على النّقد المعدني والمراسيم العامّة، مشيراً إلى أنه لم يعد مسموحاً البكاء على هذه الشّعوذات التي كانت تمارس من قبل الإمام الذي يدعى المهدي على شعبه السّاذج مطالباً محوها من الذاكرة. وقام أمير المؤمنين أيضاً بمنع ذكر اسمه في المستندات العامة وإلا أنزلت بالفاعل أشد العقوبة، ولو كانت في السّابق قد جرت العادة على إحياء ذكره في جميع المستندات كهذه، منذ خلافة الأمير عبد المؤمن بن علي إلى هذا اليوم.

جاء وقع هذه التدابير كوقع الصّاعقة، وكان من الصّعب التقيّد بهذه التغييرات التي قرّرها وأمر بها أبو العُلى إدريس المأمون؛ ولكن مشهد رؤوس الشّيوخ ومناصريهم، مثبتة على خطاطيف أسوار المدينة، كما ورد سابقاً، أبقت جميع النّاس في حالة ذعرٍ، ولم يجرؤ أحد على الاستهجان أو عدم طاعة الأوامر. وغُلّق العديد

من الرّؤوس على أسوار المدينة في فصل الصّيف الحار جداً، والخانق، فتصاعدت من المكان روائح مزعجة لم يتحمّلها النّاس ورفع أمين سر الملك الفقيه أبو سعيد من فاس شكوى النّاس إليه. إلا أن المأمون أبا العُلى رد عليه قائلاً: «لا تقلق يا أبا سعيد، إذ أن أرواح[1] تلك الرّؤوس تحرس المدينة، ولن تصيب أحداً بأذى؛ فهذه الرّوائح عطرٌ لكل من يحبّني ولكلّ وفيّ لي، وهي سموم مهلكة وقاتلة لكل من يمقتني لذلك لا تعر أيّ اهتمام لهذا الشّأن، فأنا أعلم جيداً ما هو مفيدٌ للصّحة العامة».

في العام 627 هـ واجه جنود أبي العُلى إدريس المأمون جنود الشّيخ أبي زكريا يحيى بن النّاصر، على مسافة غير بعيدة عن مدينة المغرب؛ ودارت بينهما معركة ضارية، تغلّب فيها المأمون على خصمه، بعد أن ألحق بصفوفه خسائر فادحة، ففرّ أبو زكريا إلى جبال فاس. وبعد أن هدأت الأوضاع في المغرب، حوّل أمير المؤمنين اهتماماته نحو إسپانيا، حيث كان مناصرو يحيى بن النّاصر يحرّضون النّاس ضدّه، وخصوصاً شعب غرناطة. كما أن الصّليبيين أيضاً وبمساعدة محمّد والي بيّاسة Baeza، دخلوا ثانيةً إلى أراضيه ونصّبوا أنفسهم أسياداً على العديد من الحصون، من ضمنها شَلبَطَرَّة Sarbaterra وبُرج الحمار Borgalhimar، وغيرها ذات أهمية أقل. كانت الخسائر مستمرّة في الأندلس، وفي بلنسية، كان السّيد أبو عبد الله أخو أمير المؤمنين، مجبراً على تسليم حصن بني شقولة Baniscola؛ وتخوفاً من مزيدٍ من تقلبات الحظ المهلكة، عقد الأمير اتفاقية تحالف مع جَاقم ملك الصّليبيين[2].

لكل هذه الأسباب اعتزم أبو العُلى إدريس المأمون العودة إلى إسپانيا، وبعد أن ارتاح لبضعة أيام في إشبيلية جهّز نفسه لمحاولة الحدّ من سيطرة المتمرّدين في مدينة بيّاسة، التي كانت تحت سلطة الشّيخ الثّائر محمّد، حليف الصّليبيين، الذين منحوه رعايتهم وحمايتهم، فدخلوا المدينة بسهولةٍ ونجاح. جمع الأمير قواته من

(1) لقد استعمل الكاتب العربي عبارة النّفس بدلاً عن الرّوح.
(2) أي خايمِه ملك برشلونة. (فوستر)

مالقة، وإشبيلية، وقُرطُبة، وغادر لمحاصرة مدينة بَيّاسة، عازماً دخولها صلحاً أو بقوة السّلاح. ولكن التّحالف الحاصل بين محمّد والصّليبيين أدّى إلى نفور الشّعب من واليه، ففتحوا أبواب مدينتهم لأمير المؤمنين بعد أيام قليلة من الحصار، وقدّموا له رأس محمّد، قائلين: «هو ذا أيها الملك، رأس من كان يحمي الصّليبيين ويكرمهم، مجبراً إيانا على استقبالهم وإعطائهم مدننا».

ابتهج أبو العُلى إدريس المأمون كثيراً لتلك الهدية، أي مقتل محمّد، ممّا أتاح له الفرصة أن يعيد السّيطرة على العديد من الحصون والمدن ومنها بَيّاسة Baeza. في ذلك الوقت، نصّب أحد الفرسان من ذوي المكانة الرّفيعة، من آخر ملوك سَرَقُسطة (ثاراغوثا Zaragoza)، نفسه سيداً على مُرسية، بمساعدة من الأمراء الصّليبيين. وكان يدعى أبا عبد الله محمّد بن يوسف بن هود الجُذامي وكان رجلاً مميزاً وقائداً شجاعاً استقبل بترحابٍ كبير في مدينة مُرسية، حيث أعطي لقب المتوكّل على الله. وليحافظ على عرشه في الدّولة التي نالها، وحّد ابن يوسف الجُذامي قواته مع تلك التابعة لأبي زكريا يحيى النّاصر، منافس أبي العُلى إدريس المأمون، الذي سيطر على منطقة جيان Jaén، وكان يحرز تقدّماً نحو البشرات Alpujarras.

سبّبت ثورة مُرسية وتحالف هذين الشّيخين قلقاً رهيباً للأمير أبي العُلى إدريس؛ وبغية مهاجمتهم بحرّية بكل قواه، كتب رسائل إلى ملك الصّليبيين فرناندو مقدّماً عروضاً ودّية لهذا الملك، للسّلام. ولم يتردّد أبو العُلى إدريس في إرسال هدايا ثمينة جداً إلى ذلك الكافر، مقتنعاً أنّ فرناندو لن يقوم بشن حربٍ على أمير المؤمنين، حين يكون منهمكاً في إخضاع مناطقه، ومعاقبة المتمرّدين الذين كانوا يغتصبونها.

وبينما كان الأمير ينظّم لتحالفه مع الملك الصّليبي فرناندو، كان أبو يوسف الجُذامي قد استولى على إمارات غرناطة، فخرج السّيد أبو عبد الله شقيق أبي العُلى إدريس ضدّه، ودارت بينهم المناوشات بنتائج متفاوتة؛ وتمكّن أبو محمّد بن يوسف بن هود من كسب المعركة وأجبر السّيد أبا عبد الله إلى العودة إلى مدينة غرناطة.

فحاصره أبو محمّد بن هود بشجاعةٍ حازمة، بعد أن وضع جواسيسَ بين السّكان، وأقنعهم بفتح الأبواب للقوات المحاصرة، وإعلان أبي محمّد بن يوسف بن هود ملكهم وأمير المؤمنين. وكانت هذه الحادثة عام 628 هـ.

من ثم انسحب سيد أبو عبد الله إلى القلعة، حيث حصّن نفسه بأقصى ما يستطيع بعد أن أدرك أنّ ميول الغرناطيين ليست في صالحه، ونظراً للحالة التي تمرّ بها المدينة، غادرها سراً، واتخذ ملجأً له في مدينة قُرطُبة مع أخيه، أبي العُلى إدريس المأمون. كان الأمير يحضّر لمدّ يد العون للمدينة فأبلغة السّيد أبو عبد الله بما حدث فيها، فتسبّبت هذه الأنباء بالكثير من النّدم لدى أبي العُلى إدريس، وأحبطت تدابيره، ودفعته للقلق من المستقبل، إذ أنه على مشارف حرب أهلية محتّمة سوف يؤدّي اندلاعها إلى دمار الدّولة. سيطر أبو عبد الله محمّد بن يوسف بن هود سريعاً على إمارة غرناطة، وجعل نفسه سيداً عليها وعلى جميع المدن والحصون فيها، باستثناء تلك التي يسيطر عليها حليفه أبو زكريا يحيى النّاصر، الذي لم يعجبه أبداً فوز ابن هود.

في تلك الغضون ارتاب الأمير أبو العُلى إدريس المأمون حول مصيره في إسپانيا، معتبراً أن القوات التي قد يقودها في تلك المنطقة لن تكون كافية للصّراع الضّاري الذي سيشنّه مع هذين المتمرّدين. عندها صمّم على العودة إلى أفريقيا، لحشد جيش قوي قادر على دبّ الرّعب في قلوب الأعيان وبالتّالي إلى تمزيق الدّولة. وغادر الأمير إشبيلية لوضع تصميمه قيد التنفيذ.

ما إن غادر أبو العُلى إدريس المنطقة حتى ظهرت متاعبُ جديدة في بلنسية؛ حيث قام الشّيخ النّبيل أبو جميل زيّان بن مُدافع Mudafe الجُذامي بتوجيه جيشٍ ضد شقيق الأمير سيّد أبي عبد الله، فأجبره على الهروب من المدينة لإنقاذ حياته؛ وبما أنّ أخاه أبا العُلى إدريس قد شرع مسبقاً إلى أفريقيا، اتخذ سيّد أبو عبد الله ملجأً له لدى الملك خايمِه ملك برشلونة، الذي قام بعدها بعقد هدنةٍ مسبقة معه في نهاية عام 629 هـ.

في تلك الفترة كان أمير المؤمنين أبو العُلى المأمون إدريس قد وصل إلى المنطقة المجاورة لوادي العبيد Guadalabid بطريقه نحو مدينة المغرب، عندما باغته الموت، هذه القوة التي تحدّ من تقدم الرّجال، وتضع حدّاً لأمانيهم، وتضرب بمشاريعهم أرضاً، ففارق الحياة في شهر ذي الحجة من عام 629 هـ. وبموت الملك الشّريف انتهت مملكة الموحّدين في الأندلس. وسوف نعطي هنا لمحة موجزة عن انطفاء تلك السّلالة الحاكمة، القويةً في أفريقيا وإسپانيا.

عندما وصلت أخبار وفاة الملك إلى مدينة المغرب، شُكّلت فصائلُ وأحزابٌ لا تعدّ ولا تحصى من قبل مناصرين مختلفين لم يدّعوا الخلافة. وطلب البعض بخلافة ابن أخ أبي العُلى إدريس، أبي زكريا يحيى، بن محمّد بن يعقوب المنصور، المعروف باسم النّاصر لدين الله. وأبو زكريا يحيى هذا الملقّب بالمعتصم بالله، كان في ذلك الوقت في إسپانيا، حيث كان يسعى إلى استلام العرش دون أن يحالفه الحظ، وبناءً على ذلك، كتب مناصروه رسائلَ طالبين منه عبور المضيق والعودة إلى المغرب.

بينما كان ثمّة آخرون، ممّن كانوا يشكّلون الجزء الأكبر، أعلنوا ابن الأمير أبي العُلى، الأمير أبا محمّد عبد الواحد خليفته، وكان يلقّب بالرّشيد. فحلف اليمين وأُعلن ملكاً رسمياً في الأندلس، وكذلك في المغرب، وأفريقيا، والقبلة. لم يكن الحظ حليف ابن عمّه أبي زكريا يحيى المدعو المعتصم بالله في أفريقيا ولا الأندلس، ولم ينجح في تولّي عرش الموحّدين. وبعد هزائم كثيرة ومعاناةٍ أكثر، فارق أبو زكريا الحياة في فاس عبد الله، التي كانت تقع بين تازة Tessa ومدينة فاس في شهر شوال من العام 633 هـ.

لم يضع موت أبي زكريا حدّاً للاضطرابات السّائدة في البلاد، وكان الملك أبو محمّد عبد الواحد منشغلاً باستمرار في إبعاد المآسي عن بلاده ومع ذلك لم يجد أيّة وسيلة لتهدئة المنطقة، وقضى أيامه بقلقٍ دائم. مات على نحوٍ بائس غرقاً في مستنقع، بعد أن رماه حصان جامح، هرب فارسه بعيداً في التاسع من جمادى الآخرة، عام 640 هـ بعد أن حكم أبو محمّد عبد الواحد لمدة عشر سنوات وخمسة أشهر وتسعة أيام.

خَلَفَ هذا الملك المشؤوم أخوه أبا الحسن علي، الذي لُقّب بسعيد، وكان الأصغر بين أبناء الأمير أبي العُلى إدريس أمير المؤمنين. وخلال حكم أبي الحسن علي سعيد ثار بنو زيّان وبنو مَرين. وتمرّد رؤساء تلك الأحزاب وهم من الأعيان والعائلات المتميّزة في شرق أفريقيا فانهمك الأمير أبو الحسن العديد بخضد مؤامراتهم طوال فترة حكمه حتى قيل إنه لم ينعم بساعة واحدة من الرّاحة. فتقدّم ضد يغمراسن بن زيّان، والذي دعا نفسه سلطان تلمسان، وتقابلت القوتان على جبال تماجرت Tamahajert، على حدود تلمسان، ودارت بينهما معركة ضارية تغلّب فيها أبو يحيى على الأمير أبي الحسن علي، الذي مات وهو يقاتل في خضمّ المعركة يوم الثّلاثاء في التاسع والعشرين من صفر في العام 646 هـ بعد أن حكم مدة خمس سنوات وثمانية أشهر وعشرين يوماً. وتشتّت جنوده بعدها وفرّوا في جميع الاتجاهات.

تلى أبا الحسن على العرش عمر بن إبراهيم إسحاق، ابن أمير المؤمنين يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي الملقب بالمرتضى، وكان شريفاً وشجاعاً متعلماً، وكانت جميع جهوده موجهة نحو فائدة الشّعب، وعاشت بلاده في زمن حكمه أوقاتاً أقل اضطراباً. أكمل الحرب التي كان قد بدأها سلفه ضدّ بني مَرين، وكان الحظ حليفه أحياناً وأحياناً أخرى لم يحالفه. خلال فترة حكمه، ثار أبو يحيى بن عبد الحق ونصّب نفسه سيداً على تازة، وكذلك على مدينة فاس. في الوقت نفسه كان الفقيه Abul Cazion ابن الفقيه أبي العباس، يحرّض شعب سبتة على الثّورة. وكان هذا الفقيه من أهالي Azefa واسع العلم وقاد الانتفاضة في العام 647 هـ.

قام الأمير عمر بن إبراهيم برحلةٍ إلى مدينة تينمل، بهدف زيارة قبر المهدي، كما جرت عادة أجداده، الأمراء الموحّدين السّابقين، عندما واجهه قريبٌ له، يدعى أبا العُلى إدريس، بن محمّد بن علي حافظ بن عبد المؤمن بن علي، الذي كان يلقب بالواثق بالله والمعتمد على الله وبأبي دبّوس أي حامل الهراوة، بسبب الأوضاع التي كانت سائدة في الأندلس، حيث اعتاد أن يحمل دائماً هذا السّلاح فأطلق عليه الأندلسيون هذه التّسمية السّاخرة. قام أبو دبّوس بعقد تحالفٍ مع أعداء بيته وسلالته،

مقترحاً اتفاقية مساعدة مشتركة مع بني مَرين، واعداً إعطائهم نصف مملكته، شرط أن ينصّبوه سيّداً على المغرب. لم يرفض هؤلاء الأعيان العرض، وبمساعدتهم أُجبرت المدينة على الاستسلام؛ وقاد النّسيب الذي اشتهى مُلك قريبه المعتمد على الله بنفسه فرسان بني مَرين في تلك الحملة.

كان الأمير المشؤوم، عمر بن إبراهيم بن إسحاق، مجبراً على الهروب لإنقاذ حياته من نسيبه، وهرب معه بعض الفرسان من أتباعه فتوجهوا نحو مدينة أزمور Medina Azamor، حيث أمل أن يجد الأمان؛ ولكن سكان المدينة قاموا بالعصيان عليه وزجّوه بالسّجن. نجح الأمير في التّحايل على حرّاس السّجن بعد أن أعطاهم العديد من الوعود لإطلاق سراحه من تلك الزّنزانة، فترك المكان ليلاً، واستطاع الهروب من على أسوار المدينة مع مساعده على أحصنة. إلا أنهما لم يبتعدا عن الأسوار إلا مسافة قليلة، حتى هاجم المساعد التّعيس الأمير فجأةً بعد أن أعطاه الأمان وعلى الرّغم من أن عمر بن إبراهيم فارس باسل دافع عن نفسه طويلاً، فقد فارق الحياة بعد أن قتله الغادر الخائن في الثّاني من شهر صفر من العام 665 هـ. ويزار ضريح عمر بن إبراهيم حتى الآن، ودام حكمه حوالي ثماني عشرة سنة وتسعة أشهرٍ واثنين وعشرين يوماً.

ترك أبو دبّوس أبناء الأمير المغدور عمر بن إبراهيم في السّجن طوال فترة حكمه المشؤوم التي امتدت لسنتين وبضعة أشهر، بعد أن استولى على الدّولة بمساعدة اشتراها من بني مَرين؛ وبعد وقتٍ قصير من ابتداء حكمه، قام بنو مَرين المستائون من عدم الإيفاء بوعوده لهم، بشنّ حربٍ عليه. تباين حظ الجيوش في هذه المعارك لبعض الوقت، إلّا أن النّصر كان حليف بني مَرين. وفي السّنة الثّالثة من حكمه المضطرب قاد أبو دبّوس قواته لمواجهتهم والتقت الجيوش على ضفاف الوادي الكبير Guadalquivir في الثّاني من محرم سنة 678 هـ. وتلا ذلك صراعٌ عنيف، ومع هبوط الليل تغلّب أعداء أبي دبّوس عليه وهزموه شرّ هزيمة، وتوفي البائس أبو العُلى إدريس وهو يقاتل بضراوة الأسد المجروح. بعدها قُطع رأسه وأرسل إلى مدينة فاس

في التاسع من الشّهر الوارد أعلاه. وكانت هذه المعركة من أشدّ المعارك ضراوة في تاريخ أفريقيا حيث تركت ساحة المعركة مغطاة بالجثث والقتلى كوليمةٍ للوحوش والطّيور الجارحة.

وهكذا انتهت مملكة الأمراء الموحّدين، أحفاد أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي، دون ترك أيّ أثر أو علامة لأولئك الملوك ودام حكم سلالتهم حوالي مئة واثنين وخمسين سنة. المجد لله وحده، الذي لا يحول ولا يزول؛ ذي القوة الأبدية، الذي لا ينطفئ نوره؛ والذي لا إله إلا هو.

* * *

الفصل الثّامن والخمسون

مملكة بني مَرين

فيما يلي سوف نلقي الضّوء على سلالة عبد الحق، والد ملكنا الحالي[1]، أمير المؤمنين - كرّم الله محيّاه. كان ابن أبي خالد محيو، حفيد أبي بكر بن حمامة، بن محمّد، بن قنار، بن مَرين، بن ورتاجن، بن ماخوخ، بن جديج، بن فاتن، بن بدر، بن يخفت، بن عبد الله، بن ورتنيص، بن المعزّ، بن إبراهيم، بن سجيك، بن واسين، بن يصليتن، بن مسرى، بن زاكيا، بن ورسيك، بن الديرت، بن جانا، بن يحيى، بن جمريت، بن ضريس، بن زحيك، بن ماغاديس الأبتر، بن سعد، بن قيس، بن عيلان، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان[2].

قد ذكرنا أن بني مرين هؤلاء من شعوب بني واسين و ذكرنا نسب واسين في زناتة وذكرنا أنهم بنو مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن جديج بن فاتن بن يدر بن يخفت ابن عبد الله بن ورتنيص بن المعز بن إبراهيم بن سجيك بن واسين و أنهم إخوة بني يلومي ومديونة

مرين بن ورتاجن بن الامير ماخوخ بن وجديج بن فاتن بن بدر بن يجفت بن عبد

---

(1) هذه العبارة شديدة الأهميّة، تدلّ على أنّ المؤرّخ الذي ينقل عنه هنا خوسيه كوندِه ألّف كتابه في أيّام الملك أبي زيد عبد الرّحمن المتوكل على الله. (أحمد)

(2) انظر تاريخ ابن خلدون: «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومَن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر»، الجزء السّابع، وعنه صوّبت الأسماء التي وقع فيها بترجمة كوندِه تصحيف جسيم. (أحمد)

الله بن زحيك بن المعز بن ابراهيم بن زحيك بن واسين بن يصليتين بن مسرى بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا (زناتة)بن يحيى بن ضريس بن زحيك بن مادغيس الابتر

كان أبو بكر، الجدّ الكبير لعبد الحق، شيخاً نبيلاً لأرض الزّاب Zaub، في القبلة أو جنوب المنطقة التي رافق فيها أمير المؤمنين، يعقوب المنصور إلى إسپانيا، وكان حاضراً في معركة الأرك المشهورة، حيث قاتل بنو زناتة ومن بينهم أبو بكر بشجاعة، وعانوا كثيراً من جرّاء هجمات العدو. عاد من المواجهة إلى أفريقيا إلا أنّ الجروح كانت تغطّي كل جسده، فتوفي في منطقته في الزّاب Zaub عام 592 هـ.

عند وفاة أبي خالد محيو، تولى قيادة قبيلته ابنه أبو سعيد عثمان، الذي أطلق على نفسه لقب الأمير. وأقسم يميناً رسمياً بالثّأر لدم والده وعمّه، وأنه لن يترك السّلاح من يده إلا بعد أن يذبح مئة من أكثر الشّيوخ الأعيان في قبائل أعدائهم، والقيام بحربٍ شرسة على الأعراب، وقهر العديد من قبائلهم. ومن بين القبائل الأولى التي أعلنت ولاءها له كانت هُبارة وزكارة وتسوالا ومكناسة وبُطايا وفستالا وسدراتا، ثم تلتها باطولا ومديولا ومليونا ودفعوا له جزية وقد أعفي من ذلك الحُفّاظ، وأتمّ أبو عثمان هذه الانتصارات في العام 614 هـ.

وبطريقةٍ مماثلة أجبر هذا الأمير سكان مدينة فاس، وياش Yesee، وقلعة عبد الكريم، على القيام باتفاقياتٍ معينة معه، وبما أنهم كانوا يعترفون بسلطته، وافقوا أيضاً على دفع جزيةٍ له وخدمته. ازداد ارتقاء الجيوش بشكلٍ ملحوظ ومتواصل في ولايات أبي سعيد عثمان بن أبي خالد خلال الثّلاث وعشرين سنة والتي شكّلت فترة حكمه منذ تولّي قيادة قاطني الصّحراء الأجلاف أتباعه من بني مَرين منذ وفاة والده، أبي محمّد عبد الله بن أبي خالد، من عام 615 هـ إلى عام 638 هـ، بسبب طعنة في حلقه برمحٍ، أطلقه عليه خادمه الذي أُخذ من عائلته الكافرة منذ أن كان طفلاً، ونشأ منذ ذلك الوقت في أكناف أبي عثمان.

بعد انتقال هذا الملك إلى رحمة الله، أصبحت مملكة بني مَرين بعهدة أخيه، أبي

معروف محمّد، الذي قدّم له جميع شيوخ مَرين يمين الولاء، عارضين عليه شنّ الحرب على كل من سيهاجمهم، والمدافعة عن كل من سيضعه تحت حمايته. واصل الأمير معروف محمّد إخضاع القبائل المقيمة في المغرب، بعد أخيه أبي عثمان. واستطاع أن يهزم أعداءه في العديد من المعارك، وأن يخضع بنجاح بعضاً من قبائلهم إلى سلطته لأنه كان محارباً مخضرماً بأمور الحرب وشجاعاً لا يجارى. لهذا السّبب كان الشّعراء يمدحونه كثيراً، فيقولون إنّ راحة هذا الأمير تكمن في مقاتلة أعدائه ليلاً ونهاراً، وأنّ زينته وحليته كانت الأدرعة والأسلحة، بينما كانت رياضته الصّراعات الدّامية في ساحة المعارك. لم ينهزم أبو معروف إلا بمعركةٍ واحدة كانت مع الموحّدين، حيث مات في هذا اليوم وهو يقاتل.

حدث الأمر كالتالي: كان أبو سعيد أمير الموحّدين قد أرسل قوّة مجهّزة وباهرة لمواجهة معروف محمّد، تضمّ ما لا يقلّ عن عشرين ألف جندي من الموحّدين، مع مجموعتين من العرب من وشقة Huesca، ومعهم قادة بواسل من الصّليبيين. هاجم هذا الحشد جيش أبي معروف على حدود فاس، وتلا ذلك صراعٌ مرير. كانت هذه المعركة في الواقع واحدة من أكثر المعارك عنفاً وضراوة، إذ أنها بدأت مع بزوغ الفجر ولم تنتهِ إلا عند اقتراب الليل، فتحوّل لون التراب إلى أحمر من جرّاء دماء المذبوحين. ومع غروب الشّمس، واجه معروف محمّد أمير بني مَرين، قائداً شجاعاً من الصّليبيين، وقاتله رجلاً لرجل فقتل الصّليبي معروفاً بطعنةٍ من رمحه، حيث أن حصان الأمير كان مرهقاً جداً بعد ساعات القتال الطّوال فلم يقدر على الالتفاف بالسّرعة المطلوبة، وهكذا استطاع الصّليبي طعن الأمير بسهولةٍ. عندما سقط معروف محمّد، سقطت معه معنويات قومه، فهزموا كلياً، وطُردوا من ساحة المعركة يوم الخميس في التاسع من جمادى الآخرة من العام 642 هـ.

تولّى قيادة بني مَرين شقيق معروف محمّد، أبو بكر يحيى، الذي كان ابن امرأةٍ حرّة، تنتمي لآل عبد الواحد. كان الأمير يحيى بارعاً إلى حدٍّ استثنائي، قادراً على رمي رمحٍ بيديه في الوقت نفسه بسهولة وبقوةٍ لا متناهية. عندما أدّى شيوخ بني مَرين يمين الولاء

للحاكم، قسم جميع الأراضي بينهم، ومنحهم إيرادات المغرب. بعد تثبيت معسكره في بلد زرهون Zarhun، قام أبو بكر يحيى بن عبد الله بشن حربٍ على مكناس، وسيطر عليها في العام 643 هـ بعد أن استولى على مدينة فاس قبل ثلاث سنوات. وبالتالي دُفن هناك، وكان قبره داخل باب الكيسة Babe Giseyin (من حيث يغادر مع من يريدون السّفر باتجاه الأندلس)، قرب ضريح الشّيخ محمّد Xeque Muhamad Festeli.

بعد وفاة أبي بكر يحيى، خلف هذا الملك في مملكة بني مَرين أبو يوسف، الابن الآخر لعبد الله بن أبي خالد،وشقيق الأمراء الثّلاثة السّابقين. ولم يتوقف هذا الأمير الشّجاع عن القيام بالحروب ضد الموحّدين إلى أن طردهم من كل شبرٍ من أراضيه لا بل استأصل هذه السّلالة من جذورها، كما يستأصل الفلاح الأعشاب من جذورها من الحقل دون ترك أثر أو إشارة لهم. جعل نفسه سيداً على مدينة مرّاكُش، وسجّل دخوله إلى تلك المدينة في يوم عاشوراء من العام 678 هـ. وقبل أربع سنواتٍ من تلك الفترة قام أبو يوسف بن عبد الحق بحملته الأولى إلى إسبانيا، وخلال غيابه وقعت مجزرة اليهود في فاس.

في العام نفسه من شهر شوال، بدأ العمل على تأسيس مدينةٍ جديدة في فاس، سميت بالمدينة البيضاء Medina Ibeida، لأن الصّروح التي شيدت فيها كانت بيضاء وأنهيت الأعمال فيها في سنة 677 هـ. كانت الحملة الثّانية لأبي يوسف إلى إسبانيا في العام 676 هـ عندما عاد إلى مدينة طريف Tarifa بنيّة المرور في إشبيلية. ورافق أبا يوسف ولداه الاثنان، الأمير أبو يعقوب والأمير أبو زيّان مندل Mendel. حين وصلوا إلى رُندة Ronda، وفي تلك الحملة جعل الأرض في إسبانيا ترتعد من قواته. أما حملته الأخيرة على المنطقة فكانت في 681 هـ حيث أمر بترميم أسوار الجزيرة الخضراء المتهالكة وقوّى تحصيناتها. هنا قابل الأمير صهره عناد Inad، الذي كان في إمارة رُندة ومعه قواته. وجد أبو يوسف بعدها وسيلةً لجلب مساعدين للحدّ من تقدّم المتمرّدين الذين كانوا يقلقونه.

أمّا الحملة الرّابعة التي باشر فيها ذلك الملك فكانت سنة 684 هـ ورافقه للمرة

الثّانية ابناه، أبو يعقوب يوسف وأبو زيّان مندل. وفرض حصاراً على مدينة خيريث Jerez (شريش)، لحوالي أربعة أشهرٍ. في شهر محرم من العام 685 هـ توفي أبو يوسف في المنية في الجزيرة الخضراء، ودفن في مدينة سلا. دامت فترة حكم الأمير ثمان وعشرين سنة، وستة أشهرٍ، واثنين وعشرين يوماً. وفي زمنه أنشئت النّاعورة الضّخمة في نهر فاس. كان للأمير يعقوب يوسف سبعة أبناء؛ الأكبر ويدعى أبا مالك عبد الواحد، الذي افترض أن يخلف والده على العرش، ولكنه مات في حياة والده؛ الثّاني يعقوب يوسف الذي أصبح أميراً بعد وفاة والده؛ الثّالث أبو زيّان مندل؛ والرّابع أبو سالم مندل، الذي توفي في حياة والده؛ والخامس أبو عامر عبد الله، الذي مات في معركةٍ ضد الأمير عمر بن إبراهيم بن إسحاق المرتضى؛ وكان السّادس أبا معروف محمّد، والسّابع أبا يحيى.

عند وفاة الأمير أبي يوسف، أصبح ابنه أبو يعقوب يوسف حاكم بني مَرين، كما ورد. دام حكم هذا الملك واحداً وعشرين عاماً، وتسعة أشهر، وأربعة عشر يوماً. كان لديه أربعة أبناء: أبو سالم إبراهيم، وأبو عامر، وعبد الله الذي مات في طنجة، وعبد المؤمن أبو Kurhan Mafot.

اجتاز الملك النّبيل أبو يعقوب يوسف مضيق الأندلس، حيث حاصر مدينة باجة Beja، كما فعل بعد ذلك في تلمسان، في المغرب، حيث حاصرها مطولاً، ومات قبل فك الحصار هذا في شهر ذي القعدة من العام 706 هـ ودفن في مدينة سلا. عند وفاته خلفه ابن عمه أبو سعيد عامر، ابن أبي عامر عبد الله، ابن الملك يعقوب يوسف بن عبد الحق، في الملك، ولكن لم تعترف تلمسان بأبي سعيد إلا بعد العديد من الخلافات والنّزاعات التي سبّبتها هذه الخلافة.

عندما اتّخذ موقعاً ثابتاً له على العرش، قتل أبو سعيد عامر الأشخاص الذين عارضوا خلافته، وحكم سنة وثلاثة أشهر وعاش أربعة وعشرين سنة. توفي في منطقةٍ مجاورة لطنجة، خلال شهر صفر في العام 708 هـ. كان جثمانه مدفوناً في بادئ الأمر في قلعة في تلك المدينة، ولكنه نقل بعدها إلى سلا، ودفن بجوار قبر جدّه. وبعد وفاة

أبي سعيد عامر، تولى شقيق هذا الملك، أبو ربيع سليمان بن عامر أبو عامر عبد الله ابن الملك أبي يعقوب، السّلطة الملكية لبني مَرين. في زمنه عادت مدينة سبتة إلى أمرائها الأوائل والقدامى، وكان ذلك عام 709 هـ. حكم أبو ربيع سليمان مدّة سنتين، وأربعة أشهرٍ، وثلاثة وعشرين يوماً. توفي في مدينة تازة في الأول من رجب من العام 710 هـ ودفن في مسجد تلك المدينة.

كان خليفة ربيع سليمان أبو عبد الله عم والده أبي سعيد عثمان، ابن الملك أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق؛ الذي ولد خلال حياة جدّه، في عام 674 هـ وحكم عشرين سنة وستة أشهر؛ توفي في المنطقة المجاورة لمدينة فاس عندما كان على مقربة من مدينة تلمسان، في شهر ذي القعدة سنة 731 هـ. خلفه ابنه أبو الحسن علي، الذي حكم سنتين وأربعة أشهر، ولاقى حتفه في جبال هنتاتة، التي تقع على تخوم مرّاكُش، في آخر يوم من شهر ربيع الأول من سنة 752 هـ. كان خليفة أبي حسن، أبا عنان فارس الملقب بالمتوكّل على الله، أمير المسلمين؛ احتفظ بالمملكة خلال فترة سبع سنوات وتسعة أشهر. مات أبو عنان في الرّابع والعشرين من ذي الحجة سنة 759 هـ وخلفه ابنه أبو بكر، الذي حكم لسبعة أشهر وعشرين يوماً فقط. لحق أبو بكر بن عنان فارس عمه أبا سالم إبراهيم، ابن الملك أبي الحسن الملقب بالمستعين بالله حكم الولاية لسنتين وثلاثة أشهر وخمسة أيام وتوفي في شهر ذي القعدة في عام 762 هـ. كان أخوه خليفة ذلك الملك المستعين بالله الملقب بأبي عُمر تاشفين، وكان ابن الملك أبي الحسن. دام حكمه لثلاثة أشهر فقط، وتبعه ابن أخيه أبو زيّان محمّد، ابن الأمير أبي عبد الرّحمن يعقوب، ابن الملك أبي الحسن. تولّى زيّان محمّد القيادة لخمس سنوات وتوفي عام 768 هـ. أتى من بعده عمّه أبو فارس عبد العزيز الذي كان أيضاً ابن الملك أبي الحسن، ودام حكمه خمس سنوات وتوفي في تلمسان، في شهر ربيع الأول من العام 773 هـ. وبعد وفاته، أصبحت المملكة بيد ابنه أبي سعيد محمّد الذي كان طفلاً يبلغ من العمر خمس سنوات فقط، ولم يبقَ في العرش لأكثر من سنتين؛ وفي شهر محرم من سنة 775 هـ سُلب الحكم من يديه.

بعد وفاة أبي سعيد محمّد، تولّى أبو سعيد عبد الرّحمن المتوكّل على الله، زمام الأمور في المملكة، وهو ابن الأمير أبي الحسن علي بن سعيد عثمان بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق في شهر محرم، من عام 775 هـ وكان هذا الملك العظيم في سدّة الحكم عندما أنهينا كتابة الكتاب الذي أمامك الآن، أيها القارئ؛ في شهر ربيع الأول من سنة 783 هـ. كان الأمل كبيراً بالازدهار الذي سيقدّمه هذا الملك الذي أهداه الله لنا – نأمل أن تحقق هذه الإشارات والدّلالات بمشيئة الله، وأن يمنحنا كل ما نتمناه من أميرٍ صالح، يكون نصرة للإسلام على الكفّار وخيراً لجميع المسلمين. مرّت حتى الآن سبع سنوات وشهران على حكم أبي سعيد عبد الرّحمن وإن شاء الله ستبقى مملكته دوماً تحكم بالعدل الاستقامة، لصالح المسلمين، ووفقاً لإرادة سيادته وسعادته.

لقد أتينا الآن إلى نهاية تاريخ الأمّة بالإيجاز، فقدمنا خلاصة وافية لكل الأشياء المستحق ذكرها والتي حدثت منذ تأسيس مدينة المغرب إلى يومنا هذا؛ بدءًا من التاريخ الذي كانت فيه المدينة مسكن الأسود ومراعي الأيائل، إلى يومنا هذا أي بعد مرور ثلاثمئة وعشرين سنة. أولاً، حكم المرابطون المدينة الجديدة، وكانوا أسياداً لمدة تسع وسبعين سنة؛ وجاء بعدهم الموحّدون، الذين تولّوا الحكم على المنطقة نفسها لمدة مئة وست وعشرين سنة؛ وتبعهم بعدها بنو مَرين، الذين حكموها مئة وخمس عشرة سنة أي منذ انتهاء مملكة الموحّدين حتى أيامنا الحاضرة؛ وإن المجموع الكلي لهذه السّنين ثلاثمئة وعشرين سنة أسّست المدينة عام 462 للهجرة، واضمحلّ حكمها في العام 783 للهجرة.

* * *

القسم الرّابع

الفصل الأول

احتدام الحروب الأهلية المستمرّة بين المسلمين في إسپانيا

بعد انتهاء معركة العقاب المشؤومة، والتي يطلق عليها الصّليبيون اسم معركة طليطلة، أظهرت سلالة الموحّدين بأجمعها مؤشراتٍ واضحة بأن عظمتها كانت تؤول إلى السّقوط. كان الأمير المهزوم محمّد بن يوسف، والملقب بالنّاصر لدين الله، مرعباً بعد المعركة المذكورة التي تهاوت فيها جثث المسلمين كالأمطار غير أنه لم يعزُ هزيمة جيشه، إلى شجاعة الصّليبيين وحُسن قيادتهم بل إلى فرار قـادة الأندلس، لذا فور وصولـه إلى مدينة إشبيلية قرّر الانتقـام المناسب من أولئك القـادة، فقطع رؤوسهم، وجرّدهم من رتبهم القيادية، والحكومية، وغيرها من المناصب.

بسبب هذه التصرّفات الظّالمة وغير الحكيمة، فتك محمّد بالعديد من الأعيان الأندلسيين، الذين أعربوا عن استياء أكثر من ذي قبل من الإهانات التي وجّهت إليهم، لدرجة أن العديد من شيوخهم الأكثر تبجيلاً، صمّمواعلى الانتقام، وأصبحوا بعدها ألدّ الأعداء لعائلته، وانتظروا اللحظة المناسبة للتّعبير عن استيائهم الجليّ. بالتالي رحل الأمير محمّد من إسپانيا وعاد إلى أفريقيا، دون القيام بأيّة محاولة للتّعويض عن الخسائر التي تكبّدها، أو بحملاتٍ جديدة في الأندلس. وبعد وصوله إلى مرّاكُش، حبس نفسه في قصره، كما ذكرنا مسبقاً، قاضياً أيامه بالكسل والاستمتاع بالملذّات التافهة، ومات بالسّمّ الذي قدّمه له وزيره.

كان ابن محمّد بن يوسف المدعو المستنصر بالله، لا يزال طفلاً، وحكم بدلاً منه

الشّيوخ أنسباؤه فقسموا مقاطعات إسپانيا وأفريقيا بين أنفسهم، دون وضع هدف محدّد لحكم النّاس بحكمة، أو الحفاظ على العدل أثناء فترة حكمهم القصيرة، كما كان ينبغي أن يفعلوا بل تسلّم كل منهم سدّة الحكم في مقاطعة ما بنيّة إغناء أنفسهم، فاستنزفوا الأموال وأدّوا إلى تدمير المملكة. فقاموا بفرض العديد من الابتزازات وأكثر الضّرائب إزعاجاً، لإشباع جشعهم المفرط وجشع وزرائهم، الذين لم يعنوا إلا بجناية القدر الأكبر من الأرباح لأنفسهم وتسبيب التّناحر بين أبناء الشّعب الواحد، وسعى كل واحد منهم إلى فرض سلطته وجار ظلماً وبطشاً في الشّعب من خلال أعمال العنف أو من خلال تلقّي الهدايا والرّشاوى.

بينما كانت مقاطعات الدّولة تضعف كل يوم من جرّاء سوء الحكم، كان الصّليبيون من جهتهم يعبثون فساداً داخل الإمارات، فاعلين ما بوسعهم لزيادة الخراب المنتشر في كل مكان. فأتلفوا الحقول، بعد أن أتلفوا المحاصيل أو أخذوها؛ أحرقوا البلدات، وذبحوا المقيمين التّعساء في الأندلس، وسيطروا على جميع الحصون، وبقيت أراضي المسلمين دون دفاعات. وكان الأمير المستنصر بالله في تلك الأثناء مشغولاً بتربية المواشي والقطعان؛ وأولى اهتمامه بشكلٍ خاص لعناية مختلف أنواع المواشي، فتحوّل إلى راعي غنم بدلاً من أن يكون مدافعاً حقيقياً عن شعبه، وحرس المواشي بدلاً من مسلمي إسپانيا الذين كانوا يتعرّضون كل يوم لهجمات من الكفّار الذئاب الجشعة الذين مزقوهم كلّ ممزّق. وبعد طول زمن توفي هذا الحاكم المهمل لشعبه، دون ترك أيّ خليفة مكانه، وعندها تولى عمّه، عبد الواحد ابن أبي يعقوب، العرش بعدد سلسلة من المؤامرات والمكائد المدبّرة من شيوخه. ومارس إخوة الملك الجديد، السّيد محمّد والسّيد أبو علي، بعدها السّلطة المطلقة في إسپانيا، وحكماها بقبضةٍ من حديد، وما لبث أن أبدى الشّعب الأندلسي استياءه.

أما في مُرسية، فإنّ عبد الله الملقب بالأهدل، رفع نفسه إلى منزلة ملك، وأعلن شيوخ المقاطعة أنفسهم طاعته؛ وفي ظلال هذا الحزب، بدأت فصائلُ جديدة

بالظّهور. وقرّر محمّد والي بيّاسة Baeza، إبقاء نفسه في سلطته مهما كلف الأمر، فعقد معاهدة مع الصّليبيين وقدّم لهم المساعدة والخدمة التي مكّنتهم من القيام بغزواتٍ دائمة على الأندلس. هذا وإن أوضاع الشّؤون العامة المزرية جعلت الملك عبد الله ممقوتاً من قبل شعبه الذي لم يذكر اسمه سوى باللعنات؛ وأُعلن رسمياً على الملأ أنه عدو الله ومضطهد المؤمنين، ولهذا السّبب سُلبت منه السّلطة الملكية وخلع عن العرش.

كانت الحالات نفسها تقريباً تسود في ذلك الوقت في أفريقيا، حيث خلع الشّيوخ الملك عبد الواحد عن عرشه، مختارين أخاه السّيد أبي علي المأمون المشهور بدلاً منه وكان أميراً لامعاً ذا خصالٍ مميزة، وشخصاً قادراً على وضع حدٍّ لمعاناة شعبه. وكان الحظ حليفه، فأرعب المتمرّدين، والعدو الصّليبي. لم ينفّذ مطالب الشّيوخ الموحّدين ولم يمكّنهم من السّلطة المطلقة وغير القوانين وأمل تحرير مملكته من الاضطرابات والفوضى العارمة في كل جزء منها. إلا أنّ أبا علي المأمون لم يضع نهاية لأولئك الوزراء الطّامحين الذين شكّلوا حزباً خاصاً وقاموا بالانقلاب ضدّه وأثاروا اضطرابات جديدة في أرجاء أفريقيا وكذلك في إسپانيا، حيث كانت قد سبقتها خلافات ومصائب عديدة.

أرسل الشّيوخ المتمرّدون الآن قائداً شجاعاً ومتمرّساً ضد حاكمهم، فأعلنوه ملكاً عليهم، وخليفة شرعيّاً لعرش الموحّدين وهو الشّريف يحيى بن النّاصر. ولكنّ قدرة الملك أبي علي المأمون الخارقة وشجاعته مكّنتاه من قهر يحيى بن النّاصر، مجبراً الأخير على التوجه إلى الجبال حيث احتمى. وبهذا الانتصار أصبحت المملكة آمنة بعهد الملك أبي علي، وما لبث أن قام بتهدئة الأوضاع في مقاطعات إسپانيا وعاد إلى أفريقيا بهدف إعمام النّظام في تلك المنطقة أيضاً؛ وعندما وطئت قدماه أرضها بلغه أن عدوّه قام بالانقلاب مجدّداً عليه في شرق إسپانيا، وتعرّضت مملكة الموحّدين من جديد إلى الخطر.

والشّيخ الذي دعاه أبو علي المأمون للمواجهة لم يكن غير أبي عبد الله محمّد بن

يوسف بن هود، وهو فارس نبيل ينحدر من ملوك سَرَقُسطة (ثاراغوثا Zaragoza)، فأدرك أن الفرصة ملائمة للثّأر لنفسه ولعائلته من الموحّدين، ولاستعادة الحقوق القديمة لعائلته التي حكمت في الماضي على شرقي إسپانيا، كما ذكرنا، فحشد قوة من الفرسان الصّناديد الذين أعلنوا له الولاء وتوسّعت أعداد أتباعه بسرعة فائقة، وانضووا حالاً تحت راياته في إسكوريانتِه Escuriante (الصّخريّة)، وهي جزء صحراوي في قضاء شقر Xúcar، وهي قلعة محصّنة بشدة من حيث موقعها؛ وهنا أقسموا الولاء لقائدهم المختار وأعلنوه حاكماً عليهم، وأميراً للمسلمين في إسپانيا في اليوم الأول من شهر رمضان المبارك من العام 625 هـ.

ولزيادة ثقة الشّعب به، وأملاً في تشجيع أولئك في المقاطعات البعيدة أرسل أبو عبد الله محمّد تصريحاً جاء فيه أنه سيقوم بإعادة حريّة المدن المضطهدة وسيمحو جميع معالم الاضطهاد متوقعاً انضمام كثر إلى عداد أتباعه، والهجر النّسبي لصفوف الحكام الموحّدين. وأيضاً أعلن أبو عبد الله أنه سوف يعيد تثبيت الرّسوم المستحقّة، أو الضّرائب القانونية، كما كانت في الماضي، ملغياً الرّسوم الطّوعية، كما تسمّى، والتي كانت تثقل كواهل النّاس بعد أن فرضها الموحّدون عليهم (لذلك كانت أكثر الألقاب بغضاً لقب الأمراء الموحّدين)، الذين اتّهمهم بعدها بالتّسامح مع الصّليبيين أعداء الإسلام، وباستخفافهم بالدّين. وقام الأئمة والخطباء وغيرهم بإلقاء الخطب والمواعظ في المساجد مبيّنين أن الموحّدين انتهكوا حرمة هذه الأماكن المقدّسة؛ ومن أجل إثارة التعصّب الدّيني الشّعبي، قاموا بتطهير هذه الأماكن وأداء الاحتفالات الرّسمية. وبعد هذا قام الملك بنفسه ومعه جميع نبلائه، بارتداء ثوب الحداد كرمزٍ للتّعبير عن المصيبة التي ألمّت بالمؤمنين من جراء تدنيس الموحّدين وعبثهم.

في الوقت نفسه نشأ عصيان آخر على يد الوالي ابن مَردنيس، في بلنسية، وعندما وصلت الإشاعات حول هذه الاضطرابات إلى مسامع يحيى بن النّاصر، الذي كان يهيم هارباً في جبل المُنكَّب Almuñécar، تولّته بالشّجاعة وأدرك أن كل هذه الأمور

سوف تؤدّي حتماً إلى هلاك عدوه. ففعل ما بوسعه لزيادة الاضطراب السّائد، محرّضاً الثّورة ضد الموحّدين بكل ما أوتي من قوة، ومُضرماً بشغفٍ فتيل الحرب الأهلية، دون التفكير بالشّرور التي قد جلبها على بلده.

من ثم عاد الأمير أبو علي المأمون، إلى الأندلس، حيث كان همّه الأول نشر السّلام، والقيام بمعاهدة مع ملك الصّليبيين فرناندو، الذي كان في ذلك الوقت يشنّ حرباً عليه بحظوظٍ متباينة للطّرفين في إمارات قُرطُبة. وتم الاتفاق على شروط الهدنة، وجمع الأمير محمّد المأمون قوة وخرج لقتال عدوه. واجهت جيوش محمّد مجموعة ابن هود في سهول طريف Tarifa، حيث دار صراع عنيف بين الطّرفين كألدّ الأعداء بدلاً من قوم من دين واحد ومماثل. وحارب الجيش من الطّرفين ببسالة، ومع غروب الشّمس أوقف المقاتلون الهجوم، وعلّقوا صراعهم باتفاق عام. فسادت هدنة مؤقتة بين أولئك الأعداء الصّناديد، ولكن مع بزوغ فجر اليوم التالي تجدّد النّزاع، الذي بدأ من جديد بحماسةٍ ملتهبة من الجانبين. إلا أن الموحّدين بالنّظر إلى قلّة عددهم في ساح القتال لم يستطيعوا الصّمود طويلاً في وجه الأندلسيين، وهُزم الأمير محمّد المأمون ومات العديد من كُماة فرسانه ومن ضمنهم إبراهيم بن إدريس بن أبي إسحاق، والي سبتة، وأبو زياد المقيّد والي بطليوس Badajoz، قريبا الأمير، وجُرح ابنه أبو الحسن الذي قاد طليعة الجيش. وكانت هذه المعركة الدّامية في السّادس من شهر رمضان من العام 626 هـ. عاد أبو علي المأمون وجيشه بنظام جيد مهزوماً ولم يجرؤ ابن هود على إزعاجه إذ أن الموحّدين دفعوا ثمناً غالياً جداً، وَفق القول المأثور: «ثمّة وقتٌ عليك فيه بناء جسرٍ من فضّة لعدوك المتقهقر». ونلحظ أن الموحّدين فرسان صناديد للغاية وقد أثبتوا أنفسهم بما فعلوه في ذلك اليوم. بعدها صمّم أبو علي على الذّهاب إلى أفريقيا، لجمع جيش قوي، بأعدادٍ تضمن له النّصر على أولئك الذين تبعوا ابن هود. فسار الأمير بعد أن رتّب أموره في إسبانيا وإيلاء القيادة إلى ابنه أبي الحسن، وأخويه السّيّد عبد الله والسّيّد محمّد إلى أفريقيا.

استفاد ابن زيّان من ثورة ابن هود، وسيطر على بلنسية، حيث طرد السّيّد محمّد

المنصور واليها، أخا الأمير المأمون. بعد ذلك حدث العديد من المواجهات بين ابن زيّان والسّيد محمّد المنصور، فهُزم الأخير واتخذ ملجأ له في بلاط ملك الصّليبيين خايمِه الذي عقد سلاماً معه سابقاً مع مناصريه. ولكن خايمِه الطّاغية كان عدواً مُهلكاً للمسلمين، وعلى الرّغم من أنه أخذ أسلحةً لهدفٍ ظاهري وهو الثّأر للسّيّد محمّد المنصور، فإنه لم يكن لديه النّية باسترداد الولايات التي كان قد خسرها لصالح ذلك الأمير، بل انتهز الفرصة هذه كذريعة لمهاجمة وتدمير إمارة بلنسية، التي سيطر بعدها على حصونها. ولقد وقع عصيان ابن زيّان في بلنسية في سنة 627 هـ.

عندما تلقّى يحيى بن النّاصر خبر الانتصار الذي حقّقه أبو عبد الله محمّد بن هود على أمير المؤمنين، أرسل سفيراً لتهنئة الأول، وعرض عليه صداقته وتحالفه. فجمع شعبه ونزل من الجبال حيث عاث خراباً في ولايات ملك الموحّدين. غير أن ابن هود القائد الفطن والحصيف، أصدر أوامره بالتّقدّم السّريع لمجموعةٍ من الفرسان بقيادة عزيز بن عبد الملك فتمكّن بشجاعته وحماسته وبمساعدة قوات القائد أبي حسن علي بن محمّد القسطلي El Casteli، من إعلان ابن هود سيداً على مُرسية، بعد تأييد كبير من الفرسان الصّليبيين الذين أتوا لمساعدته.

من ثم عاد ابن هود إلى مُرسية، وبايعته المدينة ملكاً وألقى خطاباً على المقيمين، محدّداً بداية غاياته ومؤكداً أنّ هدفه تحرير إسپانيا من عبودية الموحّدين الاستبدادية، مفسدي نظام المسلمين وشيمهم. وعزا إليهم جميع الاضطرابات في الولاية وانحطاطها وسمّاهم السّبب الأصلي والوحيد وراء كل الخراب. وختاماً، أكّد أنّ الموحّدين مضطهديهم زنادقة ورُعاعٌ متوحّشون، لم يعتبروا يوماً أيّ مسلمٍ أخاً لهم.

والآن، بما أن الشّعب كان يعاني كثيراً من سوء حكم الموحّدين، وكان كثيرون من الأعيان مستائين من غرور وجور أولئك الأمراء، لم يكن الأمر صعباً جعل قلوب الشّعب تميل ضدّهم. وبذلك أعلن ابن زيّان وسط تهاليل العامة محمّد بن يوسف بن هود ملكاً على مُرسية، وأعلن الشّعب ولائه الطّوعي له.

وكان ابن هود يتمتع بمزايا عديدة وعقل متّزن وبلاغة فريدة فأيّده الشّعب والرّجال من كل الأحزاب؛ وبعد بضعة أشهرٍ فقط أصبح سيداً على المقاطعة أجمع. وبعدها عيّن الملك قائده عزيز بن عبد الملك، الضّابط الذي كان يثق فيه كثيراً، والياً في مُرسية وسلّم حكومة مدينة شاطبة Xativa إلى يحيى بن محمّد بن عيسى أبي الحسين صاحب دانية Dénia، ووضع ابن أبي الحسين حاكماً عليها. ولقّب النّاس الملك ابن هود بالمتوكّل على الله.



الفصل الثّاني

استمرار الحرب الأهلية بين المسلمين - سيطرة خايمِه ملك أراغون على جزر ميورقة ومنورقة ويابسة - وفاة أبي علي المأمون

إن غياب الملك أبي علي المأمون، والانتصار الذي أحرزه ابن هود، وخلافته لمُرسية، جعلت الأخير يعتقد أن جميع العقبات قد ذُلّلت أمام أولئك الذي انضووا تحت رايته، لذلك، بعد أن علم أنّ والي إشبيلية، أخا الملك أبي علي المأمون، قد جمع جيشاً قادماً باتجاهه، تحرّك ابن هود بجرأة للتّصدّي للعدو. في تلك الأثناء كان والي إشبيلية قد جمع أهل الغرب، وطلب قوة احتياطية من صليبيي جليقية Galicia، وتقدّم هو وجميع فرسانه إلى مقاطعة ماردة Mérida، وهناك اجتمع بقادة السّيد أبي عبد الله. وفي محيط آلانخِه Alhanje، التقى جيش المأمون بقوات ابن هود وتلت ذلك معركة دامية، أحرز الأخير فيها الانتصار مرة أخرى، وعانى السّيد أبو عبد الله ومساعدوه من هزيمة نكراء، وأُجبروا على اللجوء إلى مدينة ماردة في أوائل عام 629هـ.

كان من ضمن الذين لجأوا مع الملك إلى ماردة القائد الموحّدي عبد الله بن محمّد بن وزير وأخوه أبو عمر عبد الرّحمن بن محمّد. وكان القائد الأول والي قلعة الفتح والتي تدعى أيضاً قلعة أبيدينيس Abidenis، والتي كانت في ذلك الوقت بين أيدي الصّليبيين كما كانت مونتانتشيث Montanchez، وغيرها من المعاقل على البعد نفسه. وأيضاً كان هناك العديد من الفرسان الشّجعان في ماردة الذين ينتمون إلى حزب الموحّدين، ولكن العدد الأكبر من هؤلاء كانوا في خدمة ابن هود فدبّروا خديعةً وتآمروا للغدر بالشّقيقين وتسليم عبد الله وعبد الرّحمن إلى أيدي ابن هود، قبل إمضاء الليلة الأولى في تلك المدينة.

عند عودة ابن هود من الحدود الشّمالية، كان القائدان عبد الله بن محمّد بن وزير وأخوه أبو عمر عبد الرّحمن، قد أُخذا إلى مدينة إشبيلية فانقضّت عليهما الجماهير بخناجرهم، وعلى الرّغم من فضلهم ونُبلهم، قُطّع الأخوان إلى أشلاء. وحدث هذا، كما أكد بعض الكتاب، دون أي ندم من قبل الملك ابن هود، الذي كان يحترم أبا عمر عبد الرّحمن بالتّحديد جداً لعلمه وعبقريته الباهرة ولشجاعته. وكان أبو عمر ناظم أبيات شعر الرّثاء الجميل الذي كان والده أبو بكر بن وزير قد ألّفه.

ولكن بخصوص مصير هذين القائدين الكبيرين عبد الله بن محمّد وأبي عُمر عبد الرّحمن، نجد مذكوراً في مصادر أخرى إن مقتلهما أتى بأمر من ابن هود نفسه، وأنهما لفظا أنفاسهما الأخيرة برماح حرّاسه. ولكنّ هؤلاء الكتّاب يصفون أنّ إعدام الأخوين قد حدث ذلك خلال فترة قصيرة قبل أن يمرّ الملك بجيشه العتيد من مدينة مرّاكُش إلى أرض غرناطة. خلال تلك الحملة أُجبر جميع القادة في تلك المنطقة على إعلان أنفسهم مناصرين لحزب ابن هود، الذي استُقبل بالتّهاليل والبهجة والنّصر من سكان غرناطة. بينما يذكر آخرون أنّه في المدينة المذكورة أي غرناطة وليس في إشبيلية تم اعتقال القائدين عبد الله وأبي عمر (اللذين تحمّلا صبر الاعتقال بكل قوة) حيث أمر ابن هود شعبه بقتلهما فوراً ولم تتشفع لهما أيّة فضيلة من فضائلهما أو فضائل والدهما. وهكذا، استسلما لقضاء الله الذي لا رادّ له، وخرّقت جسدي الأخوين الرّماح، تحت قيادة أمير يفتخر بمدنيّته وحبّه للأدب.

ويحكى عن هذا الوالي، ويدعى أبا عمر، أنّه كان ذات يوم في وادٍ جميل يقع بين بين أركش Arcos ومدينة ابن سليم يُطلق عليه اسم وادي الحمام حيث سمع هديل حمامة رائع فكتب قصيدة نوح الحمام التي يغنّيها النّاس في الغرب في ساعات الليل على ضوء القمر.

في هذه الأثناء قام الشّعب من مناطق طليطلة بغزو كاثورلا Cazorla واحتلّوا أسوار وقلاع وحصون الإمارة وسيطروا على قصادة Quixata، غير أنّ مسلمي الحدود استعادوها. وهاجم الكفرة الأجزاء الشّمالية لإسپانيا وسيطروا على ترجالة Trujillo

وتكبّد الإسلام خسارة كبرى بعد أن أخذوا الحصن، وكان والي المكان إبراهيم بن صناديد الأنصاري الملقب بأبي إسحاق.

وفي سنة 629 هـ قام خايمِه الطّاغية بالزّحف على رأس قوة مهولة نحو ميورقة، فظنّ السّيد محمّد وأتباعه أن المسيحيين هاجموها لإعادتها لهم، غير أنهم نصبوا أنفسهم أسياداً عليها بعد أن تغلّبوا على واليها السّيد الحاكم ابن عثمان القريشي من طبيرة Tabira في الغرب، وقد قاتل الجنود الصّليبيين بكل شراسة غير أنه أُجبر على الانسحاب وانكفأ إلى قلعة المدينة في 14 من شهر صفر من العام 629 هـ. وبما أنّ أمله بوصول أيّ عون تضاءل للغاية فقد عقد العزم على توقيع معاهدة استسلام وفق شروط مجحفة. وعمل بالمثل شيوخ وأشراف ميورقة ويابسة Ibiza الذين أعلنوا ولائهم للملك المسيحي، ووضع أربعة شيوخ أنفسهم في إمرته وهم عبد الله حاكم همجودة Hamajuda وعلي من بني سعيدة وابن يحيى حاكم بني Beni Fabin ومحمّد صاحب القازور Sahib of Alcazor. وأكمل ابن عثمان مسيرته في كل الولاية لإخضاع المسلمين للملك المسيحي، وبقي في منصبه حتى قام القاضي أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن هاشم بتحريض الشّعب على الثّورة ضدّه بعد أن أكلته الغيرة، فحلّت الفوضى خاصّة بعد قدوم المسيحيين الذين رزحوا تحت شرورهم.

خلال هذه الفترة من العام مات أمير المؤمنين أبو علي المأمون قرب المغرب وسقط معه عهد الموحّدين واضمحلّ مُلكهم فادّعى الثّائر يحيى بن النّاصر خلافة العرش وعمل جاهداً على بلوغها معللاً أنها حقٌّ له، وبعد أن حصل على اليمين من موحّدي المغرب. غير أنّ قوّاته كانت أقلّ من قوات ونفوذ محمّد عبد الله بن هود الذي تمكّن من التّغلّب عليه. وفيما كان الملكان يتناحران للسّيطرة على الأندلس، كان جميل بن زيّان يبذل جهده في توسيع المقاطعات التي استولى عليها في بلنسية فسيطر على مدينة دانية Dénia، وعيّن ابن عمه محمّد بن سبيع Ben Sobaye بن يوسف الجُذامي حاكماً عليها، بعد أن أخرج منها الوالي حسين بن يحيى الذي اتخذ ملجأ له ووالده أحمد بن عيسى الشّرقي والي شاطبة Xativa. وحصل أحمد بن عيسى

هذا، قريب أبي عمر بن علي، على ولاية دانية لابنه حسين (الذي ولد في ذلك المكان) كمكافأة على خدماته العديدة. وبواسطة الثّروات الكبيرة التي يمتلكها، وجد حيلةً لإعادة حسين المطرود إلى حكومته، التي تولّاها الأخير إلى أن استولى الصّليبيون على تلك المدينة كما سنذكر فيما بعد.

في تلك الأثناء كان يحيى بن النّاصر يجمع قواته بكدٍّ دؤوب؛ فاستدعى مناصريه وأصدقاءه لمساعدته، موصياً الجميع بالتجمع من حوله بالقوة التي يقدروا عليها لدعمه؛ وبالتّالي جمع حشده في أرجونا وأعطى قيادة تلك الجيوش إلى يحيى بن النّاصر من أرجونا، وهو شابٌ ذو صفاتٍ رائعة قوي وحكيم كرجل في سنٍّ متقدّمة، يتمتع بشجاعة وقدرة على القتال في ساحة الحرب مساوية لتلك التي يتحلّى بها المنصور بن أبي عامر الشّهير. كان هذا الشّاب المميّز يعرف أيضاً باسم ابن الأحمر، وبتفوّقه وتميّزه أصبح من الرّجال البارزين بين أعظم أعيان الأندلس، وكان متلهفاً لإبراز حماسته في خدمة عمه. نزل محمّد عبد الله وفرسانه في مدينة جيان Jaén، التي سيطر عليها بقوة السّلاح، يوم الجمعة في شهر... [1] من العام 629 هـ.

ولكن عند الاستيلاء على مدينة جيان، كان يحيى بن النّاصر مصاباً بجروح بليغة، لدرجة أنه مات من جرّاء هذه الجروح بعد مدةٍ قصيرة، تاركاً لابن أخيه همّ الثّأر له، وميراث أراضيه ومتابعة شؤونها. أخفى محمّد أبو عبد الله بن يوسف خبر وفاة عمه، يحيى بن النّاصر، إلى أن استولى على مدن قادش وبيّاسة Baeza، وعندما أدرك أنّ سكان تلك المقاطعات قبلوا به، صرّح علناً بوفاة قريبه يحيى بن النّاصر، وأُعلن ملكاً على أرجونا، وجيان، وقادش، وبيّاسة وحصون تلك الإمارات. ثم أعلن محمّد نفسه عدو ابن هود، وكل من ينتمي إلى حزبه.

* * *

(1) سقط اسم الشّهر في النّص العربي المخطوط. (أحمد)

الفصل الثّالث

ظهور ملك الصّليبيين فرناندو أمام خيريث - معركة وادي لكّة في أراغون والأندلس - السّيطرة على أبذة وقُرطُبة

كان فرناندو ملك الصّليبيين عدواً لدوداً للمسلمين يرغب في تنصيب نفسه ملكاً على كل ممتلكاتهم في الأندلس وألهبت هذه الرّغبة قلبه، فقام بإتلاف جميع حقول تلك الأرض بحملاتٍ دائمة، وأحرق البلدات، ودمّر المزارع، وخرب المقاطعة أجمع، حيثما حلّ. وإنّ الاضطرابات والحرب الأهلية التي سادت بين ابن هود ومناصري ابن زيّان دعمت كثيراً هدف الملك فرناندو، كذلك كانت المساعدة التي منحه إياها محمّد بن الأحمر عن طريق تدخّله الجديد والقوي. كانت البلدات والمدن مقسّمة بين جميع تلك الأحزاب؛ كما أنّ الولاة والقادة الذين كانوا يحكمون عليها، انهمكوا في حماية مناصبهم، ولم يعرفوا على أي حزب يعوّلون لتعزيز هدفهم وجعله أكثر فعالية؛ بل وإن العديد من ضمن هؤلاء الحكام، اتّبعوا طموحاتهم وطمعهم أكثر من ضميرهم وواجبهم، أعلنوا أنفسهم أسياداً وحكّاماً مستقلّين للمدن، والحصون، والمقاطعات التي كانوا يتولّونها، رافضين تقديم مساعدتهم لأيٍّ من الأحزاب المتمرّدة.

في تلك الأثناء دُفع سكّان تلك المقاطعات إلى التّقاعس، فقد خدعتهم صورة السّلام والهدوء المتجلّي لهم بإصرار حكامهم على عدم الانحياز إلى أيّة جهة في الصّراع الدّائر من حولهم، لدرجة أنّهم ظنوا أنفسهم آمنين وناعمين، في حين أنهم كانوا في الواقع مجرّد معزولين عن ذويهم، غير جاهزين للدّفاع وللحفاظ على أنفسهم ضد هجمات المعتدي الأولى أو لمقاومة الجيوش القوية التي تتصارع على امتلاك المملكة الآيلة للسّقوط. إن هذه النّزاعات والاضطرابات وصلت في الحقيقة إلى

نقطة دفعت بأعداء الله للوثوق بأنّ المناحرات والصّراعات بين السّاعين وراء المُلك سوف تؤدّي إلى هلاك المملكة وتدميرها وتأكيد انقراضهم منها. بل كان من الجليّ لهم أنّ المسلمين كانوا يعملون لهدفٍ واحد لا غير ألا وهو إنهاء سيادتهم في إسپانيا، وزوالٌ فعليّ لذكرى عظمتهم، فلا يبقى منهم في النّهاية سوى آثار دارسة ومحزنة.

في وسط هذه البلبلة والضّياع، ظهر الملك فرناندو بفرسه الرّشيق في مقاطعة قُرطُبة، حيث سيطرعلى العديد من أكثر البلدات تحصيناً، فذبح سكانها أو أسرهم. ودخل جنوده إلى مدينة بالما Medina Balma فذبحوا الجميع وسفكوا دماء الأبرياء من النّساء والأطفال العزّل دون تمييز بين الأجناس والأعمار، فأرهبت هذه الأعمال الوحشية أولئك الذين حاولوا الدّفاع عن البلدات المجاورة، فاستمرّ زحف الصّليبيين دون أن يتجرّأ أحد على صدّ تقدّمهم، إلى أن وصلوا إلى إمارتي إشبيلية وخيريث Jerez (شريش).

كان الملك النّبيل أبو عبد الله محمّد بن يوسف بن هود متأثراً جداً بالمِحن الجديدة التي ألحقت بشعبه المتعذب بالفعل، فتغاضى عن المكاسب التي أحرزها منافسه الشّاب محمّد بن الأحمر في مقاطعة غرناطة، ولم يفكّر إلا في تحضير القوّات للمسيرة ضد الصّليبيين. ومن أجل هذه الغاية حشد سريعاً جيشاً قوياً من المشاة والفرسان، مجهّزين بالعتاد، وبأعدادٍ هائلة جداً غطت السّهول والجبال. ثم غادر سعياً وراء أعداء الله، الذين كانوا يعسكرون على ضفاف نهر وادي لكّة Guadalete الشّهير، وهو نهرٌ يمر بالقرب من مدينة خيريث Jerez (شريش)، حيث كانوا يحتفظون بالغنائم من الأسرى وغيرها.

زحف المسلمون بثقة أكيدة نحو الكفرة وكلّهم أمل أنهم لن يفلتوا من العقاب الذي يضمرونه لهم، وتقاربت طلائع الجيشين. فنصب ابن هود خيامه بين أراضي الزّيتون في الإمارة، وأرسل تواً مجموعة من ألف فارسٍ من المسلمين للمشاركة في المناوشات مع العدو؛ ولكن الأخير لم يجرؤ على ترك دفاعاته. مع ذلك حضَر الصّليبيون أنفسهم للمعركة بعد أن أدركوا أن لا مفرّ منها؛ ورغم يأسهم من النّجاح

وعدم وجود مفر للنّجاة بحياتهم، قرّروا بداية القيام بعملٍ انتقامي قاسٍ ولا إنساني فجلبوا الأسرى المسلمين البائسين مقيّدين بالسّلاسل أمام معسكر العدو وقتلوهم بحد السّيف جميعاً. قام القائد الصّليبي، الرّاغب في تنشيط شعبه للصّراع في ظل الآمال البسيطة بتوجيه الخطاب التالي لهم: «العدوّ أمامكم والبحر خلفكم، لذلك لا ملجأ لكم إلا في الجنّة العليا، فافعلوا ما أفعل، ودعونا نموت منتقمين تماماً».

عندما سمع فرسان الملك ابن هود صرخات الأسرى الذين كان يقطّعهم الصّليبيون القساة انقضّوا على الكفّار بغضبٍ وعنف لا يوصفان وسط ضجة صاخبة علت فيها الصّرخات المدوّية، وأصوات جلجلة الطّبول، فدبّ الذعر في صفوف المسيحيين الذين سمعوها. فأسرع الصّليبيون إلى القتال ودار بعدها صراعٌ دامٍ، حيث قاتل الطّرفان بغضب وعنف وحوشٍ برّية. شكّل الفرسان المسلمون الواثقون من شجاعتهم وبأعدادهم الكبيرة دائرة حول أعدائهم، فناوشهم برماحهم ولكن فصائل من هؤلاء الكفرة وجدت السّبيل لشق طريقها بالقوة بين صفوفهم وقطّعت كل شيءٍ صادفته إلى أشلاء. جدّد الفرسان المسلمون القتال بعدها؛ وأدّى ذلك إلى زيادة الاضطراب والرّعب لدى الجنود المشاة، الذين زحفوا خلفاً إلى أراضي الزّيتون التي دخلوها، ورغم الخسارة الكبيرة استطاع الكفار إيجاد وسيلةٍ للهروب من ساحة المعركة، حيث تكبّد المسلمون أيضاً خسائر بالغة، وخاصّة بين المتطوّعة في قواتهم، الذين قضى منهم أعداد كبيرة في ذلك اليوم، كما حصل للفرسان الأعيان الذين شكّلوا حرس الملك ابن هود.

بعد إرسال بعض الفرق لملاحقة العدوّ المتقهقر، تراجع المسلمون لأخذ قسط من الرّاحة والعناية بالجرحى في خيريث (شريش) وسيدونيا (شذونة). وقعت هذه المعركة في نهاية عام 630 هـ. في تلك الأثناء كان ابن زيّان يثأر من الصّليبيين لدماء المسلمين التي سفكوها بحقد، وقام بغزواتٍ لا تحصى على مقاطعات أراغون فقطع المحاصيل، وأحرق البلدات، ودمّر الأرياف، وعاث خراباً في كل أرجاء المنطقة، حتى تخوم حصن أمپوستا Hisnamposta وطرطوشة Tortosa، وعاد منها محملاً

بثرواتٍ كثيرة وأعداداً كبيرة من الأسرى. ولم يكن الصّليبيون غير فعّالين من جهتهم فقد تمكّنوا من السّيطرة على بنيسولا Benisola وكاستيّون Castellon، وبونيول Buñol، والقلعتين Alcalaten، مارّين بعدها على طول ضفّة شقر، وحصن المنصورة، الذي دخلوه بغتةً في الليل. ومع نهاية السّنة، جعلوا أنفسهم أيضاً أسياداً على موتيليا Motelia، وفرضوا حصاراً على بريانة Burriana، حيث استسلم المكان الأخير دون أي تأخير، بعد أن تلقى شعبه وجنوده تعهّدات بضمان سلامتهم وسلامة جميع سكان الإمارة أيضاً. في تلك الأثناء كان محمّد بن الأحمر قد سيطر على مدن لوشة والحمراء، وجميع توابعها. ووقعت تلك الأحداث في سنة 631 هـ.

لم يكتفِ الصّليبيون بفتح موتيليا وبريانة وغيرها من المدن المذكورة أعلاه؛ لذلك، وتلهفاً لتوسيع تلك الفتوحات، واصلوا تحركهم باتجاه أبذة Úbeda، حيث فرضوا حصاراً على المكان وهاجموه بشغف بمعدّات وآلات حربية مختلفة. ولم تدافع أبذة طويلاً عن ذاتها فقد كانت مكتظّة بالسّكان ولم يمضِ وقتٌ طويل، على الرّغم من أنها محاطة بالأسوار المنيعة حتى بدأ الوالي مفاوضاته مع الملك فرناندو للاستسلام وفق شروط وضمانات معينة، لم يرفض الملك المسيحي أيّاً منها، فتم ضمان سلامة الأشخاص وملكياتهم واستسلمت المدينة وانهزمت في شهر.... [1]من العام 632 هـ.

في العام نفسه، وسّع الصّليبيون غزواتهم إلى ما بعد الغرب، واستولوا على آلانخِه Alhanje وغيرها من الحصون، فقد منع المسلمون بسبب اضطراباتهم وحروبهم الأهلية من إلقاء أي عقبة في طريق نجاحهم. حدث المصير نفسه لمديلين Medelin وموديلا Mudela وهما مدينتان تتبعان لبني مَردنيس، ومثل هذا المصير كان آتياً على رأس قُرطُبة ولاية الأندلس، المدينة القديمة والمزدحمة بالسّكان.

من جهة أخرى كان الملك أبو عبد الله محمّد بن هود يجمع بجدّ قواته في إستجة Écija، لإغاثة مدينة أبذة، ونوى بعدها المرور إلى غرناطة. ووصلت أنباء إلى القادة الصّليبيين مفادها أن مدينة قُرطُبة متهاونة في حمايتها، لذلك صمّموا بعد جمع قوات

(1) سقط اسم الشّهر في النّص العربي المخطوط. (أحمد)

الحدود الذين كانوا في أندوجر Andújar والذين شكّلوا قسماً من الجنود المدافعة عن عبيدا فتسلقوا أسوار قُرطُبة خلال السّاعات الأخيرة من ليلٍ كالحٍ جداً، ونصّبوا أنفسهم أسياداً على حُصنٍ، بعد أن ذبحوا الحرّاس المستهترين وكان هذا الحصن يقع جنوب المدينة.

عند ساعة الفجر أدرك سكان قُرطُبة ما الذي حدث، فقدم بعضهم لمهاجمة الحصن الذي سيطر عليه الصّليبيون، آملين باسترجاعه من أيدي أولئك الكفّار؛ ولكن موقعهم كان حصيناً جداً، محمياً بقوة، فضاعت كل جهودهم سدًى، وبقي العدو محافظاً على احتلاله.

أُرسل نبأ هذه المصيبة إلى الملك ابن هود، وأُبلغ بالخطر الذي هدّد بضياع المدينة التّام، وسارع مبعوثو قُرطُبة الذين وصفوا للملك الأعداد الهائلة للصّليبيين لمساعدات ذويهم؛ وأكّدوا أن الملك فرناندو يقترب نفسه على رأس جيشٍ كبير للسّيطرة على قُرطُبة.

لم يضيّع ابن هود أي لحظة فهبّ لنجدة المدينة؛ ولكن بعد أن قطع نصف المسافة تلقّى بياناً بأن الصّليبيين سيطروا على جميع الضّواحي الجنوبية، بعد أن تقدّم الملك فرناندو من إستريمادورا Estremadura، ووصل بقوة كبيرة أمام القلعة التي كان يحاصر مدينتها بإحكام. بعدها طلب ابن هود استشارة قادته، ولكنهم لم يحدّدوا الخطوات التي يتوجّب عليهم اتخاذها، فاقترح البعض مهاجمة الصّليبيين مرةً واحدة، لتشجيع سكان قُرطُبة؛ إلا أن الآخرين الأكثر جبناً وتردّداً، وجدوا أنه ليس من الحكمة مواجهة العدو دون التأكّد والتحقّق أولاً من أعدادهم والتّنظيمات التي اعتمدها لقواته.

وتردّد ابن هود أكثر من أي وقتٍ مضى حول ما يجب اعتزامه، وبعد وقتٍ أرسل رجلاً صليبياً يدعى دون سوار Don Suar، الذي كان في عديد جنوده للحصول على أنباء تتعلق بالقوة الصّليبية في قُرطُبة. فتقدّم عدو الله هذا إلى المدينة، ولكنه عاد وأخبر الملك بالأكاذيب مبالغاً بقوة العدو الصّليبي فصرّح بأنها لا تعدّ ولا تُحصى؛ في الوقت نفسه وصلت رسالة من دانية Dénia من قبل الوالي ابن زيّان مفادها أنه قد

أجبر الصّليبيين على رفع الحصار عن كاتّيرا Callera، إلا أنهم على الجانب الآخر قد أخذوا منه قلعة مونتيكات Montecat، في سهول بلنسية. وأضاف بأن المقاطعة بأجمعها تقع تحت خطر السّقوط في أيدي عدو الإسلام، وناشد الملك التقدّم حالاً لمساعدته، كي يستطيع الدّفاع عن نفسه من الطّاغية خايمِه. ختم الوالي قائلاً أنه إذا ما قدّم له ابن هود الحماية فسيعلن نفسه خادماً له، إذ أنه أدرك أنه من الأفضل أن يحكمه ملك مسلم، على أن يدفع جزية تحت شروطٍ دنيئة ومهينة لملك الكفار.

وجاءت هذه الرّسالة في الوقت المناسب وقرأها الملك لقادة جيشه، وحدّد التّدابير للهجوم وتشجّع بعد أن كان يشعر ببعض القلق من عنف هجمات الصّليبيين في منطقة خيريث، وميله الخفيف للمشاركة في حصار. كان ابن هود بالإضافة إلى ذلك، مفتوناً بأمل كسب صداقة ابن زيّان، معتقداً أنه في فترة معيّنة ستصبح جميع ولاياته من حقه. وجميع هذه الاعتقادات قد حفزته على اتخاذ القرار الكارثي بالتّخلّي عن قُرطُبة؛ فاتبع أهواءه وحفرت هذه الخسارة المريرة في ذاكرة الزّمن بيد العناية الإلهية الخالدة. وخرج لمساندة ابن زيّان معتقداً أن قُرطُبة لن تسمح للعدوّ بالسّيطرة عليها؛ وحتى لو انهزمت لن يكون لهذا الأمر أي تأثير فالصّليبيون لن يسيطروا طويلاً على مكان في عمق حدود الأندلس المسلم؛ وفي أسوأ الأحوال، سوف يتقدّم إليها بنفسه باللحظة المناسبة ومعه جيش قوي، وسوف يسترجع المكان من العدو الكافر.

في تلك الغضون كانت أكثر المعارك العنيفة والدّامية تحدث يومياً داخل مدينة قُرطُبة وحولها. وقاتل السّكان الشّجعان بعزمٍ لا حدّ له من أجل الحفاظ على منطقتهم وحريتهم وزوجاتهم. ولم يتوانوا في أن يحافظوا على ثبات راسخ طالما هناك أملٌ بأن العون قادم؛ ولكن عندما علموا أن الملك ابن هود قد تخلّى عنهم، فقدوا الحماسة والحميّة التي كانوا يتميّزون بها مسبقاً. وبعد طول زمن، وبعد تراجع الأمل الذي كان يشجع أهل قُرطُبة، بدأوا بالتفكير بمفاوضات لتسليم مدينتهم، واقترحوا الشّروط المتعلقة بمعاهدة الاستسلام. غير أن الصّليبيين بعد أن أصبحوا أكيدين من انتصارهم لم يمنحوا المدافعين سوى سلامة حياتهم، مع السّماح لهم بالرّحيل حيثما يشاؤون.

وهكذا سقطت مدينة الأندلس الرّئيسة التي أخذها عدو الله يوم الأحد في الثّالث والعشرين من شوّال من العام 633 هـ، أو وفقاً للتقييم الغريغوري أواخر يونيو من العام 1236. وفوراً وضع المتصرون صلبانهم فوق منارات المساجد، ودنّسوا جامع عبد الرّحمن الكبير، وجعلوه كنيسةً. وبعدها ذهب المسلمون اليائسون قدماً من قُرطُبة، ردّها الله إلينا، واتخذوا ملاجئ لهم في مدن مختلفة في الأندلس، وقسّم الصّليبيون منازلهم وإرث أهل قُرطُبة فيما بينهم.

أمّا الحصون والبلدات فقد وُضعت مع استسلام العاصمة، تحت ولاء وحماية الملك فرناندو، كونها غير قادرة على الدفاع عن ذاتها ومقاومة قوّته وسلطته. وكان من ضمن تلك المدن بيّاسة Baeza، وأسطابة Astaba، وإستجة Écija، والمدبر، وغيرها من البلدات التي أصبح سكانها أتباعاً لملك الصّليبيين.

* * *

الفصل الرّابع

الخلافات التي سادت بين المسلمين – سيطرة الملك خايمِه على بلنسية – وصول الأمير ألفونسو ابن فرناندو إلى مُرسية – توقيع معاهدة مع المسلمين – حكومة الملك في غرناطة

كان ابن زيّان قد جمع جيشاً لجباً جرّاراً، وتسلّح بالمساعدة الفورية التي سيتلقاها من الملك ابن هود، فتقدّم إلى حصن سانتا ماريا (شنتمريّة) وضرب عليه حصاراً محكماً. وبقي الصّليبيون الذين كانوا يحمون الحصن يدافعون عنه بشجاعة على الرّغم من الهجمات الطّاحنة التي شنّها ضدهم أبو زيّان فقاموا بهجماتٍ مفاجئة على معسكر المحاصرين، وتلا ذلك العديد من الصّراعات العنيفة، حيث قاتل الفريقان بشجاعةٍ لا توصف. وبعد طول وقت، وعندما كان المدافعون قد فقدوا الأمل من أيّة مساعدة اندفعوا قدماً للقتال كالذئاب؛ ودارت بعدها معركة ضارية فاضت فيها دماء المحاصِرين كالسّيول، وأُجبر ابن زيّان على رفع الحصار. ثم عاد إلى بلنسية، تاركاً حصن سانتا ماريا (شنتمريّة) تحت سلطة الصّليبيين، وكان هذا في شهر ذي الحجة من العام 634 هـ.

في تلك الأثناء كان الملك أبو عبد الله محمّد بن هود يتقدّم باتجاه المَريّة Almería وقد قرّر التوجه من هذا المرفأ إلى بلنسية، عازماً بعدها العودة لمساعدة ابن زيّان. ووصل بسلام إلى المَريّة، حيث استُقبل بترحاب من قبل القائد عبد الرّحمن في قلعة القصر، وأقيمت احتفالات عظيمة وجهّزت وليمة رائعة لشخصه، وكذلك للقادة الرّئيسين المرافقين له. في تلك الليلة نفسها، أي بين يوم الخميس في السّابع والعشرين ويوم الجمعة في الثّامن والعشرين من شهر جمادى الأولى من سنة 635

هـ، وُجد الملك المنكود مخنوقاً في سريره بقسوة غادرة. وهكذا مات الملك الحكيم والجليل المعروف أبو عبد الله محمّد بن هود، الذي كان يستحقّ مصيراً أفضل من هذا. كان حكمه سلسلة متواصلة من الصّراعات والقلق - فترة من الصّخب والتّكبّر والتعالي؛ ولكن الإرث الذي آل إلى شعبه لم يكن سوى المخاطر والدّمار الكلي، مع النّكبات والأسى والهلاك لمملكة المسلمين بأكملها. إن الشّجاعة الفريدة والبطولية لأبي عبد الله محمّد بن يوسف بن هود قد مجّدها محمّد ابن الصّابوني الإشبيلي بأبياتٍ راقية جداً. لم يتوقّع جنوده الغدر الذي حلّ به؛ وفي الصّباح بعد ارتكاب ذلك الاغتيال، انتشرت أنباء موت الملك بالسّكتة القلبية في أرجاء المعسكر تناقلت غيرها من القصص إذ قيل إنه رحل بنوبة من داء السّكري؛ والكن الحقيقة كانت أن أيامه وصلت إلى نهايتها واختتم ذلك بقضاء نهائي من الله عز وجل. وعند موت ملكهم وسيّدهم، عادت الجيوش إلى منازلها؛ ولم يستطع القادة احتجازهم أو إغراء أيٍ منهم على مواصلة الصّراع والمجازفة التي كانوا قد بدؤوها من أجل نجدة بلنسية.

عندما وصل خبر وفاة ابن هود إلى مدينة مُرسية، أعلن النّاس أخاه عليّاً بن يوسف الملقب بعضد الدّولة ملكاً عليهم في الرّابع من محرم من العام 636 هـ ولكن ما لبث أن ثار عليه أبو جميل بن مُدافع ابن يوسف بن سعيد القاسمي، وتمكّن بالخيانة والغدر من إيجاد السّبيل للتغلّب على علي بن يوسف. وبعد الحصول على تأييد الأهالي، هاجم أبو جميل بن مُدافع عضد الدّولة يوم الجمعة في الخامس عشر من رمضان، وبعد أن أخذه سجيناً لديه، قطع رأس الأمير في السّادس والعشرين من الشّهر نفسه. وكان علي بن يوسف المدعو عضد الدّولة رجلاً قليل الدّين، وكان هذا السّبب الذي أدّى إلى هلاكه.

في هذه الغضون كان قائد المَريّة Almería الغدّار عبد الرّحمن بن عبد المولى، عازماً على المضي بعدم ولائه، وأمل تسنّم محمّد بن النّاصر المدعو ابن الأحمر العرش، فطلب من أهالي المَريّة وجميع تلك الإمارة أن يعلنوا أنفسهم في خدمة الحاكم المذكور أعلاه، والذي نصّب نفسه سيداً على أرجونا وجيان Jaén بعد وفاة

عمّه يحيى بن النّاصر كما ورد سابقاً. وبايعت كل المَريّة الملك الجديد محمّد بن الأحمر باحتفالات كبيرة وبتهليلات النّصر.

في الوقت نفسه كان والي جيان ابن خالد يعمل على كسب قلوب الغرناطيين للحاكم نفسه؛ وكان محمّد بن الأحمر حريصاً على ألا يخسر الفرصة في التوسّع، ومرّ في المنطقة بأكملها في جميع الأقصاع حيث استُقبل فيها بالتّهاليل والهتافات. كان دخوله العام والرّسمي إلى غرناطة في نهاية شهر رمضان من العام 635 هـ. إن حكومة تلك المدن التي قبلت بحكمه جعلت محمّد بن الأحمر ملزماً لأولئك الرّجال الذين ميّزوا أنفسهم بالحكمة والشّجاعة، أو البارزين لمزاياهم الرّفيعة الأخرى. كما أنه توخّى بحذر اختيار والٍ لكل مكان وفق ما هو مناسب لسكان المنطقة نفسها.

أما الصّليبيون بقيادة خايمه فكانوا يعملون على تخريب الإمارات في بلنسية فزحفوا من حصن سانتا ماريا (شنتمريّة)، وألزموا أنفسهم بيمين امتلاك مدينة بلنسية (التي تعدّ مكاناً مؤنقاً في إسپانيا)، أو أن يموتوا في محاولة السّيطرة عليها. جُمع حشدٌ كبير لا يقل عن ثمانين ألفاً من الكفار لهذه الحملة؛ ومرّت هذه الجيوش في الوادي الأبيض دون توقف. وتقدم فرسان جميل بن زيّان لمواجهتهم، وفعلوا ما بوسعهم لمنع الصّليبيين من تثبيت معسكرهم، فاشتبكوا بمناوشاتٍ حادّة معهم لأيام عدة؛ ولكن كان من المتعذّر إعاقة تقدّمهم، وحاصروا المدينة من محوري اليابسة والبحر. بل إن جماهير الشّعب والجيوش من الفرنجة وبرشلونة الذين كانوا يحيطون ببلنسية كانوا بأعدادٍ كبيرة وهائلة جداً، بحيث أن لا أحد غير الله وحده الذي خلقهم كان قادراً على إحصاء عددهم. وفرضوا حصارهم في السّابع عشر من رمضان من العام 635 هـ وبدأوا الهجوم فوراً على أسوارها بالآلات المختلفة.

دافع الملك جميل بن زيّان، من جهته، عن مدينة بلنسية كما يجب هو وجيوشه؛ ولكن خوفاً من أن تكون مساعيهم تلك غير كافية، أرسل مبعوثين بسرعةٍ لقادة آخرين في الأندلس، طالباً العون منهم. كما أنه أرسل أيضاً طلباً مماثلاً إلى أفريقيا، وبشكلٍ خاص إلى رجال قبيلة بني زيّان الذين كانوا أقرباءه.

قام والي القبيلة بتحضيرات فورية للتّقدّم لمساعدته. فبعث جنوده على متن سفنٍ عدّة، وبقوا لعدّة أيام على السّاحل؛ حيث احتجزتهم العاصفة وأجبروا أخيراً على العودة أدراجهم متخلّين عمّا أتوا لأجله، للحفاظ على حياتهم. أمّا من الأندلس فلم يكن ممكناً إرسال أي جيش لمساعدة ابن زيّان، نظراً إلى أن القطاع المشؤوم كان يتخبّط في صراعات داخلية وساد القلق والرّعب في جميع حدوده، ولم يكن الولاة وبشكلٍ خاص أولئك الذين في مُرسية، يفكّرون سوى برفع نفسه لسيادة مستقلّة، وكانوا جميعاً في نزاعٍ حول المملكة.

بعد زمن قام سكان بلنسية، المتعبون من المعاناة التي تحمّلوها خلال الحصار المطوّل، والمنهكون من صدّ الهجمات والمناوشات الدّائمة على أسوارهم من قبل المحاصرين الذين لم يشعروا بأيّ كلل، فأجبروا الوالي جميل بن زيّان على اقتراح شروط الاستسلام، وطلبوا منه القيام بها دون أي تأخير. من أجل هذا الغرض أرسل قائدين يثق الجميع بهما، وضع لهما ملك الصّليبيين خايمِه الشّروط التالية: تُضمن سلامة حياة وممتلكات سكان المدينة، ويحقّ لهم الرّحيل إلى حيثما شاؤوا ومعهم جميع ممتلكاتهم، ومن اختار البقاء في بلنسية، فله حرّيّة ممارسة معتقداته الدّينية، على أن يكونوا أتباعاً لملك الصّليبيين، وأيضاً ضَمِن حماية حقوقهم وعاداتهم. ومنح لهم الوقت الازم لتدبّر أمورهم ونقل ممتلكاتهم بشكل آمن. وافق الطّرفان على هذه الشّروط ووقّعا عليها بحسب الأصول، وعُهدت إلى الملك خايمِه مدينة بلنسية في السّابع والعشرين من شهر صفر من العام 636 هـ.

في وقتٍ لاحق، تمّ التّوقيع على الاتفاقيات الأخرى فنشأت من خلالها هدنة لسنوات عدة بين الأطراف المتصارعة، وترك السّكان المدينة البهيّة للكفرة، وتقدّم المسلمون من أبوابها لمدة خمسة أيام نحو شقر Gezira Xúcar، ووافق القليل منهم على البقاء بين الصّليبيين حيث اعتبروا أنهم سيكونون في أمان في جوارهم مباشرةً. وهكذا وصلت سيادة جميل بن زيّان إلى نهايتها وكذلك مملكة المسلمين في بلنسية.

بقي محمّد بن الأحمر ملك غرناطة السّند الوحيد لسيادة المسلمين في إسپانيا.

فجهز نفسه لإبعاد هذا المصير الذي ألمّ بالولاية، وفعل ما بوسعه لإصلاح الفساد والاضطهاد. فسلّم حكومة مدينة غرناطة إلى وزراء ذوي حكمة وكفاءة وهم رجالٌ محترمون جداً في تلك المدينة، واتفق محمّد بن الأحمر معهم على تدابير لحكومة جيدة للمدينة. ودعا بعدها المحاربين من شعبه، وجمع من حوله أكثر القادة تميّزاً وترأس مجموعة لامعة لا تقل عن ثلاثة آلاف فارس، وألف وخمسمئة من المشاة لفرض حصار على حصن مارتوش Martos. هنا نصب الملك محمّد معسكره وأحكم الحصار بعنفٍ كبير، حيث أجبر القوات فيه على التفكير بمفاوضات للاستسلام، عندما حضر صليبيّو الحدود لنجدتهم وأجبر عندها محمّد على رفع الحصار.

بعد أن أُرهق من الجري أمام الكفرة استدار الملك فجأةً نحو مطارديه مع أفضل فرسانه: وإثر ذلك نشب قتالٌ ضارٍ، وبعد ساعات عديدة من القتال الشّرس انتصر المسلمون الذين قاتلوا بضراوة لا توصف وبفضل قدرة ابن الأحمر. فقهروا الصّليبيين وهزموهم كلياً من جميع المحاور، ولم ينجُ منهم سوى قلّة. في أثناء ذلك كانت الأطراف والفصائل في مُرسية تعمل على تمزيق المدينة. فاستولى قادةُ مدنها على مختلف الحصون وتنازعوا يومياً بين أنفسهم حول مَن من الرّجال سيكون حاكمها أو والياً عليها، وكانوا كلهم توّاقين للتّوسّع عن طريق تجاوز المقاطعة وتوسيعها. وجميع هذه الخلافات كانت مصدر معاناة دائمة للسّكان، لدرجة أن كل امرئٍ عاش في اضطراب ورعب لا نهائي، وتسبّب هذا في حالة من السّخط والاستياء العام في جميع أرجاء المنطقة.

في هذه الأثناء تلقّى سكان مُرسية أنباءً بأن الملك فرناندو من قشتالة كان على وشك إرسال ابنه الأمير ألفونسو لمواجهتهم، بجيشٍ قوي؛ ومنذ ذلك الحين بدأوا يرتجفون من الكوارث والمعاناة التي لا بدّ أن تنتج عن ذلك الغزو. وعوضاً عن الاتحاد فيما بينهم قام القادة المتناحرون من كل صوب بإرسال مبعوثيهم إلى الأمير ألفونسو وعرض عليه البعض التلطّفات والآخرون تأكيدهم لطاعته.

استقبل الأمير ألفونسو جميع هؤلاء المبعوثين بالتّرحاب، وعقد اتفاقية معهم بشرط

خضوع قادة مُرسية له. ووقّع الاتفاق كل من محمّد بن علي بن هود والي مُرسية، وحاكم ليكانت Lecant، وقادة إلشِه Elche، وأوريولا Oriola، والحمة Alhama، وأليدو Alido، وأثيكا Aceca، وجنجالة Chinchilla. ورفض والي لورقة عزيز بن عبد الملك بن محمّد أبو بكر بمفرده توقيعها. وطلب هذا القائد بعد أن عُيّن والياً على مُرسية من قبل الملك محمّد بن يوسف بن هود، بسيادة المقاطعة بأجمعها بعد وفاة ملكه، ووضع قادة حزبه على مولا Mula، وقرطاجنة Cartagena، وغيرها من بعض المدن الأقل أهمية.

إنّ الشّروط التي عرضها قادة مُرسية على أمير الصّليبيين أُقرّت في القلعة، ومن ذلك المكان تقدم ألفونسو ابن فرناندو سلمياً إلى مُرسية، مصاحباً أعداداً هائلة من فرسان وقادة المقاطعة، الذين عاملوه جميعاً على أنه ملكهم. زار وتفقّد جميع أرجاء المقاطعة دون السّماح بالتّعرّض بأيّ نوع من الإهانة للسّكان؛ بل إنّ يوم دخوله إلى مدينة مُرسية اعتبر أحد الأيام الغرّاء، وإنّ التّواضع الذي برهن عنه الأمير الصّليبي كان مغرياً جداً لجميع الأطراف، بحيث أن البلدات العديدة التي رفضت أولاً قبول حكمه، لجأت أخيراً لحمايته وأعلنت طاعته.

أمّا في الأندلس، فقد كان جنود الحدود الكفّار في تلك الأثناء يقومون بغزوات على مقاطعة أرجونا؛ فأتلفوا المحاصيل النّامية حوالي جيان، والقبضات Alcaudete، وغيرها من المدن، ثم فرضوا حصاراً على مدينة أرجونا، التي لم تكن مزوّدة جيداً بوسائل الدّفاع. لذلك، بدأ سكان المدينة اليائسون من وصول المساعدات بالتّفاوض مع العدو، وبعد أن تلقّوا تأكيداً على سلامة حياتهم، سلّموه للجنود الصّليبيين الذين استولوا فوراً على القلعة، بينما غادر السّكان منازلهم، منسحبين بعد ذلك إلى أماكن مختلفة.

منذ ذلك الوقت استمرّ الصّليبيون في توسيع حكمهم في الأندلس، فسيطروا على المقاطعات والقلاع الواحدة بعد الأخرى، ولم يتصدَّ لهم أيّ أحد. ومن ضمن الأماكن التي أستولى عليها الكفار كانت بيغالاخار Pegalhajar، وميتيشاس Mentexas،

وقلشانة Carchena؛ كما أنهم دخلوا إلى وادي غرناطة ولم يتمكّن المسلمون من منع الدّمار الذي أصابهم بسبب تلك العاصفة المدمّرة.

بعد زمن وجد الملك الشّجاع ابن الأحمر وسائل لجمع قوة وسار لمواجهة المعتدين المتعدّين على القانون بصحبة ثلاثة آلاف من الفرسان ومجموعة مجهّزة من المشاة، وشنّ معركة ضدّ العدو، الذي هزمه وسلب منه مقاطعاته، مجبراً إياه على التّخلّي عن جزء كبير من الثّروات والغنائم من مختلف الأنواع، التي كان قد أخذها من بلداته، بينما بقيت أعداد كبيرة من الجنود الصّليبيين جثثاً هامدة في السّاحة ووليمة للوحوش الكاسرة والطّيور الجارحة.

في نهاية شهر شعبان من العام 639 هـ توفي والي شاطبة Xativa أحمد بن عيسى الخزرجي في تلك المدينة الذي عيّنه الملك عبد الله محمّد بن يوسف بن هود، وخلفه ابنه يحيى أبو الحسين وكان القائد الأعلى لقواته في تلك المقاطعة أبو بكر محمّد. وبعد أن تلقى الأمير ألفونسو ابن فرناندو ولاءً تقريباً من كل مدينة في مُرسية، بدأ بالتّحضير لرحيله من تلك المقاطعة؛ ولكن قبل القيام بذلك، استولى على قلعة مولا Mula بقوة السّلاح وهي مكان حصين كان محمياً من قبل جنود عزيز بن عبد الملك، والي لورقة، كثيف السّكان فيه قلعة مذهلة محاطة بأسوارٍ منيعة مزوّدة بأبراج بسماكة كبيرة. وفي طريقه، دمّر أمير الصّليبيين ونهب أيضاً مقاطعات قرطاجنة Cartagena ولورقة، اللتين كانتا في قبضة عزيز بن عبد الملك، الذي لم يقبل التّنازل عن المكان لخليفته ولا حتى أن يكون طرفاً في الاتفاقيات الموضوعة مع ألفونسو ابن فرناندو.

وجّه الملك محمّد بن الأحمر كل انتباهه نحو سلامة حدوده وأمنها؛ فرمّم الأسوار وصروح المعاقل، وبعد أن نظّم جميع الأشياء، عاد إلى غرناطة حيث شغل نفسه أيضاً في إقامة العديد من الأعمال المفيدة. وشيّد العديد من الصّروح الجميلة من مختلف الأنواع والعديد من المستشفيات للمرضى، والمستوصفات للفقراء الذين أصبحوا طاعنين في السّن وغير قادرين على العمل، وللحجّاج الذين يمرّون في ممتلكاتهم. وبالإضافة إلى ذلك، أنشأ العديد من الجامعات للشّباب، وأسّس المدارس للأطفال،

وبنى المخابز والمسالخ والحمّامات العامة، وأمّن مخازن الحبوب والمستودعات من مختلف الأنواع لتخزين السّلع الكافية للمقاطعات. أجبرت هذه الأعمال ابن الأحمر على فرض ضرائب مؤقتة على شعبه؛ إلا أن النّاس لم يشتكوا أو يعترضوا على هذه الرّسوم، لأنهم لمسوا الإدارة الحكيمة للملك، وعلموا أن جميع الأموال التي جُمعت منهم قد وظّفت في أمور ذات منفعة عامة، وخُصّصت لتعزيزها.

كما بنى ابن الأحمر سبلان مياه جميلة وقنوات لري الحدائق المجاورة؛ وكان مهتماً بشكل خاص بتأمين رفاه شعبه والمحافظة على المقاطعات التابعة له. وللحفاظ على هذه الأعمال لم يكن يكفي تخصيص الدّخل الذي تلقّاه من عُشر الجزية؛ لذلك أصبح من الضّروري أن يطلب الملك إضافة من مصادر أخرى. عقد ابن الأحمر مجالس متكرّرة حيث استدعى أكثر شيوخه ونبلائه حكمة وبراعة؛ كما أنّه أعطى حرّية الكلام للفقراء وكذلك للأغنياء، وخصّص يومين في الأسبوع لذلك الهدف. كانت لديه عادة بزيارة المدارس والجامعات ومستشفيات المرضى بشخصه؛ وحرص بصورة خاصة على التأكيد أن المهام المفروضة على الأطباء تنفّذ بفعالية.

لم تكن سراري الملك كثيرات وكان الجزء الأكبر منهن بنات أكثر أعيان ولايته شأناً، وعلى الرّغم من أن مشاغل محمّد بن الأحمر العديدة لم تسمح له بتمضية وقتٍ أطول معهن فإنّه كان حريصاً على ألا يبخل عليهن بأي شيء وأمّن لهن كل مستلزمات الرّفاه التي تليق بمكانتهن العالية، معاملاً إياهنّ بلطف شديد. لم يفشل الملك محمّد بن الأحمر في صقل صداقة الأمراء بعناية، إذ أنهم كانوا الأكثر سلطة في أفريقيا؛ أرسل سفراء ورسائل إلى يغمرسان Yagomarsan وأبي زكريا يحيى بن حافظ ملك تونس، وكذلك إلى بني زيّان وبني مَرين الذين كانوا حينها في حرب مع الموحّدين. من خلال تلك النّزاعات والاضطرابات شجّع القادة الأفارقة على تمجيد عائلة النّاصر، ولكنهم في الوقت نفسه أيّدوا مشاريع الصّليبيين بالطّريقة عينها وبشكل متساوٍ تقريباً، ممكّنين أعداء الله لنيل مغانمهم على جميع حدود المسلمين.

أمّا في الغرب في إسپانيا، فقام الصّليبيون بغزوات على رأس قواتٍ لا تقهر من

حيث الكمّية والقوة؛ فأتلفوا المحاصيل، وأخذوا المواشي والقطعان، وأحرقوا البلدات والقرى، ودمّروا المزارع، وأخذوا العديد من المسلمين البائسين كأسرى، ناهيك عن الأعداد التي ذبحوها. واستولوا على قلعة ليريدا، وكذلك على ميرينا، وأخذوا مدينة لشبونة بقوة السّلاح، وعاثوا خراباً في جميع الإمارات المجاورة. وكانت هذه الأحداث في سنة 640 هـ.

* * *

الفصل الخامس

سيطرة خايمِه ملك الصّليبيين على دانية، سيطرة الملك فرناندو على جيان وغيرها من الأماكن

في تلك الأثناء، كان أبو جميل بن زيّان بن مَردنيس القائد الذي خسر مدينة بلنسية، متلهّفاً للسّيطرة على مُرسية، فدخل تلك المنطقة بجيشٍ مجهز ونصّب نفسه سيداً على بعض القلعات بغير كبير عناء. ومن هناك تقدّم لمواجهة والي لورقة عزيز بن عبد الملك؛ وواجه فرسان الأخير جنود جميل بن زيّان في إمارة لوسنت، وتلا ذلك معركة هزم فيها عزيز وخسر حياته أيضاً. وقعت هذه الحادثة يوم الأحد في السّادس والعشرين من شهر رمضان من العام 640 هـ، فسيطر أبو جميل على لورقة وجعل نفسه سيداً على قرطاجنة Cartagena لصالح الوالي محمّد، الذي توفي عند نهاية ذلك العام.

بينما كان أبو جميل بن زيّان يتقدم نحو مُرسية، كان ملك الصّليبيين خايمِه يتقدّم بحشدٍ هائل إلى مدينة دانية Dénia وفرض عليها حصاراً وثيقاً. منذ عهد أبي عبد الله محمّد بن يوسف بن هود، كانت تلك المدينة محكومة من قبل قائد شجاع ومتمرّس هو يحيى بن محمّد عيسى أبو الحسين الذي دافع عنها جيداً، إلا أنّ الملك خايمِه طوّق الأسوار من البحر واليابسة على السّواء وأنهك إلى الغاية المدافعين عنه بالهجمات المتكررة والدّائمة بمختلف المعدّات والآلات، وبعد حصارٍ طويل وعنيد، أجبر المدينة على الاستسلام، واستولى أعداء الله على المكان هناك في الأول من ذي الحجة سنة 641 هـ.

حرص ملك غرناطة محمّد بن الأحمر على إرسال ذخائر كبيرة ومؤن إلى جميع الحصون الحدودية، كونها كانت في خطرٍ دائم من جرّاء الحصار؛ وإلى مدينة جيان Jaén،

التي أمر بإرسال ذُخر إضافي من ذخائر الحرب، وكذلك من المؤن بسرعة. وحرس قافلة المؤن هذه المؤلّفة من ألف وخمسمئة بهيمة محمّلة، موكبٌ من خمسمئة فارس. وعندما تلقى الصّليبيون على الحدود إشعاراً بهذا الموكب، اعتزموا على اغتنام المؤن قسراً؛ وتقدّموا بأعدادٍ كبيرة من أجل هذه الغاية، ونصبوا أكثر من كمينٍ واحد قرب الأماكن التي يقرّر أن تمرّ بها القافلة. لكن المسلمين الطّلائع اكتشفوا الجنود المختفين، فأمر قائد تلك القافلة بالعودة على الفور، لعدم تعريضها إلى أيّ خطر بمرورها في الأماكن المحاطة بالصّليبيين. استنكر بعض القادة بشدّة هذا القرار الحكيم، وأكّدوا أنه كان من واجبهم المرور قدماً، وشعروا بالعار لأنّ قادتهم لم يجازفوا بمعركة من أجل خدمة ملكهم. ودان محمّد بن الأحمر بشكل مطلق هذه الأقاويل وأثنى على القرار الحكيم الذي اتخذه قادة الموكب، وقدّم لهم دلائل ثابتة عن رضاه، على الرّغم من أنه كان على علم أنهم لم يكونوا ليتوانوا عن استخدام السّلاح لو أرادوا ذلك.

لم يمضِ وقتٌ طويل بعد ذلك حين فرض الصّليبيون حصاراً على مدينة جيان، كما توقع ابن الأحمر وسلّمت هذه المدينة إلى ملك غرناطة من قبل أبي عمر علي بن موسى صاحب قُرطُبة، وهو قائد من الفرسان يعرف بشجاعته وقوته الرّاسختين، والذي يثق به ابن الأحمر كل الثّقة. فدافع عن المكان بكل قوة وشجاعة معهودة، ولم يستطع الصّليبيون أن يحرزوا إلا تقدّماً بسيطاً على الرّغم من أن أعدادهم كانت هائلة، وأوقعوا دماراً ماحقاً في محيط المنطقة. فدمّروا الحدائق والكروم وأراضي الزّيتون كلياً، كما أنهم لم يبقوا أيّاً من المحاصيل النّامية على وجه الأرض؛ ونهبت ودمّرت جماعاتهم جاسئة القلب كل ما وقعت عليه أعينهم التي لا ترحم. كما أنهم استولوا أيضاً على حصن قلعة بني سعيد Aben Zayde، وأحرقوا البلدة وحوّلوها إلى بلقع؛ وأخذوا القطعان والغنائم من الإمارات، وذبحوا وأسروا السّكان من رجالٍ ونساء وأطفال.

تقدّم ابن الأحمر لمواجهة المدمّرين بأكبر قدر من القوات التي استطاع جمعها، وهاجمهم بشجاعة استثنائية عند حصن بولويّوس Hisn Bolullos، الذي لا يبعد إلا

حوالي اثني عشر ميلاً عن مدينة غرناطة؛ ودار صراع محتدم، وبما أن الجزء الأكبر من جنود الأحمر جُمع على عجل ودون تأنٍّ ولم يكونوا متمرّسين ولا معتادين على رهبة الحرب، وهنت شجاعتهم وبدأوا بالفرار، ودبّت الفوضى في صفوفهم، ونقلوا الرّعب والخوف إلى أكثر المحاربين شجاعة. لهذا السّبب وجد الملك نفسه مجبراً على التخلّي عن الأرض لمعارضيه، كما أنه مُني بخسائر جسيمة لدى انسحابه.

تلا ذلك أمطار غزيرة وهبّت العواصف لوقتٍ غير عادي، إلا أن ذلك لم يجعل الصّليبيين يستريحون في عناد الحصار، بل واصلوا القتال بحماس كبير، كما أنّ اعتداءاتهم ظلت مستمرّة، بحيث لم يستطع سكان مدينة جيان ولا حتى المحاصِرون الاستراحة ولو لساعة واحدة، وظلت المفاجآت والصّراعات المفتوحة مستمرّة يوماً تلو الآخر صباحاً ومساءً. وبما أن الملك ابن الأحمر كان يعلم بحزم وثبات فرناندو الذي ألزم نفسه بقسم رسمي على أنه لن يحرّك مكان خيمة في معسكره إلا بعد أن يصبح سيداً على تلك المدينة، فقد قام بأخذ قرار استثنائي؛ فسار بثقة كبيرة إلى معسكر ملك الصّليبيين، وبعد أن أعلم الملك بمن يكون، أعلن أنه قد جاء ليضع نفسه تحت ولائه وحمايته، مسلّماً جميع ممتلكاته إلى سلطته ومقبلاً يده كعربون طاعة.

لم يسمح الملك فرناندو لمحمّد بن الأحمر بالتفوّق عليه في كرمه وثقته فحضن زائره، وأعلنه صديقاً له وأعرب له أنه لن يأخذ شيئاً من كل ما يمتلكه، مكتفياً بقبول عرض ملك المسلمين بجعل نفسه تابعاً له، ومن ناحية أخرى تاركاً له سيادة جميع مقاطعاته ومدنه بلا منازع.

واتفقا بعدها على أن يدفع محمّد بن الأحمر إلى الملك فرناندو مبلغاً معيناً سنوياً من الذهب، وأن يزوّده بأعداد مشروطة من الفرسان، في أي وقت يطلب منه حاكم الصّليبيين ذلك، وأن يذهب إلى بلاط ذلك الملك عندما يستدعيه كما هي عادة جميع رجاله العظماء ونبلائه. كما فرض فرناندو أيضاً على محمّد بن الأحمر السّماح لصليبيي القوات الحامية بتولي حراسة جيان. وأُبرمت جميع هذه الشّروط في

المعسكر أمام مدينة جيان في شهر...[1] من عام 643 هـ. بعدها استأذن ابن الأحمر من الملك فرناندو الذي عامله باحترام كبير، وعاد ملك المسلمين إلى معسكره؛ إلا أنه غادر بعد ذلك على الفور إلى مدينة غرناطة يرافقه أبو عمر علي بن موسى، والي جيان، الذي أمره حينذاك بقيادة فرسانه.

مكث محمّد مدة ثمانية أشهر في مدينة غرناطة مكملاً الأعمال التي كان قد بدأ فيها مسبقاً، وزاد من تحصينات معاقله؛ وعند نهاية تلك الفترة بعث فرناندو ملك قشتالة، رسائل له معلماً إياه عن نيّته بالتقدم نحو إشبيلية، ومعبّراً عن أمل فرناندو بأن ابن الأحمر لن يرفض مرافقته في تلك الحملة. اطّلع ملك غرناطة تواً على الفرسان الذين عزم على أخذهم بصحبته، وبناءً على هذا الطّلب وبعد أن جُهّزت جميع الأمور سار من غرناطة ومعه خمسمئة من الفرسان المختارين بعناية كبيرة. وبعد أن انضمّ إلى الصّليبيين دخل معهم إلى مقاطعة إشبيلية حيث سيطروا على حصن قلعة غواديرا Alcalá de Guadaira، الذي سلّمه الملك فرناندو إلى ملك غرناطة كباكورة الفتوحات.

أما الصّليبيون الذين كانوا قد وسّعوا توغلاتهم إلى مدينة قرمونة Carmena، والمدينة في ذلك الوقت تحت حكم أبي الحسن بن أبي علي، القائد الباسل الذي دافع عن المدينة وأراضيها بقوة وشجاعة، ثم سلم قيادتها إلى قائد شجاع يثق به كلياً بعد أن صمّم على العودة إلى إشبيلية، عندما أعلمه بأن ملك الصّليبيين ينوي اقتحامها وإخضاعها. وزحف غيره من الأمراء للمشاركة في الدّفاع عن إشبيلية، بعد أن تلقوا أوامرَ لهذا الغرض من الوالي السّيد أبي عبد الله، أمير الموحّدين وعم أبي الحسن الذي كان حينها في إشبيلية.

زحف الصّليبيون حتى خيريث Jerez (شريش) حيث أتلفوا كروم العنب، ودمّروا الحدائق، وأحرقوا أراضي الزّيتون، وعاثوا خراباً في كل ما يقع وراء أسوار المدينة. وبعد أن لمح المسلمون هذا الخراب، حلّ بهم الحزن وأعلنوا أنهم مستعدّون نوعاً ما

(1) سقط اسم الشّهر في النّص العربي المخطوط. (أحمد)

إلى التّنازل عن مدينتهم للملك فرناندو وأن يعيشوا بصفة أتباع له وأن يدفعوا جزية إلى الصّليبيين، على أن يولوا أمر العناية بالحدائق والمزروعات التي كانوا قد زرعوها والتي دمّرت وأتلفت أمام أعينهم. فأجبروا قادتهم على إرسال مبعوثين إلى ملك الصّليبيين، عارضين عليه الانصياع تحت رايته على أن يوقف خراب ممتلكاتهم. وقام سكان لورقة بالمثل عاملين بنصيحة فرسان غرناطة، وسلّموا حصنهم دون انتظار هجمات الصّليبيين.

وصدف في ذلك الوقت أنّ مجموعة من جنود الملك فرناندو الذين كانوا يحاولون عبور الوادي الكبير Guadalquivir عبر طرق معينة لم يكونوا مطّلعين عليها جيداً، أعيقوا بين الشّروك والمستنقعات التي كثرت في ذلك المكان. وعندما أدرك سكان كانتيّانا Cantillana أنهم في في حالة خطرة، انثالوا بين الجماعات المتنازعة وأوقعوا خسائر فادحة في صفوفهم إلا أن وصول المشاة الصّليبيين أجبر رجال كانتيّانا على الانسحاب ضمن حدود أسوارهم. صمّم الكفرة على الانتقام، فحاصروا المكان وهاجموه بعنف بالغ، ولم يعدلوا عن مرامهم إلا بعد أن أوغلوا عبر البوابات، وعندها دخلوا إلى كانتيّانا وقاموا بمجزرة مروّعة بين النّاس هناك.

راقب الملك محمّد بن الأحمر تلك الأشياء بكثير من الأسى وتحدّث مع الملك فرناندو متوسّلاً السّماح له بقيادة شعبه لمحاولة إقناعه بما هو في مصلحته. وأضاف أنه سيطالب الجميع بقبول الاتفاقيات وأن يرفض الاستماع إلى أيّة حجج، وإلى كونه لن يقبل بعد هذا الحين استخدام القوة ضد رجل مسنّ أو امرأة أو طفل على الإطلاق؛ بل وأكّد أنه لن يسمح بتعريض أيّ شخص لا يحمل الأسلحة لعنف رهيب كما لاحظ في ذلك الحين. قبل الملك المسيحي أقوال ابن الأحمر وأثنى عليها وكتب ملك غرناطة بنفسه رسائل إلى بلدات عدة، مرسلاً فرسانه طالباً أن يسود الهدوء والاعتدال؛ وقدعت هذه الرّسائل شروراً كثيرة وأوقفت إراقة الكثير من الدّماء.

إنّ البلدة الأولى التي استسلمت لسلطة الصّليبيين نتيجة لتحذير ابن الأحمر كانت

غيّينا Guillena التي فرضت قوات الكفرة من أمام أسوارها حصاراً على قلعة النّهر[1] Alcalá del rio. فدافع فارس نبيل يدعى أبو خطاف Abul Xetaf عن هذا المكان، بعد أن تواجه في صراع دموي مع جيوش الصّليبيين مرتكباً مجزرة رهيبة بالجحافل الهاربة. بل لكانوا هلكوا جميعاً لو لم يصل فرسان ابن الأحمر في الوقت المناسب؛ فأُجبر فرسان أبي خطاف على الاستسلام بعد أن ضغط الصّليبيون والغرناطيون عليهم بشكل مُحكم، ولم يتمكّنوا من العودة ثانية إلى قلعتهم، وأُجبروا على الفرار للجوء إلى مدينة إشبيلية. أقنع محمّد بن الأحمر سكان القلعة أن يضعوا مصيرهم بين أيدي الملك فرناندو، مؤكّداً لهم أنه يستطيع بنفسه أن يكون حريصاً على أن يؤمّن لهم كل الضّمانات دون وقوع أضرار أخرى. وبناء على هذا قام رجال القلعة دون تأخير بتسليم حصونهم إلى الصّليبيين وتلقّوا ضماناً للسّلامة بالمقابل.

* * *

(1) تسمّى بالإسپانيّة أيضاً: Alcalá de Henares. (أحمد)

الفصل السّادس

حصار الملك فرناندو لمدينة إشبيلية، والسّيطرة عليها بعد حصار دام ثمانية أشهر. وفاته. المدن المختلفة التي غزاها وفتحها خلفه الملك ألفونسو

في مطلع العام 644 هـ[1] قام الملك فرناندو بحصار مدينة إشبيلية من محوريّ البحر والبر، غير أنه واجه مقاومة عنيفة في المدينة، من الجيوش المدافعة عنها التي ارتكزت قواتها بخاصة على فرق الفرسان الشّجعان والمخضرمين، فوقعت معارك ضارية متكرّرة أدّت إلى وقوع خسائر جسيمة في عداد الجيوش المحاصرة الذين أُجبروا على البقاء من الجهة المقابلة للنّهر.

كان ملك غرناطة محمّد بن الأحمر مرابطاً مع جيشه بالقرب من حصن الفرج وقبل بوابة القصر الملكي (الكاثار)، وقد قاد هجومات عنيفة ودامية مع فرق الفرسان من الغرب Algarve بقيادة محمّد أمير لبلة Niebla. وكانت هذه المواجهات ساحة للأعمال البطولية والحملات الجسورة التي قام بها ابن الأحمر وفرق خيّالته، حتى أنّ قادة الصّليبيين الأشجع كانوا ينظرون إليها بكل إعجاب وحسد. من جهته، أعرب الملك فرناندو عن رضاه التام عن بسالة ملك غرناطة وفرسانه الأعيان.

كما جرت مواجهات عنيفة على محور البحر بين جيوش من الصّليبيين والمسلمين فوقعت خسائر جسيمة في عداد القوات البحرية من الجهتين، وصراعات ضارية كلّما التقت سفنهما. ودعمت الفرق العسكرية المرابطة في حصن أطريانة[2] Atrayana

---

(1) أي عام 1246 للميلاد. (كوندِه)

(2) اسمه بالإسپانيّة: تريانا Triana. (دي مارلس De Marles)

مرّات عديدة المعارك التي دارت مع الصّليبيين، وكانت المدينة تتصدّى لكل الهجمات على كافة المحاور ببسالة وإصرار.

كان قد مضى 18 شهراً على حصار الصّليبيين للمدينة، عندما اقترح ملك غرناطة محمّد بن الأحمر على الملك فرناندو إحراق سفن مدينة إشبيلية بهدف قطع الإمدادات عن المقاتلين المناضلين. كما نصحه بوقف إمكانية التّواصل بين جيوش إشبيلية وحصن أطريانة التي كانت قائمة حتى السّاعة. وكان من شأن هذه الإجراءات، في حال نُفّذت بنجاح، التّسريع في خضوع المدينة واستسلامها. أخذ الملك فرناندو بهذه النّصيحة التي وصفها بالذّكية وأمر بتحضير العدّة للقيام بما اقترح عليه. فقامت جيوشه بجمع قدور من الكبريت الحارق وغيرها من المواد المشتعلة لإحراق السّفن، في حين تركت بوارج مثقلة في النّهر ربطت بسلاسل فتراصفت بفعل الرّياح وتيار النّهر وزنتها بقوة في وسط الجسر الذي استخدم كوسيلة وصل بين الأشخاص الموجودين في المدينة وجيوش حصن أطريانة. غير أن السّلاسل الصّلبة التي جمعت السّفن انكسرت من جرّاء الصّدمة فهوت السّفن بفعل ثقلها وتحطّم الجسر ولم يعد بمقدور المدافعين عن المدينة الذين أصبحوا دون حول أو قوة حمايتها كما في السّابق.

في حين استمرّ حصار إشبيلية بإصرار كبير، قام المسيحيون بقيادة كونت برشلونة بفرض حصار على مدينة شاطبة Xativa التي هاجموها بكافة الأسلحة الحربية المتاحة لهم. وقد اجتاحوا المدينة بسرعة فائقة، ممّا أجبر الوالي يحيى بن أحمد أبا الحسين الذي فقد كل أمل في إنقاذها، على بدء المفاوضات للاستلام محاولاً الحصول على أفضل شروط التّفاوض لشعبه. غير أن تلك الشّروط أياً كانت لم تكن سوى حبر على ورق، حيث أن الموت أو الدّمار كان أفضل ما يمكن تأمّله من أهل برشلونة المكّارين والغدّارين. فقد وعد السّكان أنهم يستطيعون ترك كل مقتنياتهم في بيوتهم والاستفادة منها دون أيّة ضغوط وممارسة ديانتهم بكل طمأنينة. وبالتّالي تم قبول الصّليبيين في مدينة شاطبة Xativa ودخلها شهر صفر سنة 644 هـ. غير أنه بعد مضي وقت قصير أخرج آلاف المسلمين من المدينة ومحيطها دون أي مورد فهاموا محطّمين معوزين

باحثين عن أيّ مأوى للجوء إليه. ويقول كاتب هذه الأسطر[1] إن والي مدينة شاطبة يحيى بن أحمد أبا الحسين وقائد جيشه أبا بكر هاما أيضاً هاربين في بلدان العالم الواسعة بعد أن اعتراهما اليأس.

مع بدء عام 645 هـ، توفي والي لورقة، محمّد بن علي أبو عبد الله في المدينة، وقد عُرف عنه أنه رجل فضيل يتمتع بحسّ رفيع للحكم، عمل بكل جهد لتحسين حياة أهل لورقة، فشقّ قنوات للمياه وقام ببناء المستشفيات للفقراء والحجّاج وأولى عناية كبيرة بكل ما من شأنه زيادة رفاه شعبه. وفي حروب مدينة مُرسية، تمكّن محمّد من البروز بفضل دهائه وشجاعته وحرصه.

فقد قام محمّد عبد الله بدعم وتشجيع محاولة أبي جميل بن زيّان للدّخول إلى مدينة مُرسية فأفلح في التّحايل على قوات الصّليبيين الحامية للمدينة وخيّب آمالهم. في الوقت عينه كانت مدينة إشبيلية تعاني من ويلات الحرب فقد جعل الصّليبيون المحاصِرون أنفسهم أسياداً عليها فأحرقوا كل ضواحي بوابة الفوفار Alfofar ونهبوا ضواحي باب ماكارينا[2] Bab Macarena حيث قاموا بمذبحة دامية.

غير أنّ السّكان المحاصَرين استمرّوا في المدافعة عن مدينتهم بكل إصرار وعزم حيث كانوا يملكون أسلحة حربية رائعة: منها ما كان يقتل المئات بضربة واحدة وأقواس النّشاب التي كانت تقذف بقوة فائقة فتستطيع اختراق حصان من جهة إلى أخرى حتى لو كان مدرّعاً بالفولاذ. وقد واجه الصّليبيون شعبنا ببسالة مماثلة وبنفس الوحشية وحرصوا على مراقبة كل منافذ المدينة لعدم السّماح بدخول أيّة إمدادات إليها.

---

(1) ابن الأبّار القضاعي من بلنسية. (كوندِه)
قلت: هو محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي ولد في بلنسية سنة 595 هـ كان عالماً في الفقه والحديث، بصيراً بالرجال والتاريخ، مُجيداً في البلاغة والإنشاء، عمل في دوواوين الكتابة لبعض ولاة الموحّدين، وعندما سقطت بلنسية في أيدي النّصارى زهد في المقام في الأندلس، فسافر منها إلى المغرب، ثم إلى تونس حيث عمل كاتباً لأميرها، وبها قتل سنة 658هـ بعد أن دُبّرت له مؤامرة دنيئة، فمات مظلوماً مأسوفاً عليه من معاصريه ومن جاء بعدهم.
(2) باب ماكارينا بالعربيّة: أي بوابة ماكارينا – 1247 للميلاد. (كوندِه)

في عام 645 هـ وبينما كان الحصار قائماً، أُرهق السّكان المسلمون في مدينة بلنسية من الخضوع والعبودية التي فرضها عليهم الكفرة. ولم يتمكّن إخوتنا وأخواتنا من تحمّل النّكال والمضايقات من كل نوع التي فرضها عليهم أعداء الله، فانسحبوا من بلنسية المدينة ومن المدن الأخرى في المملكة. وقد انجذب من لم يكونوا أغنياء للشّهرة التي عرفت عن هذا الحكم الجيد وبالأمان الذي تمتع به الغرناطيون تحت حكم ملكهم العادل محمّد بن الأحمر.

لذا جاء العديد من هؤلاء إلى أراضي الحاكم النّبيل الذي أصدر أوامره لاستقبالهم بكل محبّة ومعاملتهم بكلّ احترام. وقد أعفاهم من جميع أنواع الضّرائب لسنوات عديدة، وتمكّن ابن الأحمر بفضل حرصه على التّخفيف من قهرهم بكل السّلطة الموكلة إليه من كسب مجموعة من السّكان الذين أعطوه ولاءهم، وأسهم ذلك في إغناء الولاية ومنحها قوة أكبر.

من جهته أُرهق شعب إشبيلية بالحصار المستمرّ والضّيق المفروض عليه ولم يكن لديه أيّ أمل للنّجاة فبدأ بالتّفكير في وضعه وحاجاته.

ففتح الباب أمام المباحثات التي أجراها قادته الذين قدّموا شروطهم إلى الملك فرناندو، فما كان من هذا الأخير إلا الموافقة عليها دون أي تعديل حيث كان يرغب بشدّة بالسّيطرة على المدينة إذ كانت تشكّل القلب النّابض للولاية.

وكانت الشّروط التي طلبها المسلمون والتي منحهم إياها الملك فرناندو الآتية: يسمح لسكان مدينة إشبيلية بالبقاء في منازلهم والتمتع بكل حرية بجميع مقتنياتهم ومداخيلهم بكل طمأنينة وأمان؛ يفترض بهم لقاء كل هذا تسديد ضريبة صغيرة للملك، وقد كانت بالفعل ضئيلة للغاية حتى أنها لم تتعدَّ المبلغ الذي كانوا يدفعونه لملوكهم على السُّنّة Zunna والشَّرع Xara.

وقد سمح للسّكان الذين رفضوا البقاء في المدينة بالتّصرف بمقتنياتهم في وقت معيّن وأجيز لهم أخذها دون أيّة إعاقة وبالخروج من المدينة وسواها. طوال شهر، كان

الصّليبيون يعطون الحيوانات لكل من قرّر ترك المدينة بشكل فوري فزوّدوا بالحمير وغيرها من الحيوانات من قرّر السّفر براً، وأمّنوا سفناً بأعداد كافية لكل من قرّر السّفر بالبحر إلى أفريقيا أو أي مكان آخر.

وقد أجاز الملك فرناندو للوالي أبي الحسن في حال قرّر البقاء في إشبيلية أو أي جزء من أراضي الإمارة الحصول على أراضٍ للسّكن وفق استنسابه. غير أنّ أبا الحسن سرعان ما خرج من بوابة المدينة بعد أن سلّم مفاتيحها، وقد حدث ذلك في 12 من شهر شعبان سنة 646 هـ وسافر في اليوم نفسه إلى أفريقيا.

جعل الملك فرناندو من قصر إشبيلية مقرّاً له في حين احتل قادته حصون المدينة وحصن كوماركاس Comarcas. فشرع مسلمون كثر في ترك منازلهم[1]، في حين قبل العديد منهم حماية الملك محمّد بن الأحمر فهاجروا إلى أراضي غرناطة والبعض الآخر لجأ إلى مدن مختلفة من الغرب Algarve أو سبتة مع الموحّدين.

وبهذه الطّريقة انتهى حكم هؤلاء الأمراء في إشبيلية وخسر الإسلام هذه المدينة الجميلة ومُلئت الجوامع بالصّلبان وصور القديسين وانتُهكت حرمة المساجد.

أخذ بعدها محمّد بن الأحمر، ملك غرناطة إذناً من الملك فرناندو للرّاحة، وتركه منهمكاً في توزيع الأراضي والمنازل التي تركها الإسلام على فرسانه الخاصّين. وقد اعتصر الأسى قلب ابن الأحمر وطغى شعوره هذا على الرّضا، فراح يفكر بالفوائد التي ساعد الصّليبيين بالحصول عليها بفضل سلطانه وعاد إلى أراضيه والحزن يغمر نفسه حيث كان يدرك أن توسّع الكفرة ونجاحهم سيؤدي حتماً إلى زوال سلطة الإسلام.

كانت مواساته الوحيدة الأمل في أنّ العظمة التي ساعدها في الوصول والتوسّع سوف تخفق في تأمين استمراريتها، مستعيداً بالذاكرة ما حصل في السّابق مرات عديدة وخاصّة مبدأ أن القوة العظمى غالباً ما تسقط عندما تصبح بيد حاكم جديد بفعل حجمها. وكان الملك يملك ثقة عمياء بالله ويدرك تماماً ويؤمن أنه لن يترك عباده.

---

(1) وفق مراجع أخرى حدثت هذه الأمور سنة 645. كوندِه، المجلد 3.

كان دخول محمّد بن الأحمر إلى مدينته من أكثر المناسبات سعادة، فقد استقبلته حشود السّكان بالتّهاليل عند كل منعطف طرق. وكرّس ابن الأحمر كل اهتمامه لترويج الصّناعة بين أفراد شعبه، فشجّع قيامهم بالفنون الجميلة بكل الوسائل التي أوتيت إليه ومنح المكافآت لأفضل الحرفيين والإعفاءات للفلاحين ولكل من تمكّن من تمييز ذاته من بينهم أو من غيرهم في تربية الأحصنة.

ولم يرفض هذه الامتيازات لصانعي الأسلحة والأسرجة والأغطية المزركشة الرّائعة المشغولة بإتقان للأحصنة، وقد حصل الحائكون والحرفيون اليدويون من كل نوع آخر على حصّة من هذه الامتيازات في كل مرة أظهروا فيها قدرة وجهداً.

وازدهرت الفنون التي تم تشجيعها في إمارات ابن الأحمر بشكل استثنائي، وتحوّلت الأرض الخصبة بطبيعتها إلى أرض تنضب بالخيرات بفضل الاهتمام بها. وقد شجّع ابن الأحمر صناعة الحرير وقام بحمايتها ممّا أسهم في نموّها حتى وصلت إلى مصافّ الكمال في مملكة غرناطة وفاقت نوعية المنتجات هذه بأشواط تلك المصنوعة في سوريا.

أَولى الملك بشكل متوازن اهتمامه بالعمّال في مناجم الذّهب والفضة والمعادن الأخرى، ووضعها تحت السّلطة المباشرة لرجال اختيروا لدرايتهم بهذا المضمار، وفضلاً عن ذلك عني بشكل خاص بالتّأكد من نوعية الدّنانير الذّهبية والفضّية ونقائها وزنتها ولم يهمل جمال شكلها. ونقشت على درعه أسلحة باللونين الأزرق والأبيض وبوضع خط مائل من اللّازورد حُفرت عليه عبارة «لا غالب إلا الله» بأحرف من ذهب.

وتقول الأسطورة إنّ خيار محمّد بن الأحمر لهذه العبارة يعود إلى ما يلي: عندما دخل الملك مدينته استقبله شعبه بكل ترحاب وهللوا له قائلين عدّة مرات: «مرحباً بالغالب»، فكان يردّ عليهم: «ولا غالب إلا الله». ومنذ ذلك الوقت قرّر اعتماد العبارة هذه وجعلها شعاره ونقشها على عملته ولم يعدّلها أيّ من المتحدّرين من نسله، غير أنهم غيّروا مراراً ألوان دروعهم والخط المائل، فاستعملوا الأحمر والأخضر والأزرق ولكنهم حافظوا على العبارة والشّعار الذي اختاره ابن الأحمر.

وانتقى هذا الملك الحصيف أفضل المدرّسين لأبنائه الثّلاثة وأكثرهم خبرة وتمرساً وبلاغة وسمّى هؤلاء الأمراء محمّد وابن فرجا Aben Fargia ويوسف الثالث، ولم يكتفِ بذلك فقد دأب على إعطائهم دروساً في ساعات الرّاحة التي كان يستطيع الحصول عليها وسط مسؤولياته كافة. وكان يمضي وقت فراغه في ممارسة هواية عزيزة على قلبه وهي مطالعة التّاريخ. وعمل الملك على أن تخلّد أحداث الأزمنة الغابرة على لسان الرّاوي، وقد كان يلهو في حدائقه حيث كان يقوم بزراعة الزّهور والأعشاب العطرية بحماسة وشغف لم ينضبا أبداً.

بدأ العمل الرّائع في قصر الحمراء بعهد محمّد بن الأحمر الذي كان يعطي التّعليمات للعمّال شخصياً، وكان دائم التواجد مع المهندسين والمعماريين. ومن أهم مستشاري ابن الأحمر أبو مروان عبد الملك يوسف بن صناديد وهو من مدينة جيان Jaén ينتمي إلى أهم أسر المدينة، وكان أيضاً كبير الوزراء علي بن إبراهيم الشّيباني السّعدي المولود في غرناطة المتحدّر من عائلة نبيلة وثريّة وكان وزيره الثّاني، وأبو عبد الله محمّد الرّميم قائد الخيّالة. وكان والده المدعو عبد الله محمّد قائد القوات البحرية. وكان ابن موسى قائد فرسانه وأمين سرّ مجلسه يحيى بن الخطيب من غرناطة. كما كان لديه أيضاً ثلاثة كتاب أو أمناء سر يعملون على نقل أوامره وتحضير الرّسائل وهم أبو الحسن علي الرّعيني وأبو بكر بن خطاب وأبو عمر يوسف بن سعيد العاصي من مدينة لوشة.

بلغ عدد القادة أو القضاة في المحكمة سبعة، ومن أبرز هؤلاء أبو عمر يحيى العسكري وأبو عبد الله محمّد الأنصاري، وهو عالم فقيه اكتسب شهرة كبيرة بفضل أعماله الكثيرة، وأبو عبد الله التّميمي من آل السّلامي في مدينة لوشة وهو قاضي المحكمة الجنائية، ومنهم العلّامة ابن إياد بن موسى اليحصُبي، وابن أضحى وأبو القاسم عبد الله بن أبي عمر وابن الفنت Aben Fant المعروف بأسبارون إشبيلية.

كان ملك غرناطة محمّد بن الأحمر يعيش هانئاً في ظل السّلام الذي تمكّن من ترسيخه مع الصّليبيين، وقد بذل قصارى جهده لتطوير الفنون التي أدّت إلى إزدهار

المملكة وساهمت في استعادة بهجة شعبها. فيما انتقل الملك فرناندو ملك قشتالة ومحتلّ قُرطُبة وإشبيلية إلى رحمته تعالى، وأسلم روحه إلى يدي الله الواحد القادر على كل شيء يوم الجمعة الحادي والعشرين من شهر ربيع الأول سنة 650 هـ[1]. وعندما علم محمّد بن الأحمر بوفاة فرناندو سارع إلى بعث رسله إلى الملك ألفونسو ابن الملك فرناندو وخَلَفه حاملين أحرّ التعازي، ورسائل أخرى طلب فيها تجديد معاهدات السّلام والتّحالف التي أبرمها مع الرّاحل والده والتي أراد الحفاظ على شروطها. وجاء رد ألفونسو إيجابياً وجدّد شكره لابن الأحمر لقاء الكرم والنّبل والشّهامة التي بدرت من قبله.

كان ملك الصّليبيين مثقفاً للغاية وحكيماً وكريماً يتمتّع بطيبة لا مثيل لها وبنُبل في كل أفعاله. وبعد مضي عامين على تبوّئه العرش في قشتالة أرسل إلى ابن الأحمر ليبلغه عن رغبته في اجتياح الغرب وأراضي مدينة خيريث Jerez (شريش) سائلاً إياه إرسال سريّة من خيالته لمساعدته أو المجيء بذاته لمعاونته في هذه الحملة. لم يرفض ابن الأحمر الانصياع لهذه المطالب فتوجّه نحو الغرب على رأس قوة مدجّجة عن مضض وفي قلبه حُرقة، ولم يتوانَ عن تذكير خيّالته مراراً وتكراراً كم كانت حياتهم ستكون تعيسة ومحطمة لو لا فسحة الأمل التي تتخطّى المقابر. عندما قابلت قوات ابن الأحمر قوّات ألفونسو ابن فرناندو سارت كلها بخطى ثابتة نحو أراضي مدينة خيريث وألقت حصاراً على المدينة. وقد دارت معارك ضارية ودامية بين جيوش ألفونسو وجيوش المدينة وكان في الجيشين مقاتلون صناديد دافعوا بشكل رائع عن أنفسهم وعن المبادىء التي حاربوا من أجلها.

وقد برز جيش غرناطة بالطّريقة التي امتطى فيها جياده بسهولة وبراعة. واستطاع الدّخول إلى قلب صفوف الأعداء وأجبرهم على التراجع بسرعة، جعلت من جيوش وسكان مدينة خيريث يثنون على هذه القوة حيث أنهم لم يواجهوا اقتداراً ومؤهّلات مماثلة إلا نادراً. لم يمضِ وقت طويل حتى طالب السّكان الخائفون على مزارعهم

(1) عام 1252 للميلاد. (كونده)

وبساتينهم وأراضيهم من والي المدينة ابن عبيد الذي كان في القصر الملكي بإجراء مباحثات للاستسلام للمسيحيين. وبما أنه لم يكن هناك أيّ أمل للنّجاة، فقد وضع الوالي شروطاً رفعها إلى الملك ألفونسو ابن فرناندو جاز بموجبها السّماح للسّكان الذين اختاروا الفرار من المدينة بالخروج منها بأمان مع كل ممتلكاتهم من ذهب وفضّة وثياب.

وحصل من رغب في البقاء على حرّية مماثلة وضمن لهم البقاء في منازلهم وأراضيهم ومعاملة باحترام كتلك التي يمنحها الملك لأتباعه. وأُعطيت ضمانات خاصة للموحّدين للبقاء في منازلهم والحماية لعائلاتهم. وقد وقّع الملك على هذه المطالب وصادق عليها واستسلمت المدينة للغازي سنة 652 هـ[1].

ثم طلب الملك ألفونسو ابن فرناندو أن يعهد قصر مدينة خيريث لفارس شجاع للغاية وهو دون غوميث[2] واحد من أنبل خيالته. ودخل بعدها مدن الأرك وسيدونيا (شذونة) ونَبريشة Nebrija، وبعد أن قاد العمليات والحملات لوقت قصير، ترك الملك ألفونسو أمر حصار تلك المدن إلى شقيقه الملك إنريكِه[3] وعاد إلى إشبيلية. ومن جهته عاد محمّد بن الأحمر ملك غرناطة إلى مدينته. وقد أُجبرت المدن التي حاصرها الأمير إنريكِه على الاستسلام بسرعة وفق الشّروط ذاتها التي حصل عليها سكان مدينة خيريث.

بعد انقضاء وقت قصير على انتهاء هذه الفتوحات والحملات، وقع خلاف بين الأمير إنريكِه وشقيقه الملك ألفونسو بسبب عداوة حبّ كما يقول البعض، وأُجبر الأمير إنريكِه على ترك قصر ألفونسو، فأرسل برسائل إلى محمّد بن الأحمر الذي عقد معه علاقات قوية سائلاً إياه استقباله في مدينته غرناطة. غير أنّ الملك ابن الأحمر لم يكن يرغب في خلق أيّة عداوة مع ملك قشتالة فردّ عن طريق إرسال

(1) عام 1254 للميلاد. (كوندِه)

(2) الكونت دون غارثيا غوميث.

(3) الأمير إنريكِه حاكم قشتالة.

قائد يثق به على الأمير إنريكِه ينصحه بالذهـاب إلـى أفريقيـا محمّلاً إيـاه رسائـل إلى صديقـه أبي زكريا لاستقباله والتّرحيب به كما لو كان هو زائره. عمل الأمير المسيحي بنصيحة ابن الأحمر فأخذ الرّسائل هذه وعبر البحر باتجاه مدينة تونس حيث لقي ترحاباً على يد أبي زكريا الذي عامل ضيفه كما تتوجّب معاملة رجل بمكانته وكرمه.

* * *

الفصل السّابع

مؤامرة المسلمين ضد ألفونسو ابن فرناندو - تمرّدهم عليه ومذابح جيوشه - مسيرة ملك الصّليبيين ضد المؤمنين

بعد مضيّ سنتين على فتح الملك ألفونسو ابن فرناندو لمدينة خيريث (شريش) أرسل الأخير إلى محمّد بن الأحمر رسائل عديدة طالباً منه مساندته في الحرب التي سيشنّها قريباً لاحتلال الغرب مشدّداً على أنه سيحارب أعداءهم المشتركين الموحّدين، وبالتالي لابن الأحمر مصلحة مساوية لمصلحته في طرد هذه الفئة من إسپانيا.

بعدها أرسل ملك غرناطة تعليماته إلى شعب مقاطعة مالقة مطالباً إيّاهم بتأمين المساندة لألفونسو ابن فرناندو في حربه، وعيّن قائداً على القوات والي مقاطعة مالقة وهو من بني أشقيلولة Bani Escaliola. سرعان ما ضمّ القائد جيشه إلى جيوش الملك ألفونسو وحاصرا معاً مدينة لبلة Niebla وتغلغلوا داخل أراضي مدينة شلطيش Saltes حيث كانت السّيطرة لابن محمّد، وهو قائد مرموق من قوّاد الموحّدين.

وكانت مدينة لبلة مدينة قويّة للغاية محاطة بأبراج وأسوار عالية صلبة مبنية بالحجارة وبإتقان كبير. وكان جيش المدينة صنديداً وأعداده كبيرة، فقام بهجمات متعدّدة وضربات ليلية على العدو فاجأ بها المحاصِرين وواجه هجماتهم بإرادة لا تقهر. وكان لديه آلات حربية رائعة منها ما كان يملأ بالأقذار والأحجار ويطلق على الأعداء، وقنابل من النّيران[1] أوقعت خسائر كبيرة في صفوف الصّليبيين. ودام الحصار فترة

(1) السّؤال الذي يطرح نفسه في هذا الإطار: هل كان المتحاربون في تلك الأيام على دراية بالبارود؟ حيث إنهم يدّعون كما يلاحظ القارئ أنه كان من اختراعهم، وهذا أدّى إلى طرح

كبيرة، وفي نهاية الشّهر التاسع ضاق ذرع السّكان من الحرمان بسبب الحصار وظهرت الحاجة إلى المؤن بشكل ملحّ لديهم، وكانوا مرهقين للغاية ولم يعد بإمكانهم تحمّل المعاناة فأقنعوا واليهم ببدء المفاوضات مع المحاصر المسيحي. وبما أن ابن عبيد فقد الأمل من أيّة مساعدة خارجية، وبالنّظر إلى الضّيق الذي فرض على شعبه، فقد خرج من المدينة للتفاوض حول شروط استسلامها لملك قشتالة ألفونسو ابن فرناندو الذي أظهر كرماً لا مثيل له حيث وافق على كل ما طالب به ابن عبيد.

وجاء في إطار هذه المعاهدة أن تستسلم كل أراضي الغرب على أن يمنح الملك أراض شاسعة للوالي ابن عبيد ومن بينها غابة إشبيلية مع حدائق الملك وأبراجها. كما منحه ألفونسو عُشر زيوت المملكة التي كانت تشكّل عائداً كبيراً. وكان هذا هو الثّمن الذي دفعه الصّليبيون للحصول على مدينة لبلة Niebla ومدن ولبة Huelva، جبل عيون Gebalayun، سربا Serpa، مورا Mora، الحورين Alhaurin، طبيرة Tabira، فار Far، لوله Laule، شينيبوس Xinibos ومعظم مدن الغرب الأخرى وهي مناطق غنية، محصّنة وفيها عدد سكان كبير وتتمتع بمناخ رائع وممتع وأرض خصبة، وفيها كل منتج يلزم لرفاه حياة السّكان ورغدهم. وأتم الصّليبيون هذا الغزو في العام 655 هـ[1].

خلال الحرب التي شنّها ألفونسو ملك قشتالة على الغرب في إسپانيا، تفرّغ محمّد بن الأحمر ملك غرناطة بالسّهر على كل ولاياته، فزار كل ولاية بدورها وحصّن المدن قرب حدودها ووضع المملكة كلّها في وضعية دفاع. ودرس هذا الملك الحريص بكل وضوح معظم المصاعب التي قد يواجهها مع الصّليبيين أعدائه الطّبيعيين، حيث

العديد من التّساؤلات، غير أننا لا نستطيع أن ندرسها في هذا السّياق. ولكن من المؤكّد أنهم كانوا يجرّبون ويعدّون العدة منذ 70 عاماً في حرب وادي Guadacelito وحصار الجزيرة عامي 1340 و1342. وبالنّظر إلى هذه الظّروف ولما تم التعبير عنه في حصار لبلة من قبل الكاتب الذي عاصر هذه الحقبة الزّمنية، نرى أنه من المحتمل إلى حدّ كبير أن يكون هؤلاء قد امتلكوا سرّ التّقنيّات التي امتازت بها الحروب المعاصرة. (فوستر)

(1) عام 1257 للميلاد. (كوندِه)

كان يدرك أنهم سيغتنموا أول فرصة للهجوم عليه فالدّود ينخر الشّجر الذي يأويه وهم سيفعلون بالمثل. وكان ابن الأحمر مقتنعاً بهذه الحقيقة لذا ظل وقتاً طويلاً في مدن وادي آش Guadix ومقاطعة مالقة ومقاطعة طريف Tarifa والجزيرة للتّحضير لهذا الواقع، فأمر بإعادة إعمار وتحصين حصن جبل طارق وتجهيز الأسلحة في الأماكن المحدّدة. وفيما كان ملك غرناطة في هذه المقاطعات أتى بعض الخيالة المسلمين الذين قطنوا في مدينة خيريث (شريش) وسيدونيا (شذونة) والأرك لزيارته مع آخرين من مدينة مُرسية، وعرضوا عليه الانضمام إلى صفوفه والاعتراف به كملك عليهم في حال ساعدهم في التّخلّص من المعاناة والذّلّ والأتاوة التي فرضها عليهم الصّليبيون. فأبلغ محمّد بن الأحمر هؤلاء أنهم سيحصلون على ردّه قريباً.

في طريق عودته إلى غرناطة رافقه كل من الوالي أبي الحق وأبي بكر وزير مدينة مُرسية، وفور وصوله إلى المدينة قام بجمع مجلسه واستشار الشّيوخ والأعيان في هذا الشّأن. وأجمع مستشارو ابن الأحمر على أن ميثاق السّلام مع الملك ألفونسو ابن فرناندو يجب أن يُلغى لأنه من واجب المسلمين مساعدة إخوانهم، وأضافوا أن عظمة الملك المسيحي أصبحت مدعاة للخوف، وأنه في حال شن أي حرب ضد الملك ألفونسو سوف تتظافر جهود المسلمين وسوف ينضوون كلهم تحت راية ملك غرناطة. شكر محمّد بن الأحمر حماسة مستشاريه للدّفاع عن الإسلام، غير أنه لم يتوانَ عن عرض مخاطر وسيئات أيّ خرق مفتوح للقوات المسيحية، وأقرّ أنه لمصلحة أبناء مدينة مُرسية يجب العمل بكلّ سرّية لقربها من مدنه الخاصة ممّا سيسهّل العمليات، وأضاف أنه حين تصبح كل التجهيزات لهذا الأمر قائمة ومنفّذة يمكن لأهل الغرب ومدينة خيريث (شريش) بدء هجومهم، حيث أن الملك ألفونسو سوف يضطرّ لتقسيم قواته لمواجهة كل المحاور ولن يتمكّن من التركيز على محور واحد، وبالتالي سوف يطلب مساعدة ملك غرناطة حليفه كالعادة.

عندها وكما أكّد محمّد بن الأحمر سوف يأتي الوقت المناسب للمحاربة إلى جانب إخواننا المسلمين عن طريق رفض التّعاون مع الملك ألفونسو ابن فرناندو لوجود سبب مقنع، وبالتالي سوف يكون هناك سبيل لقطع علاقة الصّداقة القائمة فيما بينهما.

وأكّد ابن الأحمر أيضاً للشّيوخ أنّه لن يتوانى عن اجتياح أراضي ملك قشتالة وإيقاع أكبر عدد من الإصابات في صفوف الصّليبيين وبذل كل جهد ممكن لمساعدة إخوانه المسلمين. وقد لاقت آراء محمّد بن الأحمر ووعوده موافقة بإجماع كل الحاضرين، وأرسل شيوخ الغرب ومدينة خيريث رسائل إلى شعوبهم للتّحضير لهجوم يوماً ما، وأرسلت رسائل مماثلة لنبلاء مدينة مُرسية للغاية عينها. وأعطيت أوامر لسكان كل إمارة لانتظار إشارة بدء الهجوم، وطلب من كل واحد منهم المدافعة بوجه العدو المسيحي لإخراجه من حدودهم.

كان أهم قادة هذا التيّار يهدفون إلى حمل الشّعب على الانتفاضة، فأطلقوا شائعة أن محمّد بن الأحمر ملك غرناطة قد حضّر العدة للهجوم الحتمي وأضافوا أنه لن يتأخر في الهجوم على الأراضي المسيحية وشنّ حرب دامية على الكفرة. كان هذا الأمر كافياً لتحريض كل غيور من المسلمين، فأخذ السّكان سلاحهم دون تفكير وأطلقوا ناقوس الحرب وهاجموا جيوش الصّليبيين في مدنهم وبايعوا محمّد بن الأحمر ملكاً عليهم.

بدأت المعارك على جبهات عديدة في يوم واحد في مدن مُرسية ولورقة ومولا Mula وخيريث والأرك ونَبريشة وغيرها، حيث انقضّ السّكان على الصّليبيين وأجبروهم على الخروج من الحصون. ودارت معارك ضارية في مدينة خيريث ووقعت مذابح هائلة. دافع الكونت دون غوميز عن القصر الملكي بإصرار غير مسبوق وظلّ يحارب كاللّيث على الرّغم من إصابته، وكان محاطاً بجثث مقاتليه وبأنين المصابين الذين يصارعون الموت، غير أن أعداد المهاجمين كانت كبيرة ولم يتمكّن من القتال فنزف دمه وتوفي بعد وقت قصير.

بعدما سقط القصر الملكي الذي احتلّه الصّليبيون على إثر معارك عنيفة أخذ المهاجمون يهتفون باسم الملك ابن الأحمر من كل صوب وطالب الشّعب واليي الجزيرة ومقاطعة طريف Tarifa بمساعدة مدينة خيريث، وساروا نحو القصر الملكي حيث دارت معارك عنيفة للغاية كما وصف أعلاه، ولم تكن هذه الأفعال مطابقة

لسياسة الحذر التي أراد ملكهم الحفاظ عليها. ودارت هذه المعارك عام 659 هـ[1].

واقتدت شعوب المناطق الأخرى بالمثل، واستعادت مدنٌ كثيرة حريتها وانتقم شعبها من الصّليبيين الذين قهروهم لمدة طويلة، وساند شعب غرناطة الملك بالسّر وفق الاتفاق المبرم وتمكّنوا من الوصول إلى برّ الخلاص. غير أنّ الملك ألفونسو ابن فرناندو أرسل قادته في كل الاتجاهات وأصبح جلياً أنّ ما خطط له المسلمون قد بدأ بالفعل يتحقّق. عجّل ملك قشتالة بإرسال موفدين كما سبق وتقرّر إلى محمّد بن الأحمر ملك غرناطة طالباً مساعدته في حربه على مدينة مُرسية، فردّ عليه الملك معللاً أنه بسبب الدّين والغيرة على الإسلام لن يتمكّن من الاستجابة لطلبه، وأضاف أن شعبه لن يسمح له باعتماد موقف محايد من هذه الهجمات.

وكان محمّد بن الأحمر صاحب رؤية بعيدة حيث وضع حداً للصّداقة التي تربطه مع ألفونسو ابن فرناندو، غير أنه حرص على إبقاء فسحة أمل لجبر ما قد يُكسر في المستقبل في حال دعت الحاجة لذلك، ولكنه ضمنياً لم يكن يرغب في تجديد هذه الصّداقة. استاء ملك قشتالة من ردّ محمّد بن الأحمر فأمر جيوشه بشنّ حرب على شعب غرناطة ومعاملته كعدو للقوات المسيحية، فشنّ الجيش هجمات على حدود مناطق ابن الأحمر الذي سرعان ما علم بالأمر، فوصلت جيوش الأعداء إلى قلعة بني سعيد واجتاحت المنطقة بالكامل. وتلاقى أصدقاء الماضي أعداء الحاضر اللّدودين على مقربة من مدينة القلعة، ودارت بينهما معارك ضارية شرسة تمكّنت فيها خيّالة ابن الأحمر بفضل إصرارها وبسالتها من إجبار الجيوش المسيحية على التّراجع. وجرت معارك قلعة بني سعيد في العام 660 هـ[2].

منذ ذلك الحين كانت هناك مواجهات يومية ومجابهات أثبت كل فريق فيها قوّته ولم ينتصر أيّ طرف على الآخر. أرسل الملك ألفونسو ابن فرناندو أفضل قادته إلى الغرب وأمرهم بإخضاع المدن العاصية في هذه المحافظة، في هذا الوقت كان محمّد

---

(1) عام 1261 للميلاد. (كوندِه)

(2) عام 1262 للميلاد.

بن الأحمر منهمكاً في الدّفاع عن حدوده ضد الهجمات المسيحية المتكرّرة وأسر العديد من الجيوش وعمل على حرمان أعدائه من كل غنائمهم.

جمع محمّد بن الأحمر فرقة كبيرة من الجيوش والخيّالة وقسّمها إلى فصائل وعيّن قائداً على كل منها لمساعدة شعب مدينة مُرسية الذي استمرّ في طلب مساعدة ملك غرناطة. غير أنّ المعاملة الخاصة التي منحها محمّد بن الأحمر إلى بعض خيالة قبائل الثّغري وزناتة على الحدود وآخرين ممّن أدّوا له خدمات خاصّة أزعجت ثلاثة ولاة أعيان من بني أشقيلولة Bani Escaliola الذين لم يخفوا انزعاجهم. وكان هؤلاء أبو محمّد عبد الله والي مقاطعة مالقة، وأبو الحسن والي وادي آش، وأبو إسحاق والي قُمارِش، الذين تنحّوا عن المشاركة في حملة مدينة مُرسية، معلّلين أنهم يجب أن يتواجدوا في مدنهم. أخفى ابن الأحمر الألم الذي اعتصر قلبه، وسمح لهم بالعودة إلى المدن التي يحكمونه،ا غير أن كل نبله وشهامته لم تُمِط من قلبه الجروح التي خلّفها الشّيوخ.

قبل الذّهاب إلى حرب مدينة مُرسية ونظراً إلى أنه لا أحد يعرف ما يضمر له القدر، وبما أن محمّد ابن الأحمر كان يؤمن بالقدر فقد قرّر أن يعلن ابنه البكر الأمير محمّداً خلفاً له على العرش وشريكه المستقبلي في الحكومة. وقد قام بهذه الخطوة ليس خوفاً من الموت فحسب، بل ليضمن لابنه أرفع مناصب السّلطة للبحث في المسائل التي قد ترفع إليه أثناء غيابه. وقد تم بالفعل تنصيب الأمير وحلف اليمين، وأمر والده أن يضاف اسم محمّد في الخطبة مباشرة بعد اسمه في كل مجالس المملكة. وحصل هذا الإعلان في بدء العام 662 هـ. وكان ولاة مقاطعات مالقة ووادي آش وقُمارِش الوحيدين الذين لم يتوقّع حضورهم إلى الحفل الذي رافق تعيين خلف ابن الأحمر. بعث هؤلاء رسائل إلى الملك ألفونسو ملك قشتالة للإعراب عن ولائهم له وطلبوا الاحتماء في ظلّ درعه، وعرضوا عليه أن يرسلوا جنودهم لمساندة جيشه في حربهم على ملك غرناطة، وأعلنوا أنهم لن يبرموا عقد سلام أو هدنة مع الأخير حتى يحصلوا على موافقة الملك المسيحي في هذا الشّأن. مقابل ذلك طلبوا من الملك ألفونسو أن

يساندهم ويؤازرهم في كل فعل قد يقومون به ضد ملك غرناطة.

فرح ملك قشتالة بهذا العرض للغاية، ووعد الشّيوخ الثّائرين أن يعطيهم دعمه ومساعدته في كلّ حال، ورجاهم أن يبدأوا عملياتهم ضد ملك غرناطة دون أي إبطاء، وأضاف أنه أرسل مرسلين إلى الحدود وأعطاهم أوامر مفادها أن يُعطى كل الدّعم إلى الولاة الثّلاثة: أبي محمّد عبد الله، وأبي حسن، وأبي إسحاق وأتباعهم، وأن يعاملوا في كل مكان كحلفاء له وموالين.

ولم يتوانَ الولاة عن وضع المخطط هذا حيّز التّنفيذ، وبالفعل لم ينكثوا وعدهم للمسيحيين وانقضّوا على أراضي محمّد بن الأحمر بكل ما أوتوا من ضراوة وزحفوا داخل الأراضي. وتمكّن الملك ألفونسو بفضل هذا التّكتيك من شنّ حرب ملائمة للغاية على المتمرّدين في الأندلس ومدينة مُرسية. لم يتمكّن محمّد بن الأحمر من إرسال جنوده لمساعدة المسلمين كما خطط له، إذ كان من الأولوية لديه مجابهة من أشعلوا شعلة الحرب الأهلية في مناطقه.

ألقى ملك قشتالة حصاراً على مدينة خيريث Jerez (شريش) التي ضغط عليها كثيراً، بينما اجتاح كل الإمارات حول المدينة واحتلّ القلاع المجاورة. وبعد خمسة أشهر من الحصار الأليم الذي ألقى بظلال الحرمان على المحاصَرين في النّهاية استسلم مسلمو مدينة خيريث مشترطين شرطاً واحداً وهو ألا يقتلوا. غير أنهم أُخرجوا من منازلهم بكل ذلّ وبقيت تلك المدينة غير مأهولة. وهؤلاء الذين كانوا في السّابق جماعة واحدة تفرّقوا إلى مجموعات صغيرة في كل الأندلس. كانوا فقراء ومعوزين ولجأ الكثير منهم إلى مناطق ملك غرناطة محمّد بن الأحمر فيما فرّ غيرهم إلى أفريقيا. كما قدّمت كل من مدينتي الجزيرة ومقاطعة مالقة ملجأ لعدد لا يستهان به من السّكان المشتتين والمعوزين. وحدث هذا الأمر حوالي العام 663 هـ.

كما ضُيّق الحصار على مدن سيدونيا (شذونة) وروطة Rota وسولوكار Solucar والأرك Alarcos، وقُلّصت قواها حتى أجبرت على الاستسلام دون أيّ شرط سوى سلامة شعبها، وخرج هؤلاء من منازلهم دون أيّ شيء ولجأت نسبة لا يستهان بها

منهم إلى غرناطة، فتمكّن محمّد بن الأحمر الذي خسر أراضيه من جمع أعداد أكبر من السّكان في ولاياته وفق ما ورد أعلاه.

قام محمّد بن الأحمر في هذه الأثناء بتقسيم قواته وقرّر إرسالها لمساعدة شعبه في مدينة مُرسية الذي دافع عن نفسه جيداً، وقاد بنفسه خيّالته ضد الثّوار في وادي آش وحدود جيان Jaén. وأولى محمّد بن الأحمر اهتماماً شديداً بكل الأمور، وكان يدور في كل ساحات المعارك، حتى بدا كما لو أنّه موجود بذاته في كل الأمكنة بالوقت عينه.



الفصل الثّامن

خايمِه ملك برشلونة (جاقم) والملك ألفونسو كل يحاول فتح مدينة مُرسية بنفسه. المعاهدات والهدن التي أبرمت بين القائدين الصّليبيين. العداوة بين الملك ألفونسو وابن الأحمر

قاد خايمِه ملك برشلونة (جاقم) أيضاً جيوشه لاحتلال مدينة مُرسية، فقد رغب منذ زمن أن يوسّع مملكته بفضل الفتوحات في حين كانت خيّالة الملك ألفونسو ابن فرناندو توسّع زحفها داخل الأراضي علّها تمنح قائدها نصراً لإعطاء مملكة لشقيقه المحبوب دون مانويل Don Manuel. وقد أعاقت هذه المصالح المتضاربة تقدّم الملكين وبالتالي قرّرا أخيراً إعلان زواج الأمير دون مانويل من ابنة خايمِه ملك برشلونة (جاقم). وكانت الملكة يولانت[1] Iolant زوجة ألفونسو ابن فرناندو أيضاً ابنة خايمِه ملك برشلونة (جاقم) وأخت الأميرة التي تزوّجت من الأمير مانويل.

غير أن يولانت كانت امرأة غيورة ولم تكن جميلة بقدر جمال شقيقتها وقد أكلتها الغيرة والحسد لمجرد فكرة أن الفتح المُزمع القيام به يهدف إلى وصول شقيقتها التي طالما كرهتها إلى العرش. وبالتّالي لم تتوانَ عن انتهاز أيّة فرصة للحؤول دون قيام هذا الزّواج، فأرسلت رسائلَ إلى ملك غرناطة راجية إياه إعادة الصّداقة التي كانت تربطه سابقاً بملك قشتالة لمصلحتهما كليهما. وأعلنت أيضاً أنه في حال قبل محمّد بن الأحمر وضع شروط للسّلام مع الملك ألفونسو عندها سيكون قادراً على تقليص قوة الولاة الذين قاموا ضدّه في حين سيتمكّن زوجها من احتلال البلاد.

---

(1) يولاند بالإنكليزيّة. (فوستر)

وفي هذه الرّسائل، لم تُخفِ الملكة يولانت كرهها لعائلتها، وأوضحت أن هدفها الأساسي هو منع والدها أو أيّ من أفراد عائلتها من الحكم على مدينة مُرسية، وأقرّت أنها تودّ الانتقام من أنسبائها، الذين أهانوها في بعض الاتفاقات العائلية التي كان لها فيها مصلحة عليا.

وقد دفعت هذه الرّسائل محمّد بن الأحمر، كونها مكتوبة من شخص يثق فيه بفضل معرفته الطّويلة الأمد به ودون أيّ تردّد إلى الانصياع لطلب الملكة، فكتب للملك ألفونسو عارضاً عليه القيام بكل ما أوتي من قوّة لمساندة ملك قشتالة. وقد امتنّ الأخير للغاية من عرض محمّد بن الأحمر ودعاه إلى حوار في قلعة بني سعيد وفي الوقت نفسه لم يتغاضَ عن إبلاغ الولاة العُصاة بالأمر وأكّد لهم أنه لن يتخلّى عن وعده لهم حتى لو كان أفضل لمصلحته أن يعقد سلاماً مع ملك غرناطة.

وحدّد اليوم المنتظر لعقد الحوار في قلعة بني سعيد، والتقى الملكان وتباحثا في كل المسائل بشكل واضح ومُرضٍ. بعد مناقشات طويلة تم الاتفاق على أن يتخلّى محمّد بن الأحمر وابنه الأمير محمّد الذي عُيّن خلفاً له عن كل حقوق عائدة لهما في مدينة مُرسية. ومن جهته أعلن ألفونسو ابن فرناندو أنه لن يقدّم يد العون بعد اليوم أو يؤوي ولاة مقاطعات مالقة ووادي آش وقُمارِش، حتى يتمكّن محمّد ابن الأحمر من وضعهم تحت إمرته. ووعده ملك قشتالة أنه سيؤمّن خضوع الشّيوخ العُصاة وإعادتهم إلى إمرة محمّد، فحصل لهم على هدنة لمدّة عام يفترض بهؤلاء الولاة خلالها الرّجوع إلى الطّاعة والولاء والانضواء تحت راية الملك، وفي حال لم يفعلوا ذلك لن يحصلوا على أيّة حماية ودعم من الملك ألفونسو الذي سيترك في هذه الحال محمّداً بن الأحمر يتعامل معهم وفق ما يراه مناسباً.

تمّ الاتفاق أيضاً في هذه المعاهدات أن مملكة مدينة مُرسية سوف تخضع بالكامل إلى ملك قشتالة، وسوف يتمّ ضمّها إلى كل الإمارات التي تخضع لسلطته، غير أنها ستكون تحت حكم الأمير المسلم الذي سيحكمها وفق أحكام وقوانين الشّريعة. وقد أُعطيت ضمانات عديدة للمسلمين وفق هذه المعاهدات، من أهمّها أنه لن يتم

إخضاعهم لضرائب سوى عُشر ما كانوا يدفعونه من ممتلكاتهم للخزينة العامة، يخصّص منها الثّلث لحاكم المملكة للحفاظ على إمارته وكرامتها.

أخيراً وافق الأمير على منح ألفونسو السّماح لهؤلاء الشّيوخ والأعيان الذين تمرّدوا في مدينة مُرسية وضمن له ذلك. وتقرّر أن الولاة الذين ستذكر أسماؤهم فيما يلي سوف يبعدون تماماً من المملكة وهم: أبو Abu Alaki والي مدينة مدينة مُرسية، والوزراء أبو بكر، وأبو Abu Adha وأبو عمرو بن غالب.

وأبرم محمّد بن الأحمر مع ملك قشتالة معاهدة جاء فيها أنّ الخيّالة الذين أمّنهم الأول للآخر في زمن الحرب سيُنقلون مقابل مبلغ من الذهب يدفع سنوياً في حين سيظهر الملك محمّد بن الأحمر في حضرة بلاط قشتالة فقط خلال الاجتماعات العامة التي يعقدها كبار الأعيان والشّيوخ في المملكة. وبعد وضع الشّروط، وافق ابن الأحمر على تسهيل أمر خضوع مدينة مُرسية وإذا ما لزم الأمر إجبارها على ذلك، مع كامل أراضيها وتلك التّابعة لها. ثم صادق الملكان على معاهدة قلعة بني سعيد والأمير محمّد والي عهد مملكة غرناطة، وبعد ذلك وقّع عليه عدد كبير من الأعيان وبعض الشّيوخ الأعلى مكانه في غرناطة. وكان ذلك عام 664 هـ[1].

في حين كانت المباحثات جارية في قلعة بني سعيد، قام قادة ابن الأحمر بالاستيلاء على قافلة كبيرة من المؤن كانت متوجّهة نحو معسكر الصّليبيين، وقاموا بنهبها بالكامل. وكانت الحاجة إلى الطّعام كبيرة بعد هذه الخسارة، من جهتها أتعبت الهجمات ليلاً نهاراً على الصّليبيين من قبل المدافعين حتى أصبحوا على وشك مغادرة مواقعهم وفك حصارهم المفروض على مدينة مُرسية. وفي الواقع قد نفدت قواهم بفضل الأنباء المغلوطة التي كان ينقلها لهم شعب أراغون الذي كان يكنّ لشعب قشتالة عداوة دامت لوقت طويل بين الشّعبين، حيث كانا يتصارعان بوحشيّة وحقد وكان أهل أراغون يهلّلون باستمرار للإصابات التي تقع في معسكر الغزاة.

---

(1) عام 1266 للميلاد. (كوندِه)

في هذا الوقت الحرج انطلق كل من الملك ألفونسو ابن فرناندو ملك قشتالة والملك محمّد بن الأحمر نحو مدينة مُرسية، فكتب ابن الأحمر إلى ولاة الأراضي وحكّامها طالباً منهم الاستسلام للملك ألفونسو وفق شروط المعاهدة التي تمّت فيما بينهما في قلعة بني سعيد. وحاول قدر المستطاع أن يبرهن لهم أنّ هذا الفعل هو الوسيلة الوحيدة التي بقيت أمامهم لعدم التعرّض إلى مشاكل أُقحموا فيها، مذكّراً إياهم أنه من المستحيل لهم التّصدّي أو الاستمرار بمفردهم ضد ملكين قويين هما ملك قشتالة وملك أراغون. واقترح عليهم ابن الأحمر أيضاً رفض الانصياع لأمر كل أمير مسيحي باستثناء ملك قشتالة، على أن يكون دون سواه حاكماً عليهم. وافق شعب مدينة مُرسية بكل طيب خاطر على هذا الأمر وعلى الشّروط التي وضعت، فدخل الملك ابن الأحمر مع الملك ألفونسو إلى مدينة مُرسية على رأس جحافل من الخيالة الأعيان.

اقترح ألفونسو ابن فرناندو تعيين محمّد أبو عبد الله بن هود شقيق الملك أبي عبد الله بن يوسف بن هود المرموق سيّداً وحاكماً على مدينة مُرسية، حيث كان في الماضي ملكاً على شعبها، فجاء هذا الخيار مرضياً للجميع. وكان محمّد أبو عبد الله محطّ تقدير لملك قشتالة حيث كان مشهوداً بذكائه واعتداله. بعد انتهاء الحرب، فرح شعب مدينة مُرسية وهلّلوا لوجود ملك من ديانتهم ومن سلالة ملكية يعرف بذكائه وعدله، وقد استتبع الملك ألفونسو ابن فرناندو رغبة شعوبه بالحصول على ملوك، وكان فرح الملكة يولانت كبيراً للغاية كونها منعت شقيقتها من الوصول إلى العرش. ومن جهته فرح أيضاً محمّد بن الأحمر ملك غرناطة كونه وجد الوسيلة للحفاظ على علاقات جيدة مع مختلف الأطراف، وعاد إلى غرناطة بصحبه جيش كبير.

مع بدء العام 665 هـ أرسل ملك غرناطة إلى ملك قشتالة لإبلاغه برغبته في شنّ حرب ضد ولاة مقاطعات مالقة ووادي آش وقُمارِش الشّيوخ المتمرّدين الذين أعلنوا أنهم لن ينضووا تحت جناحه. ذكّر ملك قشتالة ابن الأحمر بتوسّطه لهؤلاء العُصاة، غير أن ابن الأحمر لم يأبه وأرسل جنوده لمحاربتهم، فلجأ الولاة إلى ألفونسو ابن

فرناندو وعرضوا عليه مجدّداً خدماتهم ورجوه عدم تركهم تحت رحمة أعدائهم. كانت جنود ابن الأحمر قد احتلت مدناً وقلاعاً عديدة تمكّنت من استرجاعها من الغازي في كل من مقاطعات مالقة ووادي آش وقُمارِش. عندها أرسل الملك ألفونسو ابن فرناندو برسائل إلى غرناطة للملك ابن الأحمر طالباً منه إيقاف كل الهجمات على المتمرّدين، أو أنه سيقف بوجهه في حال رفض الانصياع لأمره. وطلب أن يعامَل ولاة مقاطعات مالقة ووادي آش وقُمارِش وفق المناصب التي آلوا إليها وأن يبقوا في الولايات المستقلّة التي حصلوا عليها. إلى ذلك، أعلن أنه يجب أن تسلّم له مدن طريف Tarifa والجزيرة في حال رغب ابن الأحمر بالإبقاء على صداقتهما.

عندما تسلّم ملك غرناطة هذه الرّسائل التي تظهر كمّاً هائلاً من الادعاء والعجرفة ثار غضبه وأصدر أوامره لجمع جيوشه لشنّ حرب على أراضي ألفونسو ابن فرناندو، غير أنه بعد التّفكير مرة أخرى وبعد أن تمّت العدّة وتحضّر كل شيء للذهاب قرّر الإجابة أولاً على رسالة ملك قشتالة، فكتب له لائماً إياه كونه نكل المعاهدة التي أُبرمت فيما بينهما في قلعة بني سعيد مشيراً إلى الإهانة العظمى التي تتمثل في الطّلب منه بتسليم المدينتين اللتين تشكلان منطقتين استراتيجيتين في مملكته. وطلب ابن الأحمر من ألفونسو عدم الانجرار وراء همسات المستشارين الشّيطانية والتّصرّف وفق ما يمليه عليه ضميره وقلبه كون مطالبه هذه غير عقلانية، وختم قائلاً إنّ المعاملة التي خصّصها له ألفونسو لم تكن بقدر الخدمات التي قدّمها إليه وأعلن عن إصراره لجعل الشّيوخ يستسلمون له وبأنه ليس لديه أيّة نيّة لدخول أراضي ألفونسو أو لمحاربته بالسّلاح إلا إذا أجبره الأخير على القيام بذلك عبر تقديم يد العون إلى الولاة المتمرّدين.

في هذا الوقت كان كل من فيليبو[1] Filipo شقيق الملك ألفونسو، والزّعيم دون نونيو[2] Zaim don Nunío ونبلاء آخرون من المملكة مستائين من حاكمهم متّهمين إيّاه أنه لم يكن عادلاً تجاههم كونه سمح لزوجته بالسّيطرة عليه وتجاهل نصائح أفضل

---

(1) فيليپ.

(2) دون نونييث دي لارا Don Núñez de Lara.

المستشارين. فلجأ هؤلاء الفرسان إلى غرناطة وطلبوا حماية ابن الأحمر الذي عرفوا عنه شهامته ونبله. فاستقبلهم ملك غرناطة بكل التّقدير اللائق لنبلاء من رتبتهم وآواهم في قصوره أو في قصور ولاته ووزرائه. ومن جهتهم عرضوا عليه مساعدته في الحرب التي سيشنّها ضد الشّيوخ العُصاة، وطلبوا منه إعفاءهم قدر المستطاع من التّدخّل في هجماته على أراضي ألفونسو، وأبلغوه أنهم لن يتمكّنوا من مساعدته في مجابهته. أثنى الملك على نُبل أخلاقهم، وأصدر أمراً للهجوم على المتمرّدين في وادي آش بقيادة الأمير محمّد.

قام هؤلاء الفرسان بأجرأ الحملات وأشجعها كما الخيّالة المسلمين الأكثر تميّزاً. وأظهر الملك امتنانه لهم وتقديره، فأعطاهم حصة ملائمة وكبيرة من الغنائم التي حصل عليها في هذه الحروب. غير أنّ قوات ابن الأحمر كانت مقسّمة للغاية ولم يكن هناك بالمستطاع القيام بأيّة هجمات مهمّة، فقسّمت المدن واجتيحت البلد ولم ينفّذ أيّ أمر. حملة بعد حملة وسنة بعد سنة كانت المواجهات وكأنها لن تنتهي وكأنها قد مدّدت إلى ما لا نهاية. فقرّر ابن الأحمر طلب مساعدة أبي يوسف بن عبد الحق من بني مَرين ملك المغرب، فأرسل موفدين إلى الملك في العام 670 هـ[1] طلب فيها من الأمير الأفريقي إرسال قوة من الخيالة للحدّ من غطرسة وجبروت ملك قشتالة، ولإجبار كل من ولاة مقاطعات مالقة ووادي آش وقُمارِش على مساعدته في الدّفاع عن إخوانهم المسلمين في إسپانيا، عوضاً عن استخدام سلاحهم كما سبق وفعلوا لتقليص الإسلام والمساهمة في ضياع وتشتّت إخوانهم في الإيمان.

شعر الخيالة الصّليبيون الذين كانوا بخدمة ابن الأحمر بحزن شديد عندما علموا أن بني مَرين الأفارقة البربر سوف يدخلون إلى إسپانيا، ولم يكن ذلك بلا سبب وجيه، فما إن ذاع خبر أنّ الملك أبا يوسف بن عبد الحق سيدخل البلاد حتى دبّ الذعر والهلع في قلوب كل الصّليبيين فيها.

---

(1) عام 1272. (كوندِه)

الفصل التاسع

موت الملك ابن الأحمر، خلف ابنه محمّد الثّاني، فتح مناطق العُصاة، لقاء محمّد وألفونسو في إشبيلية

ولّت سنة 670 هـ وحملت في طيّاتها آمالاً ومخاوف كثيرة، ولكن مع بداية العام 671 هـ أرسل قادة الحدود رسائل إلى ابن الأحمر أبلغوه فيها أنّ ولاة مقاطعات مالقة ووادي آش وقُمارِش على وشك الدّخول إلى البلاد على رأس جيش كبير، وطلبوا منه إرسال جيوش من المشاة والخيالة لدعمهم.

ثار غضب الملك عندما وصله هذا الخبر، وفي فورته هذه أمر أن تُرسل كل جيوشه وتتأهّب لوضع حدّ لهذه الحرب الطّويلة غير الحميدة. حاول مستشاروه القيام بكل ما أوتوا من قوة لتهدئته، غير أنه لم يشعر بالرّاحة إلا بعد امتطاء خيله والسّير على رأس الجيوش التي رافقته في الحملة ضد العُصاة. ولم يتوانَ الصّليبيون الذين كانوا في حضرة وديوان ابن الأحمر عن عرض خدماتهم ورافقوه في حملته. ولكن شاءت الأقدار أنه في يوم خروجهم من غرناطة أهمل جندي الطّليعة أن يحني حربته التي انكسرت عندما همّ بتخطّي باب المدينة، فاعتبر بقيّة الجنود ذلك علامة شؤم ونذير سوء، على الرّغم من أنه لم يكن سوى فعل إهمال من الجندي الذي لم يراعِ الأصول عند تخطّي قنطرة الباب.

وقبل وقت قصير من ساعة الظّهيرة في أول يوم من آذار أصيب الملك بمرض مؤلم منعه من امتطاء خيله وأجبره على ملازمة الفراش، فأعيد إلى المدينة برفقة كل خيّالته الصّليبيين والمسلمين الذين كانوا تحت إمرته. عانى الملك معاناة شديدة للغاية قبل وصوله إلى المدينة، فكان لا بدّ من نصب خيمة له خارجها، وأحاط به العديد من

الأطباء القلقين كونهم لم يعرفوا بأية طريقة يريحونه. وبعد بضع ساعات بدأ الملك يتقيأ دماً ثم هلوس وفي ساعة المغرب أو غروب الشّمس توفّى الله روح عبده، وكان ذلك نهار الجمعة الواقع في 29 جمادى الأولى سنة 671 هـ[1].

وظلّ الأمير فيليبو شقيق ألفونسو ابن فرناندو ملك قشتالة إلى جانب ملك غرناطة حتى لفظ أنفاسه الأخيرة. عُمّم خبر وفاة الملك في كل بقاع البلاد، فحزن الشّعب وبكى على موت ملكه وكأن كل فرد منه فقد والداً له. كان مأتم ابن الأحمر مهيباً ودُفن في مدفن خاصّ به ودهن جثمانه بالعطور ووضع في نعش من الفضة غطي بالرّخام الثّمين وكُتب على شاهدة القبر بأحرف من ذهب بأمر من ابنه ما يلي[2]:

«هنا يرقد السّلطان المعظّم كبير الكبراء، حصن الإسلام، زينة بني البشر فخر الليل والنّهار، بحر العطاء والكرم والشّهامة، الرّحمة لشعبه، نجم الدّين وعنوان العدل وملجأ المؤمنين[3] والحق، سيف العدل ومُعيل كل ماله وجود. اللّيث في الحروب، قاهر أعدائه، حامي الحمى، المدافع عن الحدود، وناصر الجنود، قامع الطّغاة، ومُرعب العُصاة، أمير المؤمنين، القائد الحكيم حبيب الله المختار، المدافع عن الإيمان، فخر الملوك والسّلاطين، الفاتح باسم الله، تابع الحق، أبو عبد الله بن يوسف بن النّاصر النّصْري Juzuf Ben Anasir El Ansari، أسكنه الله جنّة الخلد وأدخله في عداد المختارين أصحاب الأنبياء والشّهداء والأولياء والصّديقين. رحمه الله ويفرح لرؤيته. ولد عام 591 هـ وفارق الحياة يوم الجمعة 29 جمادى الأولى بعد صلاة العصر من العام 671 هـ. سُبحان من امتدّ ملكه إلى ما بعد الشّمس، ولا تُدرك حكمته وهو بلا بداية ولا نهاية. لا الله إلا الله، الرّحمن، الرّحيم».

أُعلن ابنه محمّد مباشرة بعد وفاته ملكاً، وكان هذا مدعاة رضا لكل الشّعب،

---

(1) عام 1273 للميلاد. (كوندِه)

(2) النّص منقول عن ترجمة كوندِه بالإسپانيّة، وليس بفحواه الحرفي بالعربيّة كما هو بالأصل. (أحمد)

(3) هذه الكلمات ترد كما هي في الأصل. (فوستر)

فجال في كل شوارع المدينة الرّئيسة ممتطياً خيله ترافقه خيرة فرسان الخيالة وهلّل له الشّعب كله. بعد إتمام مراسم دفن والده ابن الأحمر، لم ينسَه الملك محمّد بل قطع عهداً مع نفسه على اعتباره على قيد الحياة في كل ما سيقوم به والتّصرّف مثله والقيام بأعمال عظيمة والاقتداء بمزايا الصّبر والحذر والفضيلة التي أورثه إياها. وكان محمّد الثّاني حاكماً ليبرالياً شجاعاً وعادلاً لم يقم بأيّة تعديلات كبيرة في المناصب في ديوانه الملكي ولم يعدّل أيّاً من القرارات الخاصّة بالتّوزيع والأوامر التي وضعها والده، وكذلك ما قام به في الحرب أو السّلم. ولم يعدّل في عداد أفراد الحرس الخيالة الأفارقة والأندلسيين الذين جمعهم محمّد بن الأحمر فأبقى محمّد الثّاني التّقسيم المعتمد من قبله.

وكان قائد الأفارقة عامّة أميراً من بني مَرين أو بني زيّان وقادة هذه الفرق من الخيالة الأعيان الذين ينتمون إلى قبائل زناتة وصنهاجة ومصمودة. في حين كان قائد الأندلسيين عامّة من الدّاخل أو من الشّيوخ الذين ينتمون إلى عائلات نبيلة في المملكة، ورجلاً متميزاً من حيث القدرات والمزايا. في هذا الوقت كان شقيقا الملك قد فارقا الحياة، فعُيّن ابن موسى في هذا المنصب الرّفيع كونه كان قائداً على الأندلسيين في حياة والده. زاد محمّد أجور هؤلاء الحراس وزاد الامتيازات الخاصة بهم وعامل الأندلسيين والأفارقة بالمثل. اعتبر بعض المتودّدين أن شأنهم سيكون أرفع عند تسلّم الملك الجديد لمهامّه، لكنهم أصيبوا بخيبة أمل، ولم يمضِ وقت طويل حتى تمكّنوا من جمع فرقة من المتمرّدين، وقاموا بترك صفوفه وبالانضمام إلى صفوف الولاة العُصاة في مقاطعات مالقة ووادي آش وقُمارِش، معلّلين فعلهم هذا بكونه لم يقدّر شأنهم وبأنّه ملك عسر وعنيد.

بعد أن نظم محمّد ابن الأحمر شؤون حكومته ووضع كل الأمور على مسارها السّليم زحف مع جنوده لمحاربة المتمرّدين الذين استغلّوا الفرصة للقيام بهجمات جديدة داخل أراضي غرناطة، وحملوا غنائم كبيرة وأسروا الأسرى وأخذوا الكنوز من مختلف الأنواع التي كانت خاصّة بإخوانهم في الإسلام. رافق محمّد خيالة من

قطالونيا وعند وصولهم على مقربة من أنتقيرة Antequera طالعتهم جيوش العُصاة، فدارت معارك ضارية قام فيها الصّليبيون وخيالة غرناطة بأعمال بطولية. وتمكّن محمّد من كسر قوة الولاة المتمرّدين ومن هزيمتهم وأخذ منهم الغنائم الحافلة من أراضيهم.

بعد معارك دامت لمدّة لا يستهان بها، عاد جيش الملك إلى غرناطة والنّصر حليفه. وأعرب الملك محمّد عن تقديره الكبير لمساعديه الصّليبيين ووزّع عليهم هدايا رائعة من الخيول الملبّسة بدروع وأقمشة مزركشة رفيعة وأسلحة ثمينة. عاد الأمير إنريكِه في هذا الوقت من أفريقيا على عجلة من أمره، وما حمله لهذه العودة المفاجئة كان ما شعر به بأنّ أبا يوسف بن عبد الحق ملك تونس يدبّر مكيدة لقتله. وكان إنريكِه قد شعر بهذا الأمر بالمصادفة: ففي يوم ما كان إنريكِه يتحضّر لمرافقة ملك تونس للصّيد فانتظره في ديوان القصر الملكي، وكان الأمير الإسباني وحده في هذه الأثناء غير أنه رأى أسدين متوحشين يتوجهان نحوه وكانا أسدي الملك الذي عهد دائماً على وضعها في قفص. ولم يكن يعلم من أين خرجا، فأخذ الأمير الباسل سيفه للدّفاع عن نفسه غير أنّ الأسدين لم يهجما عليه. عندها ترك البلاط الملكي دون أن يُظهر أي خوف أو قلق وطلب من مربّي الحيوانات هذه حراستها بشكل أفضل في المستقبل.

اعتذر الملك أبو يوسف بن عبد الحق من هذا الأمر قائلاً إنه حادث عرضي، غير أنّ الأمير إنريكِه لم يعد يثق به فاستأذنه الخروج من ديوانه للعودة إلى إسپانيا. ملأت عودة الأمير قصر أخيه ملك قشتالة بالمخاوف والقلق ولم يتمكّن إنريكِه من إخفاء امتعاضه من مساعدة الملك ألفونسو لولاة مقاطعات مالقة ووادي آش وقُمارِش.

فأعرب عن مخاوفه من مجيء بني مَرين إلى إسپانيا واجتياحها أمام شقيقه، ولامه على إجبار ملك غرناطة على طلب مساعدتهم. غمر قلب الملك ألفونسو ابن فرناندو بعد كل ما ورد على لسان الأمير إنريكِه بالأسى حيث أعرب له الأخير أن هجوم البربر قريب لا محالة، فأرسل بالسّرّ رسائل إلى شقيقه فيليپو وغيره من الفرسان الذين لجأوا إلى غرناطة معرباً لهم عن رغبته في عودتهم إلى بلدهم قائلاً إنه سينسى كل المشاكل

وعدم التّوافق الذي حصل بينهم. وكشف لهم أنهم سيسدون له خدمة في حال تمكّنوا من إيجاد أيّة وسيلة للقاء بينه وبين محمّد ملك غرناطة.

في هذا الحين، كان هؤلاء الفرسان قد حصلوا على أرفع درجات التّقدير من قبل الملك محمّد، وبالتالي لم يكن لديهم أيّة صعوبة في إقناعه بما طلب منهم وبنُبل دوافعهم وصدق وعودهم، وقد منحهم ثقته وعرف أن توقعاته كلها سوف تتحقق. كان محمّد يرغب قبل كل شيء تأمين السّلام لأهل مملكته، لذا وافق على مقابلة ألفونسو ابن فرناندو ورافقه في بعثته أهم الخيالة من ديوانه والأمير فيليپيو والزّعيم دون نونيو ودون لوپ[1] Don Lop وغيرهم من نبلاء قشتالة فخرج من غرناطة ودخل مدينة قُرطُبة.

وضع الرّحال في هذه المدينة لأيّام، ثم تابع سيره نحو إشبيلية حيث استقبله الملك ألفونسو ابن فرناندو ممتطياً جواده على رأس وفود كبيرة أتت لاستقباله. واستضاف ملك قشتالة الملك المسيحي في قصره وطلب التحضير لاحتفالات خيالية على شرفه وجعله فارساً من كبار فرسان قشتالة. وقبّل ملك غرناطة وحضنه كأنه صديق له. وبفضل وساطه الأخير زالت كل الخلافات التي كانت في السّابق تلقي بطيفها على الملك والفرسان الذين كانوا في الدّيوان الملكي في غرناطة وانتهت بفضل تدخل محمّد. بالتالي، أعرب الكل له عن شكرهم لقاء كل الامتيازات التي حصلوا عليها، وكأنه كان السّبب في ذلك بعد أن أعاد العلاقات بينهم وبين عاهلهم.

وكان الملك محمّد في عزّ شبابه رجلاً حصيفاً متميّزاً في كل ما يقوم به، جذاباً أنيقاً في الحديث باللغة القشتاليّة، فلهذه المزايا كلها كانت الملكة يولانت وحاشيتها يعشقون التّحدّث إليه وكانت تدعوه لزيارتها باستمرار. وفي يوم من الأيام دخل الملك محمّد مصادفة إلى جناح الملكة في الحريم ففاجأته بطلب غريب لم يكن ملك غرناطة متحضّراً له كونه لم يتوقّع سماع مناقشة حول المصالح السّياسية في غرفتها. بدأت يولانت حديثها قائلة أنها ترغب في طلب رجاء منه وأملت ألا يرفضه كون الأمر

---

(1) لوپيث دياث Lopez Diaz. (فوستر)

برمّته يتعلق به. أجاب محمّد بلباقة فائقة مؤكّداً للملكة أنه سينفذ طلبها أياً كان. فرجته يولنت من قلبها أن يمنح ولاة مقاطعات مالقة ووادي آش وقُمارِش هدنة لمدة سنة، وأضافت أنه بعد انقضاء هذه المدة لا تشكّ أنهم سيتوصّلون إلى اتفاق ودّي. أخفى محمّد امتعاضه ولم يرفض طلب الملكة، غير أنه تأكد أن رغبة الصّليبيين كانت في إحراجه والسّيطرة عليه عن طريق إشعال فتيل الفتنة الدّاخلية كلما طاب لهم ذلك.

بعد بضعة أيام من هذه الزّيارة، وُضعت شروط سلام بين ملك غرناطة والملك ألفونسو، واتُّفق على أن يقوم أتباع كل ملك بالحفاظ على هدنة غير مشروطة مع الآخرين، وسوف يكون لديهم حرية وضمانات متساوية. والتزم محمّد أيضاً بدفع مبلغ سنوي بدنانير ذهبية كعربون شكر لخدمة هؤلاء الفرسان الذين منحهم والده ابن الأحمر إلى ملك قشتالة. وفي بحر هذه المفاوضات أدرج بنداً مفاده أن يُمنح الولاة المتمرّدون هدنة لمدة سنة، وفق طلب الملكة يولانت ووعد الملك محمّد لها. ثم استأذن ملك غرناطة من ألفونسو ومن الملكة ومن الأمراء أبنائه الذين كنّوا له فائق الاحترام والمودة. ورافقه كل من الأمراء دون فيليبيو ودون مانويل ودون إنريكِه إلى مَرشانة Marchena. ولقد جرى اللقاء بين الملكين في العام 671 هـ[1] في شهر رمضان.



(1) عام 1273 للميلاد. (كوندِه)

الفصل العاشر

إرسال ملك غرناطة رسائل إلى أبي يوسف ملك تونس للاستعلام عن شؤونه. أبو يوسف يعبر إسپانيا. نصره الأول. وفاة الأمير دون سانچو قتلاً بعد المعركة

وصل الملك محمّد إلى غرناطة وكان ممتعضاً بعض الشّيء من المباحثات التي أجراها مع الصّليبيين، ولم يُخفِ استياءه كونه لم يغتنم فرصة الدّخول إلى وادي آش وقُمارِش حيث أُجبر على الانتظار لمدّة سنة كاملة قبل بدء حرب جديدة على الشّيوخ المتمرّدين، في حين منحوا وقتاً كافياً للملمة خسارتهم وجمع جيوش جديدة. شعر محمّد أيضاً أنّ الملك ألفونسو ابن فرناندو يرغب في منح هؤلاء مساعدة عند انتهاء الهدنة كون ملك قشتالة قد أعرب عن مصلحته في إبقاء فتيل الحرب الأهلية. وبالتّالي ما كان من ملك غرناطة إلا الشّعور بعدم الامتنان. فبعد أن قام بحلّ كل الخلافات بين الصّليبيين قام هؤلاء ببذل ما في وسعهم للاستفادة من مشاكله الدّاخلية، ولم يمكّنوه من حلّها فقد وضعوا قراراً مجحفاً سوف تنتج عنه شرور كثيرة.

كان هذا القرار النّهائي الذي توصّل إليه الملك. وبعد التفكير بكل هذه الأمور لم يتمكّن من تخطّي فكرة أنه ظُلم في هذه المعاهدة فأرسل رسائل إلى أبي يوسف ملك المغرب وصف له فيها حالة مملكته، وشدّد على المآسي التي سبّبها له الولاة المتمرّدون الذين اقتحموا أراضيه وبطشوا فيها إلى أقصى حد، وأخبره أنّ قوات الأندلس تتقلّص يوماً بعد يوم، في حين أن بقاء الإسلام في البلاد قد صمد بفضل العناية والتصدّي اليومي للقوات المسيحية. وأضاف أن الانقسامات التي نتجت عن تمرّد الشّيوخ جعلت من المستحيل عليه جمع أعداد كافية من الجيوش للتّصدّي

لأيّ أعداء، وختم أن آمال الأندلس تعوّل على الملك أبي يوسف كونه الوحيد الذي يستطيع منحها المساعدة بالقدر المطلوب، وبأنه سيتمكّن بفضل مساندته هذه دون أدنى شك من إعادة الإسلام بسرعة إلى الأندلس.

وأعلن محمّد أيضاً عن رغبته في التخلّي عن مرفأي طريف Tarifa والجزيرة الخضراء لاستقبال سفن الملك يوسف والسّماح له بوضع جيوش له في القلاع المتواجدة فيهما وتقديم الأسلحة الحربية والذّخائر والمؤونة لهم. لم يُخفِ ملك المغرب امتنانه عند تسلم هذه الرّسائل وردّ دون تلكّؤ على محمّد وأرسل له على الفور سبعة عشر ألف جندي لدخول القلاع المذكورة، وأخذ أبو يوسف إجراءات لتحضير جيش لعبور المضيق معه.

دبّ الذعر والخوف في كل أرجاء إسپانيا بعد معرفة هذا الأمر، فسرعان ما شاع وصول الملك الأفريقي. وذُعر ولاة مقاطعات مالقة ووادي آش وقُمارِش بشكل رئيس كونهم سيكونون أول المستهدفين، فسارعوا إلى طلب لقاء مع الملك محمّد لوضع شروط توافقية، ولم يرفض الأخير الانصياع إلى مطالبهم. غير أنّ جيوش أبي يوسف كانت في هذه الأثناء تسير نحو أراضي مقاطعة مالقة وفق تعليمات الأمير. وبعد بضعة أيام وصل ملك المغرب بذاته على رأس جحافل من الجنود بأعداد هائلة للغاية فذهب ولاة الملك محمّد للقاء الملك الأفريقي ورافقوه حتى وصلوا إلى حضرة ملكهم.

ثم عرض أبو يوسف إجراء صلح بين الملك محمّد والشّيوخ المتمرّدين، غير أنّه قرّعهم على إساءتهم للإسلام وإنذارهم من مخاطر انقسام مستقبلي سيكون مؤذياً للغاية للأمة الإسلامية ولمصالحها. ونصحهم بالانضواء تحت لواء ملكهم ملك غرناطة الذي لا يستطيع الحفاظ على مملكته بوجه المسيحين دون اتحاد كل أفراد إماراته وطاعتهم. ثم عُقد مجلس عرضت فيه كل الوسائل المتاحة والحكيمة لدخول أراضي الصّليبيين دامت فيه المفاوضات طويلاً، وخلص المجتمعون إلى أن يقوم أبو يوسف بشنّ حملة على إمارة إشبيلية على أن يبدأ بتدمير الكروم والغلال في مقاطعة

إستجة Écija. وبدوره ينقض الملك محمّد برفقة خيالة يقودهم القادة يحيى وعثمان على أراضي جيان Jaén في حين يتوجه ولاة مقاطعات مالقة ووادي آش وقُمارِش نحو إمارة قُرطُبة.

دبّ الذعر في قلوب الصّليبيين بعد أن علموا بوصول أبي يوسف، فأطلقوا نذير الخطر في جميع حدودهم، ودعوا القوات المسلّحة إلى الدّفاع، وسرعان ما تمّت تعبئة كل جزء من إسپانيا. وتمكّن جنود الكفرة من التّجمّع بسرعة وسار الزّعيم دون نونيو قائد الحدود نحو إستجة حيث واجه القوات المسلمة، وكانت جيوشه من خيرة خيالة الصّليبيين وفيها فصائل من الجنود المخضرمة. ورُفعت رايات الجنود من الجهتين وأُعدّت العدّة لشنّ مواجهات، فأمر دون نونيو جنوده بضرب الجنود المسلمين على الفور، ولم يعرف ما إذا كان هذا القرار نابعاً عن ظروف قدري لا يمكن الفرار منه، أم عن ثقة كبيرة بالنّفس وكِبَر من قبل القائد حيث لم يكن بإمكانه رفض المعركة على حساب شرفه، خاصّة وأن أعداد المسلمين كانت تفوق أعداد الصّليبيين أقله بضعفين.

من جهته، أمر أبو يوسف جيوشه بالتّقدّم وكانت الأرض تتزلزل تحت أقدام المتحاربين، في حين كانت أصداء الأنين والصّراخ تملأ الجو وتتعانق مع أصوات الأبواق والطّبول. وسّع العرب نطاق الحرب بعد أن وصلوا إلى صفوف الغزاة ونجحوا في الإحاطة بالجيوش المسيحية. فما كان من هؤلاء الكفرة إلا الدّفاع عن أنفسهم ببسالة كبيرة، غير أنهم لم يتمكّنوا من خرق صفوف المسلمين، فهُزموا شر هزيمة ولم يتمكّن أحد منهم من البقاء على قيد الحياة، فمات القائد نونيو في ساحة القتال بعد أن حارب كاللّيث وقتل بحربته العديد من الخيّالة المسلمين. وأُحصي عدد القتلى الصّليبيين بثمانية آلاف على الأقل بقيت جثثهم في ساحة المعركة، ومن بينهم جثّة دون نونيو. وحدث هذا الانتصار الكبير مع بدء العام 672 هـ[1].

---

(1) أو قد يكون العام 675 فهو أحد الاحتمالات، حيث أن مخطوطات الكاتب قد تأثرت بموته غير المتوقع، وتعيد المراجع هذه الحرب إلى العام 675 وهو تاريخ وصول أبي يوسف إلى إسپانيا، كما أظهر كونديِه بذاته هذا التاريخ على أنه تاريخ أول إرسالية إلى البلاد على شكل ملخّص إضافة إلى الجزء الأخير للعمل قبلنا (انظر الجزء 3، فصل 58 ص 99). (فوستر)

بعث أبو يوسف برأس القائد المسيحي دون نونيو إلى الملك محمّد ملك غرناطة مع رسالة شرح فيها كل ظروف المعركة ووصف الانتقام الكبير للأمة الإسلامية، كما أضاف الملك الأفريقي أنه بعث برأس الكافر إلى الملك محمّد، غير أنه كان يفضّل أن يقدم إليه المسيحي حيّاً مربوطاً بسلاسل. فرح محمّد فرحاً شديداً لهذا النّصر الذي حقّقه جيش الإسلام، غير أنه أعرب عن حزنه لموت دون نونيو، وعندما أتى به الحراس في حضرته لم يتمكّن من رؤية المشهد الفظيع هذا فأغمض عينيه وقال: «ويلتاه يا صديقي المخلص، لو علمت ما ستقترفه يداي لما أقدمتُ على ذلك!». وفي الحقيقة كان دون نونيو صديقاً مخلصاً لملك غرناطة الذي كان يكنّ له كل تقدير.

عندما كان محمّد في قُرطُبة وإشبيلية، كان دون نونيو باستمرار برفقته حيث حلّ عليه ضيفاً في ديوانه الملكي في غرناطة وبادله كل مودّة. وبالتّالي أمر محمّد أن يدهن الرّأس بالعطور ويوضع في صندوق من فضّة وأن يرسل إلى قُرطُبة ليلقى الشّهيد مأتماً مشرّفاً.

في اليوم الذي تلا المعركة التي دارت أحداثها كما أشرنا، بدأ ملك المغرب حملة لحصار مدينة إستجة Écija، غير أن الجيوش المسيحية دافعت عن المدينة جيداً فأجبرت الجيوش العربية على عدم تجديد محاولة الاقتراب من بابها بعد المحاولة الأولى، حيث تكبّدوا خسائر فادحة في عداد المقاتلين المسلمين الذين سقطوا بسهام الكفرة، فأُجبر أبو يوسف على وضع معسكره على مسافة بعيدة من المدينة، غير أنه أرسل أتباعه بعيداً وعلى نطاق واسع فامتدّت اجتياحاته للأراضي في كل أنحاء إمارة قُرطُبة. وقطع الوادي الكبير Guadalquivir وأزال كل الحقول التي زرعها الصّليبيون متوقعين هجوم الجنود المشاة القطالونية على طول ضفة النّهر. ثم نقل ملك المغرب معسكره إلى موضع يقع على نصف الطّريق بين پالما وإستجة.

في هذه الأثناء، كان محمّد ملك غرناطة قد دخل على رأس جيش كبير وقوي أراضي جيان Jaén واجتاح مناطق الحرف ومارتوش وتركهما مدينتي أشباح بعد أن أسر العديد من النّساء والأطفال وأحرق كل المروج. ثم انضمّ إلى الملك ولاة

مقاطعات مالقة ووادي آش وقُمارِش وقادة بسطة Baza وأندرش Andarax. وبقي هؤلاء برفقة جنود أفارقة يقودهم عثمان ويحيي في ضواحي مارتوش لحراسة الثّروات والغنائم والقطعان التي غنم بها الإسلام.

من جهتهم، تجمع الصّليبيون من طُليطلة وقلعة رباح Calatrava ومن مناطق أخرى في إسپانيا بقيادة دون سانچو[1] الذي سرعان ما لحظ ضخامة الجيوش التي أتى بها الملك الأفريقي إلى إسپانيا. غير أنه هرع إلى ساحة القتال بحماسة الشّباب دون أن تكون لديه الخبرة الكافية للقتال. وكان شغف النّصر يملأ قلبه فسار على رأس جيوشه ولم يتحلَّ بالصّبر الكافي لانتظار اكتمال كل عديد الخيالة، فانقضّ على جيوش المسلمين بشراسة لا توصف.

غير أن الخيّالة العرب هاجموا جيوش الصّليبيين بشراسة لا توصف، وتمكّنوا من حصاره مع جيوشه فقتلوهم بالحراب كلهم. واقتيد الأمير الذي كشفه زيّه حياً. فدار سجال حول أيّ من الأطراف أولى بأسر المعتقل وإلى أي منهم سوف يُرسل، فالأفارقة ردّوا الانتصار هذا لأنفسهم بتعجرف كبير وأعلنوا بكل جحود أنه لولا مساندتهم لما كان أبناء غرناطة قادرين يوماً على دخول المدينة ورؤية نهرها. شعر الأندلسيون بإهانة من هذا التّصريح فامتطوا خيولهم، وكانت ستدور معركة شرسة لولا أن أقدم الرّيّس[2] ابن النّصير Aben Anasir وهو من خيالة الدّيوان الملكي في غرناطة بغرس حربته في قلب دون سانچو هاتفاً: «معاذ الله أن يموت مئات الخيالة لكلب مثله».

سقط دون سانچو على الفور أرضاً وفارق الحياة، فقطع المنتصرون رأسه ويده اليمنى وتقاسموهما فيما بينهم، حيث أخذ الأفارقة الرّأس وأعطوا الأندلسيين اليد مع الخاتم. في اليوم التالي طالعت الجيوش المسيحية التي أرسلها ملك قشتالة ألفونسو

(1) يطلق بعض الكتّاب الإسپان على دون سانچو وكذلك الكتّاب العرب اسم ابن ألفونسو الأصغر، وفي هذه الحال كان من المفترض أن يكون الابن الطّبيعي له حيث أن ابن ألفونسو الثّاني سانچو الباسل، كان من خلفه على العرش وسوف نأتي على ذكره فيما بعد. (فوستر)

(2) الرّيّس هو القائد أو الكاپيتان بالإسپانيّة.

ابن فرناندو[1] الجيوش المسلمة، وكانت نار الانتقام لموت دون سانچو[2] تأكل قلوبهم، فانقض الكفار على المؤمنين بكل شراسة. ودارت معركة دامية عنيفة سقط فيها مئات القتلى من الجيشين قرب قلعة الصّحارى Assahara. غير أن المسلمين تمكّنوا من التّماسك والإبقاء على معسكرهم ومنعوا الصّليبيين من اجتياحه ومن التّراجع مع الغنائم على الرّغم من كل محاولات الكفرة لاستردادها.

* * *

(1) يسمّى بالإنكليزيّة فرديناند. (فوستر)

(2) أطلق عليه لقب خطيب إشبيلية القاضي اسم ابن ألفونسو - كوندِه (انظر الملاحظة ص 177).

الفصل الحادي عشر

معاهدة أبي يوسف ملك المغرب مع ألفونسو ملك قشتالة. حصار ألفونسو للجزيرة - معاهدة أخرى بين ألفونسو وأبي يوسف - لقاء بين ملك غرناطة والأمير سانچو - والد الأخير يرفع السّلاح ضده - موت ألفونسو

في هذه الأثناء كان ملك المغرب أبو يوسف يوسّع زحفه داخل إمارة إشبيلية، غير أنه تبلّغ أن الصّليبيين أعداءه يقومون بحشد جيش كبير من كل المحافظات وسفن لإعاقة عودته إلى أفريقيا، فتراجع نحو الجزيرة الخضراء آخذاً معه غنائم وأسرى بالمئات. وكانت سفن الصّليبيين مرابطة في المضيق الذي يفصل منطقة الإسلام عن منطقتهم، وكان من المستحيل عليهم قطع السّاحل المقابل. وعانت القوات من شحّ المؤن والذخائر لذا قرّر الملك الأفريقي بدء مناقشات مع الملك ألفونسو خوفاً من انهيار جيشه ووافق على هدنة لمدة سنتين.

وقّع الملكان على هذه المعاهدة وسرّا بها، ولكنها كانت غير مرضية لمحمّد ملك غرناطة، حيث أنّ أبا يوسف لم يبلغه قط عن نواياه هذه ولم يقم باستشارته. ولم تكن تلك الخطوة على مستوى النُّبل الذي لطالما اشتهر به الملك الأفريقي. وفور علمهم بالمعاهدة المبرمة بين أبي يوسف وألفونسو قام ولاة مقاطعات مالقة ووادي آش بالتّراجع نحو مدنهم. من جهته أكدّ والي مقاطعة مالقة من جديد ولاءه للملك ألفونسو معتذراً عمّا صدر عنه مؤخراً، زاعماً أنه أجبر على ذلك بقوة من قبل الملك أبي يوسف، وأعلن أنّ القوات التي قادها جاهزة الآن للقتال إلى جانب ألفونسو ووفق توجيهاته وأنه سيخضع له تماماً.

وجّه ملك غرناطة كل تفكيره نحو تحصين حدوده وحضّر جنوده وجهّزهم للقتال كونه أصبح يشكّ بأبي يوسف بعد أن شعر أنه لا يمكنه الوثوق به، كونه لا يهتم إلا بمصلحته الخاصة فقد نسي صداقته وقابل انفتاح ملك غرناطة بعدم الاكتراث سوى لمخططاته. واقتنع محمّد أنه في كل الحالات لا يمكنه الوثوق بآدمي بل بخالقه وحده فهو الحامي الفعلي.

حزن الملك حزناً شديداً على تسليم مرفأي الجزيرة الخضراء وطريف Tarifa كونهما مفتاحين أساسيين في مملكته. وانقضت سنتان من بدء الحرب جرت فيها بعض الخروقات على الحدود المسيحية من قبل القوات العربية وقوات غرناطة، وأخرى مقابلة. انشغل الملك محمّد في هذه الأثناء بالتّحضير للأشياء الضّرورية لإعادة بدء الهجمات وساعده في هذه الأمور كبير الوزراء عزيز بن عبد المنعم من مدينة دانية Dénia. وكان الوزير يمضي وقت فراغه معه بالحديث عن الشّعر والبلاغة الذين أجادهما.

وكان هناك تشابه هائل بين محمّد ملك غرناطة ووزيره، فقد كانا من السّن عينه ولديهما نفس الصّفات النّبيلة إضافة إلى مزايا العلم والذّكاء والذّوق الرّفيع. وكانا رجلين أنيقين يظهران في جميع المناسبات سوياً، وعامّة كانا يعطيان محاضرات معاً ودعيا إليها رجالاً آخرين معروفين في الأندلس. وكان قصر الملك مفتوحاً لكل من تمكّنوا من كسب مكانة ما بفضل معرفتهم من فلاسفة وفيزيائيين وعلماء فلك وفقهاء وغيرهم من العلماء.

في هذه الأثناء، ألقى ألفونسو ملك قشتالة حصاراً على مرفأ الجزيرة الخضراء بحراً وبراً، وحافظ قادته على هذا الحصار بصرامة استثنائية في حين كانت جنوده البرية تدكّ المكان بالمعدّات الحربية والأسلحة. ممّا أرهق المدافعين الذين لم يعرفوا طعم الرّاحة لا ليلاً ولا نهاراً. من جهتهم لم يتوانَ المسلمون عن القيام ببعض الهجمات، وحاربوا ببسالة جنود الملك المسيحي ودارت بينهم معارك دامية أهرقت دماء شهداء كثر من المعسكرين.

حالت قوات ملك قشتالة دون وصول أيّة مؤونة إلى المرفأ، وسرعان ما شعر المحاربون والسّكان بشحّ في الأغذية وسواها من المواد، غير أن الكفرة في الوقت عينه كانوا بحاجة إلى المؤونة فشعروا بنفس الحرمان ممّا تُرجم بنقص في الإرادة في المدافعة مع طول وقت الحصار. وأصيب جنود السّفن بالأمراض من جراء التّعب والحرمان، وضاق بهم الأمر حتى اضطرّوا إلى مغادرة سفنهم بأعداد هائلة ونزلوا إلى اليابسة دون أيّة دفاعات. في هذه الأثناء كان الملك أبو يوسف في أفريقيا، غير أن جواسيسه كانوا قد أبلغوه عن الضّعضعة التي سادت في صفوف الصّليبيين، فأمر أبو يوسف بإبحار أربع عشرة سفينة مدجّجة بالأسلحة والجيوش للانقضاض بشكل مفاجيء على سفن الصّليبيين المتروكة بغير حول وقوة. فأبحروا من مرفأ طنجة وكان لديهم أوامر بإحراق السّفن بكل ما فيها، وحصل الأمر كما تمّ التّخطيط له ورقصت قلوب المحاصَرين فرحاً في حين غصّت قلوب الصّليبيين بالألم والغضب.

ثم انقض المسلمون على السّفن دون أن يواجهوا مدافعة من الصّليبيين سوى قليلاً فكانت مفاجأتهم كبيرة وتمكّنوا من إرساء سفنهم فذبحوا كل فرد وقع نظرهم عليه وأحرقوا بعدها كل ما بناه الكفرة للعناية بمرضاهم. وبهذه الطّريقة تمّ إنقاذ الجزيرة الخضاء برعاية من الله بعد أن كانت على وشك السّقوط، وتمكّنت مجموعات صغيرة من المسلمين من تدمير أعداء الإيمان وحسّن ذلك بشكل كبير وضع السّكان الذين تمكّنوا بين ليلة وضحاها من الخروج من وطأة الذلّ إلى الحرية، وحدثت هذه المعارك في اليوم 15 من شهر رجب أول سنة 678 هـ.

سرعان ما وصل الصّليبيون الذين تمكّنوا من الفرار من المعسكر إلى مدينة إشبيلية والحقد والرّعب يملأ قلوبهم. ووصل خبر هذا الانتصار إلى ملك المغرب أبي يوسف الذي رضي تماماً عمّا حصل فسارع في إرسال المؤونة إلى أهل الجزيرة الخضراء من كل نوع والأسلحة الحربية بوفرة كبيرة. وأمر الملك الأفريقي بإنشاء مدينة جديدة على الفور مكان المعسكر المسيحي، وأعرب عن رغبته في مباشرة بدء الأعمال بنفسه. وعندما علم ملك قشتالة بهذا الأمر لم يكن مسروراً أبداً فأرسل برسالة إلى الملك أبي

يوسف ملك تونس اقترح فيها شروطاً للسّلام وعقدا معاهدة على هذا الأساس. ثم قاد ملك غرناطة جنوده نحو الحدود مع الصّليبيين وقطع الحدود قرب مارتوش وحرق كل البساتين وأخذ المواشي ودمّر كل أراضي إستجة Écija وقُرطُبة.

لم يتأخّر ألفونسو في جمع جنوده مصراً على قيادتها شخصياً، فترك المدينة وخرج على رأس جيشه نحو قلعة بني سعيد حيث أصيب بمرض في عينيه أجبره على التنحّي عن إمرة جنوده والتّراجع، فأرسل مكانه ابنه الأمير دون سانچو الذي هاجم المدن المجاورة ودمّر حقول الزّيتون والكرمة.

أمر الملك محمّد بوضع كمين قرب حصن موكلين Moclín وأبلغ جنوده عن وجوب الانسحاب قبل وصول جيوش العدو لدفعهم للدّخول إلى المدينة والتوجّه نحو الحصن للوقوع بين يديه. وجرى الأمر كما أراده، حيث ابتلع الصّليبيون الطّعم ولحقوا بالجنود المسلمين ظناً منهم أنهم يلحقون بفارّين بكل عزم وطمأنينة. وعند وصولهم إلى المنطقة المحدّدة انقض الملك محمّد على أعدائه بكل وحشية وأباد كل جندي مسيحي من بينهم كبار الفرسان، وكانت حصيلة الصّراع أكثر 2800 قتيل تركوا في ساحة المعركة طعاماً للطّيور الكاسرة ووحوش البراري.

وأكمل المسلمون على كل من حاول الفرار، فأنشبوا حرابهم في أعناقهم ولحقوهم حتى معسكر الكفرة. برهن الأمير دون سانچو عن بسالة عالية في هذا اليوم، حيث شوهد وهو يحارب في صفوف جنوده بشجاعة الأسد. غير أن ملك غرناطة أجبره على التراجع إلى داخل حدود أراضي والده. ووقعت هذه المعارك مع بدء العام 679هـ.

في السّنة التالية، قرّر الكفرة الانتقام ممّا ألمّ بهم فجمعوا جيشاً كبيراً واقتربوا من مشارف غرناطة. غير أن الملك محمّداً كان متحضّراً لهذا الهجوم تماماً. فزحف على رأس جيش يعدّ 50 ألف جندي مدرّب بثبات نحو جنود العدو ودارت بينهم معارك ضارية. برهن الأمير دون سانچو في هذه الحملات أيضاً عن بسالة كبيرة وعن تحكّم شديد بفنون القتال، غير أنه أُجبر مرة أخرى على الانسحاب بعد خسارة كبرى وعلى العودة إلى داخل حدود قشتالة.

في هذه الأثناء كان الأمير دون سانچو على خلاف مع والده ملك قشتالة حول مواضيع محدّدة، فأرسل إلى محمّد ملك غرناطة عارضاً عليه صداقته مقترحاً إبرام معاهدة ضد العالم بأثره. وتنازل عن قلعة أريناس لمحمّد بعد أن أخذها الملك ألفونسو من المسلمين. والتقى ملك غرناطة والأمير دون سانچو في پرييغو وعقد بعدها الصّديقان القديمان معاهدة نصّا بموجبها على كافة المسائل التي وافقا عليها سوياً، ثم انفصل الأميران ليعدّ كل منهما العدة للحرب التي سيقومان بشنّها.

فور معرفة الملك ألفونسو بهذا الاتفاق وباللقاء الذي جمع ابنه مع ملك غرناطة، جنّ جنونه غير أنّه لخفض وطأة المفاجأة كتب إلى أبي يوسف ملك المغرب طالباً مساعدة الملك الأفريقي ضدّ ابنه المتمرّد دون سانچو. فردّ عليه أبو يوسف الذي كان منهمكاً ببناء المدينة الجديدة بالإيجاب وأرسل كتيبة قوية من الخيّالة لمساندة الملك ألفونسو، سرعان ما لحقت بها كتائب أخرى من الجنود.

اتّحد كل من جيش الملك الأفريقي وجيش قشتالة، وأعدّوا العدة لمهاجمة دون سانچو الذي حصّن مدينة قُرطُبة واحتمى داخلها. ألقى الملكان ألفونسو وأبو يوسف حصاراً دام شهراً على الأمير حيث هاجما المدينة بالأسلحة والآلات الحربية الرّهيبة، غير أن دون سانچو تمكّن من الدّفاع عن ذاته بكل شجاعة ولم يتمكّن الملكان من كسر عزيمته.

بعد انقضاء شهر من بدء الحصار، علم أبو يوسف وملك قشتالة أنّ محمّداً ملك غرناطة يقترب من جنودهم بكل ما أوتي من قوّة، فرفعا الحصار وزحفا داخل مدينتي أندوجر Andujar وجيان Jaén. وتواجهت قوّات الملكين قرب مدينة أبذة مع جيوش محمّد ودارت معارك ضارية نجح فيها فرسان ملك غرناطة بالتّقدّم مُجبرين ألفونسو وأبا يوسف على التراجع قبل النّجاح في حصار المدينة أو القلعة أو أخذ الغنائم أو الأسرى.

في هذه الأثناء عقد ملك المغرب العزم على العودة إلى الجزيرة الخضراء، وترك ألفونسو ملك قشتالة الذي أُجبر بدوره على العودة إلى إشبيلية، ثم ترك أبو يوسف

الجزيرة الخضراء وعاد إلى أفريقيا نحو مدينة طنجة. غير أنّ الرّغبة في الانتقام من خسارته السّابقة ومعاهدات الملك ألفونسو الكثيرة سيطرت على الملك الأفريقي الذي رغب من جديد بدخول الأندلس. فجمع جنوده وخيّالته لشنّ حرب على الملك محمّد ودون سانچو، واصطحب معه ابنه أبا يعقوب وتوجّها معاً إلى إشبيلية حيث لاقاهما الملك ألفونسو بكل حفاوة وتباحثا معه حول سُبل شنّ الحرب هذه.

خلصت المناقشات إلى انقضاض الملك أبي يوسف على أراضي محمّد ملك غرناطة مع قسم من جنوده وألف جندي من فرسان الصّليبيين من جيش الملك ألفونسو. وهكذا كان فسارت الجيوش وفق ما اتُّفق عليه وتلاقت مع قوات الأمير دون سانچو على مسافة غير بعيدة من قُرطُبة حيث هُزم الأمير وأُجبر على التّراجع إلى داخل المدينة. أسر الصّليبيون عدداً كبيراً من الجنود وأرسلوهم إلى إشبيلية ومعهم رؤوس العديد ممّن لاقوا حتفهم خلال المعارك من قادة فرسان دون سانچو، ففرح ملك قشتالة للغاية عند رؤية هذا المشهد.

في غضون ذلك، سار محمّد ملك غرناطة ضدّ جنود أبي يوسف وتلاقت جنوده وجنود الملك ألفونسو وأبي يوسف وأبي محمّد عبد الله والي مقاطعة مالقة المتمرّد الذي انضمّ إليهما. غير أنّ أبا يوسف وحلفاءه في هذه المعركة لم يتمكّنوا من كسبها على أعدائهم وكان صراع جبابرة دارت فيه مجابهات ضارية، غير أنها لم تصل قطّ إلى مرحلة الحرب ولم يتجابه الجيشان. كان المسيحيون الذين كانوا يحاربون في جيش الحلفاء إلى جانب أبي يوسف سيبذلون ما في وسعهم ويحاربون بكل شجاعة، لكنّ ملك المغرب لم يسمح لهم بذلك فقد أراد أن يخوض الحرب بأقلّ عدد ممكن من الإصابات.

بضربة حظ صدف أن أصبح هؤلاء الصّليبيون مستائين ونفد صبرهم بفعل المحظورات التي فُرضت عليهم، فانسحبوا من عداد القوات وعادوا إلى إشبيلية حيث نجحوا في تحريض ألفونسو ضد أبي يوسف، وتمكّنوا من جعل الصّداقة بين الملكين تصل إلى شفير الهاوية. فقد استبدل ألفونسو ثقته في نيّة أبي يوسف الحسنة بالشّك

وعدم الثّقة، فأبلغه فرسانه أنّ ملك المغرب رفض السّماح لهم باجتياح الحقول وتمتّع وحده بالمحصول والغنائم. كما لم يمكّنهم من حرق القرى أو ذبح سكانها حيث كانت رغبته الوحيدة تجريدهم من كل ما يملكون. وجاء حديثهم ليؤكّد أنّ أبا يوسف لم يشنّ حرباً ضدّ ملك غرناطة عن قصد أو بأي حال كان يودّ بكل ثمن الحفاظ على مصالحه الخاصة والتظاهر أنه حامي الصّليبيين وحليفهم، ممّا يشير ضمناً إلى أنّ أبا يوسف كان يأمل الحكم على الأندلس.

بعد أن تمكّن الفرسان من إدخال هذه الأفكار في عقل الملك ألفونسو، قام الأخير بإرسال رسائل مفعمة بالأسى إلى أبي يوسف معرباً فيها أنه على وشك مغادرة إشبيلية حيث أنه لا يعتبر أنّ إقامته في هذه المدينة بعد اليوم آمنة، وبأنه لا يرغب في البقاء بجوار أعدائه، لأنه يعي أن من كانوا رفاقاً له تخلّوا عنه أو على الأقل كانوا يهملون القيام لأجله بما كان ينتظره منهم فعلاً. ثم ختم قائلاً إنّ أسفه شديد إلى درجة أنه لم يظنّ يوماً أنّ أبا يوسف سيكون خائناً أو يطعنه بظهره.

كانت دهشة ملك المغرب كبيرة عند قراءة رسالة الفونسو، وكان حينها في طريق عودته إلى الجزيرة الخضراء، فبعث برسائل إلى ألفونسو يطمئنه فيها ويؤكد له أن لا داعي للشّك في صدق نواياه ويحمله على عدم ترك الشّك يدخل إلى قلبه، وقطع له وعداً طالما أنه حيّ أنه لن يشكّ فيه بل على العكس سوف يقوم في كل وقت بمساعدة ألفونسو على النّصر على أعدائه وتمكينه من العيش بسلام وطمأنينة. ثم أكّد أبو يوسف لملك قشتالة أنّ ملك المغرب من سلالة ملوك بني مَرين الذين اشتهروا بحمايتهم إلى أقصى حدّ لأصدقائهم، حتى أنهم لا يتوانون عن الموت في سبيل الدّفاع عنهم وأنه رجل فعل لا كلام فقط.

خرج ملك المغرب إلى الجزيرة الخضراء، وبعد وقت قصير مرض الملك ألفونسو وزاد حزنه الدّاخلي وألمه وشارفت أيامه على النّهاية. كان الملك رجل منطق مقنع للغاية وكان فيلسوفاً معروفاً ملمّاً بالرّياضيات وفلكيّاً[1] متمرّس. وكان أول من وضع

---

(1) أي عالم فلك. (فوستر)

جداول الفلك التي تحمل اسمه والمعروفة بالألفونسين[1].

إلى ذلك كان ألفونسو إنساناً صادقاً لبقاً صديقاً لجميع من حوله، أمضى حياته مع المثقفين أكانوا مسيحيين أو مسلمين أو يهوداً، وكان يستقبلهم بكل حفاوة كل مرّة. غير أن حكمه لم يكن سعيداً، فقد عانى كثيراً من عداوة الأبناء أو الأشقّاء الذين شنّوا ضدّه حروباً ولم يسمحوا له إلا بالقليل من الرّاحة.

* * *

(1) تُعرف بالإسپانيّة باسم: Tablas alfonsíes. (أحمد)

الفصل الثّاني عشر

اجتماع الملوك المسلمين والولاة. موت أبي يوسف ملك تونس. فتح دون سانچو لمقاطعة طريف بعد حرق فصيلة فرسان أبي يعقوب

خلف دون سانچو ألفونسو ملك قشتالة في الحكم، وأرسل إليه محمّد ملك غرناطة على الفور مُعرباً له عن أحرّ التهاني. وبايعت كل مدن قشتالة الدّون سانچو ملكاً عليها وأقسمت الطّاعة له، ودعم الملك الجديد مكانته عن طريق تأكيد صداقته مع ملك غرناطة محمّد ومعاهداته معه. حزن أبو يوسف ملك تونس كثيراً على وفاة الملك ألفونسو، فأرسل رسائل عزاء إلى دون سانچو حملها إلى الرّيّس عبد الحق، أعلن فيها عن رغبته في إرساء أسس سلام مع دون سانچو مشيراً إلى أن صديق والده يمكن أن يكون صديقاً له أيضاً، حيث أنه أصبح بدوره ملكاً وطلب منه أن يبلغه عن شروطه للصّلح.

أجاب ملك قشتالة الجديد على هذه الرّسالة بالآتي: قل لملكك أنه حتى الحين لم يتوقف فرسانه عن اجتياح أراضيّ وأنا مستعدّ للقتال أو الصّلح، فلندع الملك يختار بذاته ما الذي يريده أكثر[1]. كان استهجان أبي يوسف كبيراً لهذا الرّد فأرسل قادته إلى سيدونيا (شذونة) والقلعة وخيريث Jerez (شريش) لاجتياحها وفعلوا ذلك دون أن تأخذهم بها رحمة كالصّاعقة.

ثم جمع الملك دون سانچو جيشاً كبيراً مؤلفاً من فرسان مسيحيين ومسلمين على حدّ سواء، وسار ضد جنود أبي يوسف الذي ألقى حصاراً على مدينة خيريث وأرهقها

(1) يقول المؤرخون إن الكلمات الفعلية التي استخدمها دون سانچو كانت التالية: باليد الواحدة أمسك خبزي وفي الثانية سيفي، فليختر سيّدك منهما ما يشاء. (كوندِه)

للغاية. غير أنّ ملك الغرب أخذ علماً بأنّ القوات الهاجمة أصبحت على مشارف المعسكرات التي يقودها ابنه أبو يعقوب، ولم يكن ينوي المغامرة في معركة مع جنود يحاربون بإصرار إلى جانب قائد يافع لا مع لا يخيفه أي شيء.

فتراجع أبو يوسف نحو الجزيرة الخضراء، وأرسل إلى ملك غرناطة محمّد طالباً عقد لقاء معه، وأكّد له أنه لم ينوِ قط التّدخّل في شؤون إسپانيا ولم يكن أبداً يودّ إلحاق الأذى بالمسلمين إخوانه. وأضاف أنه يودّ حلّ أيّة نزاعات فيما بينهم قبل العودة إلى أفريقيا، مشدّداً أن الخلاف بينه وبين الملك محمّد سوف يؤدي إلى إلحاق الأذى بمملكة كل منهما. وختم أبو يوسف منوّهاً أنه في حال كان لدى الملك أيّ خوف على سمعته كمسلم صالح فعليه المجيء بسرعة إلى الجزيرة الخضراء للاجتماع به، أو يختار أي مكان آخر وفق ما يناسبه، على أن يحضر كلّ من ولاة مقاطعات مالقة ووادي آش وقُمارِش هذا اللقاء، وأن تُحلّ كافة المسائل بين أهل الإيمان.

قَبِل محمّد ملك غرناطة اقتراح أبي يوسف بكل ترحاب، وأجاب أنه سيحضر للتوّ إلى الجزيرة الخضراء وسارع في القيام بذلك. تلاقى الملكان، وسرعان ما انضمّ إليهما كل الولاة وأبو يعقوب بن أبي يوسف. استهلّ ملك المغرب الحديث موضحاً خطورة الموقف والحاجة إلى إجراء صلح بين الأمراء المسلمين. ورجا الحضور التذكر أنّ في الاتحاد قوة وأنّه أي الاتحاد سيمكّنهم من الوقوف بوجه الصّليبيين أعدائهم الطّبيعيين، في حين أن خرق الصّفوف والفتن والعداوة بينهم لن تؤدي إلا إلى هزيمتهم بوجه قوات الكفرة.

وأشار موجّهاً حديثه إلى ملك غرناطة خاصّة أنه بصفته الملك المسلم الأقوى مدعوّ لحماية إخوانه في الإسلام ومصالح أراضيه. ورجا أمة الإسلام عدم الوثوق بصداقة ملك قشتالة فالسّوسة تنخر دائماً العظام والذئاب تنقضّ على الدّوام على الخرفان، وكذلك الصّليبيون لن يتركوا أبداً أمّة الإسلام بسلام، وسوف يبحثون دائماً عن سُبل لمناهضها ولإدخال الفتنة فيما بين أبنائها كلّما تمكّنوا من ذلك.

وصرّح قائلاً إنّ الكفرة عقدوا سلاماً مع المسلمين فقط كونهم كانوا على دراية

أنهم غير مهيّئين لشنّ حرب في هذا الوقت، وأنهم لم يفكّروا في كل معاهدة أبرموها سوى بمصالحهم ومخططاتهم فقط وليس بالويلات التي ترافق الحروب، ولم يعملوا أبداً يوماً من منطلق الإنسانية والشّهامة.

ثم قال لولاة مقاطعات مالقة ووادي آش وقُمارِش إنه من الضّروري أن ينضووا تحت طاعة ملك غرناطة وولائه، حيث أنهم لا يستطيعون بمفردهم الدّفاع عن إماراتهم. وردّ الولاة على ذلك قائلين إنهم لم يحضروا إلى اللقاء بهدف السّماح لأيّ رجل بتجريدهم من ممتلكاتهم، ولكن للاتفاق على أُسس سلام وصلح بينهم وبين إخوانهم في الإيمان. ولحظوا أنّ الملك أبا يوسف استهلّ خطبته داعياً الكلّ إلى جمع الشّمل مقترحاً اقتراحات حذرة وتنصبّ في مصلحة الأمّة، غير أنه أنهاها بشكل سيء للغاية. وأعلنوا أنهم على استعداد للاتحاد مع أيّ أمير مسلم يودّ شنّ الحرب على الصّليبيين، غير أنهم لن يسمحوا لأحد بالهجوم عليهم والقضاء عليهم، معلنين أنهم في هذه الحال سوف يلجأون إلى أيّة قوة يعتبرونها قادرة بشكل كافٍ على حمايتهم.

وأشار الملك محمّد بدوره إلى أن مصلحته الأولى هي نصر الإسلام، وأنّ كافة الإدلاءات التي قام بها الملك أبو يوسف مبنية على أساس العقل والحذر، وأنّ التّاريخ والخبرة يؤكّدان ما قاله. وانتهى اللقاء دون أن يتم التّوصّل إلى أيّ حل أو نتيجة. وشعر الولاة في هذه الأثناء باستياء من حديث الملك محمّد الذي أظهر عدم اكتراث أكثر من رغبات الملك أبي يوسف المبطنة. فعقدوا معاهدة سرية مع الملك أبي يوسف، مُعربين عن رغبتهم في إطاعته وتسديد الجزية له.

شعر أبو يوسف بسعادة شديدة من هذا الاقتراح، وخرج إلى مقاطعة مالقة برفقة أبي محمّد عبد الله واليها، وحاول إقناعه بشتى الطّرق والوعود (أو وفق ما ورد عن مراجع أخرى عقد معاهدات بهذا الشّأن)، فتنازل له أبو محمّد عبد الله عن ولايته لمقاطعة مالقة، وسيطر عليها ملك المغرب مباشرة مع حلول العام 679 هـ. ثم أوكل أبو يوسف الحُكم إلى قائده عمر بن محلي البطوي El Batuy، وبهدف تجنّب كل صيغ الخلاف

أو الانشقاق التي قد تظهر أرسل أبو محمّد عبد الله الوالي السّابق لمقاطعة مالقة إلى أفريقيا، حيث أعطاه حصن كتامة في المغرب وغيره من الأملاك الثّمينة كتعويض عن أراضيه في إسپانيا.

فور معرفة ملك غرناطة بالمعاهدات السّرّية التي أبرمها أبو يوسف والولاة، غمره الحزن والأسى خاصّة بعد أن علم أن ملك المغرب سيطر على مقاطعة مالقة. شعر محمّد بألم كبير بعد أن أصبحت جواهر مملكته التي انتهكت طويلاً على يد الكفرة وغيرهم في أيدٍ أقوى من يديه. غير أنه قام بما في وسعه لإخفاء ألمه وقرّر توثيق صداقته مع دون سانچو ملك إشبيلية، آملاً أن يكون الوقت والظّروف كافيين لإيجاد علاج لهذه الأوضاع المؤلمة التي يعاني منها.

خرج أبو يوسف من مقاطعة مالقة إلى الجزيرة الخضراء، غير أنه فور وصوله إلى القلعة شعر بمرض شديد وازداد مرضه حتى وصل إلى شفير الموت. وانتقل إلى رحمته تعالى في الخامس من شهر صفر من العام 685 هـ. استلم أبو يعقوب المُلك مكان والده أبي يوسف الذي كان حينها في الجزيرة الخضراء، غير أنّه سرعان ما عبر البحار عائداً إلى المغرب حيث نُصّب ملكاً ثم أقسم اليمين وحصل على طاعة كل المقاطعات. وعندما انتهت مراسيم الاحتفال بإعلان أبي يعقوب ملكاً عاد الأخير إلى إسپانيا حيث لاقاه ملك غرناطة لمواساته على مصابه. والتقى الملكان في مارتلة Mértola وأكّدا مجدداً معاهدة الصّداقة التي تجمع بينهما. تم طلب ملك غرناطة من أبي يعقوب ألّا يساعد أو يحمي واليي وادي آش وقُمارِش اللذين كانا يسعيان إلى خلق الفتن بين مسلمي الأندلس. عندها ردّ أبو يعقوب عليه ناصحاً إيّاه بالتّحايل عليهما عوضاً عن مجابهتهما بقوة السّلاح، وأعلن أن الشّرور والويلات التي تنتج عن الخلافات بين الكبار عامّة ما تنتهي بتحطيم الفريق الأضعف.

ونصح ملك غرناطة أبا يعقوب أن يبدأ بالتفاوض مع ملك قشتالة لإرساء أُسس سلام لما في مصلحة كلّ الأطراف. وبما أن ملك المغرب كان يودّ الإعراب عن امتنانه لمحمّد، فقد أرسل مبعوثين إلى دون سانچو ليبلغه أنه يودّ السّلام واستقبلهم ملك

قشتالة بكل ترحاب. ثم عاد أبو يعقوب إلى أفريقيا لإنهاء الحروب التي بدأها، وحقّق بإذن الله انتصارات عديدة. وبعد حصار طويل تمكّن من السّيطرة على مدينة تلمسان Telemcen وبقي فيها لمدة طويلة منهمكاً بكافة الأعمال لتنميق المدينة، وأمر ببناء أحواض المياه والحمّامات والجوامع.

بعد خروج ملك تونس من الأندلس وعودته إلى أفريقيا، وجد محمّد ملك غرناطة السُّبل لكسب ثقة والي مقاطعة مالقة عمر بن محلي البطوي بعد أن أغرقه بالهدايا الثّمينة، وعلى الرّغم من أنه يحكم مقاطعة مالقة لحساب ملك المغرب أبي يعقوب فإنّه لم يتورّع عن قبول الهدايا من محمّد ومنها قلعة شلوبانية على أمل أنه سيصبح من أتباع ملك غرناطة، وحصل ذلك بالفعل. وفي الوقت عينه أرسل محمّد قائد أندرش Andarax للتّفاوض مع دون سانچو ملك قشتالة، كونه كان يخاف أن يقوم أبو يعقوب باجتياح الأندلس بكل قواه.

سرعان ما علم ملك المغرب بهذه الأمور، بما أنها لم تكن تافهة وعلى قدر من الأهمية. فاستاء من عدم وفاء عمر بن محلي البطوي وقرّر مقابلته على الفور. وهكذا كان، فجمع جيوشه وانطلق نحو الجزيرة الخضراء وما أن وصل إليها حتى هاجم أراضي بيخار Béjar وألقى حصاراً على المدينة. غير أنّ هجمات الجيوش العربية على أبواب المدينة قوبلت بردّ باسل من الجيوش المعادية، ولم يتمكّن الأوائل من دخولها. علم الملك الأفريقي أن محمّداً ملك غرناطة سيهاجمه على رأس جيش قوي، وأنّ ملك قشتالة سينضمّ إليه لمنع أبي يعقوب من العودة إلى مملكته في أفريقيا، فتراجع للتوّ نحو الجزيرة الخضراء ثم غادرها سراً إلى مدينة طنجة. وما إن وصل أبو يعقوب إلى الشّواطىء الأفريقية حتى طلب من القوات التّحضّر للقتال وأرسل مبعوثين إلى القبائل الأكثر كثافة، وتمكّن من حشد جيش مؤلف من اثني عشر ألف محارب. فأعدّ السّفن وحضّر الأسلحة وكان على وشك المغادرة عندما طالعه أسطول كبير من سفن الصّليبيين فانقضّ على السّفن الرّاسية في طنجه وأحرقها أمام عيون الرّجال الذين تحضّروا لركوبها، ولم يتمكّن أيّ جندي من الدّفاع. وكان هذا مشهداً مؤلماً

للغاية لكل مؤمن. ووقعت هذه الحادثة عام 691 هـ[1].

ترك أبو يعقوب المكان على الفور عائداً إلى مدينة فاس، حيث كان تواجده ضرورياً لحلّ مشاكل في إمارته. بعد وقت قليل من هذا الحادث، حاصر دون سانچو ملك قشتالة مقاطعة طريف Tarifa وتمكّن من السّيطرة عليها بعد أن هاجمها براً وبحراً بكل الآلات الحربية من كل نوع. وتمكّن من دحر كل مواجهة لاقاها على الرّغم من أن المدافعين عن المكان بذلوا ما في وسعهم من أعمال بطولية، لكنه كما أشرنا تمكّن بقوة السّلاح من دخولها وقام بمذابح كثيرة. ثم عيّن القائد دون غوثمان[2] Don Guzmán النّبيل وأحد فرسانه الشّجعان حاكماً على المدينة[3].

* * *

(1) عام 1293 للميلاد. (كوندِه)

(2) ألفونسو پيريث دي غوميث. (فوستر)

(3) يسمّيه المؤرّخون العرب: ابن قزمان. (أحمد)

الفصل الثّالث عشر

دفاع دون غوثمان عن مقاطعة طريف وموت ابنه - دون سانچو يسيطر على مدينتي قصادة والقبضات. موته. الحروب المستمرّة - موت محمّد الثّاني ملك غرناطة

بعد وقت قصير من هذه الحملات صدف أن وقع خلاف بين الأمير خوان من إشبيلية وشقيقه الملك دون سانچو فخرج نحو أفريقيا حيث احتمى لدى ملك المغرب أبي يعقوب بن يوسف الذي استقبله بكل حفاوة. ثم أكّد الأمير خوان للملك الأفريقي أنه لو منحه جيشاً سوف يجد وسيلة لاستعادة مرفأ وقلعة مقاطعة طريف Tarifa. فقبل أبو يعقوب وأرسل معه قادة وخمسة آلاف جواد وجيشاً سيّاراً بأعداد كافية. وصل الأمير خوان مع هذا الجيش إلى موانىء إسپانيا ودعمه شعب الجزيرة الخضراء، فانقضّ على المكان بكل قوة واستخدم الآلات والأسلحة الحربية الأشرس في هذه المعارك، غير أن المدافعين عن المدينة واجهوه ببسالة ولم يتركوا للأمير خوان أيّة فرصة لإخضاع مدينتهم.

ثار الأمير خوان وشعر بالحرج من عدم قدرته على تنفيذ وعده لملك المغرب، فعقد العزم على إجبار المدينة على الاستسلام بطرق أخرى غير قوة السّلاح. عندها أسر الأمير شاباً يافعاً وهو ابن القائد دون غوثمان Don Guzmán (ابن قزمان) وأمر أن يكبّل بالسّلاسل وأن يُبدى في حضرة والده بهذا المنظر المذلّ، وطلب من القائد الحضور أمام أبواب المدينة. وهكذا كان فطلب منه الأمير خوان تسليم القلعة أو أن يشهد موت ابنه أمام عينيه. غير أن القائد لم يحرّك ساكناً فأخرج سيفه بكل صمت

من حزامه ورماه للأمير لتنفيذ تهديده وأدار ظهره. فثارت ثورة المسلمين[1] من هذا الرّد وبالاستهزاء الذي قابلهم به القائد، فقطعوا رأس الشّاب ووضعوه على أحد المنجنيقات ورموا به داخل القلعة للتأكيد بأنهم رجال فعال لا مجرّد أقوال.

وبما أنّ إصرارهم لم يكن أقوى من عناد المحاصَرين وثباتهم، فقد اضطرّ القادة الأفارقة للعودة إلى معسكرهم وانسحبوا نحو الجزيرة الخضراء. طلب محمّد ملك غرناطة من الملك دون سانچو إعادة مقاطعة طريف Tarifa مؤكّداً أنها له وبأن احتلالها من قبل ملك المغرب كان انتهاكاً لحرمتها، على الرّغم من أن المدينة قد سُلّمت إرادياً إلى أبي يوسف الملك الأفريقي من قبل محمّد ابن الأحمر والد محمّد الثّاني.

فردّ دون سانچو على هذا الطّلب قائلاً إنّ مقاطعة طريف هي حقّ له بموجب الفتوحات، ولكنه أضاف أنه لو كان يريد أن يستعيد كل الأملاك التي فقدها كحق قديم أو بطريق مجريات الحرب لكان حاكماً على كل مملكة غرناطة اليوم. أحدثت هذه الواقعة انشقاقاً بين الملكين. وفي العام 694 هـ انقضّ حراس الحدود في غرناطة على أراضي الصّليبيين فنهبوها ثم أجبروا كل سكانها على الفرار. ودخل الحسن بن بكر بن زيّان وهو أحد قادة المسلمين وقائد جيوش الحدود في عمق أراضي مدينة مُرسية حيث واجه جيوش الصّليبيين. وقاد دون خوان ابن دون مانويل الجيوش، وكان يبلغ من العمر اثني عشر عاماً. ودارت معارك عنيفة مع الفرسان المسلمين غير أن الصّليبيين لم يتمكّنوا من منعهم من تدمير كل حقول الذرة التي زرعت للتوّ أو من قطع حقول الزّيتون والكرمة التي دمّرها الحسن بن بكر بالكامل.

من جهة أخرى، كان الملك سانچو يغتصب حدود المسلمين ويدبّ فيها الرّعب. فجمع قوة كبيرة ومتمرّسة وشنّ هجوماً على قلعة وشقة Huesca، وفي السّنة التالية أي العام 695 هـ استسلمت القلعة بقوة السّلاح وحدث ذلك في شهر محرم. حاصر ملك قشتالة بعدها مدينة القبضات Alcaudete واستخدم في معاركه ضدها الآلات

(1) في النّسخة المعروفة لهذه الرّواية وفق ما جاء على لسان المؤرخين الإسبان، يقال إن دون خوان قام بقتل الشّاب المجرّد من كل قوة حيث يقال إنه قام بغرس خنجره في قلبه. (فوستر)

الحربية الثّقيلة، فأضعف الحصن والقلاع ودخل والسّيف في يده فذبح قسماً كبيراً من السّكان وأسر كل من حاول الفرار منهم. نصب سانچو ابن ألفونسو نفسه ملكاً على كل مدن الأراضي المسلمة وقلاعها. غير أنه لم يفرح بنصره هذا وبثمار عدوانه حيث توفي وورد جهنم بعد وقت قليل من ذلك[1].

أراد الملك محمّد إبعاد كل الغيوم التي لبّدت صفاء إمارته بكل ما أوتي من نُبل ميّز بني نَصْر فبادر إلى حماية أراضيه وقلاعه بخيرة فرسانه وأمضى ثلاث سنوات في حروب وصراعات مع الصّليبيين حيث أوقع إصابات عديدة في صفوفهم وأخذ كل القطعان من هذه المقاطعات. وفي أواسط العام 677 هـ[2] سيطر ملك غرناطة على مدينة وشقة وأسكنها من جديد بالمسلمين وكان معظمهم من العلماء.

ثم حاصر القبضات التي استعادها من جديد بقوة السّلاح. وأمر محمّد بدكّ أسوار المدينة، وبما أن القوات المحاصرة كانت لا تزال في القصر الملكي انقضّ عليهم وأخرجهم منه فاختفوا وكأن الله شقّ الأرض تحت أقدامهم. ثم استسلمت مدينة القبضات Alcaudete بكاملها إلى محمّد بعد صلاة الظّهر يوم السّبت 8 شوال من العام 697 هـ[3].

وكانت المدينة رائعة إلى جانب كونها نقطة استراتيجية وتربتها من أكثر صنوف التّربة المثمرة في البلاد، وحدائقها من الأجمل والأكثر وفرة بالنّبات والمياه، ممّا يضفي عليها روعة وقيمة مضافة. وكان فتح القبضات نصراً عظيماً حافلاً بالصّعوبات وذا تكلفة باهظة لجهة الضّحايا التي سقطت فيها. قام الملك محمّد بإسكانها

---

(1) إن كاتب هذه الكلمات من إشبيلية يحدّد موت دون سانچو في عام 694 هـ، غير أنها غلطة من الكاتب بما أنه أشار للتو أن الملك قد قام بالسّيطرة على مدينتي وشقة والقبضات عام 695 هـ. (كونده)

(2) في مخطوطات الكاتب حدث هذا عام 699 هـ وقد أشرت إلى السّهولة التي حوّل فيها الرّقم 7 إلى 9 خاصة في المخطوطات القديمة التي كانت بمعظمها غير مكتملة وكان جزء منها ضائعاً. (فوستر)

(3) العام 1298 للميلاد. (كونده).

بالمسلمين من الحدود وعوائل العلماء وأصلح جميع مداخلها وحفر السّواقي ودعم قلعتها، فأصبحت من أكثر المناطق المحصّنة ضد أي عدوان.

من جهتها، خفضت خسارة مقاطعة طريف من عزيمة أبي يعقوب ملك المغرب وعدل عن مخططه في السّيطرة على الأندلس. بالتّالي عقد معاهدة مع الملك محمّد حيث اقترح عليه إعادة الجزيرة الخضراء مقابل مبلغ من القطع الذّهبية، وأقرّ أنه لا يرغب بعد الحين بالسّيطرة على إسپانيا. تمّ الاتفاق على الشّروط بسهولة، واستعاد ملك غرناطة مدينته في حين غادر أبو يعقوب للتفرّغ لمسائل إمارته في أفريقيا وعدم الاكتراث بعد هذا الحين للأندلس.

أصبح بيد ملك غرناطة وسيلة لإركاع واليي وادي آش وقُمارِش، فقام بذلك بكل سهولة، حيث أن هذين الشّيخين أحسّا أنهما غير مدعومين ولم يكن أمامهما أيّ خيار سوى الانصياع تحت إمرة محمّد. أراد الأخير اغتنام الفرصة المتاحة أمامه في قشتالة بعد وفاة دون سانچو، فابن الملك المتوفى ما زال يافعاً وكان الصّليبيون في حرب أهلية أدخلت بلادهم في فوضى. كتب محمّد إلى الأمير دون إنريكِه بعد أن علم حاجة الصّليبيين إلى المال مقترحاً عليه دفع عشرين ألف سبيكة ذهبية وبعض القلاع الحدودية مقابل الحكم على مقاطعة طريف التي رغب بالحصول عليها بشكل ملحّ.

لم يرفض دون إنريكِه هذا العرض فخرج إلى مقاطعة طريف Tarifa بهدف إبرام الاتفاقية مع محمّد غير أن وزراء الملكة والقادة في القلعة لم يوافقوا على استلامها فتوقّفت المناقشات. اجتاح ملك غرناطة بعدها الإمارة وتواجه مع قوات دون غوثمان[1] Don Guzmán ودارت بينهم معارك ضارية دامية خسر فيها الصّليبيون ووقع آلاف الضّحايا من الفرسان وحدث هذا عام 699 هـ[2].

ألقى ملك غرناطة حصاراً على مقاطعة طريف واستخدم في مواجهاته الأسلحة الثّقيلة، غير أن الصّليبيين دافعوا عن مدينتهم بكل بسالة ولم يسمحوا باستسلامها.

---

(1) يسمّيه المؤرّخون العرب: ابن قزمان. (أحمد)
(2) أو بحسب ما جاء في الرّواية عام 697 أي العام 1299 للميلاد. (كوندِه)

انطلق بعدها محمّد على رأس جيشه نحو مدينة جيان Jaén وحاصرها وأحرق ضواحي بيانة Baena وحاصرها وهاجمها بكل قواه ودخل في معارك ضارية، غير أنه في نهاية المطاف خلص إلى أن احتلال المدينة لن يتم في هذا الوقت، فعاد إلى معسكره حيث حضّر لاجتياح الإمارة. وبعد مضي وقت قليل تمكّن من أخذ قلعة بالمار Balmar.

وتوسّعت إمارة الملك بشكل كبير، غير أنّ القدر شاء ألا يتنعّم كثيراً بانتصاراته، إذ انتقل إلى رحمته تعالى مساء السّبت الواقع فيه 7 شعبان عام 701 هـ بعد أن تسلم سدّة الحكم في 7 شعبان من العام 671 هـ. ولد الملك محمّد في غرناطة عام 633 هـ [1]وانتقل من العالم الفاني إلى العالم الأبدي دون ان يعاني من أيّ مرض بادٍ، وتوفي وهو يؤدّي الصّلاة بكل هدوء وسكينة لم ينازع ولم يعانِ ولم تظهر سوى بعض الدّموع على جفنيه كما لو كان قد بكى. ودُفن في مدفن قريب من مدفن والده في الجهة الشّرقية للجامع الأكبر في الحديقة قرب المكان الذي شيّد فيه قصر حفيده[2] المتحدّر من سلالة السّلطان أبي الوليد الذي دمّره بعد ذلك أبو الحجاز سلطان أمير المسلمين ابن شقيقته. فليرحمه الله ولينزل عليه كل رحماته وليسكنه فسيح جنانه.

وكان للملك محمّد الثّاني ثلاثة أولاد: خَلَفه وشريكه في الحكم الذي سنتحدّث عنه فيما يلي بإذن الله، وفراس Feraz الذي تآمر على شقيقه وقتله، ونصر[3] الذي أصبح أمير المسلمين بعد أن خلع شقيقه عن العرش. وكان كبير وزراء محمّد الثّاني أبا سلطان عزيز بن علي بن عبد المنعم من مدينة دانية Dénia وخطيبه، وأمناء سره أولاً هؤلاء الذين كانوا بخدمة والده محمّد بن الأحمر وأبناء هؤلاء أبو بكر ابن محمّد بن يوسف من مدينة لوشة، واليحصبي وشقيقاه أبو علي الحسن وأبو علي الحسين، وكل أبناء محمّد بن يوسف من مدينة لوشة وكل من خدم الملك محمّد الثّاني.

---

(1) العام 1235 للميلاد. (كوندِه)

(2) حفيده أو ابن حفيده. (كوندِه)

(3) أو النّاصر (فوستر). قلت: والصّواب نصر طبعاً، وهو الذي سيضحي ملك غرناطة باسم: أبو الجيوش نصر بن محمد الثاني. (أحمد)

وكانوا كلهم مثقفين للغاية ويتمتعون بمزايا كثيرة، وكانت عائلاتهم من أرقى عائلات مدينة لوشة وكانوا في السّابق من حاشية قصر بني نَصْر. في وقت لاحق أصبح أبو القاسم محمّد بن القابض Ben Alcabed الأنصاري خطيب الملك محمّد الثّاني، وكان من أكثر الشّيوخ ثقافة وعلماً في عصره، غير أن الملك ضاق ذرعاً بطبعة المتسلّط فطرد أبا القاسم فجأة وحرمه من صداقته وجرّده من كل الامتيازات. ثم جعل ابن الحكم الرّمدي Arremedi خطيباً له وأصبح أبو عبد الله وزير ابنه عبد الله محمّد الثّالث حتى مماته.

وكان قضاة محمّد الثّاني في البدء أبا بكر محمّد بن الفتح بن علي الإشبيلي، الذي عُرف باسم إستبارون Istbaron، وقد أطلق عليه هذا اللقب حين كان رئيس الشّرطة قد صدف أن وجد جندياً مخموراً في إحدى السّاحات العامة، ولم يقم هذا الأخير فقط بشتم النّاس الواقفين إلى جانبه بل حتى القاضي أبا بكر نفسه، فأخذ أبو بكر الرّجل بنفسه وزجّه في السّجن حتى تخلّص من إدمانه وعاد إلى صوابه وحصل أبو بكر على سمعة بأنه رجل قاسٍ بعد ذلك. ثم مارس بشكل متواز مهنتي رئيس الشّرطة ورئيس المحكمة الجنائية. وكان أبو محمّد عبد الله قاضياً عادلاً وأصبح والي القضاة أو قاضي القضاة في ظلّ حكم الملك محمّد الثّاني. وحصل على تقدير لنزاهتة التي ظهرت مرات عديدة، واستمرّ عبد الله في خدمة الملك تقريباً حتى نهاية عمر الأخير.

كان حاكم المغرب في هذه الأثناء أمير المسلمين النّبيل والشّهم والشّجاع السّطان أبو يوسف يعقوب ابن عبد الحق انتصر على الموحّدين وأخرجهم من أراضيه ونصب نفسه ملكاً على إمارتهم. مرّ هذا الأمير أكثر من مرة في الأندلس كما سبق وذكرنا، وحقّق انتصارات كبيرة على أعدائه وشنّ حروباً وعقد معاهدات سلام مع ملوك إسپانيا ثم توفي بمرض الحمّى في الجزيرة الخضراء في شهر محرم من العام 685 هـ.

خلفه على العرش ابنه السّلطان العظيم والحكيم والقوي أبو يعقوب يوسف، الذي رافق والده إلى إسپانيا وكان حاضراً خلال اللقاء مع محمّد بن الأحمر ملك غرناطة

في مربيلة[1] Marbella عندما سار الملكان إلى إشبيلية وقُرطُبة وأرض مُرسية وغيرها من المناطق التي كانت بيد الكفرة عندها.

كان أبو يوسف في مرحلة ما على اتفاق مع ألفونسو ابن فرناندو، عندما رفع ابنه السّلاح بوجهه، وقد دفع هذا الأمر بألفونسو إلى طلب المساعدة من أبي يوسف، الذي منحه ما طلب واستقبل ملك قشتالة في معسكره في أنتقيرة Antequera كما سلف. وبعد هذه الأحداث بقليل توفي ألفونسو ابن فرناندو وخلفه ابنه الدّون سانچو الذي حكم لمدة طويلة خلال حياة محمّد الثّاني، ثم عقد معاهدة سلام وبعدها شنّ حرباً معه إلى حين وفاته عام 694 هـ. خلف سانچو ابنه فرناندو، وهو شاب في السّابعة عشرة من عمره[2] يافع للغاية ولا يتحلّى بالصّفات اللازمة لحكم المملكة، فعمّت الفوضى إسپانيا.

أمّا في مملكة أراغون فكان الحاكم ألفونسو ابن خايمِه ابن پِدرو ابن خايمِه[3]، ولكنه توفي باكراً فخلفه ابنه خايمِه الثّاني أو الثّالث الذي أبرم معاهدة طريق في أراضي المَريّة على عهد ناصر بن محمّد الثّاني.

في هذا الزّمان حدث الانشقاق بين بني أشقيلولة. وفي مدينة وادي آش كان الرّؤساء كل من أبي محمّد وأبي الحسن وأبي محمّد عبد الله، وفي قُمارِش الرّيّس أبو أسحق الذي حافظ على سلطته حتى مماته. وبعد أن توفي الرّيّس أبو محمّد في وادي آش حكم على إمارته ابنه وابن شقيقه الذي أبرم معاهدة مع ملك المغرب وأعطاها إلى بني مهدي. ثم حكم مقاطعة مالقة لفترة زمنية بنو أشقيلولة، وقام آخر فرد من العائلة بعقد اتفاقية تبادل مع ملك المغرب لقاء قصر كتامة قبل أن تعود إلى الملك محمّد الثّاني وفق ما يرويه التاريخ[4].

---

(1) لفظها بالإسپانيّة: ماربيّا. (أحمد)

(2) ويقال إنه كان طفلاً يبلغ من العمر بين 7 و10 سنوات. (كونده)

(3) ألفونسو بن خايمِه ملك أراغون. (فوستر)

(4) إن استعادة هذه الأحداث في هذا الفصل جعلت التعرّف على هذا الأمر عند قراءته أكثر بساطة. وقد تُرِك هذا القسم كما ورد، وهذا أمر يؤسف له حيث ظهرت كل الأحداث التي وردت في السّياق في كتب التاريخ بشكل مفيد ومبسّط أكثر. (فوستر)

الفصل الرّابع عشر

الحروب في إسپانيا وأفريقيا. احتلال الصّليبيين لجبل طارق

خلف الملك محمّد الثّاني ابنه أبو عبد الله محمّد، وكان رجلاً شجاعاً جميل النّفس والصّورة يتمتع بصفات رائعة وبذكاء كبير، وكان متعلماً حكيماً وشاعراً ماهراً بليغاً ودوداً وغير متكلّف، وكان يولي أهمية كبرى لشؤون حكمه حتى كان يمضي ليالي طوالاً في عمله كي لا يترك أمراً غير منتهٍ. لم يتمكّن أيٌّ من الوزراء تحمّل عبء الأعمال التي كان يقوم بها عبد الله محمّد فاضطروا جميعاً لتركه وحيداً في ساعات الليل المتأخرة. وترك هذا الشّغف بالعمل أثراً كبيراً على صحّته. وما أن تبوأ عبد الله محمّد العرش حتى تمرّد ضده والي مقاطعة وادي آش أبو الحجّاج بن نصر ولم ينضوِ تحت لوائه كما فعل كل الولاة الآخرين. كان للملك وزيران يثق بهما كل الثّقة وهما أبو سلطان بن عزيز بن علي، وعبد الرّحمن ابن الحكم الرّمدي. وكان ولاء الملك وثقته بهذين الوزيرين سبباً لدفع الكثيرين إلى الحقد على هذا الامتياز الذي منحهما إياه، وخاصّة أمراء عائلته.

أمّا أمناء سرّه أو الكتّاب فكانوا رجالاً مثقفين، ومن أبرز هؤلاء: أبو بكر بن صبرين Ben Saberin، وأبو عبد الله ابن عصام، وأبو إسحاق بن جابر، وأبو عبد الله الوشقي Aloschi الذي كان شاعراً مرموقاً. وكان أبو حجّاج الطّرطوشي من كتّاب الملك ورجلاً ذا مكانة رفيعة. أما أحد أبلغ قضاته وأكثرهم علماً فكان أبا جعفر القيسي الذي لقب بابن فرحون El Farcon ومحمّد الهاشم من Elche من القضاة الأكثر شهرة في عهده. أبرم ملك غرناطة في أول شهر من عهده معاهدة سلام مع الملك خايمه دي

أراغون ثم أعلن الحرب على ملك قشتالة في نهاية شهر شعبان من العام 701 هـ[1].

شنّ عبد الله محمّد الثّالث أول معاركه ضد مدينة المنذر Almoudhar التي حاصرها لفترة زمنية قبل دخولها بقوة السّلاح. ومن أهمّ الكنوز التي غنمها في انتصاراته كانت وصيفة عزباء رائعة الجمال أحضرها إلى غرناطة في عربة رائعة مع كل الإناث الأخريات رائعات الجمال ممّا زاد في روعة انتصاره. وصل صيت جمال الوصيفة إلى أفريقيا، فأرسل ملك المغرب رسائلَ إلى الملك عبد الله محمّد سائلاً إيّاه الحصول عليها. وبحرقة قلب شديدة سلّمها عبد الله إلى الملك الأفريقي. ويقول البعض إنه أحبّ أسيرته، غير أنه فضّل صون صداقته على تحقيق رغباته، فتنازل عن غنيمته إلى ملك المغرب أبي يوسف بن يعقوب على مضض.

في العام 703 هـ جمع الملك عبد الله محمّد جيشًا باسلاً من الفرسان وسار ليحارب ابن عمه أبي الحجّاج بن نصر والي وادي آش. في هذه الحملة عاون الملك أحد أنسبائه لإخضاع أبي الحجّاج. والتقى الجيشان على مقربة من وادي آش فهُزم أبو الحجّاج بعد صراع دامٍ ذُبح فيه قسم كبير من جنوده، غير أنه تمكّن وقسم صغير منهم من الفرار من المدينة بصعوبة. وفي السّنة عينها أرسل ملك غرناطة إلى ملك قشتالة[2] رسائلَ طالبه فيها عقد هدنة لسنوات، ووافق الملك على هذا الطّلب غير أنه رفض رفضاً قاطعاً طلب الملك الثّاني وهو أن يقوم الصّليبيون ببيع مدينة طريف له مقابل بعض المدن الأخرى، ولم يستطع عبد الله محمّد إيجاد طريقة أخرى لتملّك هذه القلعة.

مع بدء السّنة التالية أرسل عبد الله محمّد صهره فرج والي مقاطعة مالقة[3] إلى الدّيوان الملكي الأفريقي مع جيش قوي جمعه من الجزيرة الخضراء وحاصر مدينة

(1) عام 1302 للميلاد. (كونده)

(2) أي الملك فرناندو.

(3) تزوج فرج بن نصر من شقيقة محمّد الثاني وأصبح ولداه ملكين على غرناطة إسماعيل الخامس ومحمّد الثّامن. (كونده)

سبتة من البحر والبر وأضعفها للغاية، فما كان من الملك أبي طالب عبد الله بن حافظ سوى مغادرة المدينة بصمت وسرّية وسقطت المدينة عام 705 هـ مع حلول شهر شوال.

وعلى النّحو عينه تمّ استسلام قلاع أخرى كانت تحت سيطرة أبي طالب في وقت لاحق على يد جنود ملك غرناطة الذين وجد في سبتة كنزاً كبيراً كان أبو طالب قد أخفاه، وحدث ذلك عام 706 هـ في شهر محرم. تمكّن ملك غرناطة بعد هذه الفتوحات من تجميل عاصمته، فبنى عمارات رائعة الجمال والهندسة ومن بينها الجامع الرّائع الأكبر في المدينة، وأُلبست جدرانه بالرّخام وحجر اليشب الكريم الأخضر، وزُيّن من الدّاخل على أيدي حرفيين مهرة، ودُهن بألوان رائعة. وطلب محمّد الثّالث تشييد حمّام عام كبير وساحات عامة، ويقال إنه قام بكل هذه الأعمال مستخدماً الأموال التي سدّدها له الصّليبيون واليهود. ومن عائدات الحمّام قام محمّد بتجميل الحدائق والأراضي والجامع.

في العام 706 هـ ثالث أيام شهر ذي القعدة وقع أمرٌ أليم ألقى بظلاله على أفريقيا، فقد حاصر الملك يوسف بن يعقوب من بني مَرين مدينة تلمسان التي أضعفها، وقُتل بطريقة وحشية دون أن يُعرف قاتله الذي دخل وخرج من المكان دون أن يراه أحد. غير أنّ الملك وعلى الرّغم من إصابته الخطيرة تمكّن من النّداء على حرّاسه الذين لحقوا بالقاتل وأحضروه قبل أن يغادر المدينة. ثم قتلوه بحرابهم فوقع ميتاً على أبوابها. وتمكّن يوسف بن يعقوب من التّحامل على جراحه وبقي على قيد الحياة لمدة اثنتي عشرة ساعة، غير أنّ أطباءه لم يتمكّنوا من إنقاذه لأكثر من ذلك فتوفي.

خلفه على العرش حفيده الأمير عبد الله بن يوسف الذي لقّب بأبي ثابت، فرفع الحصار عن تلمسان في اليوم نفسه وخرج مع جيشه ليشنّ حرباً على عمّه أبي يحيى الذي سيطر على مدينة فاس فهزمه. ثمّ عاد أبو ثابت إلى مدينة تلمسان حيث عقد معاهدة سلم مع موسى بن زيّان حاكم المدينة. وكانت نتائج هذه المعاهدة عظيمة ونقشت نقود في تلمسان لترسيخ هذه المعاهدة والاحتفال بها.

في هذه الأثناء، كان حاكم مدينة المَريّة Almería سليمان بن ربيع عاقداً العزم على

السّيطرة عليها والحصول على لقب ملك، وقيل إنه أرسل رسائل إلى ابن خايمِه ملك برشلونة كونت[1] دانيةDénia[2]. غير أنّ ملك غرناطة لم يعطِ أيّ مجال لهذا الحاكم المتمرّد لتنفيذ خيانته، فشنّ حرباً ضده بسرعة مفاجأة وقع فيها سليمان أسيراً بين يدي ملكه.

غير أنّ الحظ حالفه فتمكّن من الفرار ولجأ إلى ابن خايمِه عدوّ المسلمين واتّحد معه لشنّ حرب على ملك غرناطة وحدث ذلك عام 705 هـ[3].

من جهته خرق ملك قشتالة معاهدة الهدنة المُبرمة مع محمّد ملك غرناطة، حيث أبرم معاهدة تحالف مع ابن خايمِه ملك برشلونة، وسار نحو أراضي غرناطة على رأس جحافل من الجيوش. استاء الملك محمّد من تصرف ملك غرناطة غير العادل ولكن فرناندو ابن سانچو ردّ عليه بكل عجرفة مستخدماً حججاً لا أصل لها، ثم ألقى حصاراً على مدينة الجزيرة الخضراء عام 708 هـ يوم 21 من شهر صفر[4].

في هذه الأثناء أرسل ابن خايمِه عديم الشّفقة جنوده نحو مدينة المَريّة وحاصرها من البحر، وبما أنّ المسلمين قاموا بهجمات كبيرة على معسكره فقد قام بتحصينه بالدُّشم وبحفر آبار حوله. جمع الملك محمّد فرسانه وسار لإنقاذ مدينة الجزيرة الخضراء، غير أن جهوده ذهبت مع الرّيح بسبب العواصف والأمطار التي أبطأت حركته ولم يتمكّن من السّير قُدماً. من جهته قاد سلمان بن ربيع جيشاً ضد مدينة سبتة التي سيطر عليها محمّد ملك غرناطة من مدّة وحاصر المدينة بمساعدة من الصّليبيين براً وبحراً[5].

في هذه الأثناء وصل إلى ملك قشتالة نبأ مفاده أنّ جبل طارق لم يكن محمياً بشكل

---

(1) نترجمها (كونت) بالفرنسية كما هو شائع في أسماع القارئ العربي، وإلا فإنّ العبارة الأصليّة بالإسپانيّة هي: كوندِه Conde، كاسم مؤلفنا. (أحمد)

(2) خايمِه الثّاني ملك آراغون.

(3) عام 1308 للميلاد. (كوندِه)

(4) وفق الكاتب عام 709. (كوندِه)

(5) لا يظهر النّص النّتيجة التي آل اليها الحصار كما سوف يلاحظ القراء، بل ذكر ذلك في الصّفحة التالية ويقول بعض المؤرخين الإسپان إنّ سليمان قد انتصر في هذه المعركة فقد سيطر ليس فقط على سبتة بل على مدن عديدة من ضواحيها.

كافٍ، فأرسل على الفور بعضاً من قواته لاحتلال القلعة التي دكّها بالآلات الحربية الثّقيلة وأجبرها على الاستسلام. غير أنّه سمح للسّكان بالرّحيل بسلام مع ممتلكاتهم، فعبر 1500 رجل البحر ولجأ هؤلاء إلى مدن المغرب ونواحيه. ثم أصلح الصّليبيون جدران القلعة وأبراجها والأرصفة[1] التي كانت بالية.

أدرك الملك محمّد خطورة الموقف وبأنه من الملحّ أن يتوصّل إلى اتفاق مع ملك قشتالة، خاصّة بما أنه لا زال يحاصر الجزيرة الخضراء بكل قوة ويضعفها. كما أنّ الحاجة كانت ماسّة لإنقاذ مدينة المَريّة Almería وكان الرّجال المحرّضون يثيرون الفوضى في بلاط مدينة غرناطة. لهذه الأسباب كلّها رأى محمّد أنه من الصّعب اقتحام جنوده كل هذه الجبهات كونه لن يستطيع أن يمدّهم بالنّصح المناسب كما في الحالات العاديّة، فكتب رسائل إلى ملك قشتالة بعثها مع ريّس أندرش Andarax الشّيخ الأكثر أمانة.

واقترح فيها على ملك قشتالة التّنازل بشكل مباشر عن قلاع الكادروس Quadros وشانغين Changnin وقصادة Quesada وبالمار Balmar ومنحه خمسة آلاف وزنة ذهب شرط أن يرفع الحصار عن مدينة الجزيرة الخضراء وأن يوقف حربه ضد غرناطة. وافق ملك قشتالة على هذه الاقتراحات وأُعطيت ضمانات من الجهتين لرفع الحصار عن الجزيرة الخضراء، وتمكّن المسلمون من تنفّس الصّعداء بعد قهر طويل، وحدث ذلك في شهر شعبان عام 708 هـ[2].



(1) أرصفة السّفن.

(2) يعيّن الكاتب هذا التاريخ في العام 709. (كونديه)

الفصل الخامس عشر

التّمرّد في غرناطة – خلع محمّد الثّالث – خلفه شقيقه نصر – موت الملك فرناندو المسيحي ملك قشتالة في القبضات وموت محمّد في المُنكَّب

في حين كان محمّد منهمكاً في الدّفاع عن إمارته شُكّل حزبٌ في غرناطة موالٍ لشقيقه الأمير نصر الملقب بأبي الجيوش بن محمّد بن يوسف بن نَصْر. وكانت الحجّة وراء إنشاء حزب العُصاة هذا أن الملك قد خسر رؤيته وأصبح مجبراً على الاتكال على وزرائه في كل وقت في حين تستدعي مصلحة البلاد وجود ملك لديه بصيرة. وبهذه المكيدة تمكّن كبار الفرسان والشّيوخ من إقناع كبير الوزراء بما يصبون إليه، غير أن السّبب الأساسي وراء هذه المؤامرة كان رغبة البعض في الترفّع والآخرين في تحسين ثروتهم وغيرهم في حبّ التّغيير.

وتمكّن المتآمرون من أخذ جميع الخطوات والإجراءات اللازمة لوضع مكيدتهم قيد التنفيذ، وعملوا بكل سرية حتى حان وقت التنفيذ لمنع أي انشقاق أو تسرّب لمخططهم المنحرف. وفي ساعة الفجر يوم عيد الفطر وانتهاء شهر رمضان حاصر أناس من أفقر القوم القصر الملكي ولم يحاولوا دخوله بالقوة ولم يقوموا بأيّ عمل عنيف بل صاحوا «يحيا والينا نصر، يحيا والينا نصر». وسارت جماعات أكبر نحو منزل الوزير أبي عبد الله اللّخمي El Lachmi ودخلته بالقوة، وسرقوا الذّهب والأسلحة والفضة والأحصنة والملابس الموجودة فيه وأحرقوا الأثاث ومجموعة الكتب الثّمينة ودمّروا كل ما وجدوه فيه. ثم توجّهوا نحو القصر الملكي بحجّة أنهم يودون رؤية الوزير عبد الله اللّخمي الذي احتمى فيه، وهاجموا جماعة صغيرة من الحرس بعنف ودخلوا المكان دون اعتبار لحرمته أو وجود الملك فيه، الذي حاول

بكل ما أوتي من بلاغة صدّهم وردعهم وإعادتهم إلى رشدهم، لكنهم لم يأبهوا لقوله وقطّعوا وزيره إرباً أمام عينيه. ثم صبّوا غضبهم على القصر الملكي فدبّوا فيه الفوضى. وخرج الشّعب عن رشده ولم يعد يطيع ملكه وأصبح خارجاً عن العدالة وحاول الاستفادة من هذا الوضع للتّعويض عن نفسه لقاء الامتثال للقانون والحاكم الذي سبق وقام به.

وفي ظلّ هذه الفوضى العارمة تمّ تكسير ما وقعت أيديهم عليه، وحاصر قادة الثّوار الملك محمّد ونقلوا إليه نوايا الشّعب الحاكم وهي أن يعدل عن العرش أو أن يموت، وقالوا إن النّاس يودّون نصراً أخاه ملكاً عليهم. وجد محمّد نفسه وحيداً وسط الخونة ولم يتردّد في إعطاء جواب، ومع حلول الليل تنحّى عن العرش بكل هدوء وسلّم المملكة لشقيقه. لم يغامر نصر في هذا الوقت بالظّهور أمام الملك المهزوم بل أمر أن يُنقل الأخير إلى قصر أمراء المُنكَّب Almuñécar الذي أصبح مقرّه وهكذا كان فأُرسل إليه فوراً.

سيطر مسيحيو قشتالة في هذه الأثناء على قلعة التّمپول Tempul وبمساعدتهم تمكّن سليمان بن ربيع من السّيطرة على سبتة وعلى كل إمارات المنطقة، وحدث ذلك شهر صفر من العام 709 هـ. حاول الملك الجديد نصر التفاوض مع فرنادو ملك قشتالة لكي يتمكّن من مهاجمة ابن خايِمه ملك برشلونة الذي يحاصر المَريّة Almería. غير أن جهوده ذهبت سُدى حيث أن الملك المسيحي كان متكبّراً وصعب الإقناع عند طلب أي شيء منه، ولكنه كان متواضعاً متفهماً في حال جاء الطّلب من قبله.

جمع الملك نصر قواته وخرج لإنقاذ المَريّة وقابله في الطّريق ابن خايِمه Aben Gaymis الطّاغية، ودارت بينهما معارك دامية وشرسة قتل فيه المئات، ولم يتفرّق المقاتلون إلا مع حلول الليل. غير أنّ الصّليبيين لم يرغبوا في خوض حرب مماثلة. وفي اليوم التالي رفعوا الحصار عن المَريّة. فانفرج سكان المدينة في حين كانوا على وشك تسليمها إلى أعداء الله. وحصلوا على النّصر مع نهاية شهر شعبان من

العام 709 هـ. فعاد الملك نصر منتصراً إلى غرناطة على الرّغم من أنه خسر جنوداً كثيرين في هذه الحملة.

لم يمضِ وقت طويل على استعادة المَريّة، حتى بلغ الملك أنّ ابن سعيد ابن شقيقته وفرج بن نصر والي مقاطعة مالقة ينوي إنشاء حزب وقد جمع الجنود لهذا الغرض. فأمر الملك نصر أن يؤسر غير أن أمره لم يُترك سرّياً وتمكّن ابن سعيد من الفرار من غرناطة. كتب نصر رسائلَ إلى زوج شقيقته فرج يسأله تأديب ابنه، غير أن الوالد عوضاً عن التّحدّث إلى ولده زاد من رغبته وقدّم له المساعدة على تنفيذ مخططه، فردّ على الملك نصر بكل قساوة ولامه على مؤامراته ضد شقيقه محمّد وهدّده بعواقب فعلته.

مع بدء شهر جمادى الثّانية 710 هـ أصيب الملك نصر بالفالج، وكانت تصيبه نوبات مفاجئة وعنيفة حتى أصبح الأطباء غير قادرين على معالجته. وظنّ الجميع بأنّ الملك قد مات فعمّم الخبر في كل أرجاء البلاد، وهبّ كل رفاق محمّد من القلة التي تبعته إلى منفاه بوقفة واحدة، وسارعوا إلى انتشال الملك من محنته ووضعوه في عربة بعد أن رفض مرافقتهم ودخلوا إلى غرناطة يوم الأول من رجب من العام عينه. غير أن مفاجأتهم كانت كبيرة عندما وصلوا إلى المدينة وعلموا أن الملك نصراً قد استعاد عافيته وشهدوا الاحتفالات في المدينة. فأجبر محمّد على إعطاء حجّة لقدومه عندها أعلـن أنه عندما علم بأنّ شقيقه مريض سارع إلى زيارته فأعرب نصر عن شكره وامتنانه له.

ولم يتردّد البعض بطلب حبس محمّد من نصر، غير أنه كان يعلم طيبة قلب محمّد ولم ينجرّ وراء مطالبهم. وعاد الملك المتنحي إلى منفاه في المُنكّب Almuñécar وشاطره كل من ساعده على مغادرة المكان هذا المصير. ونقلت بعض الألسن الرّضية إلى محمّد نبأ أن فرناندو ملك قشتالة قام بزحف نحو مدينة غرناطة على رأس جيش كبير وقطع الحقول والكرمة والزّيتون. ثم حاصر مدينة القبضات Alcaudete التي استسلمت. عندما سمع محمّد هذه الأمور، كتب رسائل إلى ملك قشتالة مطالباً إياه بحقّ الصّداقة التي جمعتهما عدم مهاجمة أراضي أخيه ومحاربة والي مقاطعة مالقة

عدوّ نصر. وكانت هذه المبادرة كافية لتبرئة محمّد، فأسكتت جميع الألسن التي حاولت أن تجعله مذنباً ومسؤولاً عن استسلام القبضات.

في هذا الشّأن، قام ملك قشتالة رغبة منه في احتلال المدينة وكونه يكنّ محبّة صادقة لمحمّد بشنّ حرب على مقاطعة مالقة، وكان على وشك بدء حصاره قبل أن يعاجله الموت. بقي خبر موته سرّياً أياماً عديدة ونقلت رفات الملك فرناندو إلى جيان Jaén، حيث أعلن عن الخبر المؤسف وعيّن ولده ألفونسو ملكاً مكانه. وبعد وفاة الملك فرناندو قيل الكثير عن ظروف[1] موته (وقد استوفينا هذه الأمور كلّها في كتاب الحوادث الاستثنائية).

بعد وقت قصير من هذا الحدث توفي الملك محمّد[2] وانتقل إلى رحمته تعالى في شهر شوال من العام 713 هـ[3] وأمر شقيقه نصر أن يوارى الثّرى في مدافن العائلة وأن توضع على المدفن لوحة يكتب عليها[4]:

هذا ضريح السّلطان الكبير، الأمير العادل، متّقي الله، ملك عظيم، يهاب الله، مؤمن بالله وراضخ لطاعته، ملك متواضع، سلّم أمره لله، في اليُسر والعسر، فسكن الجنّات بفضل صلاته ودعائه لله، قاد شعب الله في الطّريق الصّحيح، يد العدالة وطريق الثّقة والواجب.

---

(1) أهم الإشاعات هذه كما استنتج القراء سابقاً الظّروف التي دعت كتاباً إسبان كثراً إلى أن يطلقوا على فرناندو اسم المحكوم، فقد حكم على شقيقيه پدرو وألفونسو بالموت فقط لظنّه أنهما اقترفا جريمة قتل دون دليل على إدانتهما، على الرّغم من إصرار الرّجلين المحكومين على براءتهما حتى النّهاية، وكانت وصيتهما الأخيرة أن يأخذ الله فرناندو في هذا الشّهر، لكي ينال العقاب من جرّاء قراره غير العادل. غير أن المؤرّخ ماريانا أعلن أن موت فرناندو جاء نتيجة لحبّه للأكل، في حين كان من المفروض نظراً لمرضه وصحّته أن يهتم بما يأكل. (فوستر)

قلت: والمؤرّخ هو خوان دي ماريانا (1535-1624) Juan de Mariana صاحب «تاريخ إسبانيا العام» الشّهير: *Historia general de España* المنشور بمدريد عام 1780.

(2) غرق محمّد في نهر أو بحيرة، ولا يعرف إذا ما سقط فيه قضاءً أم أن أحداً دفعه. (كوندِه)

(3) العام 1314 للميلاد. (كوندِه)

(4) النّص منقول عن ترجمة كوندِه بالإسبانيّة، وليس بفحواه الحرفي بالعربيّة كما هو بالأصل. (أحمد)

حكم شعبه باحترام وحقّق انتصارات، حاكم عادل، فخر البلاد وزينتها، صوت الحق والقانون والإيمان، عبد الله في المحن والبلايا، كان في أوقات نصره سيفاً يشعّ نوره يوم الحساب، حكم بالشّرع، طاهر، حاضر دائماً لمجابهة الكفرة بكل قوة وصرامة، عادل ورفيق بالنّاس مدافع عن حُرمة الدّين، وريث بيت نَصر، ووريث عدالتهم ومدنهم مدافعٌ عن شعبهم وحكومتهم وحريص على حماية أمّتهم. ملك رحيم أمير المسلمين فخر المؤمنين ومبير الكفرة المنتقم بإذن الله، أبو عبد الله، ابن أمير المؤمنين السّلطان العظيم، قطر ندى الغيوم، حامي السُّنّة والدّين مؤمن بالله، حامي قانون الله وشريعته، أبو عبد الله ابن أمير المؤمنين الفاتح باسم الله أبو عبد الله بن يوسف بن نصر. بارك الله منزله وتقبّله برحمته. ولد نهار الأربعاء الثّالث من شعبان سنة 655 هـ وتوفي إلى رحمته يوم الأربعاء الثّالث من شوال سنة 713 هـ. أسكنه الله جنّات نعيمه وبارك في آل بيته، وبارك الله ملكنا محمّد وأجزل على أمّته بركاته»[1].

وعلى الجانب الآخر، كُتب رثاء في الملك المتوفى عُدّدت فيه كل صفاته ودعاء لله لكي يمنحه الرّحمة وأن يغمر مدفنه بنفحاته الطّاهرة. وأن يغفر له ويرحمه ويرأف به وأن ينزله في جنّات نعيمه.

❊ ❊ ❊

(1) أورد المترجم ما كُتب على هذه الشّاهدة حرفياً. (فوستر)

الفصل السّادس عشر

حكم نصر وسقوطه السّريع، حملات پِدرو ملك قشتالة

بعد موت الملك محمّد كان من المفترض أن تهدأ نفوس الفرقاء، بعد أن أخذ منه الملك نصر زمام الحكم دون ذي حق. ولكن لم تكن الحال كذلك فقد ساد جوّ من البلبلة وعدم الطّمأنينة في المرحلة الأولى ولم تعرف غرناطة الرّاحة أبداً. كان الملك نصر ذا قامة ممشوقة أنيقاً جميل العينين متحفّظاً نوعاً ما وكان ودوداً لكل من جاء وفي حضرته معتدلاً في تصرفاته، يحبّ العلم، ذا حركة دائمة ومداوماً على درس العلوم خاصة علم الفلك، وكان أستاذه أبو عبد الله بن الرّقام Ben Arracam رجلاً عبقرياً مخترعاً وضع جداول علم الفلك واخترع ساعات معقدة.

حينما أُعلن نصر ملكاً كان في الثّالثة والعشرين من عمره، وأسر حضوره كل الشّعب، وإلى جانب ذلك كان متحرّراً للغاية وعدواً لدوداً للحروب. على هذا الأساس أراد إبرام صلح مع الصّليبيين منذ بدء حكمه، وعند وفاة فرناندو ملك قشتالة أرسل رسلاً إلى خلفه الأمير پِدرو يطلب منه الحصول على صداقته ورحّب الملك المسيحي بهذا العرض وعقد الملكان معاهدة سلام.

وكان وزراء الملك نصر أبا بكر بن عطيّة، وأبا محمّد بن المول Ben Almul القُرطُبي وهو رجل نبيل عبقري وحكيم، ومحمّد بن علي الحجّي وهو رجل طموح ذكي كان وراء اعتماد عدّة تغيرات في البلاد، وبطريقة ما كان السّبب وراء سقوط الملك نصر. أما كاتبه الوحيد فكان أبا الحسن بن الجاب Ben Algiab الذي بقي في خدمته حتى آخر يوم من حكمه، وقاضيه أبو جعفر القيسي الملقب بابن فرحون El Farcon.

سبّب طموح الوزير محمّد بن علي غير العقلاني استياء الكثيرين من الأعيان، فقد عمل على إبعادهم عن القصر الملكي ولم يسمح لأيّ منهم بالاقتراب من الملك إلا بحضوره، وفي حال علم أنّ أحداً من الشّيوخ قدم للحصول على منفعة أو طلب من الأمير نصر كان يبذل ما في وسعه لبوار هذا الشّخص. وكان عدد الوزراء المستائين من جرّاء طباع الوزير وكبره في تزايد مستمرّ، فألّفوا حزباً واضعين نصب أعينهم أمر إزاحته، وإذا ما لزم الأمر إسقاط الملك، حيث كان شديد الثّقة بأبي محمّد الذي كان في عداد رعاياه المفضّلين. لهذا الغرض، استفاد الأعيان المستاؤون من الفرصة التي قدّمها إليهم صهر الملك فرج بن نصر والي مقاطعة مالقة، ومن رغبات ابنه أبي السّعيد الملقب بأبي الوليد الذي كان يطمح إلى الحكم على البلاد، فأرسلوا إلى والي مقاطعة مالقة لمساعدتهم في مخطّطاتهم. فردّ عليهم بالإيجاب ممّا أشعل فتيل التّمرّد والمؤامرة. أرسل الأخير إلى غرناطة دون إبطاء وأعطاهم أوامرَ بإشعال الفتنة بين الشّعب محرّضاً إياهم على طلب رأس الوزير. فما كان من شعب غرناطة طالبِ التّجديد دائماً سوى التّشديد على مطالب قادتهم المحرّضين، وطلب رأس الوزير محمّد بن علي من الملك الذي كان يعتبر خدماته أساسية وخطابه مقنعاً للغاية وقد منحه ضمانة الأمان كل حياته. بالتّالي خرج الملك إلى المتمرّدين متحدّثاً إلى الجماعات واعداً إياهم بأن الوزير الذي لطالما أساء وأهان كثيراً لن يقوم بعد الآن بهذه الأفعال ولكنه لم يُقِل محمّداً بن علي من منصبه[1].

لم يكفِ هذا الأمر للتّخفيف من استياء الشّيوخ الذين بقوا يعانون من الاضطهاد من تأثير الوزير، حيث لم يخفَ عليهم أن الملك كان يُخضع كل من قام بالتّحريض إلى درجات من العقاب مختلفة. وكان من المؤكد أنه قرّر أن يمسك كل من تبيّن له أنه محرّض، فسار قادة التّمرّد إلى مقاطعة مالقة حيث قاموا بتشجيع كلّ من واليها وابنه على تنفيذ نواياهما، مؤكّدين لهما دعمهم في غرناطة ورغبة الشّعب في نجاح مخططهم. دعمت هذه التّصاريح نوايا أبي الوليد السّرية الذي أخذ يعدّ العدّة للهجوم

(1) يقول القاضي الكاتب الإشبيلي إن هذا الأمر وقع في 29 رمضان من العام 712. (كونده)

من جديد على خاله، فحشد جيشاً كبيراً وسار على رأسه باتجاه غرناطة وكلّه أمل في النّصر. واجه أبو الوليد صعوبة قليلة في احتلال القلاع التي طالعته في زحفه، ووصل إلى المدينة بكل عزم ونصب معسكره قبالتها في 28 شوال عام 710 هـ. وفي اليوم عينه خرج عدد كبير من الرّجال المستائين من غرناطة وانضموا إلى جيشه. في هذه الأثناء بقي القادة العُصاة في منازلهم وأخذوا يحرّضون الشّعب على الانتفاضة عن طريق توزيع الأموال على الفقراء ومبالغ أكبر ومغريات من أنواع أخرى على الأغنياء.

قسّمت المدينة بكاملها إلى جماعات، وفضّل البعض البقاء في منزله بأمان، في حين خرج آخرون للانتقام من الإهانات الفعلية أو المزعومة التي لحقت بهم. عاشت المدينة بعد وصول أبي الوليد حالة من البلبلة والضّياع في هذا اليوم ودارت صراعات طوال الليل حتى فجر اليوم التالي. فقام من عانى أكثر من غيره بفتح أبواب الضّواحي أمام الغازين، ودخلت قوات أبي الوليد إلى المدينة دون معاناة، واحتلت القلعة قبالة قصر الحمراء ثم القصر الملكي. وحدث ذلك في 29 شوال.

احتمى الملك نصر وأتباعه من القصر الملكي، غير أنّ قوات أبي الوليد حاصرتهم. فأحسّ.وا بخطورة الموقف وبعدم وجود أي سبيل للنّجاة والخلاص فأرسلوا رسائل إلى بِدرو ملك قشتالة الذي كان في هذه الأثناء في قُرطُبة، ثم أرسل الملك نصر إلى الكافر دون بِدرو معلناً له عن حاجاته الماسّة لمساعدته، ورجاه القدوم دون إبطاء لمساعدته على التّخلّص من ابن شقيقته أبي الوليد بن فرج بن نصر والي مقاطعة مالقة الذي ألقى حصاراً على قصر الحمراء، وأضاف نصر أن أتباعه الأوفياء أصبحوا قلّة والأمر سيّان للجيوش المستعدّة للدّفاع عنه، وبالتالي فالحاجة ملحّة إلى مساعدة دون بِدرو بحق صداقتهما.

جمع ملك قشتالة فور استلام هذه الرّسائل جيشاً كبيراً، غير أنّ الوقت كان قد تأخر ولم يعد مناسباً، فقد أجبر معاونو نصر ملكهم على الاستسلام بأحسن الشّروط عندما فقدوا الأمل بالخلاص. اقتنع نصر بما قُدّم له من مبرّرات وبدأ التّفاوض مع ابن شقيقته، فسلّم له المملكة ولم يترك سوى مقاطعة وادي آش وإمارتها، وطلب منه

الأمان لكل الذين بقوا أمناء له ولكل ممتلكاتهم. قبل أبو الوليد كل هذه الشّروط وفرح أنه توصّل إلى مبتغاه وأمنياته بكل سهولة. ثم غادر نصر غرناطة يوم الثّلاثاء الثّالث من ذي القعدة سنة 710 هـ، وتبعه قلّة بقوا في صحبته، وكان نصر شبه مقتنع أن ما ألمّ به ما هو سوى تكرار لما فعله هو لشقيقه محمّد.

انهمك شعب غرناطة في هذه الأثناء بتنصيب ملكهم الجديد، ونظّموا احتفالات كبيرة في هذه المناسبة. كان دون بِدرو في هذه الأثناء بطريقه نحو غرناطة لإنقاذ صديقه الملك نصر على رأس جيش كبير من الفرسان والجنود. وفي الطّريق علم بأنّ أبا الوليد احتلّ قصر الحمراء واعترف به السّكان ملكاً لهم وبأنّ الملك خرج من العاصمة ونُفي إلى وادي آش، غير أن كل هذه الأمور لم تردعه من التّقدّم نحو غرناطة، حيث أن عدو الله لم يكن يرغب تحت أي ظرف إضاعة اغتنام هذه الفرصة لإحداث بلبلة في أراضي المسلمين.

ثم ألقى حصاراً كبيراً على قلعة روطة Rueda، وعلى الرّغم من صعوبة استسلام المكان والمدافعة الشّرسة من قبل الجيوش المسلمة تمكّن من ذبح المؤمنين أو أخذهم أسرى. وبعد أن أتمّ الملك المسيحي هذا النّصر عاد إلى قُرطُبة. في هذه الأثناء كان الملك نصر المخلوع في مقاطعة وادي آش، وكان قد أصبح أكثر عقلانية وحكمة في عدائه، وبالتالي لم ينوِ استعادة مملكته ولم يتمكّن أحد من إقناعه بمحاولة استعادتها على الرّغم من كثرة من نصحوه بذلك ومن وعودهم بمساعدته كون كل الحظ سيكون حليفه. وأمضى حياته بكل طمأنينة حتى يوم الأربعاء 6 من ذي القعدة من العام 722 هـ إذ انتقل إلى رحمته تعالى. ووري نصر بن محمّد الثّرى أولاً في قصر مدينة وادي آش، ثم نُقل إلى غرناطة في شهر ذي الحجة من السّنة نفسها، حيث نظّم ابن شقيقته مأتماً مهيباً بحضور كل الفرسان، وصُلّي على نفسه الطّاهرة في القصر الملكي، ثم وضع النّعش في مدافن الملوك يوم 6 من ذي الحجة ووضعت على ضريحه لوحة كتب عليها[1]:

«هنا يرقد سلطان قوي كبير الشّأن من سلالة الملوك النّبلاء ومن بيت عريق من

(1) النّص منقول عن ترجمة كوندِه بالإسبانيّة، وليس بفحواه الحرفي بالعربيّة كما هو بالأصل. (أحمد)

الدّوحة النَّصريّة، كبير في علمه كبير في ملكه وصخرة للدّفاع عن شعبه. الملك الرّابع من سلالة بني نصر حُماة القانون والعدل والمجاهدين في سبيل الله. ملك الرّحمة والحلم، النّبيل، الكريم، صافي القلب[1] الرّؤوف والرّحيم، أبو الجيوش نصر ابن السّلطان، المدافع، الكبير، الحامي، العادل، المشتهر، الطيّب، درع القانون، صخرة الإسلام، المفضّل، الفاتح، الرّؤوف، أمير المؤمنين عليه السّلام، أبي عبد الله ابن السّلطان، الملك النّبيل، شرف الرّجال، قائد المؤمنين، ملجأ كل من يتّقي الله، صافي القلب، المدافع اللدود عن مصالح وسُنّة المسلمين[2]، ملجأ الدّين والإيمان، فاتح باسم الله، منتصر بفضل الله، أمير المؤمنين، أبو عبد الله بن نصر، فليرأف الله به وليباركه وليحلّ عليه مكارمه ورحمته، وليدخله جنّات عباده وليجعله من المختارين. ولد نصر يوم الاثنين في 24 رمضان من العام 686 هـ[3] وتولّى المُلك يوم الجمعة 2 شوال من العام 708 وانتقل إلى رحمته تعالى في السّادس من ذي القعدة من العام 722هـ[4]، سُبحان الهن الحق مالك الأرض وكلّ ما عليها».

ثم كُتب تحت هذه العبارات: «يا مثوى الكريم! نسألك يا الله أن تحلّ فوق هذا الثّرى غيوم الرّحمة السّماوية والأمن والأمان. ليُرحم ملكنا النّبيل الكريم بين الكرماء، جوهرة السّلالة البشرية، ذو القلب الكبير والطّيبة، منبع الفخر. بارك الله ثراك يا نَصر يا رابع ملوك بني نَصر يا حامي الإسلام، يا أمير الإيمان وحامي القانون والإسلام، يا ملك كل من طلب الإجارة من عباد الله. يا ملك الطّيبة المبارك يا بيت الحكمة والحرص والكبر والفضائل. فلتدخل روحك جنّات الله لما فعلته من أعمال نبيلة على الأرض، يا قمراً مشعّاً عامراً بالفضائل. ليرأف بك الله وليرحمك ويدخلك الآخرة مع مختاريه».

---

(1) حرفياً حسن النّية. (فوستر)

(2) حافظ أي من يحفظ التّقاليد ويحافظ عليها. (كوندِه)

(3) العام 1287 للميلاد.

(4) العام 1312 للميلاد.

الفصل السّابع عشر

الملوك الذين عاصروا نصراً

في المغرب[1] تبوّأ السّلطان أبو ربيع سليمان بن عبد الله أبو يعقوب يوسف بن أبي يوسف يعقوب ابن عبد الحق سُدّة الحكم بعد موت شقيقه السّلطان أبي ثابت عامر الذي توفي سنة 708 هـ من شهر صفر في طنجة. وكان حكمه مميّزاً وفي زمنه استعاد بني مَرين الحكم على مدينة سبتة وإمارتها. غير أنّ السّلطان سليمان لم يعش طويلاً للقيام بكل الإصلاحات، فقد عاجله الموت في رباط تازي Tezi شهر رجب من العام 710 هـ وانتقل الحكم إلى عم والده السّلطان العظيم والكبير أبي سعيد عثمان بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحقّ، الذي دام حكمه أطول من حكم ملك غرناطة بكثير واستمرّ وقتاً طويلاً في فترة من خلفه. وفي تلمسان حكم الأمير ابن عثمان بن يغمرسان Yagomarsan وكان حكيماً ومحبّاً للخير، استمرّ حكمه حتى العام 718 هـ عندما أصبح زمام الأمور بيد ابنه عبد الرّحمن أبي تاشفين.

في تونس حكم الأمير الخليفة أبو عبد الله محمّد بن يحيى بن المستنصر أبي عبد الله محمّد بن أمير أبي زكريا بن أبي حفص Cafas بن عبد الواحد بن عبد الرّحمن، ووقعت البلاد أسيرة حروب أهلية وثورات استمرّت حتى العام 713 هـ. من الجهة المسيحية تناوب كلّ من الملوك التّالين: في قشتالة حكم فرناندو ابن سانچو ابن ألفونسو ابن فرناندو الذي حاصر الجزيرة الخضراء، ولكنه سرعان ما عدل عن نواياه.

---

(1) أي غربي أفريقيا. (فوستر)

ثم احتلّ قلعة القبضات Alcaudete التي حاصرها حيث توفي ونُقل جثمانه إلى جيان Jaén. وخلفه ابنه ألفونسو الذي توفي عام 750 هـ.

في أراغون حكم خايمِه ابن بِدرو وحاصر المَريّة وضيّق الخناق على السّكّان إلى حدّ كبير، غير أن هجمات جيوش المسلمين أجبرته على رفع الحصار بعد معركة دامية. وعاش لوقت أطول من ملك غرناطة نصر بن محمّد. أما إسماعيل بن فرج بن نصر بن اسماعيل بن محمّد بن أحمد بن محمّد بن هيثم بن عقيل الأنصاري الخزرجي والملقب بأبي الوليد وأبي السّعيد، فقد كان ابن ملك مقاطعة مالقة وابن أخت الملك نصر. كان رجلاً نبيلاً وجميلاً وذكياً وصريحاً ويتمتع بنفس رائعة متحرّراً للغاية وعاتياً وعدواً لدوداً لكل ما يخالف الشّرع. تمكّن من تبوء العرش بضربة حظ وبمساعدة الأقدار. غير أن كل ما يتم الحصول عليه بالمكيدة يذهب بسرعة، والعكس صحيح فكل مسألة تُدرس بحكمة وبدقة تعطي ثمارها حيث تكون كل الاحتمالات مدروسة وموضوعة على الطّاولة، ولكن على الرّغم من ذلك قد يأتي حدث غير متوقع ليضرب بكل المخطّطات بعرض الحائط، حيث أن قدرة الله أعظم من قوة الإنسان فهو من يسيّر النّاس وهو خالقهم ولا أحد يعرف ما يخبّئه لهم.

كيف يمكن إذن لإسماعيل أبي الوليد أن يأمل في الحصول على عرش غرناطة؟ في حين أجبرته مخطّطاته وتسرّعه على الخروج من المدينة سرّاً في المرة الأولى، حتى أنه لم يتمكّن من إنشاء حزب عندما تمرّد خاله نصر على الملك محمّد. ويقال إنه بعد هذه الأحداث ومع بدء حكم نصر عاد إسماعيل أبو الوليد إلى غرناطة مرة ثانية وبقي مختبئاً فيها، غير أنّ مكيدته كُشفت فأُخرج من جديد منها. وقد سبق وأشرنا في هذا السّياق إلى الظّروف التي دفعت به إلى حشد جيش بسرعة وإعلان العصيان على عمّه ومساعدة شعب وقادة غرناطة له، غير أن بعض ما حدث في هذه الفترة لم يُروَ. فعندما خرج إسماعيل بن فرج الملقب بأبي الوليد إلى غرناطة على رأس جيش كبير لمساعدة المتمرّدين فيها نصب معسكراً له قرب أتوشة Atocha في اليوم الأول من محرّم من العام 712 هـ فتصدّى له عمه نصر مع بعض الأصدقاء والفرسان من حزبه.

غير أن الحظ كان حليف إسماعيل، فهزم أتباع نصر الذين فرّوا حتى أن الملك بذاته تمكّن من الهروب بفضل سرعة جواده الذي حمله عبر بحيرة صغيرة حيث كانت تروى الجياد. ثم اختبأ نصر في المدينة ودافع عن نفسه حتى 13 محرم. وقد تمكّن الملك نصر بفضل حذره من تخفيف حدّة العاصفة من هذا الحين وعقد معاهدة مع إسماعيل شهر ربيع الأول، فعاد الأخير إلى مقاطعة مالقة مع جيشه ممتنّاً كونه أدرك أنّ بإمكانه يوماً الحصول على مبتغاه.

غير أنّ الفرسان الكبار في غرناطة لم يتمكّنوا من تحمّل تكبّر كبير الوزراء أبي محمّد الحجّي فتآمروا ضده وأعلنوا أنه خائن وحليف سرّي للمسيحيين ومنتهك لحرمة الملك وعدوّ الإسلام جميعاً. وبعد أن أشبعوا عقول الشّعب بهذه الاتهامات قام قادة التّمرّد بتوزيع النّقود الذهبية على المحتاجين للحصول على مبتغاهم. وفي ساعة الفجر الأولى من 25 رمضان 713 هـ خرج إلى شوارع المدينة آلاف النّاس المستائين يطالبون بتسليم الوزير الحاجي لهم، غير أن الملك نصراً حاول التّخفيف من حدّة المتظاهرين الذين عادوا كل إلى منزله بعد أن علموا أنّهم لن يتمكّنوا من فعل أي شيء في الوقت الحالي. غير أنّ الأعيان المتمرّدين كانوا يخافون تأثير محمّد الحاجي على الرّغم من إقالته من مركزه، وقرّروا الانتقام لكل الألم الذي سبّبه بهم، فذهبوا للقاء والي مقاطعة مالقة الذي استقبلهم بكل ترحاب وأعلنوا له عن ولائهم. حضّر ابن والي مقاطعة مالقة فرج بن نصر جيشاً، وسار إسماعيل أبو الوليد على رأسه نحو غرناطة واحتلّ مدينة لوشة دون أيّة مجابهات ثم أُعلن ملكاً على غرناطة بعد أن دخلها دون إضاعة أيّ وقت. هناك واجهته قوات نصر فهزموا ولحق بهم حتى أسوار المدينة قبل أن ينصب معسكره، في حين احتمى نصر في القصر الملكي حيث دعم مركزه إلى أقصى حد.

غير أن القادة الكبار كانوا مع إسماعيل بن فرج وكان لهم أتباع كثر في المدينة، فتمكّنوا من فتح أبواب الحصن أمامهم فاحتله إسماعيل دون أي مقاومة. ثم بعد أن شعر الملك نصر بقوة ابن أخته المتصاعدة ودون أي أمل في تقوية معسكره، أرسل

إلى إسماعيل بن فرج مقترحاً عليه عقد اتفاق ثم أبرما معاهدة. بعدها وافق نصر على التّنحّي عن العرش والانتفاء إلى مدينة وادي آش وإمارتها، وأمّن سلامة كل أتباعه وكل من بقي منهم في غرناطة. لم يرفض إسماعيل بن فرج أيّ شيء لخاله المنهزم أمامه فكل الظّروف التي تسمح له بتحقيق أحلامه كانت تتحقق. وخرج الملك المهزوم مع عائلته وحاشيته وحمل معه كنوزاً كبيرة. وغادر المدينة يوم 28 شوال من العام 713 هـ، ووصل إلى وادي آش حيث بقي فيها حتى آخر أيامه. وتمكّن إسماعيل الشّاب من الحصول على مبتغاه ونُصّب ملكاً على كل المملكة.

* * *

الفصل الثّامن عشر

حكم إسماعيل بن فرج - معركة فورتونا وزحف بِدرو ملك قشتالة - احتلال مدن وقلاع كثيرة - موت أميري قشتالة - اغتيال الملك إسماعيل

كان إسماعيل بن فرج رجلاً قوياً ناصراً للحقّ مدافعاً عن القانون وقويّ الإيمان. وصدف أن كان الفقهاء والعلماء في حضرته يتناقشون فوقف الملك وقال: «أنا لا أفهم ولا أعرف أيّة تعاليم غير تلك التي نشأتُ عليها بقوة وبكل جوارحي. ولا أطلب أي سبب لإقناعي بقوته العظمى وبراهيني موجودة هنا» وأومأ بيده إلى سيفه. كان إسماعيل رجل شريعة طبق أحكاماً قاسية ضد الخمر وأصلح كل الانتهاكات المتعلقة بهذا المشروب المُنكر. وطلب أن يضع المسيحيون علامات على لباسهم حتى يتم تمييزهم عن المسلمين وفرض عليهم رسوماً على الحمّامات والبيوت لم يدفعوها سابقاً.

مع بدء العام 716 هـ علم الملك إسماعيل أن قافلة مؤن كبيرة في طريقها إلى وادي آش من ملك قشتالة بطلب من نصر بن محمّد صديق الصّليبيين، فأبلغ حرسه وجمع نُخبة من الخيالة وسار على رأسهم وأمرهم بالسّيطرة على القافلة بما فيها وذبح كل الرّجال المرافقين لها. وكان له ما أراد وصار وجهاً لوجه مع القافلة على أبواب حصن عليا Hisn Aliay لكن الصّليبيين كانوا على حدود مارتوش وبأعداد وفيره.

ودرات بين القوتين معارك ضارية دموية أجبر فيها المسلمون في النّهاية على الانسحاب بعد أن سقط منهم على الأقل 500 جواد وفارس، ولم يكن الأمر أفضل من جهة الصّليبيين، فقد خسروا أعداداً كبيرة من أعتى وأفضل الفرسان، وكانت هذه المعركة ضارية وشديدة العنف وأطلق عليها اسم معركة فورتونا. زاد نصر الصّليبيين

من حقدهم ووقاحتهم فقاموا بهجمات كثيرة على أراضي المسلمين. في العام نفسه[1] حاصروا مدن كامبيل وماتامينوس وبيجيجيا وتيسكار وروطة Rueda المحصّنة وهاجموا قلاع كامبيل بكل وحشية ودمّروا الكروم والحدائق كلها. هيّأ ملك غرناطة شعبه للتّصدّي للمعتدي مقرّراً كسر عنفوان الصّليبيين. غير أنّهم علموا بذلك وبأنّ قواتٍ تتجه نحوهم، فأخذوا الغنائم وعادوا إلى داخل حدودهم.

عقد إسماعيل بن فرج العزم على اللجوء إلى العنف، فجمع القوات وسار بهم نحو جبل طارق حيث بذل مجهوداً كبيراً لاستعادة مفتاح المملكة من بين أيدي الصّليبيين. وقرّر القيام بما في وسعه لانتزاع كل الامتيازات التي مكّنت سليمان من بني مَرين حاكم سبتة من العبور إلى إسپانيا. فأرسل جيشاً كبيراً إلى جبل طارق لمحاصرته وقاموا بذلك لمدة قصيرة. غير أنّ القوات الحدودية في إشبيلية هبّت لمساعدة الصّليبيين عن طريق البحر، فأُجبر المسلمون على فض معسكرهم وعدم الدّخول في معركة.

زحف دون پِدرو ملك قشتالة بجيشه نحو غرناطة فاجتاح إمارة جيان Jaén ووصل حتى الجبال على بعد 12.6 كلم من غرناطة بذاتها فهاجم حصن الحصى[2] Hasnalhas بوحشية وأحرق الضّواحي وكل المؤن المخزّنة فيها ثم تابع نحو بينا وأحرق ضواحيها وفي جبل شقر Xúcar قطع أشجار البساتين. ثم وصل إلى مقربة من المدينة حين خرج إسماعيل بن فرج لمواجهته، غير أن الملك المسيحي لم يكن يرغب في المغامرة وفي محاربته، فانسحب تاركاً وراءه جزءاً كبيراً من غنائم وأسرى الحرب. وذهب دون پِدرو من كامبيل إلى جيان ومن ثمّ إلى أبذة Ubeda.

ولم يمضِ وقت طويل قبل عودة المؤمنين إلى المدينة، فعبر الحدود وألقى حصاراً على ڤيليث Vélez الشّهيرة بالفنون والتي تقع في موقع استراتيجي طبيعي. وهاجم المكان نهاراً كاملاً وتمكّن من احتلاله بقوة السّلاح. ولجأ السّكان نحو الحصن حيث حاصرهم دون پِدرو مرة ثانية وانقضّ عليهم بالآلات والأسلحة الحربية المختلفة.

---

(1) عام 1316 للميلاد. (كوندِه)

(2) أو كما يسميه البعض: Hasnaloz. (كوندِه)

خرج حرس الملك إسماعيل الحدودي لمساعدة المحاصَرين غير أن أعداد الغزاة الكبيرة حالت دون تقدّمهم فتراجعوا واستسلمت جيوش القلعة للمحتل. بعد هذا الانتصار الجديد حاصر المسيحيون مدينة تيشار المحصّنة التي دافع عنها محمّد حمدون قائدها بكل بسالة. غير أن الصّليبيين في ليلة كالحة تمكّنوا من تسلّق الصّخرة السّوداء Peña Negra التي تطلّ على القلعة. وكان حرّاس المكان قد أهملوا مراقبته جيداً فتمكّن الصّليبيون من السّيطرة على المدينة بالقوة في اليوم التّالي وأُجبر القائد محمّد حمدان وسكانها على الخروج نحو الحصن، ولم يتمكّنوا من الدّفاع عنه فالصّخرة السّوداء التي تطل على الحصن كانت قد وقعت في أيدي الصّليبيين.

بالتُالي في ظلّ هذه الظّروف كلّها أُجبر محمّد حمدان وأتباعه على الاستسلام بعد أن نفدت كل مؤنهم. منح الصّليبيون محمّداً ضمانات كبيرة حيث وافقوا على خروج كل السّكان بجميع ممتلكاتهم وكل ما يستطيعون حمله بأمان من المدينة، وهكذا كان حيث غادر 1500 رجل ونساء وأولاد المكان وعبروا الحدود نحو مقاطعة مالقة. ملأ خبر استسلام المدينة قلب سكان غرناطة بالحزن والأسى على مصاب أشقائهم في الإسلام. وكان إسماعيل يغلي حقداً، وأراد الانتقام من أعدائه، وكان يعلم أنّ الإنسان مسيّر غير مخيّر ولا شيء أكيد ولا شيء ثابت سوى المعركة بين الخير والشّر وأن بعد كلّ شدّة يأتي الفرج.

من مدينة تيشار المحصّنة سار دون بِدرو دي كاستيل ودون خوان أخوه[1] نحو الإمارة المجاورة واجتاحا القبضات Alcaudete وقلعة بني سعيد وحاصرا قلعة إيّورا وأحرقوا الضّواحي ثم وصلوا إلى پينوسار Pinosar. وفي اليوم التالي يوم عيد القديس يوحنا وصلت قواتهم على مشارف غرناطة.

دعا الملك إسماعيل قادته لاجتماع، وأخبرهم بآخر التّطوّرات وبالمعارك الوحشية التي يقودها الصّليبيون على مناطق المسلمين، وطلب منهم الدّفاع عن

(1) دون خوان لم يكن شقيق دون بِدرو بل عمّه وأخا والده دون سانچو، وكان حاكم مقاطعة بيسكاي. (كوندِه)

وطنهم بكل بأس وبسالة. فحمل كل شباب غرناطة السّلاح واتحدوا مع حرس الملك وساروا بإمرة مهرجيان Mahragian البارثي للجهاد. من جهته قاد إسماعيل كل جيوش الاحتياط وخرجوا لمواجهة المغتصب. تمكّن مهرجيان من كسب المعركة وقد انقضّ على الصّليبيين بكل وحشية مع جنوده المؤمنين الصّناديد وأجبرهم على الانسحاب وترك معسكرهم في يد المنتصر. وبعد أن تمّ خرق صفوف جيش الكفرة هاجمهم المسلمون من كل جهة وصوب. وحارب أميرا قشتالة بكل شجاعة وسقطا في المعارك الضّارية. ولحق جيش المسلمين كل من حاول الفرار حتى ساعات متأخرة من الليل، وكانت الظّلمة حليفة الصّليبيين الذين تبقوا فتمكّنوا من الفرار من أمام المنتصر.

في اليوم التالي تمكّن جيش المسلمين من إدراك ضراوة المعارك التي خاضها بعد رؤية الجثث التي تفترش ساحة المعركة، وتمكّنوا من الحصول على غنائم كبيرة من معسكر الصّليبيين أنستهم الخسائر التي ألمّت بهم. أمر إسماعيل بدفن الجميع لكي لا يلوّث الجو بروائح الجيف ودُفن المسلمون بلباسهم وسلاحهم كما وجدوا وكان هذا فخراً لكل مسلم[1]. احتفل سكان غرناطة بهذا النّصر بكل فرح سنة 718 هـ[2].

ثم تابع جيش إسماعيل زحفه نحو الإمارات المجاورة لاستعادة الحصون وكل ما خسروه. فتعرّف الأسرى الصّليبيون على جثة الأمير خوان التي أرسلت إلى قُرطُبة، وشعروا بالامتنان لهذا الفعل من الملك إسماعيل فطلبوا منه هدنة، غير أن الملك إسماعيل منحها فقط لبعض المناطق الحدودية. وأعطى المسلمين كل الفخر لفتح أيّة مدن، فعبروا حدود مدينة مُرسية ودون خسارة أي وقت احتلوا بقوة السّلاح مدن وشقة Huesca وأوريس وغاليرا التي كانت في إمارة كاثورلا. شارفت فترة الهدنة التي منحها إسماعيل بعد ثلاث سنوات على نهايتها وقد علم ملك غرناطة أنّ شعب قشتالة متقلقل بسبب الفتن الدّاخلية فقرّر اجتياح المدينة. وفي شهر رجب 724 سار

(1) يقول دي مارلِس إن فخر الإسلام الأكبر كان أن يدفن الشّهيد بلباسه وسلاحه. (فوستر)
(2) العام 1319 للميلاد. (كوندِه)

إسماعيل بن فرج وحاصر بسطة Baza التي سبق أن احتلّها الصّليبيون ونصب معسكره أمام المدينة وكان حذراً للغاية لجهة تدعيم موقعه.

بعد القيام بذلك بدأ هجماته ليلاً نهاراً مستخدماً آلات حربية مختلفة، ومن بينها قاذفات كتل من النّيران تحدث أصواتاً مهيبة وكأنها رعود، وقد أدّت هذه القذائف إلى إيقاع أضرار جسيمة والعديد من القتلى في المدن والأبراج والقلاع. أجبرت هذه الهجمات العنيفة المدينة على الاستسلام وإبرام معاهدة مع الملك إسماعيل، وحدث ذلك في 24 رجب من العام نفسه.

مع بدء العام التالي، زحف ملك غرناطة على رأس جيش مهول مدجّج بالآليات والأسلحة، لمحاصرة مدينة مارتوش، وقام بذلك حتى العاشر من شهر رجب فدكّها بالمعدات الحربية الثّقيلة. ودخلها في اليوم عينه بقوة السّلاح ولم يتمكّن سوى قلة من النّجاة، فغاصت شوارع المدينة بالدّماء وجثث المذبوحين. وصلّى الملك صلاة المغرب فوق الجثث، وفي اليوم التالي صلاة الفجر على سجادة الصّلاة الملطّخة عينها. وقتل في هذه المعارك فتى صغير هو ابن عثمان وندبت عليه كل القوات المسلّحة. ثم عاد إسماعيل نحو غرناطة عودة المنتصر في 24 رجب.

أسرت في هذه المعارك نساء رائعات الجمال وأطفال جمالهم أخّاذ من أغنياء مارتوش. وكان بين هؤلاء الأسرى إمرأة أسر جمالها كل من وقعت عليها عيناه أنقذها محمّد بن اسماعيل ابن والي الجزيرة الخضراء وابن عم والد الملك، غير أنه لم يتمكّن من تحريرها من بين يدي الآسرين وكان مستعدّاً للتّضحية بحياته لقاء ذلك وخوض العديد من العقبات والمخاطر. وطلب إسماعيل بن فرج أن توضع مع نساء حريمه. استاء محمّد من هذا الأمر وشعر بالمهانة، فشكى الأمر إلى ملكه مستخدماً عبارات بليغة دون نتيجة، وبعد أن ثبت له أنه لن يتمكّن من المعارضة أجبر إسماعيل محمّداً على السّكوت أو مغادرة ديوانه، مضيفاً أن وجوده في غرناطة غير مستحبّ وأنه حرٌّ للخروج منها، حتى أنه يستطيع التّحالف مع أعداء الملك إذا ما كان هذا الأمر يصبّ في مصلحته.

أُعلن يوم دخول الملك إسماعيل إلى المدينة يوم احتفال عام، فاستقبلته المدينة

كلّها بهتافات النّصر وعلّق في الشّوارع التي مرّ فيها الحرير والذّهب وأُحرق البخور الثّمين الذي ملأ الجو بأريج رائع أخّاذ. وبدت السّعادة على كل الوجوه فيما عدا وجه محمّد بن إسماعيل الذي تميّز بالغيظ والإحباط وأخذ يفكّر فقط بالألم الذي حلّ به، وعقد العزم على الانتقام لمعاناته. فأعطى سرّه هذا إلى أقرب المقرّبين من أصدقائه الكثر من أعلى المراتب، وطلب منهم مساعدته في أي خطوة قد يأخذها للانتقام. سيطر الغضب والألم على محمّد والغيرة والمهانة التي أصيب بهما في الصّميم، فدفعته هذه الأمور إلى تنامي حقده ضدّ الملك وتخبّطت الأحقاد في نفسه ولم يتمكّن من الانتظار بعد والعيش مع فكرة أن حبيبته قد تكون في حضن غنيم.

في اليوم الثّالث بعد دخول الملك إلى المدينة كان الأخير في قصر الحمراء عندما حضر أمام باب القصر الملكي ابن عمه المهان محمّد بن اسماعيل وأخوه وبعض رفاقه الأوفياء، وكانوا مسلّحين بالخناجر التي خبّأوها تحت ثيابهم وسكاكين مشحوذة، وطلبوا من الحرس مقابلة الملك أمام الباب ولم يمضِ وقت طويل حتى حضر إسماعيل وكبير وزرائه إلى البوابة. فتقدم محمّد وشقيقه كما لو كانا يودّان مصافحة الملك وشهر محمّد خنجره وأقحمه في رأس غنيمه وصدره ثلاث مرات فهوى فوراً أرضاً قائلاً: «يا خونة». شهر الوزير سيفه للدّفاع عن الملك، غير أنّ المتآمرين الآخرين انقضّوا عليه بالخناجر فقتلوه. وحدث كل هذا في وقت قصير قبل أن يتمكّن الحرس من الوصول إلى المكان وترك القتلة القصر واختبأ أغلبهم في مكان أمين.

رفع الحرّاس الملك المصاب وأخذوه إلى جناح الملكة أمّه، ووصل الأطباء والجراحون فوراً وقاموا بما في وسعهم، غير أن جروح الملك كانت قاتلة ولم يتمكّنوا من إنقاذه. علم نائب الوزير بالأمر وقام بما في وسعه للقبض على مرتكبي الحادث الأليم، غير أن معظهم تمكّن من الفرار من المدينة. أمّا الذين ألقي القبض عليهم فأعدموا في الحال وعلّقت رؤوسهم على حراب على أبواب المدينة. عندما عاد الوزير بعد إنهاء مهامه وجد أن الحرس في حالة هلع يطالبون قائدهم عثمان أبا سعد بن عبد الله إدريس بن عبد الحق الذي كان مناصراً للمتآمرين بإعطائهم معلومات

حول الملك، وتجمهرت في هذه الأثناء أعداد غفيرة من الشّعب حول القصر. أعلن عثمان أنّ جراح الملك طفيفة وأن حياته ليست في خطر وأنّه سيتماثل للشّفاء سريعاً، وبعد سماع هذه العبارات تبدّدت الحشود.

عندما وصل الوزير إلى غرفة الملك إسماعيل كان الأخير على شفير الموت، فأخفى ذلك وذهب إلى الحرس وقائدهم وأخبرهم أنّ الملك على ما يرام، ثم ذهب لجمع أصدقائه وطلب منهم القدوم إلى القصر الملكي لاستشارتهم في أمور قد تكون للمصلحة العامة وخاصّة لمصلحتهم هم. وعاد مع هؤلاء إلى القصر الملكي، فتركهم مع الحراس وذهب إلى غرفة إسماعيل فوجدوه ميتاً ثم طلب حضور القائد عثمان والقادة الكبار والشّيوخ قائلاً إنّ الملك يرغب في التحدّث إليه. قلق عثمان من هذا الطّلب بعض الشّيء مخافة من أن يكون إسماعيل قد اكتشف علاقته مع المتآمرين، بعد أن علم أن بعض أصدقائه في القصر الملكي. غير أنه بدّد مخاوفه ودخل إلى القصر الملكي مع من تبقّى من فرسانه. وبعد أن جمع كل الأعيان في الدّيوان حضر الوزير مع كبير أبناء إسماعيل محمّد الذي كان يافعاً، ثم أعلن للجميع أن الملك يرغب في أن يخلفه ابنه وطلب منهم جميعاً الانصياع إلى أوامره كونه لا يستطيع بسبب جراحه التحدّث إليهم مباشرة في الوقت الحالي.

قطع كل الحاضرين عهداً للانضواء تحت لواء الملك وخَلَفه، وأعلن الأعيان الأخير ملكاً عند انتهاء الاجتماع. أمّا عثمان الذي خاف من الأسوأ ففرح للغاية من هذا الأمر، وكان أول من صاح قائلاً: «ليحفظ الله ملكنا مولاي محمّد بن اسماعيل وينصره». وصاح كل الأعيان الحاضرين بهذه العبارات وكذلك الحرس، وخرجوا إلى الشّوارع وأعلنوا الولاء لملكهم محمّد اليافع. وتبدّل مجرى التاريخ! مع مطلع اليوم هذا كانت البلبلة والخوف سيّدي الموقف، ومع ساعات الظّهيرة عمّت الفرحة ودارت الاحتفالات مساء. توفي الملك إسماعيل بن فرج بن نصر الملقب بأبي الوليد وأبي السّعيد، ودفن في اليوم التالي في مأتم مهيب، ووري الثّرى في مدافن عائلته وكُتبت على الضّريح العبارات التالية[1]:

(1) النّص منقول عن ترجمة كوندِه بالإسپانيّة، وليس بفحواه الحرفي بالعربيّة كما هو بالأصل. (أحمد)

«هنا يرقد الشّهيد الملك فاتح الحدود وحامي الدّيانة المختار المهيب الأمير العادل، الحامي، البطل، الشّجاع وقت الحروب والغارات الكريم الأكثر هيبة بين الملوك والأكثر عنفواناً وانصياعاً لأمر الله، سيف حرب الجهاد الشّريفة، منقذ شعبه قائد القادة وملجأ الأعيان والفقراء. رحيم بالمؤمنين جبّار على الكفرة، ملك عادل ومتواضع أمير العنفوان المتّكل على الله أمير المسلمين، أبو الوليد إسماعيل ابن حامي الحمى الفاتح المختار المدافع النّبيل مصدر فخر بني نَصر وعمود السّلالة الغالبة، الرّحيم، الرّؤوف، أبي سعيد فرج ابن النّبيل والمدافع عن الإسلام وزهرة شباب أمراء الغلبة مفخرة سلالته الرّحيم أبي الوليد إسـماعيل بن نَصر. لترقد نفسه بسلام في جنة الفردوس ولتغمره المراحم، وليسكن الجنة مع المختارين كونه اتكل على الله لفتح البلاد وعبده وأطاعه بكل تواضع فتمكّن من إذلال أعدائه. داوم على ذلك حتى عادت نفسه الزّكية إلى خالقها، فليرحمه الله وليدخله جنة الخلد وليقعده مقعد المختارين. قتل غدراً لكنه قتل بكل فخر وطهارة. ولد فجر الجمعة 17 شوال من العام 677 هـ وانتقل إلى رحمته يوم الإثنين 26 رجب 725 وتسلّم سدّة الحكم في 17 شوال 718. فلترقد نفس ملكنا بسلام، وليسكن جنة الخلد مع من دخلوها من قبله حتى يوم القيامة».



الفصل التاسع عشر

حكم محمّد بن إسماعيل - حربه ضد الصّليبيين والأفارقة احتلاله جبل طارق

كان للملك إسماعيل بن فرج بن نصر أربعة أبناء: محمّد البكر الذي خلفه وكان في الثّانية عشرة من عمره عند وفاة والده، وفرج ثاني أبنائه الذي توفي في سجن في مقاطعة المَريّة Almería كما سنبين بعد ذلك، وأبو الحجّاج الثّالث الذي خلفه على العرش، وإسماعيل الولد الأخير الذي نفي إلى أفريقيا. وكان وزراء الملك إسماعيل بن فرج: القائد أبو عبد الله محمّد بن أبي الغيث نصر بن إبراهيم الفهري وكان من نبلاء الأندلس، وصديقه أبو الحسن علي بن مسعود المحاربي من سلاله نبيلة ومن أغنياء غرناطة. وكان أبو الحسن رجلاً طموحاً للغاية وحاول المستطاع لتدمير رفيقه أو زميله أبي عبد الله بنظر الملك إسماعيل آملاً البقاء وحده كالشّخص المخلص المفضّل لدى الملك، ولم يتوانَ للوصول إلى هذه الغاية عن القيام بأي شيء. كان قاضيه الشّيخ الفقيه أبو بكر يحيى بن علي بن مسعود المحارابي شقيق الوزير أبي الحسن، وبقي في هذا المنصب طوال فترة حكم الملك إسماعيل.

أمّا أمناء سرّ الملك فهم الأول أبو جعفر بن صفوان، من مقاطعة مالقة خدم فيها حيث كان قاضياً ورافقه إلى غرناطة، وثانياً الفقيه أبو الحسن بن Algam الغرناطي، وكان حليف الشّيوخ الرّئيسي في البلاد. وقائد جيشه الغربي عثمان أبو سعيد بن أبي الولاء إدريس بن عبد الحق، وكان قائداً ذا شأن كبير وفطناً شجاعاً ومن سلالة ملكية من فاس. وقد شيّد هذا الملك العظيم العديد من المباني ذات العمارة الرّائعة في غرناطة وأكثر من جامع، وأمر ببناء العديد من السّبلان وزرع الحدائق وحسّن جيش المدينة،

وقسّم الشّعب إلى فئات وسنّ قوانين عديدة، وكان يحبّ تربية الخيول وترويضها وركوبها وغيرها من أساليب التّرفيه المماثلة.

لُقّب الملك محمّد بن إسماعيل بأبي عبد الله، وقد أعلن ملكاً يوم وفاة والده ولم يكن قد أتم الثّانية عشرة من عمره وكان صغيراً للغاية لتسلّم سدّة الحكم، فحكمها وزيره أبو الحسن بن مسعود الذي خدم والده وقائد فرسانه عثمان أبو سعيد بن أبي الولاء إدريس. وبعد وقت قصير من تسلّم محمّد أبي عبد الله الحكم توفي الوزير أبو الحسن وخلفه بتاريخ 3 رمضان 725 محمّد عبد الحق من غرناطة، وكان رجلاً طموحاً يحبّ اغتنام الفرص. كانت هذه الأحوال مؤاتية لكي ينفّذ الوزير أمنياته، ووجد الفرصة التي طرحت أمامه على طبق من فضة لتحقيق مبتغاه والتنعّم بحب السّيطرة، فعندما كان الوزير المتوفى يحكم البلاد لم يتمكّن من ذلك وها هو ذا اليوم يحكم على الشّيوخ الأنبل ويجعلهم في حالة زريّة فقد رفض كل فرص ترقيتهم وترقية أعظم رجال المملكة. ووجد الفرصة ليبعد إخوة الملك عن العرش فنفى الأمير فرج بن إسماعيل إلى مقاطعة المَريّة ووضعه في السّجن حيث توفي، وأرسل أصغر الأمراء إسماعيل إلى أفريقيا طوال حياة شقيقه محمّد. وملأ الوزير الدّيوان الملكي بالحقد والنّميمة، ومن بين الذين شعروا بالمهانة القائد عثمان أبو سعيد الذي خرج من غرناطة بهدف الوصول إلى أفريقيا عاقداً العزم على ترك خدمة الملك بعد أن أصبح أسيراً لأوامر وزيره.

كان الملك محمّد بن إسماعيل صاحب عقل وبنية جيّدة وجمال ومتفهماً غير أنه كان حقوداً منذ صغره، وكان خطيباً رائعاً وله خصال جيدة ومتحرّراً للغاية. وكان بارعاً في استعمال الأسلحة وركوب الخيل وكل التّمارين ورمي الحراب والأسلحة. وكان الملك محمّد بن إسماعيل مولعاً بالصّيد وبتربية الجياد وكان ضليعاً في أنواعها، وكانت أحبّ الهدايا إلى قلبه. وكان لديه العديد منها لمكافأة فرسانه في الحروب أو من يحالفهم الحظ في مسابقات الفروسية. كما كان شغوفاً بالعلم محبّاً للعلماء وأحاط نفسه بالعباقرة المتعلّمين والمثقفين وكان يحبّ الشّعر والنّثر وحكايا البطولات

والملاحم والحب. في العام 726 هـ هاجم القائد عثمان أبو سعيد بن عبد الله إدريس أراضي الصّليبيين واحتلّ أراضيهم وحاصر قلعة روطة Rueda التي لم تتمكّن من الدّفاع عن نفسها لأكثر من يوم واستسلمت مع حلول الليل.

عندما وصل الملك محمّد بن إسماعيل إلى سنّ يسمح له بالحكم وحده كان قد علم بنوايا الوزير المبيّتة محمّد المحروق فعزله من منصبه وسجنه، وبهذا الفعل تمكّن محمّد من كسب ثقة الشّعب ومن إضعاف كل متآمر، ورحّب شعبه بالقرار حيث شعر أن ملكه صلب عادل. وعيّن محمّد مكان محمّد المحروق محمّد بن يحيى القجاتي Alkigiati الذي كان محبوباً ومقدرّاً لدى الجميع.

مع مطلع العام 727 هـ علم محمّد بن إسماعيل بأنّ عثمان أبا سعيد الذي خرج من غرناطة مع ابنه إبراهيم حمل الشّعب في مدن إمارة أندرش Andarax على العصيان عن طريق إعلان محمّد بن فرج بن إسماعيل عم الملك محمّد ملكاً، فاستاء للغاية وأبلغه رسله أنّ عمه في تلمسان عاقدٌ العزم على قطع البحر على رأس قوة كبيرة لاجتياح الأراضي الإسپانية. لم يضيّع الملك محمّد دقيقة لاغتنام الفرصة، فخرج لمجابهة المتمرّدين وواجههم مرّات عدّة، لكنّهم كانوا محظوظين بالنّظر إلى مواقعهم الاستراتيجية وتمكّنوا بفضل قدرات قادتهم من الصّمود غير أنهم فروا مراراً أمام جيش الملك.

عاد إبراهيم بن عثمان أبو سعيد بأمر والده نحو إشبيلية، حيث تمكّن من حمل الصّليبيين على شنّ حرب على بلاد المؤمنين. لم تكن هناك فرصة أفضل لهؤلاء الكفرة أعداء الله لاستعمال سلاحهم ضد المسلمين. فعبروا الحدود وسيطروا على المدينة الخضراء وحاصروها وأجبروها على الاستسلام على غرار مدن أولبيرا Olbera وپينيا دي پرونا Peña de Pruna وأيامونتِه. غير أنهم على مشارف وادي Guadalorza على مسافة غير بعيدة من قُرطُبة واجهوا جيوش الملك محمّد بن إسماعيل التي قادها بنفسه. قاد الصّليبيين دون مانويل لورد ألوخرا Alhojra في مدينة مُرسية ودارت بين الجيشين معارك عنيفة خسر فيها المسلمون زهرة فرسانهم. انكفأ الملك محمّد نحو

غرناطة واعتبر أن الوزير المحروق كان السّبب وراء هذه الحرب الأهلية فأمر بقطع رأسه في السّجن، وحدث ذلك يوم عودة الملك إلى المدينة قبل الليل يوم 2 محرم من العام 729 هـ.

ووصلت أنباء إلى غرناطة تفيد بأنّ قوات جديدة ستصل من أفريقيا لتدعيم صفوف القوات الأخرى، فأرسل الملك محمّد بن إسماعيل وزيره محمّد بن يحيى القجاتي Alkigiati إلى الجزيرة الخضراء وحمله رسائل إلى والي المدينة عمّه للدّفاع على المسلمين وعدم السّماح للقوات الآتية من أفريقيا بعبور اليابسة، وأبلغه أن المتمرّدين طلبوا مساعدة هؤلاء وأنهم قد ينتظرونهم على حدوده. وبعد بضعة أيام من وصول محمّد بن يحيى إلى الجزيرة هاجم الأفارقة المكان، وعلى الرّغم من أن قوات الأندلس حاربتهم بكل بسالة فقد أجبروها على الاستسلام وسيطروا على المدينة. مات الوزير وهو يدافع ببسالة في معسكر قبل الجزيرة الخضراء في 17 رجب من العام 729 هـ، فخسر الملك محمّد وزيراً حكيماً ووفياً.

وقعت هذه الأنباء على أهل غرناطة وقوع الصّاعقة، فعمّت الفوضى والقلق النّفوس. جمع محمّد بن إسماعيل الجنود فوراً لشنّ حملة جديدة، وعيّن أبا نعيم رضوان الذي ترعرع في بيت أبيه كبير الوزراء وحاجباً، وكان سياسياً بارعاً وجندياً باسلاً وله شعبية كبيرة في المدينة فرحّب به الشّعب. خرج الملك محمّد من غرناطة على رأس قوة مهولة من الفرسان والجنود، ودخل أراضي الصّليبيين واحتلّ مدينة كابرا Cabra بقوة السّلاح وقلعة برييغا Priega. وصادف في هذه المناسبة أن قام فرسان الملك بتهنئته على النّصر وكان من بينهم رجال علم وحكماء أثنوا على ما فعل وعلى قدرته كقائد حربي، فأجاب محمّد على هذا الأمر بالتالي: «لماذا تكيلون كل هذا المديح؟ ما الفعل الذي قمت به لأستحق هذا كلّه؟ يظن المرء أنكم ترون فيّ ملك الحكمة وكأنني من خريجي مدارس قُرطُبة أو إشبيلية». وأعرب في هذا الحديث عن احترامه للعلم والمتعلّمين وعن امتنانه للمتعلّمين الشّباب في المدارس الرّسمية. وكانت قوات الملك محمّد التي شنّت الهجوم على الصّليبيين قلّة من النّخبة وكانت

عاقدة العزم على احتلال مدينة بيانة Baena.

أعجب القادة بهذا العزم، غير أن الكثير من الأعيان والشّيوخ من بين الفرسان اعتبروا أنّ في هذا الأمر تسرّعاً، وتراجع بعض الشّيوخ عن الحملة لأسباب عديدة. لكن ذلك لم يردع الملك من إكمال خطته وسار بالجيوش نحو بيانة، وعندما رأى الصّليبيون عدد المهاجمين القليل اعتبروه قوة غير قادرة على حصار مدينة فخرجوا بكل عزم لمواجهتهم. غير أن الملك محمّداً وفرسانه الشّجعان أجبروهم على العودة إلى المدينة وقاتلوهم بالحراب. في خضمّ هذه المعركة وجّه الملك محمّد حربته المزيّنة بالذهب والأحجار الكريمة وغرسها في ظهر نصراني، فانطلق جواد الفارس النّصراني بسرعة وحمل المصاب والحربة في ظهره نحو المدينة، وتبعه بعض الفرسان المسلمين لاستعادة حربة الملك، غير أنّ الأخير طلب منهم العودة قائلاً: «اتركوا الحربة للمسكين، ففي حال لم يمت من جراحه سيكون لديه عصا للاتّكاء عليها» وعاد إلى معسكره.

بعد بضعة أيام استسلمت مدينة بيانة Baena وزحف محمّد داخل البلاد ووصل نحو أسوار كاسارِس Casares وهاجمها من كل صوب، وكان سيقوم باحتلالها لو لم يؤجّل شنّ هجومه عليها إلى اليوم التالي فأُجبر على رفع الحصار بعد علمه بأن قوة مسيحية قادمة نحوه لتحرير المكان. فسار الملك لمواجهة الأعداء وحاربهم فهزمهم وعمّت الفوضى في صفوف جنودهم وأجبرهم على الهروب ولحقت بهم قوات محمّد، غير أن الملك لم يعد لمحاصرة كاسارِس بل عقد العزم على احتلال جبل طارق عوضاً عنها.

وكان محمّد بن اسماعيل عاقداً العزم على احتلال جبل طارق بعد أن علم أنّ الجيوش التي تحميه ضعيفة، ونصب معسكره على مقربة من المكان وحاصره بقوة، ولم يتمكّن الصّليبيون على الرّغم من أسلحتهم من الدّفاع عن الموقع فاحتله المسلمون، على غرار رُندة Ronda وماراليا Marhalia، ولم يمضِ وقت طويل حتى سار نحو الجزيرة الخضراء واستعادها من الأفارقة بني مَرين الذين قدموا لمساعدة

عثمان أبي سعيد وغيره من العُصاة. وكان عثمان الرّضا Othman El Eada قد حكم الجزيرة بمرسوم من القائد الأفريقي الذي احتل المكان في 13 ذي الحجة من العام 729 هـ. واستعاد محمّد بن إسماعيل كل ما خسره من أراضٍ في الحرب الأهلية وكل المدن التي احتلّها العُصاة. وكان الصّليبيون في هذه الأثناء يتقدّمون نحو جبل طارق عبر البرّ والبحر.

وفي هذه الأثناء أيضاً تمرّد عمر أحد أبناء عثمان أبي سعيد على والده، ووجد وسيلة للتآمر ضدّه وعلى ترأس جيش من المناصرين كبير. مع هذه الجيوش تواجه مع والده عدّة مرات وانتصر في معظمها وأجبره على الهروب من مدينة فاس التي احتلّها فوراً، واحتلّ أيضاً مدينتي سجلماسة وتلمسان بالحيل وبشبكة المعلومات التي كان يحافظ عليها مع أخيه أبي الحسن علي الذي ساعده فأصبح الملك على كل ممتلكات والده. لم يتمكّن عثمان أبو سعيد العجوز من مواجهة كل هذه المآسي، فرزح تحت وطأة المرض في أواخر شهر ذي الحجة من العام 730 هـ[1] وقبل انقضائه توفي إلى رحمته تعالى. وبدوره تمرّد أبو الحسن علي ضدّ أخيه عمر بعد أن ساعده على احتلال ولايات والده وشنّ حرباً ضده، فتمكّن من كسب المعارك وقتل أخاه في إحداها.



(1) يقول البعض إن ذلك قد حدث عام 731. (كوندِه)

الفصل العشرون

متابعة الملك محمّد بن إسماعيل حملاته - استسلام جبل طارق على يد أبي الحسن ملك فاس - زحف محمّد وقواته لتحرير جبل طارق - استشهاده على أيدي الأفارقة. خلفه يوسف الملقب بأبي الحجّاج

سار محمّد بن إسماعيل ملك غرناطة لمساعدة الأندلسيين الذين حاصرهم قادة الصّليبيين بأمر ألفونسو ملك قشتالة في جبل طارق، وعندما علم الكفرة بزحفه أزالوا حصارهم وخرجوا نحو أوسونا Ossuna وألقوا حصاراً على مدينة أرداليس Medina Teba de Ardalis. وهاجمهم الملك محمّد مع فرسانه فأرسل خيرة الفرسان إلى نهر وادي تيب[1] مخافة منه من أن يغرق المسيحيون حيواناتهم في النّهر. وأجبر الصّليبيون مدينة بينيا دي پرونا Peña de Pruna وقلعتها على الاستسلام، وخرج القائد الذي حكم المكان بعدما عقد معاهدة سالماً ووصل إلى معسكر محمّد بن إسماعيل.

أرسل الملك قادته نحو النّهر المذكور أعلاه وأمرهم بالهجوم على معسكر الصّليبيين، في حين هاجم بنفسه برفقة ثلاثة آلاف رجل وادياً على بعد 4.2 كلم من المعسكر ونصبوا كميناً للأعداء. لم يتوقع الكفرة أيّ هجوم، فانقضّ عليهم بعض الفرسان بكل ضراوة وقتلوا منهم المئات. ثم انكفأ المسلمون وفق أوامر ملكهم آملين إحضار جيش الأعداء نحو الكمين، غير أنّ الصّليبيين علموا بالأمر ولم يقعوا في الفخ. ثم انضمّت إليهم فرق أرسلها الملك دون ألفونسو، لمساعدتهم ودارت بين الجيشين حرب ضارية وهوجم معسكر محمّد ومات العديد من الطّرفين. بعد ذلك

(1) أي نهر غواديتيبا. (فوستر)

الخيام وأسر العديد من المسلمين الذين كانوا على مقربة من المعسكر عاد الصّليبيون إلى مدينة تيبا Teba التي أُجبرت على الاستسلام بشروط غير ملائمة فخرج الجيوش حاملين الأسلحة والعداد واحتلّ الصّليبيون مدن برييغا Priega وكانييته Cañete وبرج كويڤاس Torre de las Cuevas وأورتيشيكار Ortexicar.

في هذه الأثناء، قطع أبو الحسن ملك فاس الجديد ابن عثمان أبي سعيد المضيق واحتلّ جبل طارق وحماه من الصّليبيين وجعله ملكاً له. غصّ قلب ملك غرناطة بالحزن عند سماع هذا الأمر، غير أنه لم يكن يرغب في قطع العلاقات مع ملك قوي مثل أبي الحسن الذي لمع صيته في كل من الأندلس وأفريقيا. فكتب محمّد بن إسماعيل رسائل إلى الملك الأفريقي مانحاً إياه القلعة التي احتلّها بالقوة بملء إرادته وبقي الملكان صديقين وحليفين. ثم زحف المسلمون نحو إمارة قُرطُبة عاقدين العزم على حصار قصر ريو، وفعلاً هاجموا المكان بكل بسالة وحاصروه ليلاً نهاراً، غير أنّ جيوشه دافعت عنه ببسالة فائقة وأجبرت جيش المسلمين على العودة إلى معسكره، ومنه خرج عبر المدن التي احتلّها بكل شجاعة. وحدث كل ذلك أثناء عودة ملك غرناطة إليها من كابرا Cabra.

غير أنّ أبا الحسن ملك فاس لم ينعم طويلاً بالسّيطرة على جبل طارق، فقد كان الصّليبيون يعلمون أهمية المكان وموقعه الاستراتيجي كونه المفتاح الأساس للأندلس فساروا نحو الجبل للسّيطرة عليه. دافع قادة أبي الحسن عن القلعة بكل بسالة، غير أن إصرار الصّليبيين أرهق قواهم وتمكّنت سفن الكفرة التي كانت تجوب المضيق بكل حرص من منع وصول أيّ مؤنة أو سلاح إلى مقاتلي أبي الحسن من أفريقيا، فعانوا من حرمان كبير وفقدوا الأمل في المساعدة. لكنهم تمكّنوا من إرسال مرسال إلى ملك غرناطة معلمين إياه بما يقوم به الصّليبيون وطلبوا منه مدّهم بالمساعدة بصفته حليف ملكهم أبي الحسن.

جمع محمّد بن إسماعيل جيشاً مهيباً وسار لإنقاذ الأفارقة في جبل طارق، ووصل إلى الجزيرة الخضراء ثم خرج منها إلى جبل طارق وهاجم الصّليبيين قبل القلعة

وهزمهم في مذبحة كبيرة بعد قتال عنيف وأجبرهم على رفع حصارهم عن المكان. ساعد ملك غرناطة الأفارقة على التخلّص من عدوّهم المسيحي، غير أنّ عظمة النّصر سيطرت عليه وغمره الغرور فأردف بعض الكلمات إلى القائد الأفريقي بنبرة غير متوقعة مغرورة قائلاً إن الصّليبيين فرسان شجعان لم يتواجهوا مع الأفارقة الأقل شأناً لأنهم وكل من ولد في الأندلس يخجلون من ذلك، وعندما أتى جيش غرناطة أظهروا لباقتهم. ثم أضاف أنّ فرسان قشتالة حاربوا شعب غرناطة بكل عدل وأعطوهم النّصر ومنحوهم امتياز إعطاء الخبز إلى الجائعين الأفارقة المعوزين.

حاز محمّد بن إسماعيل على عداوة أبي الحسن ضدّه بعدما تلفّظ بهذه العبارات. وبعد أن سمعه يتحدّث عن قرار بسحب جيشه وبزيارة ملك فاس قام أبو الحسن بنصب مكيدة للثّأر لنفسه ولبني شعبه وعقد العزم على قتل محمّد. وكان كما تمنّى، فبعد أن انسحب جنود غرناطة وبقي الملك برفقة قلّة من الفرسان لمرافقته لزيارة ملك فاس مع أبي الحسن الذي أمر بعض القتلة بمراقبته وقتله في الوقت الملائم. وفي اليوم التالي بعد انسحاب القوات لحق القتلة بالملك ومرافقيه عبر الجبال في ممرّات ضيقة وواجهوه في مكان يصعب عليه فيه العودة إلى الوراء، حيث كانت الأحصنة تمشي الواحدة خلف الأخرى، فقطعوا عليه الطّريق وانقضّوا على ضحيّتهم وانهالوا على الملك بحرابهم، ويقال إنّ أول من ضربه كان جندياً لدى والده يدعى زيّان فخرّ أرضاً وتوفي في 13 من ذي الحجة من العام 733 هـ.

علم الجنود والحرّاس الذين بقوا في المعسكر بالحادث الأليم، وعلى الرّغم من قلّة عددهم قرّروا الانتقام لملكهم النّبيل، غير أنّ الأفارقة خوفاً من أي غضب وانتقام أقفلوا أبواب القلعة ولم يتركوا لفرسان الأندلس أيّ مجال لمهاجمتهم. تُرك جثمان محمّد في الجبال ونكل به جنود فاس بعد أن أنقذهم من براثن الصّليبيين والجوع، وكان هؤلاء البربر عديمي الامتنان. وحمل جنود غرناطة الخبر الأليم إلى أهلهم وحزن الجميع على ملكهم وشعروا بالأسى لمصابه. أعلن الوزراء والأعيان بعدها شقيقه يوسف أبا الحجّاج ملكاً وكان أول ما أمر به استعادة جثمان شقيقه فعادت جثة

محمّد إلى مقاطعة مالقة حيث دفن في ضريح شيّد لهذا الغرض وكتب على ضريحه[1]:

«هنا يرقد الملك الكبير والسّطان المكين أبو عبد الله محمّد من بني الملوك القائد المجاهد وقاهر الأعداء سلسل بني نصر المعروفين، أمير المؤمنين ابن السّلطان أبي الوليد بن فرج بن نَصر. غفر له الله وأسكنه جنات رحمته. ولد يوم 8 محرم 715 وولي المُلك في 26 رجب 725 [2]وتوفي في 13 من ذي الحجة 733. عليه رحمة الله العليّ القدير الذي لا حدّ لسلطانه».

عند وصول أمر وفاة الملك إلى جيش غرناطة وهو في طريق عودته من جبل طارق غصّت قلوب الجنود بالأسى وعقدوا العزم على الثّأر له بعد أن جعلهم ينتصرون على الأعداء، غير أن ذلك لم يكن ليشكّل لهم أيّ عزاء فالفقيد لن يعود مهما فعلوا. أعلن الجنود شقيق الملك المغدور أبا الحجّاج ملكاً، وقطع القادة عهداً بالانضواء تحت لوائه في كل بقاع البلاد، وحصل ذلك في 13من ذي الحجة وعاد مع الجنود إلى غرناظة وأُعلن ملكاً مرّة جديدة فيها.

كان الملك يوسف بن إسماعيل بن فرج الملقب بأبي الحجّاج ملكاً يافعاً رائع الجمال والنّفس، وقوي البنية أيّداً لكنه طيّع ودود ومتفهّم. وكان شاعراً جيداً، نبيهاً، فقيهاً بعض الشّيء ملمّاً بفنون كثيرة ومحبّاً للعلم ولدراسته يهوى السّلام عوضاً عن الحرب. عند انتهاء احتفالات تنصيبه ملكاً بدأ يوسف بن إسماعيل بالتّفاوض لإبرام معاهدات سلام مع الأمراء جيرانه من الصّليبيين والمسلمين، فأرسل رسلاً إلى إشبيلية لبحث هدنة لمدة أربع سنوات وفق شروط ملائمة. ثم أدخل الملك تعديلات على القوانين والأنظمة المدنية في المملكة حيث كانت تُعدّل يومياً من قبل القضاة المتمرّسين والكتّاب. وأمر يوسف بن إسماعيل أن تختصر كل الجمل في المستندات

---

(1) النّص منقول عن ترجمة كوندِه بالإسبانيّة، وليس بفحواه الحرفي بالعربيّة كما هو بالأصل. (أحمد)

(2) ممّا يعني أنه كان عند تسلمه العرش كان يبلغ من العمر 10 أعوام عوضاً عن 12. انظر ماتقدّم في الفصل التّاسع عشر. (فوستر)

القانونية، وأمر العلماء والفقهاء بتحضير معاهدات جيدة وأعطى لذلك توضيحات.

وأمر الملك بوضع تقديرات جديدة لكل من قام بأيّ إنجاز كبير في المملكة، وأصدر توجيهات لسنّ قوانين تتعلّق بكل من يمارس الفنون والمهن أياً كانت، وأخرى بواضعي الاستراتيجيات والفن العسكري وغيرها.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

حكم يوسف بن إسماعيل - معركة نهر سيليتو التي كسبها الصّليبيون

مع بدء حكم الملك يوسف توفي إلى رحمته تعالى الوزير الذي كان بأمر والده أبو نعيم رضوان فمنح الشّاب هذا المنصب إلى أبي إسحاق بن عبد الحق وهو فارس من سلالة عريقة غنية في 3 من محرم عام 734 هـ. غير أنّ تعيين هذا الوزير أثار بعض الامتعاض، فبعد أن علم به الأعيان والقادة حضروا إلى الملك متّهمين إياه بالعلوّ والغرور وحبّ الانتقام وواصفين إياه بأنه مستعدّ للتسبّب بأيّة مشاكل، ورجوا الملك يوسف الشّاب بعزل الوزير الجديد من منصبه في حال أراد أن يعمّ السّلام والطّمأنينة مملكته. شكر الملك يوسف مستشاريه لنصيحتهم هذه وللاهتمام الذي أبدوه لمصلحة البلاد وأعرب لهم عن أنّ مصلحة البلاد تعلو فوق كل اعتبار، وبعد بضعة أيام أقال الوزير المعني. ثم عيّن الحاجب أبا نعيم بن رضوان مكانه، وكان أبو نعيم فارساً هماماً عادلاً لكنه عسير الطّباع متجهّم وصارم، وكان كل رجل يرتعد من المثول أمامه في زمن حكمه.

أوكل الملك إلى الوزير أمر الاهتمام بالشّرطة في المدينة، ولم يكن في محكمته فئات أكانت عسكرية أم مدنية، ولم يكن يفرّق بين أصحاب شأن رفيع أو عامة الشّعب، وأجبر كل من طلب حضوره بالمثول أمامه سواءٌ أكان مدّعياً أو شاهداً أو غير ذلك. كان أبو نعيم صارماً في حكمه سريع الغضب ومقتضب الكلام، وقد حكم على الكثير أحكاماً ثقيلة وأمر بقطع رؤوس أبرياء كثر. كان الملك يوسف بن إسماعيل يعير اهتماماً كبيراً لرفاه القوم ويستمع دائماً لشكاوى الفقراء والضّعفاء منهم

أكثر من شكاوى الأقوياء، وعلم بأفعال أبي نعيم وبالأحكام التي كان يدلي بها مستنداً إلى طباعه عوضاً عن عدالة القانون، فأمره بتعليق مهامه لفترة، وبعدها وُضع الوزير بالسّجن وحدث ذلك في 22 من رجب من العام 740 هـ.

وكان يوسف بن إسماعيل ملك غرناطة صديقاً لكل الأمراء المسلمين وعقد هدنة مع الصّليبيين، فأمضى وقته بالقيام بأعمال لتجميل المدينة وتشييد عمارات رائعة الهندسة، وأعاد بناء الجامع الأعظم الرّائع وزيّنه بأبهى الفنون الجميلة وشجّع كلّ الفنون مخصّصاً لها جزءاً كبيراً من العائدات. وسنّ قوانين وأنظمة تحكم الفقهاء والمقرئين والمؤذّنين والحافظين وغيرهم من الأشخاص ممّن كان في خدمة الجماعة، وحدّد مهامهم والتزاماتهم وكيفية الدّفع لهم. بنى يوسف بن إسماعيل على مقربة من مقاطعة مالقة قصراً عالياً ومهيباً وأنفق على هذا الصّرح المهيب أموالاً طائلة، وكان قد خطّطه بذاته وحدّد مزاياه ومزايا غيره من المباني وأعطى خرائطها وقام بكل الإجراءات المتعلّقة ببنائها.

وصلت الهدنة الموقّعة مع الصّليبيين إلى نهايتها. وعندها قام قائد جنود غرناطة عبد الله بن رضوان إلى حدود مُرسية وزحف نحو الإمارة برفقة ريّس الغرب أبي ثابت عمر بن عثمان بن إدريس بن عبد الحق، وهو من سلالة بني مَرين الملكية، فاجتاح القائدان الإمارة وأحرقا مدينة بُرج الحمار Borgalhimar وأسرا عدداً كبيراً من الأشخاص وأخذا قطعاناً وغنائم كبيرة، وعادا إلى غرناطة ومعهما أكثر من ألف امرأة وطفل ورجل مسيحي ودخلا المدينة منتصرين. فعمّت فيها الأفراح بعد هذه الحملة ورقص الشّعب وعبّر عن فرحه بطرق أخرى.

منح الملك ريّس الغرب أرفع التّقديرات، وجعله من أقرب المقرّبين منه ليس فقط بالنّظر إلى كونه متحدّراً من سلالة نبيلة، بل لأنه قائد هام استلم مناصب عديدة في الجيش وترفّع فيه وبفضل قدرته وطباعه المميّزة. وكان أبو ثابت عمر بن عثمان يمنع كل نعم من قبل الملك، ولم يكن بإمكان أحد التحدّث مع يوسف بن إسماعيل دون إذنه ولم تنفّذ أيّة كبيرة أو صغيرة في القصر الملكي دون موافقته وأمره. وصادف أنه

بعد بضعة أيام من عودة القائدين رضوان وأبي ثابت من حدود مدينة مُرسية أن أمر بسجن ريّس الغرب عمر صديقه الحميم مع أخويه، وحدث ذلك في 29 ربيع الأول من العام 741 هـ. أذهل هذا الأمر الشّعب بأسره، ومُنح المنصب الذي كان يشغله أبو ثابت عمر إلى ابن عمه عمر يحيى بن عمر بن رحو Ben Rehu. لم يعرف أحد السّبب وراء القرار المتعلق بسجن عمر، غير أن البعض يقول إنّ يوسف بن إسماعيل قد أخبر عمر صديقه ببعض قصص الحب واكتشف لسوء الحظ أنه غريمه. غير أن الأمر لم يكن كذلك، فقد كانت محبوبة الملك تفضّله على الأخير وهذا ما عمد يحيى ابن عم أبي ثابت عمر إلى إخباره للملك يوسف مرات عدة، ممّا دفع الملك إلى اتخاذ قراره هذا مع أن كل هذا الأمر كان ملفّقاً.

في الوقت نفسه وصلت شكاوى من الشّعب إلى مسامع الملك حول سوء إدارة الوزير أبي الحسن علي بن مول Ben Moul، فجرّده الملك من منصبه ومنحه لأبي الحسن ابن الجاب الذي شغل منصب خطيب الملك محمّد أخيه واشتهر بنزاهته وحرصه وعلمه. ومع اقتراب العام 741 هـ، وصلت أنباء للملك يوسف أنّ ملك فاس علياً أبا الحسن بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق من بني مَرين قد قطع البحر ونجح في كسب معركة بحرية ضدّ الصّليبيين وأوقع في صفوفهم خسائر جسيمة بعد أن هاجمهم المسلمون في 29 من شهر صفر من العام عينه. حاصر المسلمون القوات المسيحيية من كل صوب بفضل أسطول من 140 سفينة وأغرقوها وأخذوا قبل ذلك كل الأسلحة والذّخائر منها. هُلّل لهذا الحدث في كل أراضي غرناطة ونصبت صيوانات وعلّقت الأنوار ووزّع الطّعام ورقصت النّسوة كل الليل. وأمر ملك غرناطة أن يذهب بعض فرسانه لتهنئة ملك فاس، فاجتمع قادة الحدود وكبار الشّيوخ وخرج الملك معهم لتهنئة ملك فاس، ووصل إلى الجزيرة الخضراء في 20 من شهر صفر من العام نفسه. فرح ملك فاس أبو الحسن بن عثمان كثيراً بوصول يوسف بن إسماعيل وأولم له ولمرافقيه[1].

(1) يقول السّلماني وغيره أن اللقاء الذي جمع يوسف وأبي الحسن كان نهار السّبت في 6 من شهر

وكان مع ملك فاس قوة مهولة من الفرسان والجيوش، واتفق مع الملك يوسف على حصار مقاطعة طريف Tarifa وزحفا مع جيشهما نحوها ونصبا معسكرهما على مقربة منها في الثّامن من الشّهر التالي. وهاجم المسلمون بعدها بكل أنواع الأسلحة الحربية ومنها المنجنيق وغيره من الأدوات الحربية، ورموا عليها كريّات من النّار والنّفط[1] والفولاذ فألحقوا بأسوارها خسائر جسيمة. دام الحصار طويلاً فأرسل أبو الحسن ملك فاس قادته عبد الملك وعلي العطّار مع قوة مختارة من زناتة ومَصمودة وغمارة لاجتياح أراضي مدينة خيريث (شريش) وسيدونيا (شذونة) وليبريا والأرك، وسارت القوات وألحقت أضراراً بكل الحقول وأحرقت المنازل وتركت الإمارات هذه كصحراء قاحلة لا حياة فيها وكأنّ عاصفة اجتاحتها.

غير أنّ الصّليبيين وأتباعهم هجموا على معسكر الأفارقة على حين غرّة، فعمّت البلبلة في صفوفهم ولم يتمكّنوا من الدّفاع عن أنفسهم إلا بصعوبة كبيرة. وبعد مضيّ وقت قصير لاذوا بالفرار تاركين قادتهم عرضة لحراب الغزاة. توفي القائدان علي العطّار وعبد الحق (ابن عمه) وهما يقاتلان ببسالة للدّفاع عن شعبهما ضد أعداء الله، وذهبت دماءهما سُدى حيث انقض عليهما الكفرة بحرابهم بكل وحشية. قام خمسمئة مسلم من قبائل زناتة وغمارة بالدّفاع عن الأمّة، غير أنّ جهودهم ذهبت أدراج الرّياح فوقعوا ضحايا الأعداء وتُركت جثثهم في أرض المعركة لتلتهمها الطّيور الجارحة والكاسرة. ملأت هذه الأنباء التّعيسة قلبي الملكين يوسف بن إسماعيل وأبي الحسن بالأسى والحزن على أرواح المسلمين الطّاهرة التي أزهقت في هذه المعركة، وخاصّة خسارة القائدين النّبيلين عبد الحق وعلي العطّار فأرسل ملك فاس برسائل إلى قادة أفريقيا يأمرهم بإرسال قوة كبيرة، وطلب ملك غرناطة الأمر عينه من شعبه، وعقدا العزم على الثّأر للخسارة التي تكبّداها.

أرسل الصّليبيون المحاصرون في مقاطعة طريف Tarifa إلى ملك قشتالة وملك

شوال. (كوندِه) قلت: ويريد بالسّلماني المؤرّخ لسان الدّين ابن الخطيب. (أحمد)

(1) وردت الكلمة *nafta* في النّص الإسباني. (أحمد)

البرتغال رسائل يطلبون مساعدتهم، خاصّة بعد أن ازدادت أعداد قوات المسلمين حتى غطّت الجبال المقابلة. وكان ملك قشتالة في هذه الأثناء في إشبيلية، فجمع قواته بسرعة وسار لمساعدة شعبه على رأس جيش مهول، وكذلك فعل ملك البرتغال وسارا معاً لمواجهة جيوش المؤمنين بكل عزم. عندما وصلت الجيوش إلى حجر الأيل[1] Hijarayel تراءت لهم جنود المسلمين فأغارت القوات من كل صوب على بعضها بكل قوة بعد أن علم المؤمنون بقدوم أعداء الله. سار الملكان يوسف بن إسماعيل وأبو الحسن على رأس جيشيهما وحضّر الكفرة جنودهم بالمثل، وعندما حلّ الغروب لم ينوِ أي من الجيشين مواجهة الآخر ليلاً، وبقي الكلّ على أهبة الاستعداد لهجوم محتمل.

عند بزوغ الفجر، وبعد أن قام الطّرفان بتقوية النّفوس وتعبئتها ورفع معنويات قواتهم للنّصر على العدو، زعقت أبواق الحرب وطبولها وزُلزلت الأرض تحت أقدام المحاربين ودوّت أصوات التّكبير والصّلوات والتّسابيح وصراخ المقاتلين من المعسكرين. وتلاقى جنود الصّليبيين مع المحاربين الكُماة من زناتة وغمارة، ودارت معارك طاحنة بين الطّرفين من كل حدب وصوب، وحاربت القوات بكل عزم وانقضّت قوات المسلمين المدجّجين بالدّروع هم وأحصنتهم على الصّليبيين وقطعوهم إرباً. علم الصّليبيون بهذا الأمر فرفعوا الحصار عن مقاطعة طريف وهجموا على معسكر أبي الحسن ملك فاس وسيطروا على حريمه وكنوزه.

ترك الأفارقة ساحة الحرب، غير أن الأندلسيين تابعوها بقيادة ملكهم يوسف بن إسماعيل، إلا أن الأخير بعد أن علم أن خيرة شباب وفرسان الصّليبيين تنقضّ على جيوشه وأن الأفارقة يهربون من كل صوب أمر قواته بالتّراجع، لكنهم تابعوا القتال حتى بعد أن حاصرتهم قوات الصّليبيين وسار بهم الملك نحو الجزيرة الخضراء بعد أن خسر العديد من المقاتلين حتى وصل إلى المدينة واحتمى فيها. بدوره احتمى ملك فاس في جبل طارق ثم أبحر نحو سبتة. وحدثت هذه المعارك يوم 7 جمادى الأولى

(1) أي صخرة الأيّل. (فوستر)

من العام 741 هـ وافترشت جثث القتلى أرض المعركة، وكانت تلك أكبر مذبحة احتفل بها الأعداء لمدة طويلة حتى ضربوا بها المثل.

أرسلت جيوش يوسف بن إسماعيل لملكها أنباءً مفادها أن كل الممرات قد أغلقت من قبل الأعداء، فعاد الملك على متن سفينة إلى غرناطة ورسى في المُنكّب Almuñécar. وكانت المدينة في حالة حداد على أرواح الجيوش التي أُزهقت في المعركة المشؤومة، ومن بينهم قاضي الأندلس أبي عبد الله محمّد العسكري. بعد هذا النّصر سار ملك قشتالة نحو مدينة قلعة يحصب Calayaseb وهاجمها بكل الأسلحة الحربية وأرهق جيوشها، فعقد شعبها معاهدة مع الملك ألفونسو وسلّموه المدينة وخرجوا منها تاركين إياها للغازي، واستسلمت أيضاً پرييغا Priega وناجر Anexir إلى الصّليبيين ولم يعد هناك من عوائق أمام هذه القوة المزلزلة. في السّنة التالية لم يكن حظ المسلمين أفضل، فقد درات معركة ضارية بين جيوش غرناطة والأفارقة أعداء الله في وادي منزل Wada Menzil أوقعت خسائر جسيمة في صفوفهم، وتوفي الأمراء قادتهم في الحرب بعد أن حاربوا بكل بسالة.



الفصل الثّاني والعشرون

احتلال الصّليبيين للجزيرة الخضراء – عقد هدنة مع الأعداء – سياسة الملك يوسف – المراسيم الدّينية

كان حظّ المسلمين قليلاً في هذه الأثناء، في حين كان ملك قشتالة ألفونسو يسجل النّصر بعد الآخر. وعقد العزم على احتلال الجزيرة الخضراء بوابة إسپانيا من هذا الصّوب، وكانت مدينة رائعة وقوية محاطة بثلاثة مروج خضراء. أرسل ألفونسو قواته إليها وقوات أخرى لمهاجمة ملك غرناطة من جبهات متعدّدة، فأوقعت هذه الجيوش خسائر جسيمة في صفوف المسلمين وأحرقت الحقول. مع حلول منتصف الرّبيع وصل الصّليبيون إلى مشارف الجزيرة الخضراء حيث نصبوا معسكرهم في فحص (مرج) الڤيغا وقاموا بحمايته بكل ما أوتوا من قوة، غير أن المحاصَرين لم يدعوهم بسلام، وكانت تدور بينهم وبين جيوش المعسكر يومياً هجمات توقع خسائر من الجهتين، وفي بعض الأحيان دارت معارك اشتركت فيها كل الجيوش المحاصرة، غير أن هذه المعارك كانت تارة يكسبها هؤلاء وطوراً هؤلاء.

أنزل الصّليبيون كل قواهم وغضبهم على المدينة، فأقاموا قلاعاً من خشب واستخدموا الآليات من كل نوع، وقام المسلمون بالمستحيل لتدميرها فدكّوها بالأحجار والكريّات الفولاذية المحمّاة بالمنجنيق، فأوقعوا خسائر جسيمة في عداد الجنود المحاصِرة. سار الملك يوسف بن إسماعيل من غرناطة مع جيوشه نحو الجزيرة الخضراء لمساعدتها، وأنشأ معسكره على ضفاف نهر غُواديارو Wadijaro وكان يرغب في الهجوم دون إضاعة أيّ وقت، غير أن قادته لم يتمتعوا بالقوّة لشنّ حرب على الصّليبيين خاصّة في معسكرهم المحصّن، ونصحوا الملك بالتروّي إثر

الخلل الذي ألمّ بصفوف القوات بعد معركة مقاطعة طريف Tarifa. خاف ملك غرناطة أن ترهق قوى المدينة قبل التمكّن من تحريرها أو استسلامها قبل وصول أيّ عون وبالتالي خسارة جوهرة مدن المسلمين، فأقنع قواته بالمهاجمة. وفي اليوم التالي مع ساعات الفجر الأولى وصل إلى نهر پالمونس Palmones بين المعسكرين. ظنّ الملك يوسف أنّ المفاجأة هي أنسب حلّ، لذا أمر جيشه قبل مطلع اليوم في وقت لم يتوقّعه العدو بالهجوم والانقضاض على الكفرة.

وبالفعل شنّ هجوماً بقوة وعزم كبيرين فعمت البلبلة في صفوف الصّليبيين، غير أن الحصون التي أحاطت بالمعسكر حمته وكانت بمثابة عائق كبير أمام تقدّم المسلمين الذين لم يتمكّنوا من تنفيذ مخططهم بل قتلوا كل من مرّ بطريقهم. من جهة أخرى سقط عدد لا يستهان به من فرسان المسلمين تحت رماح الكفرة، وهرع جيش كبير للدّفاع عن المعسكر فأمر القادة المسلمين جنودهم بالتّراجع عوضاً عن رمي أنفسهم في براثن الأسد. عاني سكان الجزيرة الخضراء من نقص المؤونة، وبعد أن علموا بأن الملك يوسف لم يتمكّن من فك حصارهم أرسلوا مراسيل على متن بعض السّفن التي تمكّنت من الاقتراب من المدينة في الليل الكالح لإبلاغ ملكهم أنهم لن يتمكّنوا من الصّمود، وبالتالي رجوه بدء المفاوضات مع العدو. أرسل يوسف بن إسماعيل وفداً إلى أبي الحسن ملك فاس، غير أنّ الأخير طلب إعفاءه من هذه المهمّة كون بلاده تعاني من مشاكل داخلية ونصحه بعقد صلح مع ألفونسو ملك قشتالة.

حاول الملك يوسف القيام بذلك كونه الحل الأنسب، غير أن الملك المسيحي لم يكن يرضى سوى باستسلام المدينة غير المشروط والكامل. قام ملك غرناطة مرّة جديدة باللجوء إلى قوة السّلاح وحاول مهاجمة أعداء الله، غير أن قادته تراجعوا وأعلنوا له أن الهجوم على الصّليبيين في الوقت الحالي أمر خطير سوف يضع سلامة المملكة كلها في خطر. عقد الملك يوسف عندها العزم على إبرام صلح مع ألفونسو ووافق على استسلام الجزيرة الخضراء في نهاية المطاف، شرط أن يتراجع المسلمون من المدينة الجديدة إلى حدود المدينة القديمة مع كل ممتلكاتهم وقاموا بذلك دون

أي إبطاء ومنحوا وقتاً كافياً للذهاب إلى أيّ مكان اختاروه مع كل مقتنياتهم بحماية ورعاية ألفونسو ملك قشتالة، وعقدت هدنة مدتها 10 سنوات حتى يتعافى كل طرف من الأضرار التي ألمّت به بسبب الحرب الضّروس. سيطر الأعداء بعد ذلك على الجزيرة الخضراء بعد مضي 20 شهراً على حصارها في شهر محرم[1] من العام 744هـ[2].

منح الملك ألفونسو قادة الملك يوسف بن إسماعيل الذين جعلوه يأخذ هذا القرار كل تقدير، وكذلك عامل بكل احترام شعب المدينة وغمر كرمه الجميع. وطوال فترة الهدنة الطّويلة هذه مع ملك قشتالة عمل يوسف بن إسماعيل كل ما بوسعه على إحلال الرّفاه بين أبناء شعبه، فبنى المدارس في كل أرجاء المملكة وفرض طريقة تعليم رسمية وموحّدة سهلة الفهم من الجميع، وأمر الملك أن يكون في كل مدينة علّامة، وأن يخطب بالجمع ويفقّههم ويصلّي يوم الجمعة وأن تقوم الصّلوات وأن تقام الخطبة والصّلاة كلما حضر اثنا عشر مصلياً إلى الجامع، وأجبر كل من الفقهاء والعلماء على الحضور. كما أمر أن يصلّى في جميع المساجد في الخريف والصّيف وعلى مدار العام خمس مرات في مواعيد الصّلاة المعتمدة في الإسلام الفجر والظّهر والعصر والمغرب والعشاء[3] وأن تقام التّسابيح والأدعية أثناء الخطبة.

وأمر أن يُصلّى ظهراً على النّبي محمّد النّبي (صلّى الله عليه وسلّم) وأن يتلو المقرىء[4] آيات من القرآن الكريم حتى يتعظ النّاس، وأن يفسّر لهم الآيات المُنزلة وأن يعطيهم أمثلة لكي يفهموا الدّيانة وأن يبلّغهم بكل الرّحمة والرّأفة التي أعدّها الله لأتباعه والمؤمنين به.

وفي الصّلاة الثّانية وبعد تسبيح الله أن تذكر عبارات تمجّد الصّحابة، وهم قادة

---

(1) يقول البعض إن ذلك قد حدث في شهر صفر. (كوندِه)

(2) العام 1243 للميلاد.

(3) مواعيد الصّلاة في الإسلام. (فوستر)

(4) المقرئ هو من يتلو آيات القرآن الكريم في المسجد. (فوستر)

المسلمين الأوائل، وأن يدعو لتطبيق القانون وأن يطلب الغفران لكل البشر والسّلام والخير وكل النّعم للملك وعائلته وبلده. وحرّم كل عمليات البيع والشّراء وكل المتاجرات الأخرى المدنّسة أثناء الصّلاة يوم الجمعة. وأمر ألا يقوم المؤذّن بالخطبة في حال كان مؤذّن المسجد الأقرب قادراً على سماعه، وأمر أن تتم الخطبة عندها في مسجد واحد هو الأقدم والأكرم بين الاثنين.

وأجبر كل رجل على الحضور ساعة الخطبة إلى أقرب مسجد من منزله، حتى يتمكّن من العودة إليه على ضوء وتجنّب أي مخاطر على الطّريق. ومنع قيام أي مسكن بعيداً عن الجامع أو في أي مكان متفرّد حتى يتمكّن الكل من الصّلاة في مواعيد الصّلاة دون أن يعاني من طول المسافات. لهذه الأغراض أمر الملك يوسف بن إسماعيل ألا يبني أحد منزله على مسافة أبعد من 8.4 كلم تقريباً من المدينة أو القرية التي بني فيها مسجد، وببناء مسجد في كل مدينة فيها أكثر من اثني عشر منزلاً. كما حدّد مكاناً لكل شاب في المسجد وراء الأكبر سنّاً كما في الأزمنة الماضية، وللنساء وراء الشّباب وفي مكان منعزل تماماً. ومع انتهاء الصّلاة أن ينتظر الشّبان والرّجال خروج جميع النّسوة. وحظّر دخول العازبات إلى الجامع إلا في مكان خاصّ بهن، على أن يكنّ مُحصنات محجّبات وأن يعتمدن سلوكاً رصيناً.

كما أمر الملك أن يرتدي كل مسلم أفضل ثيابه يوم الجمعة، وأن يُظهر كل طهارة في قلبه، وجعل الجمعة يوم عطلة يرتاح فيه المسلمون ويُنعمون على الفقراء ويتحدثون عن السّلام والفضيلة والحكمة. إلى ذلك أمر يوسف بن إسماعيل باعتماد الشّريعة[1] للاحتفال بعيدي الفطر والأضحى، حيث جرت العادة على أن يخرج المسلمون من منازلهم وأن يرموا على بعضهم الليمون والمشروبات الرّوحية، وكانت جماعات من الشّبّان والشّابات تجوب المدينة محدثين ضجّة عارمة ويغنّون. فمُنعت كل مظاهر الفوضى هذه وحلّت مكانها مظاهر فرح من نوع آخر، حيث يرتدي المواطنون في الأعياد أبهى حلاهم وثيابهم ويتعطّرون ويذهبون إلى الجامع للصّلاة أو لزيارة الفقراء والاستماع إلى الخطباء والحكماء ويوزّعون الزّكاة إذا كان بمقدورهم.

---

(1) جرت العادة أن يحتفل الشّعب بطريقة غير تلك التي وردت في القرآن الكريم. (فوستر)

وأمر الملك أن تُجمع الصّدقات كلها أياً كانت أموالاً أو فاكهة أو خبزاً أو ذُرة وأن توضع بيد شخصين موثوق بهما يقومان بتوزيعها بمعرفتها على المحتاجين، وفي حال كانت الصّدقات وفيرة أمر أن تُمنح الأرامل واليتامى الهدايا والذُّرة وأن يسدّد الباقي لفدية المحبوسين ومرمّة المساجد والينابيع والطّرقات والجسور والقيام بأيّة أعمال أخرى وفق درجة أهمّيتها. ومنع الملك كذلك مرور المصلّين في الطّرقات والأسواق والمراكز العامّة، كونها غير صالحة لطلب نعم الله أياً كانت من مطر إلى ما شابه. وفي حال كان هناك جفاف أم حاجة للمطر أن يخرج المصلّون إلى الحقول وأن يدعا بكل تواضع طلباً للمغفرة والرّحمة وأن يقولوا كلمات صادقة نابعة من القلب كالتّالي[1]:

يا الله يا رحمن يا رحيم، يا من خلقتنا من لا شيء ويا عالماً بذنوبنا، ارأف بنا يا رب العالمين ولا تبلونا ولا تهلكنا، انظر إلى مصابنا يا الله وتعطّف علينا برحمتك وارحم عذابنا، أنت العالم كل شيء الذي لا يحتاج إلينا ولا لمساعدتنا. يا ربّ الرّحمة ارأف بنا، نحن عبادك الأبرياء وارأف بالبهائم والطّيور التي ستموت، انظر من أعالي ملكوتك إلى الأرض واشفق علينا نحن أبناء أمّتك التي خلقت، وارأف بالنّباتات التي ستموت بسبب شحّ المياه. يا الله افتح أبواب ملكوتك وانعم علينا بالمياه، اجعلنا نرتوي من جديد وأرسل لنا رحمتك التي تحيينا وتقدّم لنا العون والمساعدة لكل المخلوقات، فلا يقول الكفرة إنك كففت عن الاستماع لدعائنا. يا الله نحن ندعوك، ارحمنا وارأف بنا نحن المساكين وأنت الرّحيم العليم بكل مصابنا. يا الله نحن نؤمن بك ونعبدك ونأمل رحمتك ونرجوها، وندعو أن تشفق علينا وأن تغفر خطايانا، ونلوذ بسلطانك يا أكرم الأكرمين.

أمر الملك كذلك بعدم ممارسة تقليد تجمّع العائلات في المساجد ليلاً لحراستها ومنع النّسوة من الصّلاة التّساعيّة[2] دون رجالهن أو مُحرم (أب، أخ، ابن شقيق) أو امرأة أخرى على ألا يستحيل مرافقتهم من أيّ فرد آخر سواهم حتى كبيرات السّن

(1) بالطّبع النّص منقول عن ترجمة كونده بالإسبانيّة، وليس بفحواه الحرفي بالعربيّة كما هو بالأصل. (أحمد)

(2) سلسلة من الصّلوات تستمرّ لمدة تسعة أيام وتعرف بالاسم عينه في الكنيسة الكاثوليكية حتى يومنا هذا كما يعلم معظم القراء. (فوستر)

منهن. ولم تُجبر الشّابات على القيام بهذه الصّلاة ومنعهن من السّير في الجنازات، وكذلك من أن توضع جثّة الميت في قماش من حرير أو من خيوط الذهب أو الفضّة، بل أن يلفّ الجثمان بكفن بعد غسله وتعطيره.

كما فرض ألا يحضر هذه الرّتبة سوى الزّوجة والأم أو العمّة دون سواهنّ، وألا يتم الصّراخ أو الأنين أو العويل في هذه المناسبات الحزينة بل أن تحلّ محلّها الدّموع والأسى. كذلك منع استئجار النّدّابات وندب الميت أياً كان ورثاءه وأمر أن يقوم الفقيه أو الشّخص الأعلى رتبة في المأتم برفع يديه نحو السّماء وأن يتلو الدّعاء التّالي وهو مستدير نحو القبلة[1]:

اللّهم اغفر له وارحمه وعافه واعفُ عنه، وأكرم نُزُله ووسع مُدخلهُ واغسله بالماء والثلج والبرد ونقِّه من الخطايا كما ينقّى الثوب الأبيض من الدَّنَس، وأبدله داراً خيراً من داره وأهلاً خيراً من أهله وزوجاً خيراً من زوجه وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر[2] ومن عذاب النار.

فوراً بعد هذه الكلمات يكبّر الحاضرون قائلين: الله أكبر، ثم يقال: اللّهم اغفر لحيّنا وميّتنا وشاهدنا وغائبنا وصغيرنا وكبيرنا وذكرنا وأُنثانا، اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام، ومن توفّيته منا فتوفّه على الإيمان، اللهم لا تحرمنا أجره ولاتضلّنا بعده.

وعند وضع الجثة في اللّحد يقال الدّعاء التالية: اللّهم إنّ فلان بن فلان في ذمّتك وحلّ جوارك فقِه من فتنة القبر وعذاب النّار، أنت الغفور الرحيم، اللّهم عبدك وابن عبدك وابن أمتك احتاج إلى رحمتك وأنت غنيٌّ عن عذابه، إن كان مُحسناً فزده في حسناته وإن كان مُسيئاً فتجاوز عنه.

وكذلك منع الملك كتابة الأسئلة والأجوبة ووضعها مع الميت في اللّحد كما جرت العادة. ومنع وضع أي نوع من النّبات على رأس أو صدر الميت. أما بالنّسبة إلى

(1) أي جهة الجنوب (فوستر). هذا طبعاً بالنّسبة إلى بلاد الشّام، ولكن القبلة للأندلسيين تتجه إلى الجنوب الشّرقي. (أحمد)

(2) وفق الدّيانة الإسلامية تأتي الملائكة من عند الله لسؤال الميت في قبره. (فوستر)

كل مولود جديد فقد أمر الملك أن تعمّ الأفراح في هذه المناسبة وأن يجتمع الأهل كما في الأفراح وأن يولم للمدعويين دون أيّة مظاهر خارجية، وأن يجتمع الأهل دون أي تبذير أو إفراط ودون إحداث فوضى، ومنع أيّة أفعال شيطانية أو غير أخلاقية أخرى في هذه المناسبات وكذلك إعطاء إذن للقيام بها.

إلى ذلك، قام الملك يوسف بن إسماعيل بتحسين جيش المدينة، وعيّن وزيراً لكل جزء منها ووزيراً للأسواق مهمّته مراقبة التّجارة والحفاظ على نظام التّجّار. وأمر إغلاق كل حيّ ليلاً لتفادي أيّة صراعات وبتعيين عَسَس ليلي للحراسة. وحدّد مواعيد لإغلاق وفتح الأبواب في كل حيّ وأبواب المدن وأبواب الإمارات المجاورة. كما أصدر أيضاً أوامرَ لمراقبة الحدود وإرسال أي طلب إلى الملك وإبلاغه عن أي هجوم أو زحف من الغزاة على أراضيه. وأمر بإنزال عقوبة الموت بوجه كل فارس يهرب من الأعداء في حال لم يكن عددهم أكثر من ضعفي المسلمين، وما لم يقم بذلك بأمر من قادته، وهم وحدهم العالمون بأسرار الحرب واستراتيجيتها والذين يدركون وقت التراجع كما وقت شنّ أيّة غارات.

ومنع الملك أيّ انشقاق في جيشه أو مشاكل أو مناورات، سواءٌ أكانت في صفوف الفرسان أو المشاة، ومنع قتل النّساء والأطفال والشّيوخ والمصابين والمرضى والرّهبان المحبوسين، ما لم يكونوا مسلّحين ويساعدون العدو في أسلحة بأيديهم. كما أمر يوسف بن إسماعيل أن تُقسم غنائم الحرب بكل عدل بالنّظر إلى رتبة كل فر،د على أن يُمنح الملك الخُمس منها أياً كان. وكل ما هو مأكول يأخذ منه كل فرد ما يمكنه على أن يقسم الباقي كالتالي: جزءان للفرسان وجزء للجيوش السّيارة. أما بالنّسبة لكل من يعمل أو من قام بخدمة يقرّر الملك بنفسه تحديد المكافأة له وفق مايراه مناسباً. أمّا لكل فرد من مدينة محتلة أو قلعة ينوي أن يعتنق الإسلام، فيعاد له كل ما كان يملكه، وفي حال وزّعت مقتنياته تحدّد قيمتها وتسدّد له نقداً.

لم يسمح كذلك في الحملات المتعلّقة بأيّ هجوم بمشاركة أيّ شاب لم يحصل على موافقة والديه إلا في حال الحاجة القصوى التي تستدعي تجنيد الجميع للمحاربة

وللدفاع عن الوطن. كما حظّر عليه القيام بفرض الحجّ دون موافقتهما إلى مكّة المكرّمة أو لزيارة المسجد الأقصى[1]، وفي حال لم يكن لديه أهلٌ دون موافقة جدّه أو عمه أو الأوصياء عليه. أمّا فيما يتعلق بجرم الزّنا والسّرقة والقتل التي جرت العادة على معاقبتها بالموت، فقد أمر الملك يوسف في حال قال المذنبون إنهم أبرياء ألا تُنزل عليهم أي عقوبة قبل اعترافهم ما لم يثبت غير ذلك بشهادة أربع شهود يُدلون أنهم شاهدوا الواقعة في الوقت نفسه وبنفس الأقوال.

والزّاني في حال ثبت عليه الفعل يُرجم بالحجارة حتى الموت، وغير المتزوجين الذين انتهكوا أعراف العفّة يُجلدون 100 جلدة، ويجلد الرّجل وهو عارٍ حتى تظهر علامات الجلد على ظهره لمدة سنة كاملة، والمرأة تُجلد وهي مرتدية ثيابها الدّاخلية. وأعطى الملك للقاضي حرّية تخفيف العقوبة هذه بعد الاستماع إلى أقوال المتّهمين أو أن يجبرهما على الزّواج، أو أن يسجنهما لفترة محدّدة شرط أن يعاملا بالمثل، وأن تسدّد صدقة لزوجة الزّاني.

ولم يحرم المسلمين الذين أمرت العدالة بقتلهم من مراسم الدّفن، فقد سمح بغسلهم وبتطهيرهم كما سواهم وبدفنهم في مدافن عادية وأن يصلّى على أرواحهم كسواهم. أمّا بالنّسبة للسّارقين فقد أمر يوسف بن إسماعيل أن يمنح القاضي السّلطة العليا للحكم، وقد نصّ القانون على أن كل من يرتكب سرقة في منزل أو في حقل أو أي مكان آخر ليس ملكه وليس في حقل عام أو في مكان منفرد متروك لا يسكنه أحد دون حراسة تُقطع يده اليمنى، سواءٌ أكان رجلاً أو امرأة أو شخصاً مرموقاً أم لا، حراً أو عبداً، وفي حال كان ذكراً عليه أن يكون قد بلغ سن الخامسة عشرة والأنثى سن الثّالثة عشرة، وفي كل مرة تكون فيها قيمة المسروقات مساوية لأربع مرّات قيمة دينار ذهبي أو وزن ثلاثة دراهم من الفضّة.

هذا حكم السّرقة الأولى، أمّا السّرقة الثّانية فيفقد المرء رجله اليمنى والمرة الثّالثة يده اليسرى والمرة الرّابعة رجله اليسرى، أما في حال حكم للمرة الخامسة بجنحة

---

(1) هو المسجد الأكبر في القدس. (كوندِه)

سرقة فيُعذّب ويُسجن مدى الحياة. غير أن الملك أمر أن يُضرب السّارق للمرّة الأولى بالخيزران أو أن يسجن، وللمرة الثّانية أن يفقد يده أو رجله اليسرى. ووضع الملك أيضاً قوانين عديدة أخرى لخير البلاد وساكنيها. وأنهى يوسف ابن إسماعيل سلسلة الإصلاحات التي أمر القيام بها في غرناطة قبل بدء الحرب، فقد أمر أن يتمّ تزيين المساجد بكل روعة وبأبهى الفنون، وكذلك القصر الملكي، واقتدى نبلاء غرناطة بالمثل فزيّنوا منازلهم بكل مظاهر الرّوعة والذّوق والفنون الجميلة. أصبحت المدينة رائعة وطغت عليها العمارة المميّزة وبُنيت مدنٌ بأسرها بخشب الأرز المنحوت والمشغول يدوياً وأخرى بالحجارة المرصّعة.بالأحجار الكريمة. وبنى الأعيان في منازلهم باحات واسعة وعملوا على اعتماد أسلوب هندسي متفرّد يقوم على النّحت والزّخرفة على الجدران والأسقف التي رصّعت بالذهب والأحجار الكريمة الزّرقاء، وعمدوا على تزيين الأرضيات بالفُسيفساء والرّخام ووضعوا في باحاتهم نافورات مياه. بكلمة واحدة كانت هذه المدن متعة للعيون بفضل هندستها الرّائعة وعماراتها المتميزة، وكأنّ غرناطة إناءٌ بلّوري رائع من فضّة مملوء بالياقوت والزُّمرّد.

لم تقع أيّة حروب بين مملكتي فاس وغرناطة في حياة الملك، وكانت المدينتان على علاقة صداقة، ولبث يوسف حليفاً لأبي الحسن طوال مدّة حكمه ومع فارس ابنه الذي قام بتنحية والده عن العرش بعد عودته مهزوماً من حرب الجزيرة ومقاطعة طريف Tarifa، ونصّب نفسه ملكاً على فاس وعُرف أيضاً باسم المتوكّل.

* * *

الفصل الثّالث والعشرون

موت ألفونسو ملك قشتالة - حزن المسلمين - رجل مجنون يقتل ملك غرناطة يوسف بن إسماعيل فيخلفه ابنه محمّد

وصلت الهدنة التي عقدت بين المسلمين والصّليبيين إلى نهايتها. وقد رغب يوسف بن إسماعيل الذي احترمها في إطالتها لمدة 15 عاماً، غير أن ألفونسو ابن فرناندو ملك قشتالة حفيد سانچو أخذه الغرور بالنّصر الذي حقّقه على المسلمين في مقاطعة طريف واحتلال الجزيرة الخضراء فلم يودّ أن يمدّدها. وكان يعدّ العدّة لإكمال حملته ضد المؤمنين، فجاء على رأس قوة كبيرة وحاصر جبل طارق فور انتهاء مدّة الهدنة، حيث أن خسارة هذا الموقع المهم كانت كبيرة وملأت قلبه بالأسى، وكان يرغب بكل جوارحه استعادته بأية طريقة كانت. وهكذا، جمع ألفونسو شعبه ونصب معسكره على السّاحل بين جبل طارق والجزيرة وحاصره مطلع العام 750 هـ، وأحضر الآلات ومعدات حربية ثقيلة وكثيرة لاجتياح القلعة. غير أن جبل طارق كان موقعاً استراتيجياً قوياً بفضل طبيعة المكان وبفضل الجنود التي دافعت بكل بسالة عنه، ممّا أجبر ألفونسو على إيقاف هجماته وقرّر إضعاف القلعة وتجويع من كان فيها.

غير أن ألفونسو بمشيئة الله توفي قبل أن يتمكّن من احتلال أرض المسلمين في إسپانيا، فمات عدو الله والكافر بداء الطّاعون يوم الجمعة 10 محرّم 751 [1]. لم يكن الملك ألفونسو ممشوق القامة، غير أنه كان شديد البنية ذا مظهر رائع متناسق أبيض الوجه أخضر العينين حادّ الملامح، كان قوي الشّخصية والبنية أنيقاً ونبيلاً قوياً باسلاً

(1) العام 1350 للميلاد. (كونده)

صادقاً، ولسوء حظ المسلمين يتمتع بحظّ جيد في الحروب[1].

في هذه الأثناء كان ملك غرناطة يقود قواته نحو رُندة Ronda بعد أن زحف وشنّ غارات على مدن الزّهراء واستيبونا ومربيلة[2] Marbella، فتصدّت قواته للمسيحيين الذين كانوا حينها يحاصرون جبل طارق. عندما علم بموت الملك ألفونسو فرح بداخله كونه شعر بالطّمأنينة والأمان وأمل أن يعمّ السّلام إمارته، غير أنه أظهر بعض الأسف لخسارته وأعلن أن ألفونسو كان من أعظم حكّام العالم. ورغب في إظهار تقديره للأعداء والأصدقاء رفيعي الشّأن، فأمر أن يلبس بعض فرسانه ثوب الحداد وأن يعزّوا بالملك ألفونسو في قشتالة، أما الجيش الغرناطي الذي ذهب للدّفاع عن جبل طارق فقد عدل عن أيّ عمل هجومي عند موت الملك، ولم يعق الطّريق أمام الصّليبيين الذين رافقوا جثمان الملك من جبل طارق إلى إشبيلية.

بعد بضع سنوات كان ملك غرناطة في المسجد الجامع بمناسبة عيد الفطر، حين انقضّ عليه رجل مجنون بخنجره وهو يصلي في الرّكعة الأخيرة. كانت جراح الملك قاتلة، غير أنه وجد الشّجاعة للصّراخ عالياً فقُطعت الصّلاة وهرع كل من كان في المسجد لمساعدة ملكهم بعد أن علموا بمصابه، لكن بعد فوات الأوان. فقد كان يوسف بن إسماعيل يلفظ أنفاسه الأخيرة وتوفي ما إن دخلوا الأبواب.

حاصر الشّعب المغتاظ القاتل وقطّعوه إرباً وأحرقوا ما بقي منه أمام الملأ، وفي اليوم نفسه بعد مقتل يوسف بن إسماعيل أُعلن ابنه البكر محمّد ملكاً على غرناطة مكانه. ووري جثمان الملك العظيم الثّرى في اليوم نفسه، وحفر على قبره في القصر الملكي العبارات التالية التي نظمها صادر ابن عمه على الرّخام بحروف من ذهب ولازورد:

«هنا يرقد الملك الشّهيد من سلالة النّبلاء القوي العظيم المتفقّه الرّؤوف، عرفت

---

(1) كما توفي في هذا العام الأمير فرج شقيق الملك محمّد في المَريّة حيث أمضى وقتاً طويلاً من عمره كما سبق وأشرنا. (كونده)

(2) لفظها بالإسبانيّة: ماربيّا. (أحمد)

مملكته كلها خصاله الرّفيعة من الحرص والرّأفة وغيرها. عمّ الخير شعبه أثناء حكمه وستحكي عنها كتب التاريخ. ملك عادل وقائد متميّز سيف المسلمين المُسلط بوجه الكفرة، قائد شجاع بين الشّجعان تمكّن بفضل الله ونعمته من التّغلّب عليهم بحكمته في زمن الحرب والسّلم. دافع عن مملكته بحذر وعزم وبعون الله تمكّن من تحقيق أهدافه ورغباته. أمير المؤمنين يوسف أبو الحجّاج ابن الملك العظيم أبي الوليد وحفيد الملك العظيم أبي سعيد فرج بن إسماعيل من سلالة النّصريين، أسد الله الملك الذي لا يُقهر، العادل الحكيم الحاكم باسم الشّرع الذي حاز لشعبه كل النّعم والذي سيذكره الكلّ. خيرة شباب سلالته التي سكنت جنّات الله والمباركين، حكم مملكته بكل عزم وأحلّ بها السّلام ومنح شعبها طيب العيش وأعطى مثالاً جليّاً عن الحكمة والعدل والعطاء إلى يوم مماته، وقد أنعم عليه الله بفضل الشهادة بعد أن أتمّ فرض الصّيام[1] في وقت الصّلاة في المسجد بيت الله وهو يسأل الله الرّحمة والمغفرة.

امتدّت يد الغدر وسلبت حياته وهو يطلب رحمة الله وغفرانه في غرّة شهر شوال عام 755 هـ، أنعم عليه الله بالوفاة في هذا اليوم المبارك في مسجد، فوهبه بذلك مثوبة عظيمة. نسألك يا عليّ يا قيّوم أن تدخله جنات عبادك وأن تسكنه مع أجداده ومن سبقوه. ولد يوم 28 ربيع الأول من العام 718 هـ وحكم في يوم الأربعاء 14 من ذي الحجة من العام 733 هـ. سبحان لله العليّ العظيم الواحد الأحد الأبديّ واهب الحياة ومُغدق النّعم».

خَلَفَ محمّد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج والده على العرش، وأُعلن ملكاً ظهر عيد الفطر من العام 755 هـ وهو في العشرين من عمره. كان شخصاً رائع الجمال رصيناً لائقاً متحرّراً صادقاً وإنسانياً، وكان قلبه مليئاً بالرّحمة والطّيبة ولم يُخفِ دمعاته في بعض المناسبات ليظهر تعاطفه مع الآخرين. كان كذلك كريماً صالحاً يحبّ عمل الخير ويدخل قلب كل من رآه. أمر محمّد بن يوسف بن إسماعيل كل المتملّقين

---

(1) مات مع انتهاء شهر رمضان الشّهر الذي يقوم به المسلمون عامة بالصّوم وقد أدى يوسف هذا الفرض كما أشرنا في هذا السّياق.

والوزراء الذين يسعون وراء المصالح وغيرهم من غير الصّادقين عدم الاقتراب من قصره. وعيّن معاونين من أهل الثّقة بأعداد محدّدة دون أيّة زيادة أو أبّهة كاذبة. غير أن الملك وعلى الرّغم من كل فضائله كان مكروهاً من قبل كل شخص حقود وفاسد، وكان الأعيان أصدقاء له واعتبره كل قادة إمارته رجلاً كفؤاً وكنّوا له كل احترام. كان محمّد شغوفاً بالقراءة يمارس ركوب الخيل ويحب المبارزات، ومن أكثر الفرسان إجادة في استخدام الأسلحة على ظهر الخيل.

عقد محمّد بن إسماعيل مع دون بِدرو[1] ملك قشتالة ومع أبي سالم ملك فاس معاهدات سلام وعاشت مملكته بكل طمأنينة. وما أن تسلّم الحكم حتى منح القصر الذي يسكنه إلى أخيه إسماعيل ومن بقي من إخوانه وصهره، وكان قرب القصر الملكي الرّئيسي لوالده، وهو منزل رائع فيه كل سبل الرّاحة لعائلة مالكه.

وكانت السّلطانة والدة الأمير إسماعيل قد حصلت على كنوز كبيرة يوم وفاة الملك يوسف، وما لبثت أن كرّستها بشكل شرّير، واستخدمتها كوسيلة لكي يتسلّم ابنها إسماعيل الحكم مكان أخيه. وإحدى بناتها التي كانت زوّجت بالقوة على يد يوسف بن إسماعيل إلى أمير من سلالة ملكية يدعى أبا عبد الله قد أوكلت إليها السّلطانة ثقتها، فتمكّنت هذه الأميرة من السّيطرة على زوجها الذي كان يحبّها كثيراً، وذلك لصالح السّلطانة. كان هذا الأمير ذا سلطة واستطاع بفضل الأموال التي منحته إياها السّلطانة تنظيم حزب كبير قوي لمساعدة السّلطانة في تحقيق مبتغاها.

* * *

(1) بِدرو الشّرير أو العادل كما كان يدعوه بعض أتباعه أحياناً. (فوستر)

الفصل الرّابع والعشرون

المؤامرة ضد محمّد - تسنّم إسماعيل العرش - موته - خلافة أبي سعيد

في اليوم السّادس من ذي القعدة من العام 756 هـ احتلّ والي جبل طارق عيسى بن الحسن بن أبي منديل العسكري قلعة جبل طارق، ونصّب نفسه ملكاً عليها. وكان يملك السّلطة لإيقاف أيّ تمرّد بين شعبه، غير أن تسلّطه وبُخله جعل شعبه يثور ضدّه، فأُجبر على سجن نفسه في القلعة مع ابنه في 36 من الشّهر نفسه. وبعد ثلاثة أسابيع من انقلاب عيسى بن الحسن، أجبره الشّعب على الاستسلام وأبعده إلى سبتة وسلّموه إلى الملك أبي عَنان مع ابنه الذي أمر بقتلهما من بعد تعذيبهما بأبشع الوسائل لمعاقبتهما على فعلهما. في الوقت عينه أرسل أبو عنان رسائل إلى الملك المسيحي ملك إشبيلية[1] الذي عقد معه معاهدات صلح، وأرسل له ابنه أبا الحسن إبراهيم ليسكن في ديوانه ورافقه ابن عمّه، فأمر ملك قشتالة بإرسال قوة إلى غمارة لاستقبال الأمير ومرافقيه وعاملهم بكل احترام يليق بمركزهم.

في هذه الأثناء، كانت المخططات التي وضعتها السّلطانة وإسماعيل تتقدّم وساعدهما في ذلك أبو عبد الله بن سعيد صهر إسماعيل كما سبق وذكرنا. وأصبحا في وضعية تسمح لهما بتنفيذ مخططهما، فاختارا جماعة من مئة رجل شجاع من أتباعهما وأمروهم بدخول القصر الملكي بعد تسلّقه في الليل وبقتل الحرّاس الذين لم يتمكّنوا من شرائهم. ومع حلول الليل تسلق هؤلاء جدران القصر الملكي واختبأوا حتى منتصف الليل قبل أن تحلّ السّاعة الثّانية عشرة وهاجموا كل الأجنحة بالأسلحة

---

(1) بِدرو صاحب قشتالة. (فوستر)

فقتلوا كل من وقف بوجههم. حدث ذلك يوم 28 من رمضان من العام 760 هـ، وفي الوقت نفسه هاجم متآمرون آخرون منزل الوزير فقتلوه وابنه وأفراد منزله ونهبوه كما لو كان عدواً لدوداً زمن الحرب، وقام من دخل القصر بالفعل ذاته داخل قصر الملك، ضاربين بعرض الحائط الأوامر التي أخذوها من قادة المتآمرين ولم يأبهوا سوى بإشباع رغباتهم، ولم يقوموا بجزء كبير ممّا أُمروا به.

عندما وصل الأمير إسماعيل وأبو عبد الله وغيرهم من المتآمرين إلى القصر الملكي للإعلان عن تنصيب إسماعيل ملكاً عليهم، كانوا يأملون أن يكون الملك محمّد قد قُتل، غير أنّ مَن أوكلوا إليهم مهمّة القتل كانوا أكثر جشعاً من الانصياع للأوامر، فقاموا بالنّهب عوضاً عن تنفيذ الأوامر فتركوا المجال للملك الهروب. خرج الملك محمّد من الجناح الملكي إلى حجرة سرّية في القصر الملكي برفقة امرأة رائعة من حريمه ألبسته رداء جارية وتنكّرت هي أيضاً، وفرّا في وسط الزّحمة والبلبلة التي عمّت القصر الملكي، وهربا نحو حدائق القصر حيث وجدا ابناً آخر للملك يوسف بن إسماعيل محتمياً هناك من الصّراخ وصوت الأسلحة، فهربا برفقته وأخذوا أحصنة امتطوها ليلاً نحو مدينة وادي آش دون أن يلحق بهم أيّ أذى. استقبل أهالي المدينة محمّداً كملك عليهم واقتادوه إلى القصر الملكي حيث اختبأ لبعض الوقت.

أُعلن إسماعيل الغاصِب في المدينة ملكاً من قبل صهره أبي عبد الله ومناصريه. وأرسل إسماعيل رسائل إلى ملك قشتالة دون إبطاء معلناً له عن رغبته في مناصرة الصّليبيين في حربهم ومدّ يد العون لهم. وكان الملك دون بِدرو في هذه الأثناء في حرب مع ملك أراغون وأهل برشلونة، فتسلّم رسائل إسماعيل بكل امتنان وترحاب فشعر المغتصب بكل امتنان وفخر كونه بمأمن عن أي هجوم مسيحي.

بالمثل أرسل الملك محمّد إلى ملك فاس وإلى ملك الصّليبيين في الأول من شوّال رسائل مناشداً إياهم مساعدته، غير أنه لم يحصل على ردّ أي منهم، فخرج محمّد إلى أفريقيا على رأس جيش من الفرسان والجنود في 10 من شهر ذي الحجة إلى مربيلة[1]

(1) لفظها بالإسبانيّة: ماربيّا. (أحمد)

ومن ثم غادر إسبانيا نحو المضيق ثم إلى فاس. وصل إلى المدينة برفقة Marbella عدد من الأعيان في 6 من محرم واستُقبل بكل حفاوة من قبل الملك أبي سالم الذي خرج لاستقباله ممتطياً جواداً رائعاً، مع عدد من الأعيان الذين ارتدوا أبهى حلاهم.

استقبل أبو سالم ملك غرناطة في القصر الملكي بكل حفاوة ومنحه المسكن الملائم، ثم وعده بمدّ يد المساعدة له فوراً، وكدليل على كرمه حشد الملك الأفريقي جيشاً كبيراً لهذا الغرض، بقي محمّد في فاس حتى 18 من شهر شوال من العام 762 هـ، ثم أبحر مع جيوش أبي سالم إلى إسبانيا. كتب بعد ذلك رسائل إلى دون بِدرو ملك الصّليبيين يبلغه فيها عن السّبب الذي دفعه لطلب المساعدة من الملك الأفريقي، وحلّت البلبلة في كل إسبانيا بعد سماع نبأ إنزال جيوش البربر وخاصّة فريق الملك إسماعيل بن يوسف الذي ارتعد لكون الملك محمّد سوف يصبّ جام غضبه عليه. فاجتمع أتباع إسماعيل لمواجهة جيوش محمّد، لكن لم تكن لديهم الشّجاعة للقيام بأيّ هجوم. في هذه الأثناء وصل خبر موت الملك أبي سالم إلى الجيوش التي رافقت محمّداً لمساعدته على الهجوم على أعدائه. وبعد أن قام أخوه أبو عمر تاشفين المدعو إل لوكو[1] بتحريض من أعداء الملك بالانقلاب ضدّه، وتُرِكَ أبو سالم من قبل كل أتباعه فقتله قادة الانقلاب في اليوم التالي في مدينة فاس يوم 20 من ذي القعدة من العام 792 هـ، فعادت الجيوش التي رافقت محمّد إلى أفريقيا من كل حدب وصوب.

تلاشت أحلام الملك محمّد مع عودة الأفارقة، فأبحرت الجيوش هذه إلى بلادها وأُجبر هو على العودة إلى مدينة رُندة Ronda التي أعلنت ولاءها له. فقام ببعث رسائل أخرى إلى الملك المسيحي يرجوه فيها مساعدته وحمايته، غير أنّ الأخير لم يأتِ لمساعدته، فأرسل رسائل إلى ملك فاس الجديد محمّد أبي زيّان حفيد أبي الحسن طالباً مساعدته لاستعادة مملكته، مؤكّداً له أن كل القوات التي سيرسلها لمساندته سوف تمرّ دون أيّة عقبات في مملكة الملك المسيحي. أقنع وزير الملك محمّد أبا زيّان الأخير بالاستجابة لطلب الملك محمّد وقام بجمع الجيوش لهذا الغرض.

---

(1) أي المجنون بالإسبانيّة: El Loco. (أحمد)

في هذه الأثناء، كان الملك الغاصب يحتلّ عرش شقيقته، وكان جميلاً للغاية وذا مظهر مخنّث، حتى كان البعض يعدّه امرأةً لا رجلاً وكان ضعيفاً غير رصين يحبّ الملذّات، ولم يكن يملك القوة لممارسة مهام الحكم أو لحكم مملكة شاسعة. وكان شبه عبد لأبي عبد الله بن سعيد ولكل من ساعده على تبوّء هذا المنصب. سيطر عليه أبو سعيد للغاية وكان يعامله بكل إذلال كما لو كان إسماعيل عبداً لديه وليس ملكه، حيث كان يأمر الملك القيام بكل ما يريده هو حتى لو كانت هذه الأفعال ضدّ رغبة الملك، ولم يحترم أيّاً من حقوقه وبالتالي لم يدُم حكم إسماعيل سوى فترة قصيرة كما سنبيّن فيما يلي.

يوم تعيّن إسماعيل ملكاً عيّن محمّد بن إبراهيم الفهري Alfat Alfahri وزيراً، وسرعان ما أقيل من منصبه وحُكم عليه بالموت، فقد قام أبو سعيد باتّهامه زوراً أنه أرسل إلى ملك فاس رسائل خيانة، وعلى الرّغم من كافة التّوسّلات وجهود محمّد بن إبراهيم لتبرئة نفسه أمر أبو سعيد أن يتم إغراقه وابن عمّه عبد الله في البحر. وكان كاتب إسماعيل بن يوسف إسماعيل عبد الحق بن عطيّة المحاربي الذي بقي في إمارته حتى مماته، وقادته: الأول أبو بكر بن غازي من سلالة نبيلة من غرناطة، وأبو قاسم سَلْمون بن علي. أمّا قائد جيوشه فكان الشّيخ الذي خدم أخاه محمّداً في المنصب عينه والذي قَبِل أن يستمرّ بمهامه في حكم إسماعيل. لم يتوّقف طموح أبي سعيد عند هذا الحدّ، فعلى الرّغم من أنه كان متسلّطاً يفرض سلطته على كل أنحاء الإمارة، فإنّه رغب في تسلّم سدّة الحكم والحصول على لقب الملك، فعقد العزم للحصول عليه. ولذا قام بكل ما بوسعه للتّخلّص من إسماعيل وكسب ثقة القادة العسكريين. وكان هذا الأمر بالنّسبة له سهلاً، فقد كان هو مانح كل الترقيات والمكافآت، وبالتّالي بعد أن حصل على كل الامتيازات التي رغب بها ودعم القادة وكل متّخذي القرار لتحقيق مبتغاه، قام بإبلاغ أتباعه بهذه النّوايا واختار أكثرهم عُدماً للضّمير وأوقحهم لمساعدته على تنفيذها. وكان الوزير مورو Mauro من حلفاء أبي سعيد الأكثر ودّاً، فقد قدم له كل سبل المساعدة وذلّل من طريقه كافّة العقبات.

اتفق المتآمرون على حمل الشّعب على الثّورة، وفي وسط البلبلة المطالبة بتنحّي إسماعيل بن يوسف وبتعيين أبي سعيد ملكاً مكانه. وهكذا صار، حيث قامت فرقة من الجيش بهدف تنفيذ هذه المخططات بمحاصرة القصر الملكي في 26 من شعبان عام 761 هـ وبدأت الهجوم. فطالب المتآمرون بقتل إسماعيل، غير أنه فرّ ولجأ إلى القلعة حيث احتمى مع بعض المواطنين والحرس وطالب من هناك شعبه بمساعدته، غير أنّ أعداءه ذكّروا الشّعب بما قام به ضدّ أخيه مؤخراً فذهبت مطالبه أدراج الرّياح.

وبما أن إسماعيل لم يكن يملك الخبرة الكافية وكان شاباً غِرّاً، فقد قام بمهاجمة الأعداء فهُزم من قاتل إلى جانبه ووقع ببراثن قوات تودّ موته، وكان أبو سعيد أول من هاجمه فاتهمه بكل الفظائع التي قام هو بها، وأمر أتباعه بتجريد الملك من ثيابه ويرميه في السّجن مع كل أتباعه، وأصدر لجيشه الأمر بقتله قبل الوصول إلى السّجن، فقُطع رأس إسماعيل وأمر المتآمرون بتعليقه أمام النّاس. وقتل قيس بن يوسف شقيق إسماعيل وقُطّع جسده إرباً. ثم مسك الجنود رأسي الملك وشقيقه من شعرهما وسارا بهما في شوارع المدينة للتّنكيل بهما. ولم يكن هناك أيّ رجل يملك القوة الكافية لجمع بقايا الملك وأخيه فتركت تلك أرضاً وكان منظراً رهيباً، فملأت رائحة الموت المكان. وأُعلن في هذا اليوم أبو سعيد ملكاً من قِبَل الجيوش والشّعب وكل من رغب في الفوضى، فأغرق نعمه وخيراته على فاعلي السّوء الذين ساعدوه لتبوّء سدة الحكم.

* * *

الفصل الخامس والعشرون

المعاهدة المعقودة بين ملك غرناطة محمّد وملك قشتالة – عزم ملك قشتالة – مقتل أبي سعيد على يد دون بِدرو ملك قشتالة

أرسل الملك محمّد رسائل عديدة إلى ملك قشتالة مطالباً إياه بمدّ يد العون له لاستعادة مملكته، وأبلغه بأعمال البطش التي تحلّ على شعب غرناطة وبالأفعال غير السّويّة التي يقوم بها الطّاغية الغاصب، فهرع دون بِدرو لمساعدة الملك الذي أُجبر على التّنحّي بطريقة غير عادلة، وجمع قواته لهذا الغرض. كانت هذه القوات مؤلفة من فرسان وجنود و1500 آليّة حربية وأخرى يستخدمها الصّليبيون في حروبهم. وصلت هذه القوات إلى رُندة Ronda حيث أقام الملك محمّد في 1 جمادى الأولى من العام 763 هـ، وعندما وصلت إلى حصن حصن كاسخارا Hism Casjara خرج ملك غرناطة لاستقبال الجنود التي أرسلها ملك قشتالة.

في هذه الأثناء قام الخائن أبو سعيد بشنّ هجوم على قشتالة آملاً إيقاف هذه القوات مرسلاً برسائل إلى كونت برشلونة، مبلغاً إياه عن نيّته في مناصرته في حربه ضد عدوّهما المشترك دون بِدرو، الذي لم يرفض مساعدته. سارت جيوش محمّد بن إسماعيل وملك قشتالة معاً كجيش واحد مسيحيين ومسلمين ودخلت حصن أتارا Hisn Atara واحتلّته وكذلك مدناً وقرى أخرى في الإمارة استسلمت كلها للملك محمّد دون أيّ إبطاء، ولم يبقَ سوى المدينة القديمة للاستسلام.

غير أنّ الملك محمّداً شعر بالخطر المُحدق بالمسلمين في حال دخلها الصّليبيون، فتوقف ولم يتحمّل قلبه أن يُلحق بشعبه الأسى، وطالب ملك قشتالة بالخروج من أرضه والعودة فوراً مع جيشه، مُعرباً له عن عدم تمكّنه من احتمال هول الحرب على شعبه

وأنه لا يستطيع أن يحمّل ضميره جروحات أكثر أياً كانت السّلطة التي سيحصل عليها. تفهّم ملك قشتالة هذه الدّوافع النّبيلة وأعرب له بالمقابل عن استعداده للمساعدة كلما رغب في ذلك. وقطع دون پدرو هذا الوعد بكل طيبة خاطر، وعاد إلى إمارته نزولاً عند رغبة ملك غرناطة وبفعل البلبلة التي بدأت تعمّ بلاده.

من جهته لم يرغب الملك محمّد الذي حُرم بطريقة غير عادلة من عرشه دخول المدينة عنوة وتسبيب الأذى لسكانها، فقرّر عوضاً من رؤية الحقد في عيونهم العودة إلى مدينة رُندة في 8 من الشّهر نفسه وأمضى أياماً سعيدة في المدينة، جاعلاً كل من سكنها ينعم برغد العيش وعمّتها البحبوحة. كان محمّد يزور المدن التي يحكمها كالوالد الذي يودّ ابنه ولم يتوانَ عن بذل أيّ جهد لتقويتها والحفاظ على أمنها وأمن قلاعها وحدودها. في هذه الأثناء كان الشّعب قد ضاق ذرعاً من تسلّط وطغيان أبي سعيد عبد الله بغض النّظر عن الانتصارات التي حصل عليها جيش المسلمين بإمرته على الصّليبيين، وقد هُزمت جيوش الملك المسيحي في هجوم على حدود قشتالة ووقع عدد كبير من الأعيان والقادة من قشتالة بيد أبي سعيد، ومن بينهم القائد الأعلى لفرسان قلعة رباح Calatrava الذي اقتيد إلى غرناطة مع الأسرى الآخرين.

غير أن الغاصب علم أنّ القائد الأعلى شقيق ملكة قشتالة[1] فظنّ أنه وجد الفرصة المثلى لقطع عهد الصّداقة الذي ربط كلاً من دون پدرو ومحمّد بن يوسف، فقام بإطلاق سراح القائد دون المطالبة بأيّة فدية بناء على نصيحة وزيره مورو Mauro وكذلك الفرسان الصّليبيين الآخرين، وبعث معهم هدايا كثيرة ذات قيمة آملاً أن يصبح موضع ثقة لدى الأمير دون پدرو، وأعطى الفرسان الصّليبيون أبا سعيد وعداً بحمل ملك قشتالة على مناصرته.

في هذه الأثناء وصلت أخبار إلى حاكم غرناطة الغاصب أنّ الملك محمّد بن إسماعيل أُعلن ملكاً على مقاطعة مالقة، ولم يكن يأمل بهذا أو يتوقعه، فثار واعتوره

---

(1) لم يكن شقيق الملكة بل ماريا باديلا التي لا يفهم الكاتب المسلم بسهولة مركزها في الدّيوان، وبالتالي أطلق عليها لقب الملكة. (فوستر)

القلق ولم يعد لديه ثقة بنفسه وبمن حوله مخافة أن يخذلوه، وازدادت مخاوفه بسبب الخيانات المتكرّرة التي قام بها أتباعه الأكثر أهلاً للثّقة، هؤلاء الذين أغرق عليهم كل النِّعم، وكان هؤلاء أوّل من تركه معلنين الانضواء تحت لواء الملك. وكانت عائدات أبي سعيد قليلة للغاية بسبب فساد المؤتمنين عليها ممّا جعله يعاني من كل صوب وهو في أوج حكمه. اتخذ أبو سعيد عندها قراراً ضدّ مصالحه بل قراراً مصيرياً مكتوباً على الأشقياء مثله. عقد العزم على الذهاب إلى قشتالة ظنّاً منه أن هذا الأمر في مصلحته، وأن يضع نفسه بتصرف الملك المسيحي دون پِدرو طامحاً البقاء في حِماه والحصول على مساعدته، وبالتالي التمكّن من حلّ كل مشاكله. وهكذا ظنّ المغتصب أنه سيكون بمأمن ولكن من المعلوم أن الأناني الذي لا يأبه سوى لنفسه ولا يفكر بسواه ومن لا يتّقي الله هالكٌ لا محالة فهو ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾[1].

وهكذا ذهب أبو سعيد من غرناطة ومعه صحبة من الفرسان الأعيان والكنوز والجواهر الأجمل: زُمُرُّد وياقوت وعقيق وثياب من ذهب وفضة وغيرها من المقتنيات الثّمينة والأقمشة المطرزة باللؤلؤ، وكمية كبيرة من الدّنانير الذهبية، والخيول والأسلحة الثّمينة المرصّعة آملاً أن يكسب ولاء الملك دون پِدرو وأن يجعله من أصدقائه لمساعدته في أي هجوم على أعدائه. وما إن وصل إلى إشبيلية حتى استقبل ملكها دون پِدرو أبا سعيد بكل حفاوة وأمر وزراءه بمعاملته كالملك. غير أن المجلس الذي عقده الصّليبيون قرّر لسلام المملكة موت أبي سعيد كونه اغتصب حكم غيره، أي محمّد، وكونه عدوّه وهو الصّديق الوفي لدون پِدرو. وبالتالي، تغاضى ملك قشتالة عن عهد الأمان الذي قطعه لضيفه بعد أن بهره بريق الياقوت وغيره من الأشياء وقرّر أن يمتلكها. وأمر دون پِدرو أن يُقتل الفرسان الأعيان الذين كانوا في قصره قبل ليل هذا اليوم وهكذا كان. وعندما أطلّ الفجر ذاع صيت أنّ فرسان غرناطة الذين كانوا في ضيافة الملك قُتلوا ليلاً فملأ القلق قلب السّكان. غير أن دون پِدرو قدّم

---

(1) سورة العنكبوت – 41.

لشعبه منظراً مهولاً آخر، فقد اقتيد أبو سعيد إلى حقل خارج المدينة ونُحر كالخروف بسهام ونبال وحربات الجيوش وفارق الحياة.

ويقال إنه عندما سقط أبو سعيد على الأرض نظر إلى دون پِدرو ملك قشتالة وقال له: «يا پِدرو، يا لهذا النّصر الملوّث بدم رجل وثق بك، لم أكن أتوقع منك غدراً بعد أن سلّمتُ نفسي لك». وُضعت جثث كل هؤلاء معاً وعُلّقت رؤوسهم على قلعة عالية حيث كان بإمكان كل المدينة رؤيتهم. وهكذا مات الغاصب أبو سعيد، وكان موته عبرة لكل الرّجال الذين تعلّموا أن كل ظالم سيبشّر بالعقاب الأكبر وأنّ السّوء لا يمكن أن يولّد إلا الحقد والغضب، فهذه سنّة الحياة وهذا أمر الله القدير.

* * *

الفصل السّادس والعشرون

استعادة الملك محمّد عرشه في غرناطة - عقد معاهدة مع ملك قشتالة - موت دون بِدرو وموت محمّد ملك غرناطة

وصل خبر وفاة أبي سعيد إلى مقاطعة مالقة حيث استقبله محمّد بن إسماعيل بكل فرح كونه كان عدواً له عندها، غير أن خيانة الصّليبيين أمضّت قلبه. فخرج من مقاطعة مالقة ما إن علم بذلك متجهاً نحو غرناطة بصحبة عدد غفير من نبلاء الأندلس. ودخل إلى المدينة وسط هتاف شعبه وتهليله حتى من أعلنوا فروض الولاء للخائن أبي سعيد، وانضوى الجميع تحت لواء الملك العظيم محمّد مخافة من بطشه. وقبّل الكل يده وهنّأه الجميع فما لقيصر عاد له[1]، وكان ذلك يوم السّبت 20 جمادى الثّانية من العام 763 هـ ظهراً موعد الصّلاة[2]. وكانت هذه إرادة الله الذي أعانه ومهّد له الطّريق لذلك.

ويقال إنّ ملك قشتالة أرسل رأس أبي سعيد إلى محمّد ملك غرناطة في سلّة ثمينة فيها عطور ثمينة تستعمل لغسل الميت. ونقل عن هؤلاء الكتاب أنه ما إن دخل رسل الملك إلى حضرة محمّد حتى رموا الرّأس تحت أقدامه وقالوا له: بهذا الشّكل يا سلطان غرناطة المبجّل تسقط رؤوس أعدائك!

ونُقل أن الملك محمّداً لم يُخفِ حبوره للهدية التي تسلّمها، وأرسل بالمقابل إلى ملك قشتالة 25 فرساً ملكياً من سلالة عربية أصيلة[3] ربّيت في إصطبلات شنيل

---

(1) يستخدم كوندِه في ترجمته هنا تعبيراً مسيحياً من الإنجيل. (أحمد)

(2) صلاة الظّهر. (فوستر)

(3) قد يرى القراء أن هذه العبارات لا تدخل في إطار النّص، وفي الواقع كانت هذه التّعابير تستخدم في تلك العصور ولا نجد مثلها في بلداننا. (فوستر)

Genil. أُلبس 10 من هذه الأحصنة الأقمشة المطرّزة الثّمينة ووضعت عليها أسرجة مرصّعة بالذّهب والأحجار الكريمة، وأغدق تحميل في المرسلين من قبله بالهدايا الثّمينة.

بعد بضع أشهر حمل بعض الشّيوخ المغتاظين ثلّة من الحقودين إلى الانقلاب على ملك غرناطة بمساعدة بعض الجنود الفاسدين الذين نشروا البلبلة في الماضي، فأعلنوا علياً بن علي بن نصر والي بيانة Baena، وهو أمير من سلالة ملكية، ملكاً عليهم. غير أن قادة محمّد بن إسماعيل وبفضل الله وعونه تمكّنوا من هزيمة هذا المتملّق وأبادوا أتباعه وأجبروهم على الفرار كالجبناء. بعد أن انتصر محمّد على الأعداء حكم بلاده بكل طمأنينة وأمان، وحدث هذا عام 745 هـ[1] وهو التّاريخ الذي خطّ فيه الكاتب هذه الأسطر، وهو الكاتب الوزير المخلص عبد الله الخطيب السّلماني الملقب بالوزير عز الدّين[2].

كعربون شكر للملك المسيحي على الرّغم من الحرقة التي ملأت قلبه بفعل الغدر، أمر الملك محمّد ابن إسماعيل أن يُطلق سراح جميع الأسرى الصّليبيين الذين كانوا في غرناطة حينها، وعقد معاهدة صلح دائمة مع الملك المسيحي وقّعها الطّرفان بكل سعادة وحبور. وعلى الرّغم من أن ملك غرناطة لم يشنّ أيّة حرب، فإنّ الثّورات وأعمال الشّغب عمّت طوال هذه الفترة مملكة قشتالة وأجبرت الملك المسيحي على طلب مساعدة الملك محمّد ضدّ ملك أراغون وأخيه[3] الذي كان يعمل على سلبه العرش، في حين كان الشّعب قد ضاق ذرعاً ببطشه وبعجرفته. أرسل ملك غرناطة

(1) العام 1365 للميلاد. (كوندِه)

(2) يقصد الوزير لسان الدّين ابن الخطيب، وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السّلماني (ولد في لوشة رجب 713 هـ = 1313 م، وتوفي في فاس 776 هـ = 1374 م) شاعر وكاتب ومؤرّخ وفيلسوف وطبيب وسياسي أندلسي. قضى معظم حياته في غرناطة في خدمة بلاط بني نَصْر، وعُرف بذي الوزارتين: الأدب والسّيف. صاحب الكتاب الشهير: «الإحاطة في أخبار غرناطة». (أحمد)

(3) إنريكِه دي تراستامارا ابن ألفونسو الثاني عشر، والد بِدرو وإليونورا دي خايمِه. (فوستر)

فوراً 600 حصان لمساعدة حليفه المسيحي، ونجح هذا الجيش الصّغير بتحقيق أعظم الانتصارات فقد ضمّ خيرة شباب وخيّالة غرناطة وقاده الرّيّس فرج بن رضوان الذي قدّم خدماته للملك دون پِدرو بكل بسالة. كما طلب ملك قشتالة قوة أخرى لمساعدته على السّيطرة على المدن العاصية التي أعلنت عداءها له، وهكذا كان فأرسل له محمّد قوة من 7000 جندي وفارس حاصروا قُرطُبة وأضعفوها للغاية وكانوا ليدخلوها بعد تسلّق أسوارها لولا أن حاربهم السّكان وأجبروهم على ترك المكان، وفي طريق عودتهم سيطرت قوات غرناطة على مدن جيان Jaén وأبذة Úbeda وهاجمت الإمارات مالترارا وأخذت عدداً من الأسرى.

في هذه الأثناء، لم تأخذ الحرب التي شنّها دون پِدرو ملك قشتالة في مملكته المنحى الذي رسمه لها، فأرسل مرة أخرى رسائل إلى الملك محمّد طالباً منه مساعدته بكل قوات ممكنة. فجمع محمّد بن إسماعيل جيشاً مهولاً وسار لمساعدة دون پِدرو، غير أن الله لم يشأ أن يصل هذا الجيش في الوقت المنتظر وقُتل دون پِدرو على يد شقيقه في معسكر مونتييل Montiel في العام 771 هـ[1] وأعلنت المملكة أخاه ملكاً.

وصل خبر موت دون پِدرو إلى الجيش الآتي من غرناطة، وعلى الرّغم من رابط المعاهدة السّلمية المبرمة قرّر محمّد شنّ حرب على المسلمين الذين يتخبّطون في حرب أهلية معلّلاً هجومه بروابط الصّداقة التي تربطه بالمغدور به ملك قشتالة. أرسل إنريكِه[2] الملك الجديد رسائل إلى محمّد طالباً منه الصّلح والسّلام، شرط أن يعدل محمّد عن مهاجمة أراضيه. غير أنّ ملك غرناطة أصرّ على موقفه، فقطع الحدود على رأس جيش لجب وزحف في أراضي الصّليبيين وأسر العديد منهم ونهب الأراضي وأخذ كل ما وجده فيها، غير أنه لم يسيطر على أيّة مدينة.

في السّنة التالية زحف الملك محمّد بكل قواه نحو الجزيرة الخضراء التي سيطر عليها بقوة السّلاح، ولكن مخافة عدم التمكّن من السّيطرة على المكان طويلاً، ومن

---

(1) العام 1369 للميلاد. (كونديه)

(2) أي بالإنكليزية هنري. (فوستر)

أن يستعمل المسيحيون المكان في المستقبل بالنّظر إلى قوته، فقد أحرقها ودمّر كل ما فيها من عمارة وأعمال وكل شيء مبني فيها، وحدث هذا عام 772 هـ. أرسل ملك قشتالة كبير قادة قلعة رباح Calatrava وحمّله رسائل إلى محمّد بن إسماعيل يطلب فيها صداقته ومعاهدة، وأقدم على هذه الخطوة بسبب الحروب التي أُقحم فيها، والحاجة إلى جمع كل قواه وأفكاره لهذا الأمر. لم يكن محمّد مستعداً لعدم عقد صلح مع الملك المسيحي كون بلاده تعاني من العديد من المشاكل التي تستدعي اهتمامه، وكان يرغب في إعطاء شعبه أفضل حكم، فلذا لم يتأخّر في عقد معاهدة صلح وسلم مع الملك المسيحي. وفي زمن السّلم هذا قرّر محمّد إنشاء بيت الزّكاة لاستقبال الفقراء المرضى وعلاج الأمراض. بدأت الأعمال يوم 20 من محرم من العام 777 هـ وانتهت في 20 من شوال من العام 778 هـ وكان مبنى ذا عمارة رائعة يصلح لسكن الأمراء فيه كل سبل الرّاحة وأفخر الأثاث. وأمر ببناء النّوافير ووضع الرّخام فيه لكي يتمتّع المرضى بإقامة مريحة، وزيّنت مدينة وادي آش بالعديد من المعالم الرّائعة التي أمر محمّد بن إسماعيل ببنائها كونه كان يمضي وقتاً كبيراً كل سنة فيها.

كرّس محمّد طوال مدة المعاهدة الطّويلة التي أبرمها مع الأمراء المجاورين معظم اهتمامه لإسعاد شعبه، حيث شجّع الفنون والصّناعات وقام بحماية التّجارة والزّراعة، ولم يترك أيّ قسم إداري دون مراقبة. وفي هذه الأثناء أتى تجار من كل أنحاء البلاد من سوريا ومصر وأفريقيا وإيطاليا وأرمينيا، وأرسلوا بضائعهم إلى المملكة التي تحوّلت إلى أكبر سوق عالمي. وأصبحت المدينة حاضرة كبرى، فيها شعوب من جنسيات متعدّدة من مسيحيين ومسلمين ويهود، ولُقّبت بمدينة كل الشّعوب.

طلب محمّد من الشّعب تقديم فروض الطّاعة والولاء إلى ابنه أبي عبد الله يوسف، وأقيم بهذه المناسبة احتفال ضخم وتمّت مناقشة زواج الأمير من ابنة ملك فاس، وبعد وقت قصير وصلت العروس إلى غرناطة بصحبة أمير فاس الذي تزوّج زهيرة Zahira ابنة أبي عيان Abu Ayan أحد نبلاء الأندلس وفارس غني للغاية وأحيي فرح الأمير في غرناطة. وعمّت الأفراح البلاد ونظّمت العديد من المسابقات والألعاب في إسپانيا

وأفريقيا وفرنسا ومصر، لكون جميع الملوك على علاقات طيبة مع الملك محمّد، الذي كان يلقاهم بكل حفاوة في بلاطه، وينزل البعض في الفوندا[1] وآخرون لدى نبلاء غرناطة.

أراد الملك محمّد بن إسماعيل تمديد المعاهدة التي أُبرمت بينه وبين ملك قشتالة التي أوشكت على الانتهاء، فأرسل المجوهرات والهدايا النّفيسة إلى دون إنريكِه مع رسائل بهذا الشّأن. غير أنّ الملك القشتالي توفي بعد وقت قصير وقد تناقلت بعض الألسنة اللعينة والسّيئة أن موته كان بسبب عملية غدر قام بها ملك غرناطة وزعموا أن بين الهدايا التي أرسلها محمّد بن إسماعيل إلى الملك إنريكِه كانت هناك جزمٌ وخفّافات منقوعة بسمّ زُعاف. ولكن ملك غرناطة لم يكن قط قاتلاً أو خائناً فقد كان موت الملك إنريكِه طبيعياً لأن أيامه كانت معدودة ليس إلا.

مضت سنوات عديدة منذ هذا الحدث قبل أن ينتقل الملك محمّد بن إسماعيل إلى رحمته تعالى في العام 794 هـ[2]. فغُسل جثمانه الطّاهر ثم وضع في مكان يعرف بجنّة العريف[3] مع بزوغ فجر اليوم، ثم بعد وقت قصير من صلاة الفجر صُلّي على روحه وسارت جنازة مهيبة مشت فيها كل طبقات الشّعب. خلفه أبو عبد الله يوسف بن محمّد بن إسماعيل ولده وأُعلن بكل صخب ملكاً على غرناطة، وبايعه جميع الأعيان والولاة والقادة من كل الأقضية[4] في المملكة.

كان أبو عبد الله بن يوسف فاضلاً كوالده، ونبيلاً ومحباً للسّلام وما إن انتهت الاحتفالات بتنصيبه ملكاً حتى أرسل إلى الملوك الصّليبيين معرباً عن استعداده للإبقاء على المعاهدات التي أبرمها والده عنهم. أطلق أبو عبد الله العديد من الأسرى الصّليبيين الذين أُسروا على الحدود دون أيّة فدية بهدف تأكيد حُسن نيّته لملك قشتالة،

---

(1) الفوندا أو الخان.

(2) العام 1391 للميلاد. (كوندِه)

(3) ثمّة مكان لا زال يعرف بهذه التسمية: خينيراليفِه. (كوندِه)

(4) القضاء أي المحافظة القضائية. (كوندِه)

وأُرسل هؤلاء برفقة والي مقاطعة مالقة إلى ديوان إشبيلية وستة أحصنة عربية أصيلة عليها أقمشة مزركشة مطرّزة ثمينة وأسلحة رائعة مغلفة بالحرير والذهب. تلقى ملك قشتالة هذه الهدايا بكل فرح واستقبل والي مقاطعة مالقة بكل احترام وحفاوة، وعندما عاد الشّيخ هذا إلى بلاط ملكه أبي عبد الله بن يوسف محمّد رافقه موفدون مسيحيون فوّضوا بأمر تعديل شروط المعاهدة التي ستُبرم بين الملكين.

* * *

الفصل السّابع والعشرون

حكم أبي عبد الله محمّد يوسف – موته – خلفه ابنه الثّاني محمّد – دخوله إلى إشبيلية بالخفاء – لقاؤه مع ملك قشتالة

كان ليوسف بن محمّد ملك غرناطة أربعة أولاد الأول يوسف على اسمه والثّاني محمّد والثّالث علي والرّابع أحمد. وكان ابنه الثّاني محمّد رجلاً قوي الطّباع وقائداً هماماً وطموحاً. أوغر صدر محمّد ضد أخيه يوسف بحقد كبير كونه كان المفضّل لتسلم العرش بصفته الأكبر والمفضل لدى والده. فضرب بعرض الحائط الاحترام الذي وجب لوالده بسبب غيظه من أخيه، وحاول بكل وسعه إزاحته عن العرش مع الأمل في حال حالفه الحظ تسلّم سّدة الحكم مكان أخيه الأكبر.

لهذا الغرض ومتسلحاً بغيرته على الإسلام والدّيانة لمعرفته أن الشّعب سيثور بعض الشّيء على الملك بسبب تحالفه مع القوى المسيحية، حاول الأمير محمّد الوصول إلى مبتغاه. وبما أن يوسف كان قد استقبل بعض الفرسان الصّليبيين في ديوانه وقدّم لهم الضّيافة لم يكن الأمر صعباً للأمير لتنفيذ مخططه والضّغط على الشّعب. فساد رأي عام مفاده أنّ والده مسلم فاسق وكذلك أخاه، ولم ترتدع بعض ألسنة السّوء عن نعت الأخير أي الملك يوسف بن محمّد بالمسيحي قلباً. سرعان ما انتشرت هذه الإشاعات ودنّست عقول الشّعب ولم يتوانَ بعض ناشري السّوء عن طلب العصيان على ملكهم، وحتى طلب تنحيته عن الحكم. وفي يوم من الأيام تجمّع المتآمرون قرب القصر الملك ودخلوه عنوة، وكان الملك يوسف على وشك التّنحّي عن العرش فوضع نفسه بتصرّف شقيقه الثّائر، ولكن صادف أن كان في القصر الملكي سفير فاس في الدّيوان، وهو رجل حكيم وبليغ، فركب جواده وخطب بالشّعب الذين تجمعوا في الباحة العامة.

وكان خطابه نابعاً من القلب ومقنعاً وفيه حماسة، حتى أن رجال الأمير محمّد اقتنعوا بالعودة تحت لواء ملكهم. شرح لهم كل الأسباب التي توجب عليهم التّوقف عن زعزعة أمن البلاد وبيّن ويلات الحروب الأهلية وكيف أنّ العدو سيستفيد منها، وذكّر هؤلاء بكل الآلام والصّعاب التي واجهها المسلمون بسبب هذه الصّراعات الدّاخلية. وتحدّث أيضاً عن سقوط ممالك الأمويين والمرابطين والموحّدين وبني هود بسبب الحروب الدّاخلية الأهلية. وذكّرهم أنهم بصفتهم مسلمين صالحين يجب أن يتّحدوا ضدّ العدو المسيحي عوضاً عن تصويب سلاحهم ضد بعضهم، والاستفادة من الضّعف لدى الكفرة العاجزين بسبب الثّورات والبلبلة في بلادهم عن شنّ أيّة حروب، كون مشاكلهم الدّاخلية تعيقهم. وأنهى خطابه قائلاً إن العدّة تُعدّ لشنّ حرب على الصّليبيين دون إبطاء، وبأن ملكهم يوسف بن محمّد سوف يقودهم في هذه الحرب وسوف يبرهن لهم كم هو مسلم مخلص وملك جيد وبأنهم بأفعالهم هذه يهينوه.

انصاع الشّعب لأقوال السّفير الذي عاد إلى القصر الملكي، وبدأ التّحضير لغزو أراضي الصّليبيين، وبالفعل هُيّئت القوات لهذا الغرض وقطعت الحدود ودارت معارك في مربيلة ولوقة، فأحرقت الحقول وذُبح السّكان ونهبت المواشي وأُسر الكثيرون ودُمّرت الكروم وحقول الزّيتون والحدائق، وأُحرقت الأراضي الزّراعية وتُركت المدن كالصّحراء الموحشة. وأغار حرّاس الحدود الصّليبيون على المؤمنين، وحالفهم الحظ فاستعادوا قسماً من الأراضي، وعاد المسلمون إلى غرناطة مع جزء فقط ممّا غنموا به. وبما أن الملك يوسف قام بهذه الحرب دون إرادته، فقد كان مستعدّاً للقبول بكل شروط المعاهدة التي اقترحها عليه ملك قشتالة. ويقول البعض إنه كان مَن طلبها كونه أصبح على علم بالجيوش التي تجتمع ضدّه ليس فقط في قشتالة بل في أراغون، وبهدف تجنب هذه الحرب أراد عقد معاهدة هدنة مع الصّليبيين بناءً على نصيحة وزرائه وقادته. صادف خلال فترة الهدنة هذه أن دخل القائد الأعلى للقنطرة وهو رجل طموح ووقح إلى إمارة ڤيغا Vega غرناطة وألقى حصاراً على حصنها بعد أن حشد عدداً من المقاتلين.

عندما علم الملك يوسف بهذا الأمر، أرسل جنوده إلى غرناطة لمواجهة المغتصبين هؤلاء مع ثلّة من الفرسان. رفع القائد الأعلى حصاره وأمر عناصره بالزّحف لمجابهة جيوش المسلمين، فهُزم في المعركة وفارق الحياة مع كل أتباعه، لكنهم قاتلوا بكل ضراوة وأزهقوا أرواح المسلمين الذين أبادوهم فلم ينجُ منهم من يخبر عمّا جرى. بعد وقت قصير من هذه المعركة أرسل ملك قشتالة رسائل لقادة جيوش الحدود للاعتذار عن هذه الأحداث الأليمة التي عكّرت صفو الهدنة على يد القائد الأعلى، معللاً أنه قطع الحدود وشنّ الحرب والحصار دون علم أو إذن ملك قشتالة. وفي حال كان الأمر كذلك يكون له ما استحق، فقد دفع الثّمن غالياً بسبب خيانته. وقد حدثت المعارك هذه في عام 798 هـ. تلقّى الملك المسلم هذه الرّسائل التي طيّبت خاطره، وعاش المسلمون بكل طمأنينة على الرّغم من أنّ الشّعب ظلّ يحمل الخسارة هذه في قلبه وبقي يأمل في الثّأر من الصّليبيين.

بعد انقضاء وقت قصير على هذه الأحداث توفي الملك يوسف بن محمّد، وقيل إن موته كان على يد أحمد بن عامر بن سليم Ahmed Ben Amer Zelim ملك فاس بسبب مكيدة أعدّها له، فقد زعم أنه صديق ليوسف، ووصف الذين أطلقوا هذه الإشاعة كيفية موته قائلين إنّ ملك فاس أرسل هدايا قيّمة إلى يوسف من بينها ثوب رائع الجمال منقوع مسبقاً في مزيج من السّم المميت، وعندما لبس الملك يوسف هذا الرّداء بعد تريّضه بركوب الخيل كانت مسامه مفتوحة فدخل السّم جسمه وعانى من أوجاع أليمة لمدة ثلاثين يوماً وبعدها مات. ويؤكد آخرون أنّ موت الملك يوسف جاء بعد طول معاناة مع المرض.

تمكّن ابن الملك يوسف الأمير محمّد ثاني الأبناء من كسب ثقة الشّيوخ والأعيان في غرناطة، حتى أنهم ضربوا بعرض الحائط حق الأمير يوسف البكر في العرش على الرّغم من إرادة والده، وأعلنوا محمّداً ملكاً عليهم حتى قبل دفن والده. وفي اليوم التّالي تمت مراسم دفن الملك بأمر من الملك الجديد ووري ثراه في جنّات العريف قرب والده وجدّه. كانت أولى اهتمامات الملك محمّد منع شقيقه من الظّهور، على

الرّغم من أن الأخير كان مقتنعاً بحياة هنيئة في منزله ولم يقم بأي عمل ضد الملك، فقرّر الملك الجديد سجنه وأرسله إلى قلعة شلوبانية (سالوبرينيا) Salobreña وأمر بحراسته وبتقديم كل سبل الرّاحة له، واقتيد يوسف بالفعل هناك مع حراسة مكثّفة، وأخذ معه حريمه وكل الخدم اللازمين لراحته.

كان محمّد بن يوسف رجلاً جميلاً وداهية، شجاعاً، قوياً، جذّاباً مستعداً لكسب قلب شعبه بكل الطّرق. ومخافة منه من أن يقطع عهد الوفاء مع ملك قشتالة[1] قام ملك غرناطة الجديد بوضع حيلة استثنائية فخرج متخفّياً دون رفقة أو صحبة كأيّ رجل عادي، حتى وصل إلى الحدود المسيحية وعرّف عن نفسه كمرسل من ديوان غرناطة. تمكّن من قطع مدينة طليطلة مع 25 فارساً ثم عرّف عن نفسه أمام ملك قشتالة الذي استقبله بكل حفاوة وبكل تقدير كصديق، وتناول الملكان معاً وليمة ووضعا شروط معاهدة سلام بينهما فجدّدا العهد الذي قام به والد محمّد. شعر ملك قشتالة بالرّضا التّام، وعاد إلى ديوانه دون أن يعلم أحد برحلته هذه إلا بعد وقت طويل.

وقبل مغادرة غرناطة للقيام بالزّيارة أعلاه، كتب محمّد بن يوسف رسائل إلى ملك فاس معتذراً عن الأسباب التي دفعته إلى سجن أخيه، فعلّل أنها ضرورية لحماية المملكة من البلبلة وتأمين استقرارها. بعد وقت قصير عاد الملك من إشبيلية. في هذه الأثناء شنّ بعض الجنود على الحدود زحفاً نحو أراضي غرناطة مغتصبين بنود المعاهدة التي أبرمت بين ملكهم وملك البلاد. غير أن محمّد بن يوسف الطّموح والأبيّ لم يسمح أن يصل أي خبر إلى الملك المسيحي قبل الانتقام بذاته، فجمع جيشاً مهيباً وخرج إلى الحدود بدوره وانقضّ على أراضي الغرب وأنزل الويلات بالإمارة، وأخذ جنوده الماشية وأحرقوا الحقول وأسروا كل السّكان وتركوا البلاد كالصّحراء. ثم احتلّ قلعة أيامونتِه وترك فيها جنوده، وعاد منتصراً إلى غرناطة مع غنائم وأسرى وكنوز من كل نوع.

---

(1) إنريكِه الثّالث. (فوستر)

فوراً بعد هذا الزّحف الذي أمر به ملك غرناطة دون إبطاء أتى موفدون إلى البلاد من قبل ملك قشتالة للمطالبة باستعادة أيامونتِه من محمّد وتنفيذ شروط الهدنة المُبرمة بينه وبين الملك المسيحي. فردّ عليهم محمّد بكل لباقة، غير أنه لم يسمح بأيّ حديث عن استعادة القلعة. وطلب إبلاغ ملك قشتالة أنّ الزّحف الذي حدث كان نتيجة هجوم الجيش الحدودي المسيحي على أراضيه، كونهم أول من كسر شروط المعاهدة. لم يُرضِ هذا الرّد ملك قشتالة قطّ، فأمر قادة الحدود بالهجوم على عدة أراضٍ في غرناطة أملاً منه بإجبار محمّد بن يوسف على التقيّد بشروط المعاهدة المبرمة بينهما. فسار الملك محمّد فوراً ضد هؤلاء بكل قواه ودارت بينهم معارك كانت تارة تسفر عن ظفر فريق وطوراً الآخر. غير أنّه خسر جنوداً كثراً في هذه الغارات، وبقي عدد من قادته الكُماة صريعاً في أرض المعركة. حال حلول فصل الرّبيع والأمطار الهائلة التي حصلت دون استمرار المعارك التي بدأت كما سبق وأشرنا أعلاه. وفي هذه الأثناء توفي ملك قشتالة، وحدث ذلك في وقت كان ينتظر فيه محمّد يومياً حضور الملك المسيحي شخصياً لغزو بلاده على رأس قوة هائلة. غير أنّ الموت سبقه، وخلف الملك إنريكِه ابنه خوان[1] وكان طفلاً[2] غير قادر على استلام زمام الأمور، فحكم البلاد باسمه عمّه دون فرناندو[3]، وهو رجل حكيم وقائد عظيم.

أكمل دون فرناندو الحرب التي بدأها أخوه إنريكِه بكل عزم، فسار على رأس جيش عرمرم نحو الزّهراء وحاصرها، فاستسلمت المدينة له بعد دفاع قصير، ثم هاجم بلدة عزّ الدّين Azeddin التي أخذها بقوة السّلاح، وسيتينيل Setenil التي حاصرها. دافع المسلمون عن المكان بكل بسالة، فأرسل دون فرناندو بعد أن أحسّ بضراوة الحرب التي ستقام قسماً من جيوشه للهجوم على الإمارات المجاورة. وحاصرت القوات هذه قلعتي بريبغو Priego ولاكوبين Lacobin واحتّلتها،

(1) أي جون بالإنكليزية. (فوستر)

(2) لم يكن بلغ بعد عامه الأول. (فوستر)

(3) هو فرناندو الرّابع مدمّر المملكة الإسلامية في إسبانيا وزوج إيزابيل. (فوستر)

واستعادت الجيوش أثناء حصار سيتينيل قلعة أيامونتِه وأورتيخيكار Ortegicar وتركت فصائل فيها.

لم يرَ الملك محمّد أنّ التّصدّي لهذه الهجمات بحرب مفتوحة أمرٌ حكيم، فأمر أن تُشتّت قوّات الصّليبيين عن طريق تفرقتهم، فسارت قوّاته نحو جيان Jaén وقامت فيها بفظائع ومذابح. فأرسل الملك فرناندو بسرعة قوة لإنقاذ المكان، ورفع بالتّالي حصاره عن سيتينيل حيث خسر الكفرة عدداً كبيراً من خيرة فرسانهم.



الفصل الثّامن والعشرون

موت محمّد ملك غرناطة - خلف شقيقه يوسف - مناقشة معاهدات بينه وبين الصّليبيين - موت الملك يوسف

في السّنة التالية، سار الملك محمّد بن يوسف ضد مدينة القبضات Alcaudete على رأس جيش مؤلف من 7,000 فارس و12,000 جندي، وواجه هذا الجيش الجرّار جيوش الصّليبيين مرات عديدة ووقعت بينهم معارك ضارية خيضت بضراوة وكسب فيها الطّرفان. ولكن بعد أن رأى المسلمون والصّليبيون أن أشجع قادتهم وأفضلهم سيسقطون شهداء بدأوا مناقشة معاهدة سلام بالتّراضي، وتمّ الاتفاق على هدنة لمدة 18، شهراً فأرسل محمّد موفدين إلى ملك قشتالة محملاً إياهم مهمّة التفاوض على شروط المعاهدة باسمه وإبرامها وتوقيعها.

وقبل انتهاء مدة الهدنة التي أبرمها الملكان بكل رضا، مرض محمّد بن يوسف مرضاً خطيراً حتى عجز الأطباء عن علاجه وأعلنوا أن مفرّ أمامه من الموت، وكان محمّد من الرّأي عينه وكان يرى أن أيامه معدودة، فأراد أن يضمن العرش لابنه، لذا أمر أن يُقتل أخوه يوسف في السّجن. غير أن محمّداً نسي أن الله الباقي هو وحده القادر على استرجاع روح عباده. فكتب لقائد حصن سالوبرينيا Salobreña (شلوبانية بالعربيّة) ما يلي: «إلى خادمنا صاحب شلوبانية، عند تسلّمك هذه الرّسالة من يد القائد أحمد بن شراك، اقتل أخي السّيد يوسف وابعث لي رأسه مع حاملها». وعندما وصل الرّيس أحمد بن شراك[1] Ahmad ben Xarac إلى قلعة شلوبانية مع الرّسالة التي

---

(1) كذا تبيّن لي الاسم كما يرد بالإسپانيّة، أم هو شَرَك؟ واسمه لا يرد في المصادر الأندلسيّة المتاحة، ومرجعنا الوحيد هنا هو كونده. (أحمد)

تنصّ على أمر الموت، كان الأمير يوسف بن يوسف يلعب الشّطرنج مع قائد القلعة، وكانا جالسين على سجّادة باهظة الثّمن مصنوعة من خيوط من ذهب ومطرّزة متّكئين على طنافس من حرير وذهب. فالأمير يوسف كان يتمتع بكل سبل الرّاحة التي تناسب منصبه وكان يُعامَل بكل احترام. وعندما تسلّم القائد الرّسالة وقرأها ملأ الأسى قلبه وبدا هذا على وجهه. فقد تمكّن يوسف بفضل طيبته من كسب ودّ واحترام كل من عرفه وغصّ قلب القائد بالألم عند قراءة أمر محمّد.

في هذه الأثناء كان الرّيّس ابن شراك ينتظر بفارغ الصّبر لتنفيذ المهمّة التي بُعث من أجلها دون مضيعة وقت، وطلب من القائد القيام بالأمر المبعوث إليه، إلا أن الأخير لم يتمكّن من إنزال العقوبة بالأمير يوسف. بعد أن رأى يوسف حيرة القائد والأسى البادي على وجهه، سأله ما الذي يودّه الملك قائلاً: «أهو الأمر بموتي؟ أيطلب رأسي؟». أعطى القائد الأمير الرّسالة، وبعد أن قرأ الأمير محتواها قال للقائد: «امنحني بعض السّاعات لأختلي بعائلتي وأوزّع بعض الهدايا على خدامي». غير أن أحمد بن شراك أجاب أنه لا يمكنه تأجيل تنفيذ الأمر، كون ساعات الملك معدودة وإنّها تعدّ بالدّقائق حتى. فأجاب الأمير دعنا إذن ننهي اللعبة وسوف أخسرها دون شك. غير أن أسى القائد كان كبيراً ولم يتمكّن من تحريك حجر واحد دون خطأ، ممّا استدعى لفت انتباهه مرّات عديدة من قبل الأمير. وفيما كانا يلعبان وصل فارسان من غرناطة وأعلنا يوسف ملكاً وأعلماه بموت شقيقه محمّد. غير أنّ الملك لم يصدّق على الفور وشكّ بالأمر، ولم يتمكّن من تصديق ما يحدث حتى وصل نبلاء آخرون من أعيان المملكة وأكّدوا ما قاله الفارسان، فخرج الجميع من شلوبانية وعادوا إلى المدينة على وجه السّرعة.

استقبل الشّعب يوسف بكل حفاوة لدى عودته إلى غرناطة حيث جاء كل الأعيان لاستقباله وزيّنت الشّوارع بأبهى الأقمشة والحرير والذّهب، ونُصبت أقواس النّصر في الشّوارع العامّة وفي الباحات، ونشرت الزّهور وعلت هتافات الفرح من كل حدب وصوب. وكان يلقي السّلام على كل هؤلاء بكل حفاوة وترحاب معرباً عن امتنانه لهم

ولمشاعرهم النّبيلة. فقد كانت خصال يوسف بن يوسف معروفة للجميع وأمل الكلّ أن يحيي لهم الملك أمجاد بني نَصْر وأبي عبد الله وغيرهم من الملوك العظماء.

أرسل الملك يوسف رسائل إلى ملك قشتالة يبلغه فيها عن تسلّمه سدّة الحكم بإجماع شعبه، مع عبد الله الأمين الخادم الأمين والموثوق به وصديق يوسف الذي حمّله مهمّة إبرام معاهدة سلام مع ملك الصّليبيين. استُقبل عبد الله الأمين بكل حفاوة في قصر الملك في إشبيلية ووضعت شروط معاهدة سلم، وكانت شروطها تلك التي وافق عليها محمّد شقيق يوسف. ثم أرسل ملك قشتالة موفدين إلى غرناطة لمنح الملك يوسف موافقته وللحصول على توقيعه على معاهدة السّلام هذه. فأعاد ملك غرناطة معهم هدايا قيّمة إلى ملك قشتالة، ومنها خيول أصلية وأقمشة مزركشة ومطرّزة وسيوف ثمينة وشقق حرير وذهب. عقد الملكان هدنة لمدة سنتين، وبعد انقضائها أرسل الملك يوسف ابن يوسف محب السّلام أخاه الأمير عليّاً لعقد مباحثات لتمديد الهدنة، غير أن نبلاء قشتالة قالوا له إن الملك يوسف يجب أن يعلن ولاءه لملكهم كما فعل قبله بعض الملوك، وأن يدفع له مبلغاً سنوياً من الذهب كعربون عن طاعته. رفض السّيد علي الانصياع لهذا العرض المهين معرباً أنه لم يتلقَّ أيّ أمر من شقيقه بهذا الشّأن، وأعلن أنه مفوّض فقط بتمديد الهدنة، ثم خرج من ديوان الملك في إشبيلية دون عقد أيّ اتفاق.

فور انقضاء مدة المعاهدة دخل دون فرناندو أرض غرناطة على رأس جيش كبير وحاصر مدينة أنتقيرة Antequera. ودارت معارك ضارية بين المسلمين وجنود الصّليبيين، أوقعت خسائر جسيمة في صفوف الصّليبيين. وللتّخفيف من هذه الخسائر، وبما أنه كان من المتوقع أن يرسل الملك يوسف قوات مساندة، قرّر دون فرناندو تشييد جدران قوية وعالية حولها لمنع دخولها من كل صوب، وضيّق الحصار للغاية، وعلى الرّغم من أنّ الأميرين علي وأحمد شقيقي ملك غرناطة دافعا بكل بسالة عن المدينة، فإنّ جهودهما كلّها ذهبت سدى. وقرّر السّكان الذين أرهقهم الجوع والاستفزاز المسيحي الاستسلام، وبدأت المفاوضات لهذا الغرض وبعد تحديد

الشّروط سُمح للجميع بالمغادرة مع مقتنياتهم وضمان حياتهم، وتركت مدينة أنتقيرة وحصن الحجار وغيره من حصون الإمارة.

في الوقت عينه، كان طغيان حاكم جبل طارق قد أرهق المسلمين فيه، فخافوا من الرّضوخ إلى ملك غرناطة وكتبوا إلى أبي سعيد ملك فاس يعلمونه أنهم أتباعه في حال ساعدهم وحماهم، ففرح ملك فاس للغاية بهذا الأمر وأرسل أخاه أبا سعيد مع ألفي رجل لاحتلال القلعة التي كانت بمثابة مفتاح إسپانيا. لم يتحرّك ملك فاس بهدف السّيطرة على جبل طارق فحسب، بل في الوقع كان تحرّكه أكثر لإخراج أخيه من المملكة، فقد كان محبوباً من الشّعب بفضل صفاته العديدة الممتازة ومخافة من أن يجبره الشّعب على التّنحّي عن العرش لصالح أخيه. كان الأمير أبو سعيد رجلاً عادلاً صادقاً ولم يفكّر أبداً بكل الأفكار التي كانت تدور في رأس أخيه، وسار مع قوّاته بناءً على أمر الملك ففتح له السّكان أبواب المدينة وسيطر الأمير الأفريقي عليها دون أيّة عوائق. ثم انسحب القائد إلى القلعة وبعد أن أحسّ بأنّ المساعدة التي ينتظرها من غرناطة قد تأخرت أُجبر على خوض مفاوضات للاستسلام مع السّيد أبي سعيد أمير فاس.

في هذا الوقت، قدم جيش مهيب من المشاة والفرسان لإنقاذ جبل طارق بقيادة السّيد أحمد أخي ملك غرناطة، فتشجّع القائد الذي كان على وشك الاستسلام. طلب أبو سعيد من أخيه مدّه بالمساعدة، غير أن الملك الذي أراد هلاك أخيه لم يرسل سوى عدد قليل من الذخائر والجنود وبعض السّفن. في هذا الوقت كان أمير غرناطة يشدّد الخناق على أمير فاس أبي سعيد. وبعد أن رأى الأخير أن لا سبيل للكسب، بدأ بعقد مفاوضات مع الأمير أحمد للاستسلام وسلّمه القلعة دون إبطاء مطالباً العفو عن شعبها المتمرّد وهكذا كان. وترك الأمير أحمد فرق جيوش في القلعة من الموثوق بهم وخرج من المدينة مع الأمير أبي سعيد، غير أن الأخير وعلى الرّغم من كونه أسيراً دخلها بكل حفاوة جديرة بأمير، واستُقبل في ديوان غرناطة بكل تقدير، وعامله الملك يوسف بكل احترام.

أرسل ملك فاس موفدين من قبله مع رسائل تتحدّث عن صداقة الملك لملك غرناطة، مطالباً إياه بدسّ السّم لأخيه أبي سعيد معلّلاً أنّ موته ينصبّ في مصلحة المملكة. غير أنّ يوسف بن يوسف الذي ذاق بنفسه الظّلم والحقد من قبل أخيه أحسّ بما يشعر به أبو سعيد. وعوضاً عن الانصياع لأوامر ملك فاس أعطاه الرّسائل لقراءتها وعرض عليه مساعدته، أكان ذلك لجهة إمداده بالقوات أم الأموال في حال قرّر الانتقام، أو بتقديم اللجوء في حال قرّر عدم الانصياع وراء الأشرار على أن يمنحه صداقته وقصراً مع حدائق رائعة فوراً.

تألّم أمير فاس من غدر أخيه من صميم قلبه، فقرّر العودة إلى أفريقيا والانتقام لمحاولة القضاء على حياته، وقبل المساعدة التي مُنحت له من الملك يوسف والمؤلّفة من الكنوز والقوات المسلّحة، وأبحر من مقاطعة المَريّة Almería وعَبَر المضيق. في هذه الأثناء ظنّ ملك فاس أنّ أبا سعيد في عداد الأموات بسبب غدره وخيانته، فوصله خبر الهجوم. وخرج أشجع رجال القبائل لمناصرة الأمير الذي كان على مشارف فاس. ثم سار الملك لمواجهة أخيه، غير أنه هرب في المعركة بعد أن تأكّدت هزيمته، واحتمى في المدينة حيث حاصره أخوه المجروح. وبعد أن قضى معظم جنود فاس في المعركة وتُركوا جثثاً هامدة للطّيور الجارحة، أعلن الشّعب الذي عانى الويلات من ملكه الأمير سيّد أبا سعيد ملكاً عليهم وفتحوا له أبواب المدينة. فأصبح ملكاً على المملكة وعلى أخيه الذي مات من الحسرة والحزن. أرسل الملك الأفريقي عربوناً عن امتنانه هدايا ثمينة لملك غرناطة يوسف بن يوسف، وتأكيداً على صداقتهما المتواصلة. مع مطلع العام 820 هـ[1] شكّ ملك غرناطة بفوزه في الحرب على الصّليبيين، فعقد معاهدة سلام مع ملك قشتالة وأطلق سراح مئة أسير مسيحي دون أيّة فدية.

قدّم يوسف بن يوسف للموفدين والوزراء الذين حضروا للقيام بالمناقشات الخاصّة بالمعاهدة التي حُدّدت مدتها بسنتين مجوهرات ثمينة، كما جرت العادة لدى

---

(1) العام 1417 للميلاد. (كوندِه)

ملوك غرناطة في هذه المناسبات. ونعمت أراضي الملك يوسف بالطّمأنينة والرّاحة منذ ذلك الحين مع الصّليبيين حتى يوم مماته، وتحول ديوانه إلى ملجأ لكل مظلوم ومقهور من بلاد قشتالة وأراغون، وجاء المتنازعون إليه لحلّ مشاكلهم وكأنه قاضٍ، وعمل يوسف بن يوسف على إيجاد حلول لهم. غير أن حبه للسّلم دفعه دائماً لإيجاد حل ودّي للمشاكل، هذه وحوّل الأعداء إلى أصدقاء وكان هؤلاء الفرسان يخرجون من ديوانه فرحين. وفي حال لم يكن بمقدوره عقد صلح ودّي كانت تدور بين المتنازعين مبارزة، وقبل أن يموت أي طرف يتدخّل يوسف كصديق معلناً فوز كليهما محاولاً تقريب المتنازعين. أحبّ الغرباء وكذلك شعب يوسف الملك، بالنّظر إلى مزاياه هذه وحبّه للسّلام والخير، وكان بشكل خاص صديق الملكة الأم في قشتالة، وجرت العادة بينهما على تبادل الرّسائل والهدايا في المناسبات. وعندما وصل ملك قشتالة إلى سنّ يمكّنه من تسلّم الحكم بمفرده، جدّد معاهدة السّلام مع الملك يوسف وأعلن له عن صداقته. وحلّ السّلام على البلاد، فعمل ملكها على منح شعبه الرّفاه والطّمأنينة، ويقال حتى أن شعب غرناطة ذاق العيش الرّغيد وكأنه في جنة في وسط حدائق غنّاء وبأمكنة عامة رائعة. ثم شارفت حياة الملك يوسف على نهايتها وانتقل إلى رحمته في اليوم المكتوب لذلك في سجلّ القَدَر فجأة دون سابق إنذار.



الفصل التاسع والعشرون

إعلان مولاي محمّد ملكاً على غرناطة – تنحيته عن العرش – تنصيب محمّد الصّغير مكانه – تنحيته وموته

يوم ممات يوسف بن يوسف أُعلن ابنه مولاي محمّد نصر أبو يوسف ملكاً مكانه وكان يلقب بالأيسري Muhamad Alhayzari لأنه كان يكتب بيده اليسرى، غير أن البعض عزا هذه التسمية إلى أنّه كان سيء الطّالع. وعندما انتهت مراسم الدّفن بكل ما رافقها من ضوضاء وبعد أن ووري الثّرى في جنّة العريف، أرسل الملك الجديد رسائل إلى كل المحافظات والمدن وأمرها الاحتفال بتنصيبه ملكاً مع ما يرافق هذا من صخب واحتفالات، وأمر الولاة والقادة بإرسال رسائل للإعراب عن ولائهم وطاعتهم. من المؤكد أن محمّد الأيسري كان لا بدّ أن يقتدي بمثل والده الذي ضرب بطريقة حكمه المثل، لكنه لم يفعل ذلك سوى جزئياً فقد حافظ على علاقات ودّية طيبة مع كل أمراء أفريقيا وإسپانيا، وأرسل موفدين لهذا الغرض وجدّد المعاهدات المبرمة مع والده يوسف من أجل سلامة وأمن الإمارة. غير أنه نسي أن يبني علاقات وصداقات مع شعبه في حين يعرف جيداً أن أفضل دعم للحاكم هو دعم أتباعه.

كان رجلاً متباهياً ومتعجرفاً وعامل كل الوزراء في الولاية وأهم القادّة كعبيد لديه. وأصبح غروره لا يحتمل يوماً بعد يوم واعتبر نفسه أعلى من سواه ولم يترك يوماً يمضي دون تأنيب أيّ من الأعيان وتحقيره. حتى أنه كان يرفض أحياناً استقبال أهم الولاة والوزراء الذين حضروا لاستشارته في أمور هامّة دون أي سبب سوى قراره الشّخصي وإرادته بعدم رؤيتهم. وكان محمّد مهتماً فقط بالإبقاء على علاقته مع الأمراء الأجانب، وكان حذراً للغاية لعدم نكل أي بند من المعاهدات المبرمة مع

القادة الصّليبيين أو أمراء أفريقيا، وصداقته مع مولاي أبي فارس ملك تونس ومع ملك قشتالة جاره.

غير أن المناحرات مع أفراد حاشيته جعلته منبوذاً، فلم يشارك بأيّ من المبارزات والتّمارين التي كان يقوم بها الأعيان والفرسان أو ألعاب التّرفيه، ومنع أيّة مبارزات أخرى ولم يتعاطف أبداً مع شعبه أياً كانت المناسبة. لكل هذه الأسباب لم يكن الشّعب والأعيان وأفراد الحاشية راضين عن ملكهم، ولم يمضِ وقت طويل حتى أصبح الوزير وقاضي غرناطة يوسف بن سِراج الفارس الهمام الذي ينتمي إلى سلالة مهمّة وفاعلة في المملكة الشّخص الوحيد القادر على رؤية الملك، وتمكّن بفضل سلطته من الحدّ لمدّة من عدم رضا الشّعب الذي كان يطمح إلى تنحّي الملك المكروه. غير أن تأثير يوسف بن سِراج وحرصه لم يكُ كافياً، فقد ثار الشّعب وأعلنوا محمّد الصّغير ابن عم الملك ملكاً عليهم مكانه. دخل الشّعب بكل قوة إلى القصر الملكي، ففرّ محمّد الأيسري من بين أيدي شعبه الغاضب بفضل مساعدة بعض الحراس عبر حدائق القصر الملكي، ثم نحو السّاحل حيث تمكّن من الهروب بعد أن تنكّر بزيّ صيّاد سمك.

ثم هرب الملك المكروه على متن مركب صغير نحو أفريقيا حيث احتمى لدى ملك تونس أبي فارس في قصره، فاستقبله الأخير بكل حفاوة تليق بمركزه وأكدّ له مساعدته في أيّ وقت لاستعادة حقوقه. في هذه الأثناء محمّد أُعلن الصّغير[1] ملكاً على وقع الاحتفالات الصّاخبة التي عمّت كل غرناطة ومدنها، وقامت مسابقات ومبارزات للنّبلاء شارك فيها الملك المتمرّس في تمارين الفروسية بذاته، فبرهن

(1) شاع اسم ملك غرناطة محمّد التّاسع بالغلط: السّكّير، وسبب ذلك أنّ خوسيه أنطونيو كوندِه كتب الاسم: Muhamad El Zaquir فقرأه البعض بالعربيّة السّكّير. ثم قرأه الدّكتور محمّد عبد الله عنان : الزّغير على أنّه تصحيف أندلسي لعبارة: الصّغير. قلت: وهو يلفظ هكذا إلى اليوم في عاميّة بلاد الشّام، نقلاً عن السّريانيّة: زعورا. لكنّني أرجّح أنّ ما ترجمه كوندِه كان عن عبارة (الصّغير)، ومصداقية ذلك كما سنرى أدناه أنّ الملك محمّد الحادي عشر دعي أيضاً بأبي عبد الله الصّغير تمييزاً عن أبيه الذي دُعي بالشّيخ. فالمقابلة هكذا واضحة، ولا علاقة لها بالسُّكر بأيّ حال من الأحوال. انظر: عنان: دولة الإسلام في الأندلس، 4: 155. (أحمد)

عن كفاءة عالية في استعمال الرّمح وغيره من الأسلحة، وكان يتفادى سلاح خصمه ويمتطي جواده بكل براعة. وأولم للنّبلاء ووجد سبلاً كثيرة لتقدير الفرسان. لم تبعد هذه الأشياء الملك عن التّفكير في تدمير حزب محمّد الأيسري، فأجبر الوزير يوسف بن سِراج على الخروج من البلاد مع عدّة فرسان من أتباعه، بعد أن تبيّن له أنهم لن ينصاعوا إلى أوامره ولم يكتفِ محمّد الصّغير بهذا الأمر، فقد خاف تدخل العائلات ذوات النّفوذ بشؤون كثيرة في المملكة حيث لهم نفوذ وأملاك، وقد حملها مناصروها على الانقلاب ضدّه، فأمر بتدميرها. غير أن هؤلاء الأعيان كانوا على علاقات وثيقة مع أهم عائلات غرناطة، وسرعان ما وصلتهم أنباء حول نواياه فخرجوا سرّاً من مُرسية. وبقي الأكثر ثقة منهم في المدينة لكنهم لم ينعموا بالحياة الهنيئة قطّ، فقط صبّ الطّاغي عليهم حقده وويلاته بعد أن تأكد من أنّه ما من أحد يتمكّن من خلعه عن العرش.

خرج مع الوزير يوسف بن سِراج أربعون فارساً نبيلاً من المملكة واستقبلوا جميعاً بكل حفاوة في لورقة من قبل والي المدينة كما في مُرسية. وأعطاهم ملك قشتالة الأمان بعد أن حضروا إلى قصره وقبّلوا يده وبايعوه. وهكذا استُقبل هؤلاء الأفراد اللاجئون من غرناطة بكل حفاوة واحترام من قبل الملك خوان، الذي أعرب لهم عن أسفه لمصاب الملك محمّد الأيسري حليفه، بعد أن علم بكل حيثيات المصيبة التي ألمّت به من يوسف بن سِراج الذي بلغه أن الملك في ضيافة ملك تونس. وأبلغه أيضاً أن 150 فارساً من أنبل فرسان المدينة وأعرق العائلات أُجبروا أيضاً على الفرار من غرناطة إلى أفريقيا أو بعض بلدان الشّرق أو مملكته. بعد سماعه هذه العبارات، أعرب ملك قشتالة الشّاب والكريم والمتعاطف للوزير أنه سيبذل ما بوسعه لإعادة الملك محمّد بن يوسف إلى العرش وإبعاد الظّالم المغتصب.

وللتّأكيد على نواياه تقرّر أن يذهب يوسف بن سِراج إلى تونس مع قائد مُرسية ومعه رسائل من ملك قشتالة إلى ملك تونس مولاي أبي فارس يدعوه فيها إلى مساندته في إعادة المملكة إلى الملك محمّد بن يوسف، وأيضاً أن يرسل الملك محمّد بن

يوسف إلى إسبانيا حيث سيبقى بضيافة خوان إلى أن يستعيد عرشه. استقبل أبو فارس هؤلاء الموفدين بكل ترحاب، وأصدر فوراً أوامره لتحضير الحاشية التي سترافق الملك محمّد إلى إسبانيا، فأرسل معه 500 فارس وكنوزاً وهدايا قيّمة، وأعطى قائد مُرسية هدايا قيمة أيضاً لملك قشتالة عبارة عن أقمشة حريرية أو مصنوعة من خيوط الذهب وعطور وهدايا قيمة أخرى وجميلة من أفخر ما يمكن أن يقدّمه ملك لملك آخر. وأُعدّت العدّة وودّع الملكان بعضهما الآخر بكل ودّ.

أبحر الملك محمّد الأيسري مع حاشيته من وهران وعبروا البحر، ورست سفنهم في غرناطة، ثم ذهبوا إلى المدينة الخضراء حيث استُقبل الملك محمّد بكل حفاوة تليق بمركزه الملكي. فقصد الوزير المَريّة Almería حيث تمكّن من كسب ثقة الشّعب بفضل وفائه، وحمّله الشّعب دعوة لملكه وبايعوه ملكاً لهم، فخرج محمّد بن يوسف إلى المدينة واستُقبل بكل حفاوة وترحاب وحبّ. عندما علم محمّد الصّغير بهذه الأمور شعر بخطر محدق وبالأسى، ولم يُضع أيّة دقيقة فأرسل شقيقه مع 700 حصان لمواجهة الجنود الأفارقة الذين عبروا المضيق مع محمّد الأيسري، وأمرهم بإحضار الأخير إليه. غير أنّ نصف هؤلاء الجنود انضمّوا إلى المعسكر المقابل، فعاد شقيق محمّد الصّغير إلى غرناطة دون أن يغامر في مواجهة الجيوش بقوة ضعيفة.

بفضل هذه الظّروف، مُهّد الطّريق أمام الأيسري لاستعادة عرشه، فزحف من مقاطعة المَريّة إلى وادي آش، ففتحت له المدينة أبوابها واستقبلته كملك، وقدّم له الشّعب عهد الطّاعة في اليوم نفسه. ثم منها إلى غرناطة مع جيش من الفرسان والأعيان ودخل المدينة، حيث أكّد له الأعيان أتباعه أنه سيُستقبل كما في المدينتين السّابقتين كملك. لذا سار مؤمناً بهذا الأمر، غير أنه كان قلقاً بعض الشّيء، فبايعه الشّعب بالنّظر إلى الأتباع الذين لحقوا به ليس إلا وهتفوا له.

بات محمّد الصّغير وحيداً بعد أن تخلّى عنه كل الأعيان فخرج مع بعض الجنود لمواجهة عدوّه من القصر الملكي ليلاً ومرّ بقلعة الحمراء حيث دعم دفاعات المكان

وحصّنه. في اليوم التّالي دخل محمّد الأيسري إلى المدينة واستُقبل بكل ترحاب من أبناء شعبه. وحاصر قصر الحمراء بكل صرامة حتى فقد جنود ابن عمه محمّد الصّغير ثقتهم بذاتهم وفرّوا خوفاً من القتال، فسلّموا واليهم إلى أعدائه فقطع رأسه على الفور وسجن أولاده. هكذا استعاد محمّد بن يوسف عرشه وكانت نهاية محمّد الصّغير الذي كان من المفترض أن يرسم له الحظ بفضل بسالته نهاية غير تلك، بعد أن تسلّم الحكم في غرناطة لمدة سنتين وبضع أشهر.



الفصل الثّلاثون

الحروب في غرناطة - موت يوسف بن الأحمر

أعاد الملك محمّد الأيسري[1] الأمور إلى مجاريها في إمارته بعد أن أصلح الأمور التي أبعدت أتباعه عنه بناء على نصيحة المقربين منه، وأعاد الوزير يوسف بن سِراج إلى منصبه السّابق تقديراً لصدقه ولولائه. وأرسل بعدها موفدين إلى ملك قشتالة شاكراً إياه على الدّعم والمساندة، وأبلغه عن الوضع في مملكته، وعرض عليه تمديد فترة المعاهدة والهدنة المبرمة بينهما. أو إذا ما رغب عقد معاهدة سلم وصداقة دائمة معه. إلى ذلك أُبلغ محمّد الأيسري أنّ الملك خوان في حرب مع الأعيان أتباعه في الإمارة، فعرض عليه المساعدة واقترح إرسال جيش من الفرسان المسلمين ضدّ أعدائه. وحمّل هذه الرّسائل عبد المنعم أحد الفرسان الأعيان في غرناطة وصديق الملك.

وصل الموفد إلى بُرغُش Burgos فاستقبله ملك قشتالة بكل ترحاب، غير أنه لم يقبل مساعدة محمّد الأيسري، وبدأ مفاوضات للبتّ في شروط المعاهدة والهدنة وفي إعادة تسديد الأموال التي مُنحت لمحمّد عندما كان يودّ استعادة عرشه، وفي الجزية التي يُتوقّع أن تدفع من قبل ملك غرناطة إلى ملك قشتالة وفق مبدأ الإقطاع بالدّنانير الذهبية. رفض محمّد الأيسري الانصياع إلى أوامر ملك قشتالة في كل ما يتعلّق بالأموال، معتقداً أن الأخير في ظلّ انهماكه بالحروب سوف يقبل بكل ما

---

(1) بين ملوك غرناطة من بني الأحمر النَّصريين، سمّي بالملك محمّد الثّامن ابن الملك يوسف الثالث، ولُقّب بالمتمسّك. وقد ولي المُلك ثلاث مرّات كما سنرى. (أحمد)

سيدفعه له أياً كان. بكلمة واحدة قام ملك غرناطة في هذا الإطار بالسّير وراء رغبته وحده غير آبه بالغير. فعاد عبد المنعم إلى غرناطة دون أن يتوصّل إلى عقد أيّ اتفاق. ومن جهته أرسل ملك قشتالة رسائل إلى ملك تونس يشكو من عدم احترام محمّد الأيسري، وسائلاً إياه عدم مساعدة ملك غرناطة في الحرب التي سيشنّها عليه الملك المسيحي بهدف إجباره على تنفيذ كل التزاماته، وإعادة الأموال التي أنفقها عليه ملك قشتالة لإعادته إلى العرش.

ردّ ملك تونس على هذه الرّسائل بالإيجاب قائلاً إنّه سيجمّد الجيوش التي أعدّها لمساندة ملك غرناطة في حربه، وأرسل إلى الأخير رسائل ناصحاً إياه بتسديد ما عليه لملك قشتالة لكونه هو من أعاد له العرش، وأضاف أنه في حال رفض محمّد الأيسري الانصياع إلى هذا الطّلب سوف لن يقدم له أيّ عون. ثم أرسل ملك تونس أبو فارس إلى الملك المسيحي راجياً إياه الثّأر باعتدال وعدم إلحاق أذى كبير بشعب نسيبه محمّد الأيسري. غير أن ملك غرناطة لم يأبه لأيّة تهديدات أرسلت إليه، وبعد أن عقد ملك قشتالة معاهدات مع ملك تونس، سار نحو أراضي محمّد وبدأت جيوشه بالزّحف في داخل أراضي رُندة Ronda وكاثورلا Cazorla وغيرها. وواجهت جيوش محمّد الأيسري المسلمة الصّليبيين وحالفه الحظ بهزيمتها، وقضت هذه القوات معظمها في ساحة المعركة. غير أن الحظ لم يكن حليف القوة المسلمة في كل أنحاء البلاد، ففي حين كان محمّد الأيسري يحقق نصراً في كاثورلا Cazorla تمكّن الصّليبيون من السّيطرة على قلاع عديدة في الإمارة، ومنها قلعة شيمينا Ximena.

ووصل نبأ زحف الملك المسيحي إلى محمّد على رأس جيش كبير، فساد الذّعر في قلوب المحاربين، عندها ترك محمّد الأمر لقادته وعاد إلى المدينة على رأس قوة مؤلفة من 500 خيّال. هناك حشد 120 ألف جندي من أهل المدينة، وأعطاهم أسلحة وطلب منهم الدّفاع عن المدينة في حال تمّت محاصرتها. في هذه الأثناء كان الصّليبيون يجتاحون إمارات إيّورا وتاشاشار Taxaxar وألورا Alora وأرشذونة Archidona وغيرها، وبعد أن تم ذلك عاد ملك قشتالة إلى أراضيه مع غنائم عديدة عن طريق إستجة Écija فقُرطُبة.

قامت قوة هائلة ضد محمّد الأيسري جعلت من مخاوفه حقيقة، وتجمّع فريقٌ متآمر قرّر تنحيته عن العرش، فقد أمل بالحصول على الطّمأنينة بعد عودة الملك المسيحي إلى أراضيه. أراد فارس متحدّر من سلالة ملكية ثريّ وطموح الوصول إلى العرش وتجريد يوسف بن الأحمر منه بفضل التّعويل على مساعدة الملك المسيحي. فأبلغ نواياه هذه إلى كل أصدقائه ومناصريه، وكان عددهم كبيراً. وباتفاق متبادل أرسل رسلاً إلى قُرطُبة للملك المسيحي مع فارس من بني غاز Benegas يدعى جليل ابن جليل ابن لوقا زوج الأميرة ستّي مريم، وكان قد تزوّجها عن حبّ جارف، وكان جليل من سلالة نبيلة وشجاع يميل إلى الصّليبيين بعد أن طرده محمّد الأيسري من القصر الملكي ونفاه إلى الحمة Alhama. فأوكله المتآمرون نقل رسالتهم إلى ملك قشتالة، ومُنح بالنّيابة عن يوسف بن الأحمر قوة من 8000 جندي، من بينهم فرسان من نبلاء العائلات العريقة على استعداد لخوض الحرب مع الملك المسيحي فور وصوله إلى مشارف فحص (مرج) الڤيغا، مضيفاً إلى أنه يجب أن يكون من أتباع الملك المسيحي في حال تمكّن من الوصول إلى سدّة الحكم.

قَبِل الملك المسيحي العرض المقدّم من يوسف بن الأحمر بكل امتنان، وسرعان ما بدأ بالتّحضير لمساعدته كونه كان من بين أمنياته. وعاد ابن لوقا بكل امتنان إلى ابن الأحمر ناقلاً له رسالة الملك المسيحي واستعداد الصّليبيين لضمان الأمان لكل من سينضوي تحت رايته. شجّعت هذه الآمال مناصري يوسف، فخرجوا تدريجياً من المدينة معلّلين ذلك بكونهم سوف يساعدون في الحرب على الحدود. وعندما دخل ملك قشتالة إلى فحص (مرج) الڤيغا دون إبطاء قبّل يوسف بن الأحمر على الفور يد الملك المسيحي هو وقادته ومناصريه 8000 آلاف كما وعد وكان جزءاً كبيراً منهم من أبسل الفرسان. نصب ملك قشتالة معسكره في سييرّا إلبيرة Sierra Elvira ومتّع عينيه بمنظر غرناطة، وكان بن الأحمر يذكره بمعاملها ويشير إلى قلاعها وإلى قصر الحمراء والأبراج الحمراء[1] والبيازين.

---

(1) تسمّى بالإسبانيّة: تورّس بيرميخاس Torres Bermejas. (أحمد)

ثم قدم قادة وفرسان غرناطة أنفسهم إلى الصّليبيين وكانوا من الجنود المقدامين والشّجعان وقد جرت معارك ضارية بين هذه القوات وقوات المسلمين حتى تعارك الجيشين يوماً في ساحة معركة مفتوحة وكان هذا الهجوم مميتاً وحشياً وتميز الفرسان في هذه المعارك الطّاحنة وسقط مئات القتلى من المعسكرين ودامت المعارك كل اليوم حتى شارف الليل وبدأ المسلمون بالتّراجع فخرجوا من ساحة المعركة التي غطيت بجثث القتلى. لم تشهد غرناطة من قبل هكذا هجوم دام فقتلت خيرة فرسانها وكان الأمر سيّان من الجهة الأخرى. ولو وجهت سهام المسلمين إلى الكفرة عوضاً عن توجيهها نحو إخوانهم في الإسلام لكانوا أنزلوا بالعدو أبشع الويلات التي تعيد إلى الذاكرة المذابح في الأرك. ملأت الحرب هذه قلوب شعب غرناطة بالحزن والأسى غير أن وجود ملكهم محمّد الأيسري الذي لم يفقد الشّجاعة على الرّغم من هزيمته حالت دون أن يتنحوا عن الدّفاع عن أنفسهم على الرّغم من الذعر الذي عمّ غرناطة والبلبلة والخوف حيث ارتعد الأشجع وخاف الجميع من الآتي أياً كانت الجهة التي ينتمون إليها.

بعد أن ألحق ملك قشتالة الويلات في كل أرجاء الڤيغا أزال معسكره وعاد إلى قُرطُبة مخيّباً آمال يوسف بن الأحمر. وكان المتآمرون من غرناطة غير مسرورين وممتنّين من هذا الفعل، فقد عدل الملك المسيحي عن مساعدتهم بعد أن أشبع رغبته تاركاً إياهم والحسرة في قلبهم على بلدهم الممزق. وبعد أن وصل النّصراني إلى قُرطُبة قام بإعلان يوسف بن الأحمر ملكاً على غرناطة لإرضاء المسلمين المتآمرين أمام ديوانه، وأعدّ جيشه مجدّداً لمساعدته في التوصّل إلى سدّة الحكم. وأمر جيش الحدود في قشتالة مساعدة يوسف بن الأحمر لهذا الغرض. كان صدى هذا الأمر كبيراً على أتباع ابن الأحمر، فقد بايعته مدن كبيرة في غرناطة أولها مونتيفريو وإيّورا وكامبيل و Alhabar وأورتيشيكار Ortexicar وتاشارشا Taxarxa وحصن اللّوز Hisn-Alloz ورُندة ولوشة، بعد أن ساعدته قوات الصّليبيين، وبعد أن انضمّ إلى جيشه في المدينة الأخيرة 400 فارس. أرسل يوسف بن الأحِمر رسالة من أرداليس Ardalis إلى ملك قشتالة مبايعاً إيّاه وعارضاً عليه تسديد مبلغ سنوي بالدّنانير الذّهبية كجزية، ثم عرض

عليه مساندته في الحروب بقوة من 500 فارس، والحضور في اجتماعات كبار نبلائه كلّما عقدت على أعالي جبال طليطلة، أو إرسال موفدين من قبله في حال لم يتمكّن من الحضور شخصياً للمثول أمام الملك المسيحي. وأضيفت شروط أخرى لمعاهدة الصّداقة المتبادلة، غير أن المذكورة كانت أبرزها.

ثم سار يوسف بن الأحمر نحو غرناطة على رأس جيش مهيب، وتلاقى مع قوات أرسلها الملك محمّد الأيسري يقودها الوزير يوسف بن سِراج بأمر من الملك. ودارت بين القوتين معارك ضارية ودامية سقط فيها الوزير بعد أن قاتل كاللّيث، وعمّت البلبلة صفوف قواته الذين فروا هرباً وذعراً نحو المدينة مُعظّمين شأن القوات المهاجمة وتجهيزها، ناقلين أن أعداداً وفيرة من المقاتلين بقيت في ساحة المعركة. زادت أقوالهم وكل التّهويل الذين قالوه من شأن يوسف بن الأحمر ومن مخاوف الشّعب فبايعته كل المقاطعات تقريباً خوفاً من أيّة خسائر أو ويلات قد تتعرّض لها في حال قرّرت التّصدّي له، وفتحت أبوابها أمامه وقطع شعبها عهداً بطاعته. ثم سار يوسف بن الأحمر من إيّورا مع جيشه الذي لا يحصى نحو المدينة.

سادت بلبلة عارمة في غرناطة بعد سماع نبأ اقترابه من المدينة مع جيشه المهيب، وعمّت الفوضى بين فئات الشّعب الأفقر، فثار وأجبر الأعيان على ترك فكرة التّصدّي له. وأبلغ هؤلاء وكبار القوم محمّد الأيسري بعدم إمكانية القيام بأيّ دفاع، ورجوه عدم تعريض المدينة وأبنائها للمآسي. قرّر الملك الامتثال لهذه المطالب، فأخذ كنوزه من القصر الملكي وحريمه وابني محمّد الصّغير السّجينين، وأنصاره وأصدقاءه وكل من ودّ اللحاق به، وسار نحو مقاطعة مالقة حيث كان له فيها حزب قوي. دخل يوسف بن الأحمر إلى غرناطة مع 600 فارس فقط حتى إزالة كل المخاوف من قلوب السّكان، فاستقبله الأعيان ورافقوه إلى قصر الحمراء، حيث جُمع الشّيوخ والأعيان والولاة والقادة وقضاة المملكة، وتلقّى مبايعتهم له وطاعتهم ونزل إلى شوارع المدينة للاحتفال بكل صخب. أصبح يوسف بن الأحمر ملكاً بعد أن تسلّم محمّد الأيسري الحكم لمدة ثلاثة أعوام منذ يوم استعادة عرشه.

أرسل الملك الجديد موفدين إلى ملك قشتالة معرباً له عن شكره وامتنانه له، مؤكّداً مرة جديدة أنه من أتباعه، وعارضاً عليه تسديد مبلغ من الذّهب على شكل جزية يوازي المبلغ الذي كان خلفاؤه يسدّدونه قبله. وجاء نصّ الرّسالة التي بُعثت إلى الملك المسيحي كالتالي: «يوسف بن الأحمر ملك غرناطة يقبّل يديك يا مولاي وينضوي تحت لوائك، ويرجوك أن تعلم أنه خرج من إيورا نحو مدينة غرناطة حيث استقبله نبلاؤها وقبّلوا يديه وبايعوه ملكاً عليهم، وهو الآن في قصر الحمراء. لم يكن كل ذلك يا مولاي ليتمّ دون مساعدتكم المشكورة، وقد فرّ الملك الأيسري إلى مدينة مقاطعة مالقة آخذاً معه شقيق القائد أحنف وابن عمه وابني محمّد الصّغير الذي أمر بقتلهما، وقبل مغادرته قام بنهب القصر الملكي من كل المقتنيات وأخذ كل هذه الكنوز إلى حيث لجأ. يا مولاي بفضلك وبإذن الله وبمساعدتك سار دون غوميث ريبيرا Don Gomez Ribera القائد المسيحي وبعض فرساني لمواجهته، وعندما ستصل هذه القوات إلى مقاطعة مالقة سوف تهاجم القصر الملكي حيث لجأ. وآمل أنه بفضل الله وعونه وبمساعدتكم سوف يقع بين أيدينا قريباً».

أرسل يوسف بن الأحمر هذه الرّسالة إلى قصر إشبيلية مع فارس نبيل استقبله ملك قشتالة بكل ترحاب وسُرّ للغاية بفحواها. في الوقت عينه وصل موفد من تونس ناقلاً رسائل من ملكها أبي فارس طالباً فيها من ملك قشتالة أن يقوم علاقات جيدة مع محمّد الأيسري نسيبه وإلا يدمّر مملكته. وحمل هذه الرّسائل تاجر فأجاب الملك المسيحي ناقلاً اعتذاره للملك الأفريقي أبي فارس للدّور الذي لعبه في هذا الأمر.

حكم يوسف بن الأحمر البلاد ستّة أشهر بكل سرور قبل أن يعاجله الموت، فتلاشت المشاريع التي طمح إليها، فقد كان عجوزاً وشبه عاجز ولم يتحمّل المصاعب والمشاكل التي كانت مفروضة لحكم البلاد. وطويت صفحة الحروب الأهلية التي عانى منها شعب غرناطة بموته، واتحدت كل الأطراف وبايعت مجدّداً محمّد الأيسري الذي عاد من المنفى واستلم سدّة الحكم للمرة الثّالثة. وصلت أنباء موت يوسف بن الأحمر إلى مقاطعة مالقة ففرح محمّد للغاية لموت عدوّه، ولكنه

كان حذراً من العودة إلى غرناطة وشكّ في مصداقية من نقل الخبر، إلى أن جاء الخبر اليقين وتأكد من صدق أتباعه في المدينة فعاد إليها بكل سعادة.

عيّن محمّد فارساً ذا شأن يدعى عبد الحق وزيراً، فنصحه الأخير بإرسال موفدين إلى ملك قشتالة وابن فارس ملك تونس لإنهاء كل النّزاعات بين الأطراف وأيّة أمور عالقة منذ زمن، ففعل محمّد الأيسري Muhamad Alhayzari ذلك دون إبطاء وتمّ الاتفاق على توقيع هدنة لمدة سنة مع الملك المسيحي مُدّدت بعدها لمدة 12 شهراً. ما إن انقضت مهلة الهدنة حتى انقضّ الملك المسيحي على أراضي المسلمين واحتلّ قلعة بيناماوريل بعد هجمات وحشية عديدة. أمّا على محور مُرسية فقد تمكّنت قوات الحدود المسيحية بقيادة فايارد Fayard الهُمام من الزّحف داخل غرناطة حيث واجههم عبد البّر وزيرها على رأس قوة كبيرة من الفرسان من المدينة ومن الغرب، ودارت معركة طاحنة هزم فيها جيش الصّليبيين الذي عانى الكثير للحفاظ على مواقعه حتى بعد موت عدد هائل منه. في هذه الأثناء سيطرت قوات مهولة من الصّليبيين على مدينة وشقة Huesca بقوة السّلاح، غير أنّ المسلمين دافعوا ببسالة عن المكان الذي سقط بعد معركة ضارية بأيدي المحاصرين الأعداء، فاحتمى المسلمون في القلعة وحاصرهم الصّليبيون. سارع ريّس بازة الكومي Baza El Cawmi إلى مساعدة القوات المسلمة فشقّ طريقة بين قوات الصّليبيين ونجح في إنقاذ القلعة، غير أن ذخيرة القوات ومؤنهم كانت قد نفدت بالكامل وكانوا منهكين، فأُجبروا على الاستسلام والتّفاوض، وسُمح لهذه القوات بالخروج بكل أمان.



الفصل الحادي والثّلاثون

الحروب بين المسلمين والصّليبيين – محمّد بن عثمان يتسلّم العرش مكان محمّد الأيسري – مبايعة حزب آخر لابن إسماعيل

في العام 840 هـ[1] هزم قائد محمّد ووزير غرناطة عبد البَرّ الصّليبيين في الإمارة قرب مدينة أرشذونة Médina Archidona، ولحق بالفارّين منهم حتى ضواحي المدينة وقام المسلمون بمذابح مروّعة. وقد كان الكفرة أعداء الله يخشون هذه المدينة فساروا نحوها بكل حذر من طرق غير معتادة، غير أن الوزير عبد البَرّ كان مرابطاً لهم في ممرّ ضيّق، فهاجمهم وبلبل قواهم ثم أخذ المسلمون رايات القائد الأكبر من القنطرة (ألكانتارا) Alcantara الذي قاد الصّليبيين وقتلوا كل جنوده أو أسروهم، ولم يتمكّن سواه من النّجاة مع قلّة من الفرسان أتباعه. ثم هاجم الوزير الصّليبيين قبل أويلما Huelma المحاصرة من قبلهم، غير أنهم لم يغامروا بشنّ حرب على عبد البَرّ الصّنديد فرفعوا معسكرهم وعادوا إلى جيان Jaén.

في السّنة التالية، أي 841 هـ، حارب القائد العظيم في معارك عديدة أعداء الله فغلبهم مرّات عدّة، خاصّة في إمارة وادي آش ومرج ڤيغا غرناطة، وقد مات في هذه المعارك عدد كبير من القادة الشّجعان والمرموقين في قشتالة. في السّنة التالية، دخل جنود الحدود في مُرسية بقيادة ابن فايارد Aben Fayard أراضي المسلمين، وهاجموا مدينتي بَلَد بلانكو Valad blanco وبَلَد روبيو Valad rubio اللتين استسلمتا بعد أن وافق شعبهما أن يكونوا أتباعاً لملك قشتالة، وبذلك قاموا بحماية أنفسهم من النّكال

(1) العام 1436 للميلاد. (كوندِه)

والتّضييق. ووفق الشّروط عينها استسلمت مدينتا وادي آش Guadix وبسطة Baza إلى ملك قشتالة، غير أنّ أهلها رغبوا في البقاء أحراراً وعدم الانصياع لأوامر حكّامه، وعدم المشاركة في الحروب التي ستشنّ بعد ذلك. في المقابل سلّمت قلاعهم إلى ملك قشتالة، فوضع جيشه فيها وشنّ حروباً على أهالي غرناطة منها. وبما أن السّكان لم يقبلوا بمثل هذا العرض فلم يتوصّلوا إلى حلّ غير مشروط. في السّنة نفسها لم تسلم مدينتا وادي آش وبسطة من هجمات الصّليبيين العنيفة. في هذه الأثناء تمّ احتلال مدن مثل غاليرا وغيرها من قبل الكفرة، وفق الشّروط المبينة أعلاه ونفس الأسباب التي دفعت السّكان إلى الانصياع إلى أوامر الملك المسيحي.

حاصر الصّليبيون جبل طارق بقيادة كونت لبلة Niebla، غير أنّ سكان المدينة ساروا ضدهم وانقضّوا على معسكرهم ليلاً وألحقوا بهم الأذى، وفي ظلّ هذه البلبلة هرب العديد دون أوامر ووقعوا وغرقوا في نهر پالمونِس Palmones بعد أن غمرته الأمطار. ومات لورد لبلة وغيره من الفرسان الذين فروا من سيوف المسلمين الشّجعان خلال فرارهم. غير أنّ أهل أويلما Huelma لم يكونوا محظوظين، فقد أُجبروا على الاستسلام للمسيحيين بقيادة كونت بيتراغو Buitrago، وكان شاعراً مُجيداً ومحارباً باسلاً سمح للسّكان بالخروج من المدينة أحراراً. في هذه الأثناء سار القائد ابن سِراج ابن وزير محمّد الأيسري يوسف بن سِراج Aben Zeragh ضد الصّليبيين الذين كانوا يجتاحون الإمارة بقيادة دون فولان پيريا Fulan Parea حاكم كاثورلا Cazorla. وتلاقى الجيشان في حقل واسع وهاجما بعضهما بكل وحشية[1] ودرات المعارك طوال النّهار وكأنّ المتعاركين وحوش لا رجال يتحاربون.

وقام ابن سِراج بالدّفاع ببسالة كبيرة وتمكّن من هزيمة الغازي المسيحي، غير أنه خسر حياته، فقد كان منهمكاً في القتال إلى حدّ كبير حتى نسي الجراح التي أصيب بها فنزفت دماؤه في ساحة القتال. ومات حاكم كاثورلا دون فولان پيريا في السّاحة عينها وقد كان فارساً شجاعاً بعد أن مات كل رجاله حيث لم تكن أمامهم وسيلة للفرار. بعد

(1) لم يُبيّن معنى الجملة الموجودة في النّص الأساسي كما وجب في هذا السّياق. (فوستر)

هذه المعركة لم يعد للمسيحيين القوة والرّغبة في الهجوم على أراضي المسلمين في غرناطة، ومن جهتهم حزن المسلمون على موت القائد ابن سِراج وعلى فقدانه من كل قلبهم، وخاصّة الشّبان الأعيان وسيدات غرناطة، لأنه كان محبوباً لفضائله ونُبل طباعه. في هذه الأوقات كانت أراضي قشتالة تشهد ثورات وعدم انضباط، وأصابت العدوى غرناطة فقام عدد من الفرسان الذين أهانهم محمّد الأيسري بالثّورة، فخرجوا من المدينة ودخلوا إلى اشبيلية لخدمة ملك قشتالة. وكان محمّد بن إسماعيل من أبرز هؤلاء، وهو ابن أخي الملك الذي اعتبر أنّ عمّه قد أهانه عندما رفض زواجه من امرأة وزوّجها لفارس آخر.

ولم تكن هذه المشكلة الوحيدة التي تواجه أمن المملكة، فقد قام ابن شقيق الملك المدعو ابن عثمان[1] وكان في المَريّة Almería بعد علمه بالتّشنّجات بين فرسان غرناطة وعمّه محمّد الأيسري بالسّير نحو المدينة بكل سرّية على رأس جيش من أتباعه، ووزّع أموالاً طائلة على الشّعب وأجّج نار الخلافات الموجودة بين الأعيان والملك، ثم زرع في قلوب الشّعب جذور الثّورة. وأدّت هذه الأفعال إلى ثورة جعلت ابن عثمان يتسلّم قصر الحمراء، ثم احتلّ قلاعاً أخرى من المدينة وسجن الملك السّابق وخلعه عن العرش للمرة الثّالثة بعد أن حكم 13 عاماً. ثم أُعلن ابن عثمان ملكاً دون موافقة الشّعب بغالبيّته، فقد هجره عدد كبير من أنصاره ثم انضووا تحت لواء حزب الوزير عبد البّر الذي انكفأ إلى مونتيفريو Montefrio، وحدثت هذه الثّورة عام 849 هـ[2]. شعر الوزير عبد البّر أنه من المستحيل إعادة الملك محمّد الأيسري، وبأن العمل لمصلحته سوف يؤدّي إلى تسريع مقتل الأسرى الملكيين، فأرسل رسائل إلى ابن إسماعيل الذي كان في قشتالة وعرض عليه مملكة غرناطة.

---

(1) يعرف باسم محمّد العاشر، وهو الأحنف بن عثمان، حكم بين 1446-1447. ويسمّيه المؤرخون الإسبان: ابن أوسمين Aben Osmin. (أحمد)

(2) العام 1445 للميلاد كوندِه.

وقد ظنّ الوزير أنّ ابن إسماعيل قد يعيق ملك قشتالة خروجه منها، عندها أرسل رسائل بطريقة سرية يعرفها هو وابن إسماعيل فقط، واختار اثنين من الأعيان أتباعه وأمرهم بالتّنكّر وتمكّنوا من التّحدّث على انفراد مع ابن إسماعيل وعرضوا عليه ترك قشتالة. غير أنّ الأخير كان يثق بكرم الملك المسيحي ولم يقبل بترك البلاد دون علمه، فاستشاره علناً بالشّأن الذي حضر من أجله فرسان غرناطة وبالعرض الذي قُدّم إليه. فلم يُعق الملك المسيحي أبداً هذا القرار، بل على العكس قدّم مساعدته وأرسل إلى قادة الحدود آمراً إياهم بمساعدة الأمير المسلم على تحقيق غرضه. عاد ابن إسماعيل إلى غرناطة برفقة عدد من الفرسان التابعين لملك قشتالة. وعندما وصل إلى الحدود انضمّ إليه قادة وحكّام الحدود الذين رافقوه وساروا نحو مدينة مونتيفريو Montefrio، وعند وصولهم على مسافة من المدينة استقبلهم عبد البرّ وأعلنوا ابن إسماعيل ملكاً على غرناطة.

في هذه الأثناء كان ابن عثمان Aben Ozmin يحكم على غرناطة، وبعد أن وصله خبر أن الملك المسيحي قدّم المساعدة إلى ابن عمه قرّر الثّأر لنفسه من الكفرة، فهاجم القلعة مع قوّة كبيرة، وقد شجّعته على ذلك الحروب والثّورات التي قسّمت مملكة قشتالة، وقاد ابن عثمان القوة هذه بكل عزم ضد قلعة بيناماوريل[1] Benamaurel وحاصرها وهاجمها بكل وحشية. فتغلّب على القوة التي دافعت عن القلعة وأخذ البعض أسرى وقتل البعض الآخر ومن بينهم هيريرا[2] قائد القلعة.

علم حرس الحدود في الأندلس بهذا الأمر فذُعروا ولم يعد بودّهم الهجوم أو إيقاف تقدّم الملك محمّد ابن عثمان، فقد أرعبتهم هجماته على بيناماوريل. وسار الأخير دون أن يواجهه أحد حتى قلعة ابن سليمى Aben Zulema التي دافع عنا

(1) بني موريل Beni Maurel. (فوستر)

(2) أضطرّ لكتابة الاسم هكذا، رغم أنّ حرف H يُكتب ولا يُلفظ بالإسبانيّة على الإطلاق. لكن سيكون من الغريب أن أكتبه: إيريرا. (أحمد)

الصّليبيون بكل بسالة، ثم عرض ابن عثمان على الصّليبيين بواسطة أسيره القائد هيريرا alcaide Herrera الاستسلام وعدم تعريض نفسهم للأذى الذي ألمّ بإخوانهم في بيناماوريل. غير أن الصّليبيين استخفوا بهذه التهديدات ورفضوا الانصياع فهاجمتهم قوات المسلمين بكل عزم ولم يتمكّنوا من الدّفاع عن أنفسهم واستسلمت القلعة ولم يتمكّن أيّ رجل من الفرار. وعاد الملك ابن عثمان إلى غرناطة منتصراً مع كل الغنائم التي جمعها والأسرى وغيرها.



الفصل الثّاني والثّلاثون

ابن عثمان يُجبر على الهروب من غرناطة - إعلان ابن إسماعيل ملكاً

في السّنة التالية، قسّم ملك غرناطة ابن عثمان قوّاته إلى عدّة فصائل، وأرسل البعض إلى الحدود والآخر إلى مواجهة ابن عمّه ابن إسماعيل. وقاد الملك أهم هذه الفرق بنفسه، فدخل بهذه القوة إلى أراضي الأندلس وسيطر على مدن وشقة Huesca وبلد الأبيض وبلد الأحمر وعلى قلاعها وجيوشها، فألحق دماراً في الإمارة المجاورة وأسر عدداً كبيراً من الرّجال والنّساء، وأخذ الغنائم والقطعان وكنوزاً وعاد إلى مدينة غرناطة مسروراً بما اقترفته يداه. وعلم الملك ابن عثمان بالصّراعات التي جمعت ما بين ملك قشتالة وملوك أراغون وناڤار، فعقد العزم على الاستفادة من هذه العلاقات غير الودّية، وعرض صداقته على الملكين السّابقين ضد ملك قشتالة. فأرسل مع موفديه هدايا قيّمة لهما، هي عبارة عن أحصنة أصيلة وأقمشة مزركشة وحرير وذهب وأسلحة مرصّعة بأحجار كريمة وغيرها من الهدايا الثّمينة. وجاء في مضمون المعاهدات المبرمة بين الملك المسلم والملكين الصّليبيين ما مفاده أن يدخل الأول إلى أراضي ملك قشتالة على رأس جيش قوي، ومن جهتهما أن يقوما هما بالهجوم على الحدود من كل صوب.

مع مطلع العام التالي، حشد ابن عثمان قواته ودخل أراضي مُرسية التابعة لملك قشتالة، فنهب مدنها وأحرق حقولها وخلّف دماراً أينما حلّ. فسار القائد دون تيليس غيرون Don Ruy Tellis Giron لمواجهة هذا الجيش الزّاحف ودارت معارك ضارية قرب مدينة جنجالة Chinchilla، هزم ابن عثمان الكفرة فيها وقتل وأسر أعداداً هائلة

منهم. في السّنة التالية استمرّت معاهدته مع ملوك أراغون وناڤار، فانقضّ الملك المسلم على أراضي الصّليبيين ودمّر الحقول في الأندلس وأثار الذّعر في قلوب السّكان، وساد الخوف من أن يزحف إلى قُرطُبة وأن يحاصر هذه المدينة، غير أنه اكتفى في الهجوم على الأرك وأخذ القطعان وذبح أو أسر السّكان وعاد إلى مدينته.

وفي السّنة التّالية، بعث ابن عثمان محمّد بن عبد البرّ قائد قواته لتدمير أراضي الغزاة وأمره أن يزحف إلى مدينة مُرسية، وقد رفض القائد الذي كان يرتبط بقصة حبّ في المدينة الذّهاب مع والده لتقديم فروض الطّاعة إلى ابن إسماعيل، وظلّ بقرب ابن عثمان الملك آملاً أن يعمل الملك على تزويجه من حبيبته، وقدّر الملك للغاية ما أقدم عليه محمّد عبد البّر وبسالته وأوكل إليه العديد من المهام. وفي ربيع العام التالي أرسله إلى مدينة مرسية ونجح القائد في مهمّته، فجمع الغنائم وعاد بكل فرح إلى المدينة مع الأسرى. سارع بعض القادة الذين كانوا برفقته إلى الهجوم على أراضي لورقة، ووافق عبد البّر على ذلك دون التّفكير ملياً، فقاد الأسرى والغنائم معه وأضاف إليهم أعداداً هائلة وألحق دماراً بالمدينة. غير أنّه في طريق عودته عبر ڤيغا (مرج) لورقة وعلى مقربة من المدينة، خرج جيش من الصّليبيين للقاء المسلمين ودارت بينهم معارك ضارية هُزم فيها محمّد بن عبد البرّ وخسر عدداً كبيراً من أشجع فرسانه، وكل الأسرى، وحارب كاللّيث قبل أن يُجبر على الانسحاب، وكانت هزيمته كبيرة، فوصل إلى غرناطة مع فرقة صغيرة من الجنود.

نسي عندها ابن عثمان ما قام به القائد سابقاً ولم يفكّر سوى بالهزيمة المهينة التي لحقت به، فقال له ما يلي: «بما أنك لم تمت موت الشّجعان في أرض القتال سوف أجعلك تموت كالجبناء في السّجن» وأمر أن يُقتل الشّاب فوراً. في هذه الأثناء بقي الملك ابن إسماعيل في مدينة مونتيفريو Montefrio يحمي أتباعه ويدافع عن العديد من المدن بكل حذر، بانتظار أن تنتهي حروب ملك قشتالة مع أعدائه في أراغون وناڤار، بهدف مساعدته على مواجهة الملك ابن عثمان. وقد مكّنته صداقته ومعاهدته مع الصّليبيين في هذه الأثناء من حماية شعبه من أيّ هجوم كالذي أصاب مُرسية

ودمّرها، وقام بكل ما بوسعه لوعد مناصريه بالمستقبل الأفضل الذي ينتظرهم.

زاد تعجرف ابن عثمان إلى حدّ كبير بسبب وحشيته التي أدّت أيضاً إلى كرهه من قبل أبناء شعبه. فقد جعلته الانتصارات التي أحرزها يشعر بالزّهو وبعظمة جوفاء، وكان يرتعد كل رجل في حضرته، وملأ الحقد قلوب الأعيان، فقد كان يأمر بقتل أقرب النّاس وحتى أشجعهم وأرفعهم مكانة دون أيّ سبب. كما قام بتجريد الشّيوخ والأوفياء وصرفهم من الخدمة في مملكته، لمكافأة القادة أو الرّؤساء العسكريين الذين كانوا يرافقونه في مهامه وحملاته. كما كان ينظّم زواج أتباعه دون الحصول على موافقتهم، مجبراً الآباء على قبول العرسان دون موافقتهم، ومهيناً الفتيات مجبراً إياهن على الانصياع لأوامره. وكانت كل هذه الأمور مدعاة تذمّر، وشعر كثيرون بعدم الرّضا من طريقة تصرّفه الطّاغية والعدائية. فأصبح مكروهاً من شعبه ومن الأعيان بسبب قساوته، وخاف الكل من الأسوأ ومن الموت، وبهذه الطّريقة مهّد الطّريق أمام أعدائه للنّصر.

في هذه الأثناء، كان ملك قشتالة قد عقد معاهدات سلم مع ملوك نافار وآراغون، وقرّر الثّأر من ملك غرناطة لكلّ الويلات التي اقترفها في أراضيه. فحشد جيشاً مهولاً مدرّباً وأرسله لمساعدة الملك ابن إسماعيل، وقوة من أبناء شعبه وسار مع الأخير للهجوم على ابن عمه. تواجه الجيشان ودارت معارك ضارية بينهما حارب فيها كل جندي ببسالة وشجاعة، غير أن ابن عُثمان هزم في نهاية المطاف على يد ابن عمّه ابن إسماعيل، فهرب مع من تبقّى من جنوده واستطاع بلوغ المدينة بصعوبة. ثم حاول الهجوم مع قوات أخرى، غير أن شعبه الذي فاض به الكيل من بطشه ومن خيانته قرّر الانتقام من كل ما فعل به الملك. وعندما وصل إلى قصر الحمراء قام ابن عثمان بقتل عدد كبير من فرسان غرناطة الشّجعان والأرفع الذين احتمى بظلهم في السّابق. فثار الشّعب ضدّه وأعلن ابن عمّه ابن إسماعيل ملكاً قبل دخوله إلى المدينة. خاف ابن عثمان على حياته وقرّر الهروب من المدينة المحاصرة، ورافقه بعض الفرسان المقرّبين إليه، وبما أنه كان يعلم أن القليل منهم يحبّه فلم يثق بأحد، وهرب غفلة منهم واحتمى في الجبال، وحدث ذلك عام 759 هـ[1].

(1) العام 1454 للميلاد. (كوندِه)

دخل ابن إسماعيل إلى غرناطة، حيث استقبله الشّيوخ والأعيان وأُعلن ملكاً على الفور، واحتُفل به بكل صخب في كل أرجاء المعمورة وفي مدينة غرناطة. أرسل الملك الجديد رسائل إلى ملك قشتالة أعلن فيها عن ولائه له وعن امتنانه، وأرفقها بهدايا قيمة من أثواب حريرية من خيوط الذهب والأحصنة الأصيلة والأقمشة المزركشة والمطرّزة وغيرها من الهدايا التي تليق بالملوك. غير أنّ دون خوان ملك قشتالة توفي بعد وقت قصير. عندها لم يقم ابن إسماعيل بتجديد المعاهدات أو العلاقات مع الملك الجديد دون إنريكِه[1] ابنه لتجنّب غضب شعب غرناطة، بما أنه لم يكن ينظر إلى هذه الصّداقة التي جمعته مع ملك الصّليبيين من منظار جيد. لهذا السّبب أعطى ابن إسماعيل قادته الإذن للهجوم على حدود قشتالة ودخولها، وهكذا كان فقد دخلتها جيوش المسلمين وأخذت الغنائم والأسرى بأعداد هائلة، وقد سهّل الضّياع وعدم الاستقرار الذي كان يعيشه الصّليبيون عندها هذا الأمر ونجاح القادة المسلمين.

وبما أن هذا الهجوم لم يكن معلّلاً بسبب وجيه، اندهش الملك دون إنريكِه وأعرب عن عدم رضاه من أعمال البطش هذه، فأمر قواته الأخذ بالثّأر وسار إلى غرناطة مع 14,000 جندي وفارس وقتل وأحرق ونهب كل ما وقعت عليه عيناه وتركها مدمّرة تماماً. لم يغامر الملك ابن إسماعيل بمواجهة هذا الجيش الضّاري، واكتفى بإرسال قوات من خيرة الفرسان الذين قاتلوا الصّليبيين بوحشية موقعين في صفوفهم خسائر وعادوا غانمين. في هذه الأثناء أُعدّت العدّة داخل المدينة وجُهّزت لمواجهة العدوّ، فتأهّبت القوات استعداداً للمعركة وحُرست قلاعها وكل أبراجها. شعر ملك قشتالة عندها أنه لا يمكن دفع المسلمين للمعركة بل إلى مواجهات سوف يذبح فيها عدد كبير من جنوده، فعاد إلى مدينته لأنه كان شديد الدّراية ببسالة الفرسان المسلمين وبضلوعهم في الحرب وبشجاعتهم بعد أن شهد يومياً ذبح وقتل وجرح العديد من فرسانه، ممّا أثار غيظ شعبه. وقد عبّر كثيرون عن عدم امتنانهم لطريقة المواجهات هذه وعاد بعض جيوشه إلى منازلهم.

(1) إنريكِه الرّابع. (فوستر)

اكتفى الملك بالثّأر من غرناطة لكل الأذى الذي ألحق بأراضيه، وعاد إلى مملكته. ومع حلول الرّبيع من العام المقبل ظهرت جنود الصّليبيين مجدّداً في أراضي المسلمين، فخرج فرسان غرناطة لشنّ هجوم عليهم مجبرين الملك إنريكِه إلى اللجوء إلى استخدام كامل قواته لمواجهتهم، فتقسّم جيشه ودارت مواجهات عنيفة مرات عديدة بين الطّرفين، وكسب في معظمها المسلمون الذين لحقوا بالغزاة من كل صوب. وفي إحدى هذه المواجهات توفي ڠارسيلاسو دي لا ڤيغا Garcilaso de la Vega القائد الأوفى للملك المسيحي وصديقه الأقرب، وقد شعر دون إنريكِه بالأسى لمصابه وقرّر الانتقام لموته، فهجم بوحشية على الأراضي وسيطر على حصن شيمينا Ximena وقتل كل سكان المدينة.



الفصل الثّالث والثّلاثون

هدنة لمدة قصيرة مبرمة بين ملك قشتالة وابن إسماعيل ملك غرناطة – حملة الأمير مولاي أبو الحسن – خلف والده ابن إسماعيل

قام الملك ابن إسماعيل، رغبة منه في وقف الآلام التي ألحقها الصّليبيون بشعبه، بإرسال موفدين إلى ملك قشتالة مقترحاً عليه عقد هدنة، وعلى الرّغم من التّردّد عُقدت بالفعل هدنة قصيرة لمدة محدّدة ووفق شروط خاصّة. غير أنها لم تشمل حدود جيان Jaén وبقيت المدينة ساحة للصّراعات بين الفريقين. لم يوفّر قادة غرناطة أيّة فرصة للتّعبير عن بسالتهم، فقد زحفوا وهاجموا الإمارة مرّات عديدة، وألحقوا أضراراً جسيمة بالممتلكات وبالسّكان، وفي إحدى هذه الهجمات قاموا بمذبحة قتل خلالها مئات الجنود الصّليبيين ذبحاً وأسروا الحاكم المسيحي كاستانييدا وحملوه إلى غرناطة.

حكم ابن إسماعيل ملك غرناطة الجديد المملكة بكل حرص وعدل وأحبّه كل الشّعب، وأمر بإعادة بناء جميع المنازل التي هُدمت بالحرب وإعادتها إلى حالتها السّابقة، وحسّن شرطة المدينة وأصلح كل المعالم وزرع الأشجار وأولى رعاية خاصة بكل ما كان من شأنه أن يرفع من رفاه شعبه. كان ابن إسماعيل محبّاً للمبارزات والمسابقات، وكان في بعض الأحيان يشارك فيها حيث كان يتمتع بالمهارات اللازمة لذلك، ويمتطي الحصان بكل براعة. وكان لابن إسماعيل ابنان: الأكبر وكان شاباً يدعى مولاي أبا الحسن، وكان ماهراً في فن القتال وحيوياً ومحبوباً ومحارباً شجاعاً وفارساً هماماً، وابن أصغر يدعى سيّد عبد الله.

كان مولاي أبو الحسن ينتظر فرصة للبرهان عن قواه في هجوم على الصّليبيين،

فأخذ ثُلّة من الفرسان منتهكاً بذلك نصّ الهدنة المبرة بين والده وملك قشتالة، ودخل أراضي الأندلس فأخذ القطعان من الإمارة في إستيبرا Estepra والأسرى من بين السّكان الذين لم يذبحهم من كافة القرى. سار جيش الحدود ضدّه في أوسونا Ossuna، غير أنه حارب كاللّيث وبعد أن وقعت للطّرفين خسائر جسيمة أُجبر الأمير المسلم على التّراجع، فترك كل الغنائم التي أخذها سابقاً لتأمين انسحابه.

في العام 865 هـ قام الأمير أبو الحسن مرة جديدة بمهاجمة الحدود المسيحية بضراوة، وكان هذا الغزو ناجحاً للغاية. ألقى الصّليبيون بقيادة دوق مدينة سيدونيا (شذونة) حصاراً على جبل طارق، وسيطروا عليه بعد أن واجهوا مقاومة شديدة من الجنود المرابطين في المكان، غير أن القلعة أُجبرت على الاستسلام وكانت هزيمة كبيرة للمسلمين. في أجزاء أخرى من المملكة وقعت خسائر، ومن بينها قلعة أرشذونة التي حاصرها دون بِدرو غيرون وأنهكها للغاية فاستسلمت له كما جبل طارق. بعد هذه الويلات أُجبر المِلك ابن إسماعيل على طلب هدنة من ملك قشتالة، ولم يرفض الأخير هذا الطّلب. حتى قيل إنّ دون إنريكِه ترك جبل طارق وعاد إلى ڤيغا غرناطة للاجتماع مع ملكها، واستقبله ابن إسماعيل بكل حفاوة نقلاً عن الكتّاب، وأولم له ولصحبته وأبرما المعاهدة معاً. ثم قدّم ملك غرناطة هدايا قيمة لملك قشتالة، الذي أعطاه بالمقابل جوهرة لا تقدّر بثمن.

عندما ترك دون إنريكِه الدّيوان الملكي، رافقه إلى الحدود عدد كبير من فرسان إشبيلية بعد أن أبرم معاهدة تمكّن أهم الفرسان في غرناطة من التّحرّك بكل حرّية وأمان والحضور إلى مملكة الصّليبيين وأن يُعاملوا بالمثل، والأمر ذاته لنبلاء قشتالة في غرناطة، وكان الفرسان من الجهتين يستقبَلون في المدينة الغريبة كما في مدنهم. منذ ذاك الحين أمضى ابن إسماعيل ملك غرناطة حكمه بسلام حتى مماته، وقد حدث ذلك في قصر مقاطعة المَريّة Almería وكان مع والد زوجته سيدي يحيى النّيار عام 870 هـ.

بعد موت الملك ابن إسماعيل تسلّم ابنه البكر مولاي أبو الحسن سدّة الحكم مكانه، وكان ملكاً شجاعاً هماماً بارعاً في الحرب ويجد لذّة في الأهوال والفظائع، ولهذه

الأسباب أصبح مصدر هلاك للمملكة وأدّى إلى انطفاء المسلمين من الأندلس. وفي حريمه كان لأبي الحسن زوجتان يحبّ الواحدة أكثر من الأخرى، وكانت أولاهما ابنة عمّ والده محمّد بن أبي عبد الله[1] والثّانية ثريا[2] ابنه قائد مارتوش المسيحية وأم ابنيه المولودين في العار والدّنس، وقد كانت ولادتهما ساعة شؤم على المملكة كما سنبيّن فيما يلي. مرّت السّنتان الأوليان من حكم أبي الحسن بكل سلام وطمأنينة، غير أنه كان ينتظر فرصة لوضع نهاية للهدنة مع الكفرة، وكان على وشك الهجوم على أراضي الصّليبيين في السّنة الثّالثة لحكمه، لولا ظهور ثورة في مقاطعة مالقة قادها شقيقه الأصغر.

كان سيّد أبو عبد الله قائد المدينة رجلاً ذا سلطة عالية متميّزة وذا سمعة طيّبة في كل مملكة غرناطة. وعندما علم أبو الحسن بهذه الثّورة اتّخذ فوراً خطوات لإيقاف هؤلاء المتمرّدين، وحرم أخاه من الأقضية وأعطاها إلى قائد ذي خبرة خلفاً له كان نسيب الملك أبي الحسن، الذي قام دون إبطاء بحشد جيش متمرّس وسار ضد المتآمرين. غير أن قلب الحاكم المتمرّد لم يلِن لذلك بل أرسل إلى ملك قشتالة يطالبه بمساندته في حربه ضد شقيقه أبي الحسن، ناعتاً إياه بعدو الصّليبيين، ومعلّلاً ذلك بكسره لبنود المعاهدة التي كانت قائمة على الرّغم من عدم وجود أيّ سبب لذلك. كان ملك قشتالة دون إنريكِه في مدينة أرشذونة Archidona عام 874 هـ[3] فحضر إليه القائد المتمرّد وقدّم له فروض الاحترام والولاء، وجلب معه هدايا نفيسة وجياداً عربية وأقمشة مزركشة رائعة وأسلحة ثمينة. فاستضافه دون إنريكِه بكل حفاوة وقدّم له الأمان والمأوى ووعده بمساعدته في حال أراد شنّ أي حرب على أخيه ملك غرناطة.

بعد مضيّ وقت قصير، علم أبو الحسن بهذا الأمر، فشعر بمهانة شديدة وقرّر الثّأر فسار على أراضي الصّليبيين شخصياً وقام بهجمات ضارية في قُرطُبة، وبعدها دخل

(1) عبد الله كما يكتب بعض الكتّاب الإنكليز. (فوستر)

(2) انظر الصّفحة 342. (فوستر)

(3) وفق ماريانا عام 1469. (كونده)

أراضي إشبيلية فنشر الذّعر في كافة أرجاء المملكة. ثم سيطرت على مدن قشتالة حالة من الذّعر الشّديد ولم يتمكّن حرس الحدود من منع زحف الغزاة الذين استطاعوا عبور الأندلس. وقام جنود المسلمين بشنّ هجمات وحشية أخرى على الأراضي المسيحية عام 876 هـ[1] أدّت إلى زرع البلبلة والذّعر بين السّكان، حيث دخل المسلمون إلى عمق الأراضي المسيحية بأسلحتهم، غير أنّ الملك أبا الحسن اكتفى بتدمير البلاد ولم يهاجم أيّاً من الحصون فيها.

في السّنة عينها قام دون دييغو، وهو نبيل مسيحي من قُرطُبة، بطلب معركة في ساحة قتال بين ملك غرناطة ودون ألونسو دي أغيلار Don Alonzo D’Aguilar الذي أهانه بعد أن طلب ذلك من ملك قشتالة الذي رفض هذا الأمر. استُقبل دون دييغو بشكل لائق وحدّد أبو الحسن له ڤيغا غرناطة كساحة للقتال، وحضّر لوائح الفرسان الذين سيشاركون في القتال، وبما أن دون ألونسو دي أغيلار مُنع من الحضور من قبل ملكه، فقد اعتبره ملك غرناطة مهزوماً. وصدف أن كان في ديوان الملك في غرناطة قريب لدون دييغو دي أغيلار وقد جاء اسمه على اللوائح، فأعلن أن دون ألونسو لم يكن غائباً بإرادته فهو فارس هُمام لا يخشى المواجهة، ثم عرض أن يقاتل مكانه شخصياً. لم يقبل الملك هذا الأمر ولم يسمح الفارس أن يعلن دون ألونسو مهزوماً أو فارّاً. حاول ملك غرناطة جاهداً إقناع النّبيل الغاضب أنّ دون دييغو دي كوردوبا (قُرطُبة) لن يقبل أن يحارب أيّ فارس مكان دون ألونسو دي أغيلار Don Alonzo D’Aguilar الذي لم يحضر، غير أن الفارس ظلّ مصرّاً على مطلبه وأقواله. شعر الملك بالمهانة من هذه التّعابير، فأمر بقتل الأخير فوراً. ولم يؤجّل هذا الأمر إلا بتدخّل دون دييغو دي كوردوبا الذي كان أبو الحسن يكنّ له كل احترام، فوافق بعد رجائه على العفو عن الفارس. ومع انتهاء العام 876 هـ أرسل ملك غرناطة قادته للهجوم على أراضي الصّليبيين، فعبروا الحدود في مناطق عديدة في الوقت نفسه، وألحقوا أضراراً جسيمة وأذى بالسّكان والممتلكات وعادوا إلى غرناطة مع غنائم كثيرة وأسرى.

---

(1) وفق ماريانا عام 1471. (كوندِه)

غير أنّ القائد المسيحي على حدود الأندلس دون روي پونثِه دي ليون Ruy Ponce de Leon كان في هذه الأثناء يجتاح إمارة مدينة مونتيجيكار Montejicar وتمكّن من السّيطرة عليها فجأة. سارع قادة غرناطة الشّجعان وفرسانها للدّفاع عن المدينة، وبعد أن علموا أن الصّليبيين سيطروا عليها هاجموهم بكل وحشية فطردوهم منها واستعادوا مدينتهم. خلال السّنوات الثّلاث التالية كان الملك أبو الحسن منهمكاً للغاية في الحرب مع أخيه عبد الله والي مقاطعة مالقة المتمرّد، وحارب الطّرفان بكل بسالة وكان الظّفر تارة حليف الأول وطوراً حليف الآخر. وعانى المسلمون من هذه المعارك بشدّة، فقد فقدوا فرصة الانقضاض على عدوهم المسيحي وكسب المعركة عليه. ولم يتمكّن أبو الحسن من إكمال الهجوم الذي بدأه عليهم، ولم يكونوا من جهتهم في وضع يسمح لهم بالهجوم على مملكة غرناطة أو إلحاق أيّ أذى بها، بما أنهم كانوا يعانون أيضاً من صراعات داخلية، ومن ثورات أهلية جعلت إماراتهم تعيش حالة من بلبلة دائمة تستدعي الاهتمام بالشّؤون الدّاخلية أكثر من شنّ حروب على الأعداء. وبالتالي تمكّن قادة الحدود من الاستراحة لمدّة أربع سنوات.



الفصل الرّابع والثّلاثون

موت دون إنريكِه ملك قشتالة - هدنة مبرمة - عدم استقرار في غرناطة - ملوك الكاثوليك في إشبيلية - الهجمات

عام 789 توفي إنريكِه ملك قشتالة[1]، فعمل دون دييغو دي كوردوبا (قُرطُبة) بكل ما أوتي من قوة لإقناع ملك غرناطة أبي الحسن الذي كان يكنّ له التّقدير بعقد هدنة مع الصّليبيين وضع شروطها وكانت لصالح الطّرفين. ووقّع السّيد عبد الله والي مقاطعة مالقة أيضاً معاهدة سلام بنيّة طيّبة وصدق. في هذه الأثناء كان أبو الحسن منهمكاً للغاية في إتمام بعض الأعمال التي بدأها في القصر الملكي، فقد بنى الأسوار والحدائق الغنّاء الرّائعة، في حين كان ابنه عبد الله يرفّه عن ذاته بالمبارزات وغيرها من الأعمال البطولية. ولم يكن في حريمه أيّة مشاكل، فقد أحب الملك أبو الحسن ابنة قائد مارتوش أم ولديه سيدي يحيى وسيدي النّيار[2] Cidi Almayar بشغف وصدق، غير أن السّلطانة ثريّا أم الأمير عبد الله[3] كانت تكره أمّ الأميرين ضمناً ولم تذر أيّة فرصة لتدميرها وولديها.

ولم يكن هذا الكُره محصوراً داخل القصر الملكي فقط، بل كانت المدينة بأسرها

---

(1) إنريكِه الرّابع. (فوستر)

(2) ورد الاسم بالأصل الإسباني: الميّار بالميم، والصّواب: النّيار، وهكذا سيرد مراراً أدناه في النّص، وهو الصّواب. ونذكّر القارئ أنّ كتاب كوندِه طُبع عقب وفاته، ولذا وقعت فيه بعض أخطاء. (أحمد)

(3) يلاحظ القارىء أننا في مقطع سابق ذكرنا أن والدة يحيى والنّيار تدعى أيضاً ثريّا، وهذه إحدى نقاط السّهو التي كان الكاتب ليعمد حتماً إلى تصحيحها لو أنّه أتيح له رؤية كتابه أثناء عمليّة طباعته. (فوستر)

تعرفه وأدّى إلى تقسيم الأعيان إلى فئات متصارعة. وكان هناك سبب آخر يؤدّي إلى الفتنة، فبالقدر الذي كره فيه الشّعب أبا الحسن لبطشه أحبّ هؤلاء ابنه عبد الله لفضائله. وبما أنّ زمن المعاهدة المبرمة بين ملكي قشتالة وغرناطة شارف على الانتهاء، أرسل أبو الحسن وفداً إلى إشبيلية لتمديدها وصلها عام 883 هـ[1] واستقبله الملك فرناندو والملكة إيزابيل بكل ترحاب، ومنحا التّمديد الذي أراده الملك، شرط أن يسدّد الأخير مبلغاً من المال سنوياً على شكل جزية لملك قشتالة.

أرسل الملك فرناندو مرسليه مع موفدي غرناطة للملك أبي الحسن، حاملين إليه هذه الشّروط لعقد الهدنة ومنتظرين توقيعه. وبعد أن حضروا أمام الملك وقرأوا عليه تلك الشّروط، أجابهم الأخير بالآتي: «ارجعوا إلى ملوككم، وقولوا لهم إنّ السّلاطين الذين كانوا يؤدّون الجزية للنّصارى قد ماتوا، أمّا نحن فليس لدينا لأعدائنا إلا أسنّة الرّماح». وصرف أبو الحسن الموفدين، وأمر فوراً بتحضير العدّة لإعادة شنّ الحرب على الرّغم من الهدنة الموقعة مع الصّليبيين دون أي شرط. مع مطلع العام 886 هـ وصل إلى ملك غرناطة نبأ أنّ حدود الصّليبيين محروسة بشكل مهمل بين سيدونيا (شذونة) ورُندة Ronda، فأصدر أوامر لجمع خيرة فرسانه والهجوم على قلعة الزّهراء بين رُندة وسيدونيا التي كانت محصّنة من قبل الصّليبيين. وصل الملك قبل الزّهراء في عتمة ليل كالح عاصف وممطر، وكانت الطّبيعة بأسرها تعارض أمر كسر الهدنة هذه واغتصابها، غير أنّ طباع أبي الحسن وإصراره كانت تدفعه للمضي قدماً، فرفض كل عروض الولاة والمستشارين، وخوّفهم من فتح نار جهنم على أيدي جنوده، فهاجم القلعة وتسلّقت قواته أسوارها من كل صوب.

دبّ الهلع في قلوب الجنود الصّليبيين الذين جهلوا من أيّ صوب يدافعون عن أنفسهم، ولم يتصدّوا إلا بشكل خفيف للمسلمين وقُتل منهم عددٌ كبير، ومن بقي على قيد الحياة أُسر وعاد به أبو الحسن إلى غرناطة منتصراً. ثم أمر الملك أن تبنى دفاعات أقوى، وترك قوة في المكان وعاد إلى غرناطة للاحتفال بانتصاره. خرج

---

(1) العام 1476 للميلاد. (كوندِه)

الشّيوخ والأعيان وفقهاء المدينة للقاء الملك واستقبلوه بالتّهاليل لنصره، ونقل عن الشّيخ ناصر[1] Xeque Macer، وهو فقيه حكيم، أنّه هتف أثناء مروره ما يلي: «سوف تهوي أنقاض المدينة المدمّرة هذه على رؤوسنا. أرجو ألا يستمع الله لي، لكن صوتاً بداخلي يقول إنّ حكمنا في إسپانيا سوف يصل إلى نهايته».

لم يأبه الملك أبو الحسن إلى هذه الكلمات ولا إلى الإشارات السّماوية هذه ولا إلى تحذيرات العلماء أو الفقهاء، فردّها كلها وخرج ناسياً كل هذه الأقاويل للهجوم على حدود الصّليبيين مع مطلع السّنة الجديدة، وخاصّة على كاستيّار Castellar وأولبيرا Olbera. صحيح أنه لم يتمكّن من أخذ هذه المناطق من الصّليبيين، وذلك بسبب مواجهة حرسها الذين أصبحوا أكثر دراية بأساليبه، خاصّة بعد معركة الزّهراء، فحافظوا على المدينة بكل قوتهم، غير أن الملك عاد إلى أراضيه مع غنائم كبيرة.

في هذه الأثناء، قام روي پونثِه Ruy Ponce قائد الحدود في الأندلس المسيحي بقيادة قوات حشدها من كل أنحاء إمارة إشبيلية وسار على مدينة الحمة Alhama المسلمة. ورابط الفرسان والجنود نهاراً في وادٍ يقع على مسافة قريبة من المدينة تحيط به الصّخور والمنحدرات القاسية على بعد 2.1 كلم من الحمة. عندما حلّ الليل اقتربت القوّة من أسوار المدينة بكل هدوء وبسرية تامة. ووضع الجنود سلالم وتسلّقوا الأسوار هذه بكل ثقة. فقطعوا رؤوس الجنود وهم نيام وقتلوا كل من ظهر بوجههم وفتحوا أبواب القلعة من الجهتين ليمكّنوا إخوانهم من دخولها. وعلى الرّغم من المفاجأة التي حلّت بالمسلمين لرؤية الغزاة فقد سارعوا إلى أسلحتهم ودافعوا بكل بسالة عن القلعة، في حين سارع البعض الآخر بإغلاق أبوابها من جهة المدينة. دافع المسلمون بكل شجاعة عن القلعة، ومع بزوغ الفجر بدأ الهجوم على المدينة، فرفع الصّليبيون سلالمهم وكانت فصائل من المسلمين تتصدّى لهم في كل شارع،

---

(1) ورد الإسم بالأصل الإسپاني: Macer ومن الواضح أنّه أتى مصحفاً، وقلنا مراراً إنّ كتاب كوندِه طُبع بعد وفاته ولم يراجعه بنفسه، لذا وقعت به أغلاط لا يمكن تصحيحها كلّها لفقد المخطوطات التي ترجم عنها كوندِه. ولقد رأيت الأقرب إلى Macer اسم: ناصر، أكثر من نصر، والله أعلم. (أحمد)

ودافع هؤلاء عن كل شبر من أراضيهم ببسالة كبيرة. غير أنّ الشّجاعة وحدها لم تكفِ، فقد وقعت مذابح مهولة وتمكّن الصّليبيون من دخول المدينة ومن احتلال القلعة.

وكان المسلمون قد وضعوا تحصينات في كل شارع، وقاوموا الغازي بكل قوّة ودارت المواجهات طوال النّهار دون ثانية راحة، وتوقع الجميع هدنة لوقف هذه المذابح مع حلول الليل، غير أن المعارك استمرّت بعد وصول فرق جديدة من الصّليبيين لدعم القوات الموجودة في المكان وقائدها. علم المسلمون أن لا أمل لهم، فدافعوا حتى استشهد آخر فرد منهم. وقتل الصّليبيون النّساء والأطفال الذين احتموا في الجامع وكذلك العلماء، وافترشت الجثث كل باحات وجدران مكان العبادة هذا.

عندما وصل نبأ الفاجعة إلى غرناطة دبّ الذّعر والذّهول في قلوب الشّعب، فأخذ أبو الحسن سيفه دون إبطاء وسار على رأس 3500 جندي إلى الحمة ووصل بسرعة، غير أنه في خضم السّرعة هذه نسي أن يأخذ الأسلحة اللازمة ولم يتمكّن من استعادة القلعة. فقسّم قواته وأرسل عدداً من الجنود لاحتلال الممرّات التي كانت تسلكها مؤن الصّليبيين لقطعها، ودارت معارك عديدة حارب فيها المسلمون بكل بسالة، فكسبوا تارة وأخرى خسروا. وبعد أن رأى أبو الحسن أن الصّليبيين قد تمكّنوا من حشد قوة كبيرة على الرّغم من كل أوجه التّصدّي، أُجبر على العودة إلى غرناطة.

بعد أشهر معدودة، سار الملك مجدّداً نحو الحمة بهدف تخفيف أسى شعبه الذي عزا إليه الفشل بعد محاولته السّابقة، واتهمه أنه كان السّبب وراء هذه الحرب الضّروس كونه كان يأمل بجني نتائج أفضل. فحاصر المكان وأعلن أنه لن يرفع معسكره طالما لم يحتلّه، وأرسل فرساناً لقطع الحدود المسيحية واجتياح إمارة الأندلس.

في حين كان أبو الحسن منهمكاً في حصاره وسيطرته على المدينة، اضطرّ للعودة إلى المدينة بعد أن علم أنّ بعض الأعيان يعدّون لمكيدة. وعندما وصل إلى غرناطة علم أنّ المحرّض الأساسي لهذا التّمرّد ما هو سوى ابنه عبد الله. فقام بكل سرّية بسجن ابنه المتمرّد مع والدته السّلطانة التي حرّضته على فعله في أحد أسوار القصر الملكي.

تمكّن الصّليبيون في هذه الأثناء من إرسال قوات جديدة إلى الحمة، وساروا بقوة مهولة لحصار مدينة لوشة القوية الحصينة ذات المركز الحيوي في المملكة. فقام قائد المكان علي العطّار بالدّفاع عنه ببسالة فائقة مع قواته التي بلغت 3000 فارس متمرّس وذي خبرة في القتال. وقاموا بهجمات عديدة على أعداء الله ولم يمكّنوهم من الاستراحة، وقام علي العطار بذاته مرّات عديدة بالهجوم على خيامهم بسيفه. وفي آخر هذه المعارك سيطر القائد بعد أن ألحق الدّمار والأذى بصفوف العدو على المعسكر وجندل منهم عدداً هائلاً، فذُعروا وتشتّتوا، ومن بين القتلة كان القائد الأكبر لقلعة رباح Calatrava دون روي تيليس غيرون Don Ruy Tellis Giron الذي جُرح بسهم مسموم فخرّ في عزّ شبابه، وغيره من الفرسان الشّجعان. ووقعت هذه المعركة في 13 من يوليو من العام 1482 م.



الفصل الخامس والثّلاثون

الدّخول إلى غرناطة - أبو الحسن يسير لتحرير مدينة لوشة - أبو عبد الله يتولّى العرش - تراجع أبي الحسن من مقاطعة مالقة - النّصر على الصّليبيين

كان الملك أبو الحسن يعدّ العدة بكل قواه لإعادة الهجوم على الحمة. وأرسل لطلب المساندة من الأمراء الأفارقة لهذا الغرض، عندما اندلعت ثورة في غرناطة أدّت إلى تفرقة السّكان إلى معسكرين، أحدهما موالٍ للأمير عبد الله والآخر موالٍ للملك. خافت السّلطانة ثريا Sultana Zoraya أن يقوم الملك أبو الحسن بقتل ابنها بسبب وحشيته، بما أنّ عبد الله كان مسجوناً في برج قُمارِش وبالتالي لا زال بين يديه، فأمرت خدّامها الأوفياء بتجهيز حبال لمساعدة الأمير على النّزول من البرج. وأبلغت حلفاءها بالزّمن المُزمع القيام به بالعملية الرّامية إلى فرار ابنها، فسارع بعض الفرسان إلى البرج واستقبلوا الأمير الشّاب الذي تمكّن من الفرار بكل نجاح وأعلنوه ملكاً، ممّا دفع المدينة إلى الثّورة وجعل عدداً كبيراً من السّكان يقوم بوجه الملك. لم يكن الأمر صعباً أو معقّداً كما كان من المفترض أن يكون، بما أن أبا الحسن قد قام مرات عدة بإهانة العديد من الأعيان الذين قاموا بالتأثير على الشّعب، وبالتالي إلى اندلاع الحرب الأهلية، فقد كانوا مستعدين للثّورة ضده وتزايدت أعداد أتباع أبي عبد الله وازدادت قوتهم لهذا الغرض.

لم يضيّع والي المدينة ووزيره أي وقت، فطلبوا من الحراس قمع الثّورة والنّزاعات التي دارت في المدينة، غير أن المتمرّدين تمكّنوا من السّيطرة على البيازين وتراصفوا في هذه البقعة من المدينة. وبما أن الشّعب متعطش دائماً للتّجديد فقد انضمّ إلى معسكر الأمير عبد الله، وفي اليوم التالي لهروبه ازداد عدد مناصريه وتجدّدت الصّراعات في

الشّوارع بعنف أكبر. وهُزم في هذه المعارك من حاول جاهداً الحفاظ على حقوق ملكه وأخرج من السّاحات ومن كل الأماكن العامة للمدينة.

سقط العديد من الضّحايا من الطّرفين في هذا اليوم. وعندما رأى أبو الحسن أن حزبه أضعف من الحزب المقابل خرج من العاصمة ولجأ إلى صهره(1) سليم Zelim والي المَريّة Almería. فتمكّن الملك بفضل مساعدته وتدخُّل فرسانه من السّيطرة على قصر الحمراء فيما عدا برج واحد من القلعة كان بقيادة القائد ابن عُميشة(2) Alcayde Aben Omixa الذي كان يقوم بحراسته للأمير أبي عبد الله الصّغير(3) Abdallah El Zaquir الذي دعي بهذا الاسم للتّفريق بينه وبين والده الذي لقّب بالشّيخ "El Xeque" من قبل أتباعه، بالنّظر إلى التّقدير الذي أولوه إياه أو فقط لمجرد التّفرقة. قام أتباع أبي الحسن بعد هذه الانتصارات بالزّحف إلى عمق المدينة ومهاجمة أتباع عبد الله الصّغير، غير أن أعداد القوات المقاتلة إلى جانب الأخير كانت هائلة، فكسبت المعركة وهزمت جيوش الملك وشتّتتهم.

وسط هذه البلبلة والضّياع، كان بعض الأعيان في غرناطة يطمحون إلى السّلام، فبذلوا ما في وسعهم لإزالة سلاح الشّعب غير أن مساعيهم باءت بالفشل، فالكره والحقد سادا من الجانبين وازدادت أعداد المقاتلين وأدّت الرّغبة بالثّأر إلى مزيد من الوحشية، ولم يعد أحد يستمع إلى صوت العقل فكل ما أراده كل فريق كان تدمير الآخر. في الحقيقة قام القائدان كلٌّ من جهته بالاحتماء في قلعة، فالصّغير لجأ

(1) صهره أي زوج أخته. (فوستر)

(2) كذا تبيّنت لي قراءة الاسم بصيغته الإسپانيّة. (أحمد)

(3) كتبت مسز فوستر: السّكّير، أي من يحتسي الخمرة. وكنت بيّنت أعلاه أنّ هذا خطأ نجم عن قراءتها لعبارة خوسيه كوندِه بالإسپانيّة لكلمة: الصّغير أو الزّغير. والواضح أنّ كلّ من نقل هذه العبارة (ومنهم د. محمّد عبد الله عنان، وصحّحه إلى: الزّغير) قد رجعوا إلى كتاب كوندِه بترجمة فوستر الإنكليزيّة له، لا إلى أصله الإسپاني. وهو عادة يترجم حرف الصّاد العربي إلى Z بالإسپانيّة، وهو حرف ملتبس يستخدم للتّعبير عن الثّاء والسّين والصّاد، فهذا سبب التّصحيف الذي وقع. ومصداقيّة ذلك أنّ الإسپان سمّوا هذا الأمير أبا عبد الله الذي صار محمّد الحادي عشر آخر ملوك غرناطة: El Chico: التي تعني الصّغير. (أحمد)

إلى البيازين والشّيخ إلى الحمـراء، فتوقفت الحرب الأهلية مؤقتاً وأوقفت المذابح، غيـر أن ذلك لم يؤدِّ إلى تهدئة النّفوس أو إلى إقنـاع أيّ مـن الفقهـاء والعلمـاء والأعيان.

في هذه الأثناء كانت مدينة لوشة Medina Loxa في وضع حرج وآيلة للسّقوط بين الحين والآخر في أيدي الصّليبيين، لفت هذا الأمر انتباه الملك أبي الحسن، فحشد عدداً من الجنود وخرج من غرناطة لتحرير المدينة. وفور خروجه قام القائد ابن عُميشة بالسّيطرة على قلعة الحمراء بأكملها، ثم سلمها إلى عبد الله الصّغير الذي اعتقد أنه بسيطرته على القلعة تلك قد أضحى ملكاً على إمارة والده.

وصل أبو الحسن في هذه الأثناء إلى مشارف مدينة لوشة مع جيشه، وقام بتشجيعه للقيام بذلك قوة باسلة فيها الفرسان والجنود الأكفياء. غير أنّ الرّموز التي انبثقت عن إخوانهم المسلمين في المدينة وطريقة تقدّم القوات بيّنت للمسيحيين أن ريحاً من عدم الاستقرار تعصف بهم، فرفعوا الحصار وتحضّروا للحرب. هاجمهم أبو الحسن مع فرسانه وعمّت الفوضى في صفوفهم وقام والي المدينة علي العطّار بالانقضاض عليهم، ودارت بينهما معارك شرسة ممّا زاد البلبلة. هُزم الصّليبيون أمام لوشة وتضعضعت قواتهم بفضل قوة ومهارة الملك أبي الحسن والنّبيل الفارس القائد علي العطّار، الذي لاحق الفارين إلى حقول الزّيتون وذبح أعداداً كبيرة منهم. اهتمّ أبو الحسن في هذه الأثناء بعد الانتصار الذي حقّقه في المدينة بتحرير الحمة وسار على رأس جيشه، غير أنها كانت محميّة بشكل كبير، فتوجه نحو كانييِته Cañete التي دخلها بقوة السّلاح وذبح وأسر العديد من السّكان وأحرق المنازل وهدم كل المعالم.

عندما كان الملك أبو الحسن يتحضّر للعودة عودة المنتصر إلى غرناطة بعد هذه الحملة، وصله نبأ أنّ المدينة أصبحت بيد ابنه، فعاد إلى مدينة مالقة بناء على نصيحة أخيه عبد الله والي ذلك القضاء Alcaydia الذي ظلّ مخلصاً لأبي الحسن وللأمير شقيقه وكذلك مدن وادي آش وبسطة Baza.

في العام 888 هـ دخلت ثلاث فصائل من الصّليبيين إلى الشّرقيّة Axarquia التّابعة لمالقة، وكانت مؤلفة من جنود مخضرمين وفرسان شجعان بقيادة القائد الأكبر لسانتياغو مركيز قادس Cádiz وكونت ثيفوينتِس Cifuentes، فزحفت القوات إلى المدينة مدمّرة في طريقها كل الحقول والزّروع، وأخذت القطعان وأحرقت كل الغلال وحقول الكرمة وقطعت الأشجار المثمرة وأحرقت المنازل بوحشية، حتى أسودّ النّهار بفعل الدّخان المتصاعد منها. لم يحتمل الملك أبو الحسن رؤية هذا المشهد، فأراد الخروج ضدّ الغازي، غير أن التّعب الذي أرهقه من الحروب السّابقة وتقدّمه في السّن حالا دون استعادة كل قواه، فلم يقبل أخوه الوالي عبد الله السّماح له القيام بهذا الزّحف، وتمكّن بفضل إصراره وتدخل النّبيل رضوان بن أغاس Reduan Ben Egas من ردعه. قسم القائدان القويان القوات التي كانت بإمرتهما إلى جيشين وهاجما الصّليبيين، وقاد عبد الله الجزء الأكبر من الفرسان وهو أخو الملك فسار من محور الحقول، بينما سار رضوان بن أغاس من الجبال على رأس قوة من الفرسان والجنود.

وصل نبأ الهجوم المضاد هذا إلى الكفرة، فأراد هؤلاء تجنّب الحرب مع الأمير عبد الله في هذا الوقت للحفاظ على غنائمهم وأسراهم، غير أن سرعة الأمير بالوصول إليهم أدّت إلى اندلاع الحرب في الأودية، فانقضّ جيشه على الكفرة بكل قوة. عمّت البلبلة في صفوف الجنود الصّليبيين الذين كانوا بقيادة القائد الأكبر بعد أن هاجمهم المسلمون، فهربوا إلى الجبال حيث واجههم رضوان بن أغاس مع قواته، فتجدّدت المعارك ووقعت مذابح دامية. في هذه الأثناء حاربت قوات الأمير عبد الله المنتصرة قوات الصّليبيين الذين طغى عليهم الهلع والخوف بعد أن وصلهم نبأ فرار الفصيلة الأولى، فلم تواجه جنود المسلمين أيّة صعوبة في تفريقهم والتّغلّب عليهم وإيقاع العديد من القتلى في صفوفهم. نزل رضوان بن أغاس مع جيوشه من الجبال ومحق الفرسان الصّليبيين، فاضطر هؤلاء إلى ترك كل الغنائم ولاذوا بالفرار أمام قوة المسلمين.

وإبّان انتهاء هذه الحرب قام القائد الباسل رضوان بن أغاس بتخليص القائد المسيحي كونده[1] دي ثيفوينتِس Cifuentes من الموت بعد أن وجده يقاتل وسط ستة من جنود المسلمين، فتقحّم بجواده وسطهم وقال لهم: «ما هكذا يقاتل الفرسان». فترك الجنود القائد لرضوان ليواجهه، فإثر أوّل طعنة من رُمحه سلّم نفسه إليه ووقع في أسره.

* * *

(1) ذكرت مسبقاً أنّ هذا اللقب بالإسپانيّة يقابل الكونت بالفرنسيّة. (أحمد)

الفصل السّادس والثّلاثون

استمرار المعارك في غرناطة – زحف عبد الله الصّغير الفاشل – أسره من قبل الصّليبيين – معاهدة يحصل بموجبها على حريته

ساد الأسى واللّوعة صفوف الصّليبيين بعد هجوم الأمير عبد الله ورضوان بن أغاس، في حين فرحت له كل قلوب المسلمين. غير أنهم عادوا للنّزاع والقتال فيما بينهم، فانضمّ جزء كبير تحت لواء عبد الله أخي أبي الحسن الملقب بأبي عبد الله الزَّغَل[1] El Zagal كونه رجل فعل تمكّن من السّيطرة على الموقف، وكان هذا الجزء من الشّعب ضدّ عبد الله الصّغير، فأعلن أنه أقل فعالية للسّيطرة على البلاد من والده العجوز الذي على الرّغم من تقدّمه في السّن[2] لم يكن جباناً ولم يقبل ويلات الحرب.

ضربت هذه العبارات في الصّميم عبد الله الصّغير الذي رغب بتحقيق انتصار لتحسين صيته وصورته. وبعد أن وصلته أنباء أن مدينة ليسانة Medina Lucena غير محروسة بشكل جيد قرّر مهاجمتها والسّيطرة عليها. فجمع الفرسان من خيرة شباب غرناطة وزحف من العاصمة على الفور، وقيل إنه عندما خرج من بوابة إلبيرة كسر حربته وكان هذا نذير شؤم للحملة التي ستبدأ هذا اليوم[3]. غير أنّ عبد الله لم يأبه لكل

---

(1) الزَّغَل معناه القوي والقدير. (فوستر)

قلت: وعلى مدى الكتاب يسمّيه كوندِه: عبد الله الزَّغَل، والصّواب: أبو عبد الله محمّد الزَّغَل. (أحمد)

(2) في الواقع هذه الجملة غريبة بعض الشّيء، فأبو الحسن الذي يلقّب هنا بالمسنّ كان في الثّامنة والأربعين من عمره. (فوستر)

(3) يذكر القارىء أن مثل هذه الأحداث حصلت مع محمّد الثّاني. (فوستر)

من أنذره ولم يكن يخاف من الشّر الذي أبلغه به أتباعه، فسار ضارباً بعرض الحائط كل التّحذيرات نحو نصر أكيد.

كان قائد مدينة ليسانة دييغو دي كوردوبا (قُرطُبة)، الذي دعم دفاعات المدينة وأنذر القادة الآخرين في الحدود دون ألونزو دي أغيلار وقائد القوات الملكية بالإسراع لمساعدة فرسانه، بعد أن أبلغه جواسيسه في ديوان غرناطة بالهجوم المحضر ضده. سرعان ما وصل عبد الله الصّغير إلى أغيلار وأراد الانقضاض على إمارة ليسانة، فأسر العديد من السّكان وأخذ العديد من المواشي والغنائم. ما أن وصل إلى مشارف ليسانة حتى أرسل عبد الله إنذارات للقائد دون دييغو، ذاكراً فيها أنه في حال لم يقم بتسليم المكان دون أي تأخير سوف يأخذه عبد الله بقوة السّلاح ويقتل كل جنوده. قرّر القائد إما بسبب خوفه من نتائج الحرب هذه أو لأنه رأى أن الوضع أفضل، أن تتم مناقشة هذا الأمر، فطلب من الرّيس أحمد بن سِراج صديقه الذي كان رفيق الملك عبد الله القيام بهذه المباحثات. مضى وقت طويل للوصول إلى صياغة للعقد الذي قدّمه دون دييغو والمشاكل التي رفعها، غير أنه لم يتمّ التوصل إلى أي حلّ فوصلت فجأة قوات من جنود الحدود لتحرير ليسانة. دبّ الذّعر في صفوف جنود عبد الله الصّغير الذين بدأوا بالتّراجع دون أي أمر، فعبروا النّهر دون توقف، غير أن فرسان غرناطة المتمرّسين حضّروا أنفسهم للحرب بغضّ النّظر عن هروب الجنود الذين لم يشكّلوا الجزء الأكبر من قواتهم، وبعد أن سمح لهم الفرسان بالهروب للوصول مع الغنائم والأسرى إلى مكان آمن.

دارت معارك شرسة كان فيها الدّفاع والهجوم قوياً، وكانت دامية قاسية وحارب فرسان الأندلس الأكثر خبرة في السّاحة. تزايدت أعداد القوات المسيحية بفضل المساندة التي وصلتهم، وتدخّل أهل ليسانة فأُجبر المسلمون على الانسحاب مثل من سبقهم باتجاه النّهر ولكنهم ظلوا يحاربون. في هذه الأثناء وصلت قوات جديدة من المحاربين إلى المدينة ودعمتها قوة من فرسان دون ألونسو أغيلار جعلت قوات

غرناطة تفرّ غير أنهم لم يتردّدوا في مواجهة الغزاة حتى أثناء الفرار، وحاربوهم بكل شراسة. سقط القائد المخضرم علي العطّار قائد لوشة الذي حارب إلى جانب الملك عبد الله الصّغير بعد أن مزّقته حراب الكفرة، وبعد القيام بمحاربتهم بكل بسالة على الرّغم من تقدمه بالسّن فمات شهيداً. عند موت القائد و50 فارساً آخر كانوا يحيطون بالملك بعد أن حاربوا كالأسود لحمايته، لبث الملك وحيداً وسط الأعداء فحاول الفرار، غير أن حصانه كان قد أرهق ولم يعد بمقدوره حمله إلى مكان آمن، وعندما وصل إلى النّهر جعل نفسه يقع عن الجواد وكأنه يغرق، وعمل على الاختباء في الأشجار وغيرها من النّباتات التي تعيش على ضفاف الأنهار. غير أنه بعد أن رأى أنّ ثلاثة مسيحيين يلحقون به لمهاجمته ومخافة من الموت أعلن لهم أنه الملك، فأسره الجنود[1] واقتادوه إلى معسكرهم أمام القائد الذي عرفه فعامله الكفرة بكل احترام يليق بمكانته، ولكن مع شيء من الانحطاط.

وصلت أنباء هذا الأسر إلى أهل غرناطة، فغرقت المدينة في حزن عميق، خاصة بعد خسارة خيرة شبابها في ساحة المعركة، وملأ أنين الحزن كل بيت، فبكى البعض والداً ونعى الآخر شقيقاً أو ابناً أو زوجاً أو حبيباً. فقد حزب الملك عبد الله الصّغير الشّجاعة وتُرك عددٌ كبير من أتباعه للانضمام إلى الملك أبي الحسن كونه أكثر أهلاً لكسب المعارك. لا يعلم أحد إذا كان الملك أبو الحسن قد فرح أم لا لمصاب ابنه المتمرّد، غير أنه خرج من مالقة دون إبطاء برفقة مستشارين من مستشاري أخيه عبد الله، وعندما وصل إلى غرناطة استولى على قصر الحمراء ولم يحاول أيٌّ من متآمري ابنه ردعه.

أرسلت السّلطانة ثريا أم الملك محمّد الصّغير موفدين إلى ملك قشتالة تسأله فيها العفو عن ابنها لقاء فدية، وكماً هائلاً من الكنوز لدفعها، وكتبت رسائل إلى عبد الله تواسيه وتشجّعه في الأزمة التي يعيشها. ولكنها نصحته أيضاً أن يعِد ملك

---

(1) واسم الجندي الذي أسره كان مارتين أورتادو Martín Hurtado. (أحمد)

قشتالة بكلّ ما يريده وأن يعطيه أيّ تنازل كان لاستعادة حرّيته. وطلبت من عبد الله الاهتمام حصرياً بهذا الأمر ولخلاص ذاته، وأن يدع كل الأمور الأخرى للقدر. وفي النّهاية أعلنت السّلطانة لابنها أهمية ألا يكره شيئاً فلعلّه خيرٌ له، ورجت ابنها أن يذكر كيف أنّ جدّه ابن إسماعيل وصل إلى عرش غرناطة بمساعدة ملك قشتالة، وبكل ما تمكّن من تنفيذه في حماية الأخير، وأعلنت له أنه يملك حزباً كبيراً في كل محافظات الإمارة.

وافق عبد الله الصّغير على كل طلبات ملك قشتالة، فبايعه ومنحه ولاءه والتزم بدفع 12,000 دينار ذهبي له سنوياً بصفته تابع له، ووعده عبد الله بإرسال الكثير من الهدايا القيمة و300 أسير مسيحي اختارهم الملك بنفسه كانوا في غرناطة ووعد بإطلاق سراحهم. وحدّد بنداً إضافياً يقضي أن يحضر الملك الصّغير في كل مرة يطلب منه ذلك ملك قشتالة في وقت السّلم أو الحرب. ولم يمانع عبد الله أن يترك ابنه الوحيد كأسير لدى الملك المسيحي للإعراب عن صدق عرضه، وأعلن الملك أنه على استعداد لمساعدته على السّيطرة على المدن في غرناطة التي بقيت تحت لواء والده.

عقد ملك قشتالة اجتماعات مع مستشاريه، فانقسمت الآراء حيث لم يوافق البعض على تحرير الملك عبد الله، في حين أن البعض الآخر نصحه الاستفادة من الفرصة المتاحة دون أي إبطاء كون الحروب والثّورات والبلبلة تعمّ أراضيه، ونصحوه الاستفادة من هذه الأمور للسّيطرة على أراضي المسلمين. كان هذا الاجتماع الذي عقده ملك قشتالة الأكثر هلاكاً للإسلام، وتمّت الموافقة على ضوء الوعود التي قام بها الملك عبد الله أن يعيد له الملك المسيحي حرّيته وأن يساعده على استعادة مملكته، غير أن مصير الأمة الإسلامية في بلاد إسبانيا كان حينها على المحكّ، وكان هذا الفعل الفتيل الذي جعل حكمهم فيها ينطفئ وهم يتشتّتون.

رافق الملك عبد الله إلى قرطبه قائد پوركونا Alcayde de Porcuna وقدّمه

إلى دون فرناندو ملك قشتالة الذي استقبله بكل حفاوة وكأنّهما صديقان. لم يسمح دون فرناندو لعبد الله بتقبيل يديه، بل حضنه بين ذراعيه ودعاه بالصّديق، ثم وقّعا معاً المعاهدة، وكانت مواتية للمسيحيين ولكن غير حميدة للإسلام، وكانت هذه المعاهدة بمثابة شرّ أكيد للمسلمين، ومثابة دمار أدّت إلى إنهاء سلطانهم في إسپانيا وحكمهم في الأندلس.

* * *

الفصل السّابع والثّلاثون

تزايد التحزب في غرناطة – خطبة العالِم ناصر
إعلان أبي عبد الله الزَّغَل ملكاً

ثم أُرسل الملك عبد الله الصّغير فوراً إلى غرناطة بصحبة عدد من الفرسان الصّليبيين، فرحبت السّلطانة بقدومه وأرسلت لاستقباله ثلّة من خيرة الفرسان وأرفعهم شأناً في الدّيوان الملكي، غير أن حزبه كان قد تقلّص إلى حدّ كبير وكانت تقلّ يومياً أعداد مناصريه، خاصّة بعد أن علموا بالمعاهدة التي أبرمها مع الملك المسيحي. عاد به الفرسان إلى العاصمة، وقد نجح بعضهم في السّيطرة على ليسانة Medina Lucena في وسط الليل ودخلوا القلعة بكل شجاعة، فأخذه الأعيان إلى القصبة Alcazaba. وفي اليوم التالي علم الشّعب بوجوده فيها، وبما أنه متعطّش دائماً للتّجديد ويأمل بالحصول على منافع أكبر، قام بالتّجمّع في السّاحة العامة وبالصّياح: «يحيا ملكنا محمّد عبد الله، غرناطة سعيدة بحكمك يا صغير» وعبارات أخرى مماثلة. لم تتوانَ السّلطانة[1] الوالدة في هذه المناسبة عن توزيع الثّروات والكنوز على الشّعب، فتمكّنت من شراء العديد من المناصرين وقام الملك بإعطاء أتباعه العديد من النّعم والمكافآت واعداً أمراء الأقضية وغيرهم من الأشخاص بالعديد من الامتيازات وبالوظائف فبايعه كُثر وحملوا السّلاح من أجله.

في هذه الأثناء، كان الملك أبو الحسن والد عبد الله الصّغير في قصر الحمراء عندما وصله نبأ وصول ابنه إلى العاصمة، وأنه عيّن نفسه والياً على القصبة وأن عدداً كبيراً

(1) السّلطانة الأم أو الوالدة. (فوستر)

من المناصرين انضم تحت لوائه، وأيضاً بالمساعدة التي سيعطيه إيّاها الصّليبيون. جمع أبو الحسن مستشاريه وتقرّر إبعاد عبد الله عن المدينة بالقوة، وتجريد كل أمراء الأقضية من مهامهم. وقيل الكثير عن الدّناءة والذّلّ الذي لحق بالملوك في شخصه، وعن استعباد ملك الصّليبيين له، غير أن الحاضرين ذكروا قبل كل هذه الأمور ضعفه وعدم قدرته على الحكم.

لم يكن الملك أبو الحسن مستعداً وعلى الرّغم من الويلات التي قد تلحق البلاد من جراء حرب أهلية عن التّخلّي عن العرش لولده، وعادت إلى ذاكرته الأفكار الشّريرة وسوء الطّالع الذي أبلغه به علماء الفلك يوم ولادة ابنه هذا، فقرّر الهجوم عليه وعلى مناصريه. وفي فجر اليوم التالي دقّت الكوسات والطّبول معلنة عن حرب، وزلزلت المدينة تحت أقدام الجنود، فلم يجد السّكان القوة لفتح الأبواب، وخرج المسلّحون من كل صوب في الشّوارع بعضهم موالٍ للملك الصّغير والآخر للملك الشّيخ، وتجمّع هؤلاء في السّاحات العامة للقتال. كان أتباع أبي الحسن أول من هاجم المتمرّدين الذين كانوا من عامة الشّعب غير منظمين كالجيش، وسرعان ما فرّوا من كل حدب وصوب نحو الشّوارع التي قاموا بتدعيمها. هناك تجدّدت المقاومـة والمعارك الدّامية الضّارية وحصلت مذابح كثيرة لم تنتهِ إلا مع حلول الليل.

تهيّأ المعسكران في ظلمة الليل للقتال في اليوم التالي، غير أنّ الملك أبا الحسن قام صدفة بجمع مجلس من العلماء والشّيوخ ندب فيه مصير الفرسان الشّجعان وخيرة شباب المملكة والمدافعين عنها. فقام أحد العلماء[1] بعد أن سمع هذا الكلام وعرض اقتراحاً يصبّ في مصلحة الطّرفين يهدئ النّفوس ويعيد السّلام بين أبناء الشّعب الواحد. وكان هذا الاقتراح يرمي إلى إعلان أبي عبد الله الزَّغَل ملكاً على غرناطة، وهو شقيق أبي الحسن، فوافق الملك الحالي قبل بزوغ الفجر على هذا الحل. وقام

---

(1) العلّامة أو العالم Alime وهو أحد الشّيوخ في بعض المجامع الموحّدة في البلدان المسلمة. (فوستر)

أبو الحسن بخطوة لإقناع ابنه بهذا الأمر سيدي النّيار بعد أن وضع نصب عينيه كافة الويلات والثّورات التي قد تنتج، وأنه بسبب سنّه لم يعد قادراً على حملها وعلى القبول بأن ينتهي عرش غرناطة بيد الأشقياء أو الكفرة، وأنه أصبح في سن يفترض فيه أن يبحث عن راحته وبوجوب الاعتماد على رجل قوي لكي تنعم البلاد بالأمان ولكي يمضي خاتمة حياته بسلام.

عند بزوغ الفجر اندلعت أصوات الطّبول مرة أخرى معلنة للشّعب الحرب، وكان الشّعب قد ضاق ذرعاً من الحرب الأهلية حيث كان كل منهم مستعداً لقتل أخيه والدّفاع عن الحزب الذي ينتمي إليه، وقد هيّئت النّفوس للقتال واستعدّ الكل للجهاد والموت. عندها خرج العالِم ناصر[1] Macer وهو رجل ذو نفوذ وسلطة وألقى خطبة بالمجتمعين بصوت جهوري جاء فيها:

«يا قوم، ويلٌ لكم من هذا الغضب الجامح، ما السّبب الذي يدفعكم إلى مثل هذه الأحقاد وإلى قتل إخوانكم؟ أنسيتم زوجاتكم وأولادكم وبلدكم؟ أجنّ جنونكم فأصبحتم ألعوبة بين أيدي الحكام؟ يا لجهلكم! هل أصبتم بالعمى؟ هل أنتم مسرورون بالموت على يد أخوانكم لأجل حبّ العظمة الذي أصاب رجلاً واحداً؟ ولدٌ عاصٍ وعاقّ، ولدٌ مجرّد من كل صفات الملوك وكل فضيلة، وهي مزايا كل من يصبو إلى الحكم. أنتم تتشاحنون مع أبناء شعبكم على مملكة لا يقدر على حكمها سوى رجل قوي يدافع عنها. ألا تشعرون بالخزي من مساندة هذا الحاكم الذي سيطر على عقولكم؟ ألا تشعرون بالخطر المحدق بنا وبمملكتنا؟ ألم تروا دماء الأبرياء تراق كالأنهار بين أبناء الشّعب الواحد عوضاً عن إراقتها في ساحة معركة مع الأعداء للدّفاع عن الأمّة؟ ألا ترون أنّ راياتنا يجب أن توضع في الوادي الكبير و تاغوس Tagus؟ هل تأملون أن يدافع عنكم الصّغير أم الشّيخ؟ وهما ملكان لا حول لهما ولا قوة. عودوا إلى صوابكم ابتعدوا عن الأفكار المهلكة ولا تجعلوها

---

(1) ورد الاسم بالأصل الإسباني: Macer ومن الواضح أنّه أتى مصحفاً. ولقد رأيت الأقرب إلى Macer اسم: ناصر، أكثر من نصر، والله أعلم. (أحمد)

تسيطر على عقولكم. إنّ المملكة بحاجة إلى رجل موقف، سيد قوي شجاع ملك عظيم بين العظماء يحكمها بكل حرص ومقدرة، ويمكّننا من التّغلّب على الكفرة والأعداء. أنتم تعلمون عمّن أتحدث بالتأكيد، أنا أتحدث عن والي مالقة أبي عبد الله الزَّغَل الذي تمكّن من جعل الصّليبيين يرتعدون من ذكر اسمه على الحدود».

بعد سماع هذه العبارات صرخ كل أتباع الملك أبي الحسن: «يحيا ملكنا أبو عبد الله الزَّغَل، يحيا والي مالقة، نحن ننضوي تحت لوائك يا عظيم العظماء ونبايعك ملكاً علينا».

ما لبث كل شارع ودرب وكل مواطن بعدها يصرخ بالمبايعة عينها، وكذلك القادة في المعسكرين، واتفق أعداء الأمس على ملكهم الجديد وعلى إرسال بعثة إلى مالقة لإحضار أبي عبد الله الزَّغَل إلى المدينة وتعيينه ملكاً، بما أن أخاه أبا الحسن قد أصبح شيخاً لم يعد يستطيع تحمّل مسؤوليات البلاد. وأضافوا أنّ أبا الحسن قد وافق على هذا الأمر بإرادته الخالصة، وبأن عبد الله الصّغير أصبح منبوذاً من الجميع بسبب معاهداته مع الصّليبيين بعد أن وضع نفسه في إمرتهم. خرج الموفدون إلى مالقة فاستقبلهم أبو عبد الله الزَّغَل الذي تهيّأ لوصولهم بعد أن وصلته رسائل بهذا الشّأن وبالقرار الذي اتخذه المجلس. وعندما أعلن له الموفدون عن المهمّة التي أتوا من أجلها شكرهم أبو عبد الله الزَّغَل ونقل إليهم كل الامتنان والفخر كونهم شرّفوه باختياره، وقَبِل العرش الذي قُدّم له. وأخذ يعدّ العدّة للعودة معهم والخروج من مالقة برفقة جيش مرموق، منهم النّبيل رضوان بن أغاس الذي عيّنه وزيراً في غرناطة. عندما وصل عبد الله ورفاقه إلى سييرّا نيڤادا (شُلير) طالعهم 90 فارساً مسيحياً جاؤوا من الحمة Alhama للهجوم على الإمارة، فانقضّ عليهم المسلمون وذبحوهم حتى آخر رجل. وبعد هذا النّصر الكبير أكمل عبد الله وفرسانه طريقهم نحو غرناطة ودخلوها بكل فرحة المنتصر.

دخل أبو عبد الله الزَّغَل فوراً قصر الحمراء حيث استقبله شقيقه أبو الحسن

الذي سرّ للغاية وقام بقبول كل شروط عبد الله. بعد وصـول الملك الجديد فوراً خرج أبو الحسن من غرناطة مع حريمه وكل كنـوزه إلـى إيّـورا Íllora برفقة ابنه سيـدي يحيـى وسيـدي النيّار[1]، وتنحّـى عن العـرش بإرادته الخالصـة فـي العـام 889 للهجرة.

* * *

(1) يرد اسمه هنا: Cidi Alnahar على نقيض ما ورد أعلاه مطلقاً: نيّار. (أحمد)

الفصل الثّامن والثّلاثون

فتوحات الصّليبيين استمرار الحرب ضد المسلمين

استاء عبد الله الصّغير للغاية من الاتفاق الذي تم التوصل إليه بين الفرقاء، وحزن للغاية حيث لم يكن ليرضى بأيّ تنازل أو أي شرط قد يؤدّي إلى تقليص سلطته، فكيف إذا ما طُلب منه التنحّي عن العرش تماماً؟ اقترح عبد الله عمّه عليه أن يقوما معاً بحكم البلاد، هو في الحمراء والصّغير من البيازين على أن تقسم أقضية المملكة بينهما. وأضاف أنّ الهمّ الأكبر الذي يجب أن يفكّرا به في هذه الأثناء هو أمن البلاد، وإبعاد أيّة هجمات من الصّليبيين عليها، ومنع المملكة من الزّوال كون هذا أمر محتّم إذا ما استمرّت الحرب الأهلية.

غير أنّ هذا التّفكير المنطقي لم يعجب قط عبد الله الصّغير، فتظاهر بقبول ما عرض عليه عمّه، وأعلن عن اهتمامه بمصلحة الشّعب دون العمل جدّياً على أيّة نقطة وكأن وجوده مماثل لعدمه. عندها أُجبر أبو عبد الله الزَّغَل على طلب سليم صهره والي المَريّة Almería لمساعدته ضد ابن شقيقه عبد الله الصّغير وأتباعه للدّفاع عن الأرض ضد الأعداء. وكذلك أرسل إلى يحيى بن سليم والي وادي آش، وأعلن له الواليان عن استعدادهما لمساعدته لمصلحة البلاد ضد الملك الصّغير.

من جهته، أرسل الصّغير إلى ملوك الصّليبيين وقادتها على الحدود مطالباً مساعدتهم بعد أن تركه العديد من أتباعه، كونه على شفير الخروج من غرناطة. وبما أن الكفرة كانوا يرغبون في إبقاء شرارة الحرب الأهلية مشتعلة لما في ذلك من مصلحة لهم، وبما أنهم لم يكونوا قادرين على القيام بأيّة فتوحات جديدة، فلم يضيّعوا أيّ وقت

في تأمين قوة من الفرسان والجنود للصّغير. ومقابل العلاقات الطّيبة التي جمعته مع الأعداء، لقي أبو عبد الله الصّغير جفاءً من قبل الأعيان المسلمين، وقد ترك عدد كبير من الفرسان حزبه. حشد الصّليبيون قوّات كبيرة لمساعدة عبد الله الصّغير، هادفين الإبقاء على كل النّزاعات والتّناحر التي تدور في مملكته، وهمّوا بتدمير المسلمين، وسارت هذه القوة إلى إيّورا Íllora، وهي مدينة على تلال وعرة تطلّ على شطآن Zaduca. فحاصرت المكان وهاجمته بكل قواها وهدمت الأبراج، فذُعر السّكان من هذه الأدوات الحربية وطلبوا التّفاوض مع الغازي ووضعت شروط الاستسلام، ومُنح هؤلاء حق الخروج منها بسلام مع كل ممتلكاتهم، وكان قائد المدينة السّيد الفارس علي البازي. فتحت مدن أخرى في الإمارة أبوابها مثل كاثارا بونيلا Cazara-Bonela أمام الغازي المسيحي. غير أن فرسان أنتقيرة المجاورة قاموا بمحاربة الصّليبيين ودارت بين الجيشين معارك ضارية سقط فيها عدد كبير من الفرسان الشّجعان، وأُجبر المسلمون بسبب عدد المهاجمين الكبير على التّراجع والاحتماء في الجبال.

في صيف العام نفسه وخريفه هجم الصّليبيون على ڤيغا غرناطة، فقاموا بمذابح كثيرة وأحرقوا الحقول والبساتين والأشجار المثمرة، واجتاح الكفرة البلاد بعرضها وطولها. ومع اقتراب فصل الشّتاء وصل جيش كبير من الصّليبيين إلى مشارف مدينة سيتينيل Setenil الحصينة وحاصروها بكل قواهم ودكّوها بالأسلحة، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن تستسلم القلعة بعد أن فقدت الأمل بالمساعدة، واستطاع السّكان الخروج منها بكل أمان مع ممتلكاتهم تاركين المدينة بأيدي أعداء الله. في هذه الأثناء لم يعدل الملكان في غرناطة عن القتال لتدمير أحدهما للآخر، غير أن هذه المعركة للانتصار ولكسب العرش أدّت إلى خسارتهما المملكة بأسرها. ومن كان محازباً للصّغير اعتقد أنه ربح كونه كان مناصراً للمسيحيين، غير أنهم كانوا يخسرون يومياً الأراضي والأشجار المثمرة والغلال والمواشي التي كان يأخذها الغازي فقط لتوسيع مملكته، وليس لإعادتها إلى المسلمين.

أرسل الملك أبو عبد الله الزَّغَل مراسيل إلى أمراء أفريقيا وسلطان مصر طالباً

مساعدتهم ضد الصّليبيين الذين يغتصبون أراضيه ويقومون بالمذابح وغيرها من الويلات، ووصف لهم كل الشّرور التي ألحقوها بشعبه، مضيفاً أنهم لا يطمحون سوى لتدمير المملكة الإسلامية في إسپانيا. وأنهى قائلاً أنه يرجو من إخوانه في الإسلام مساعدته على حمل الأسلحة للمدافعة عن الإسلام. غير أنّ الأقدار شاءت غير ذلك، فلم يرسل أيّ منهم المساعدة إليه. اجتاح قادة الصّليبيين أراضي لوشة وحاصروا المدينة على الرّغم من الأمطار الشّديدة، وكانوا على وشك السّيطرة على المكان لولا وصلت فرق من المسلمين للدّفاع عن المدينة من غرناطة.

بعد هذه الحملة قرّر عبد الله الصّغير إخراج أبي عبد الله الزَّغَل من العاصمة، ودارت معارك ضارية بين القوتين في شوارع المدينة وساحاتها، وكانت مدعاة ذل لكل رجل. في هذه الأثناء قام الشّعب في المَريّة Almería بعد أن أثّر عليهم الملك معلناً أن الملك الصّغير عيبٌ على الإسلام ومن أبناء السّوء، وحدث الأمر عينه في مدينة وادي آش بتأثير من الملك يحيى بن سليم.

سيطر الصّليبيون في هذه الأثناء على حصن كوئين Cohin وقتلوا كل السّكان بعد أن قاتلوهم وانتقموا بدكّ كل أسوار بلدة كوئين وتهديمها، ثم عبروا نحو كارتاما Cartama التي أجبروها على الاستسلام بقوة السّلاح ثم مدينة رُندة Ronda وكانت مدينة تعصو على كل غازي كونها مبنية على صخور عالية ومحصّنة بنهر على ضفافه صخور صعبة، فدافعت المدينة عن نفسها وحارب شعبها بكل بسالة كونهم محاربين مخضرمين لهم خبرة في فنون القتال. حاصر الصّليبيون المكان وضيّقوا على أهله ولم يسمحوا بوصول أيّة مساعدة إلى شعب الإمارة، غير أنها كانت مستعدة تماماً وفيها كل أنواع المؤن، فلم يتمكّن المحاصرون من إحراز تقدم كبير، وما لبث الحصارأن اشتدّ.

كانت المعارك مستمرّة بين ملكي غرناطة وأُزهقت الأرواح وضاع الوقت ولم يأبها للحفاظ على قلعة مدينة رُندة الأهمّ والتي كانت حجر أساس المملكة. وفي أثناء حصار المدينة قام المدافعون بالعديد من الهجمات على المحاصرين وأوقعوا بينهم العديد من القتلى وهاجموهم ليلاً وفجأة، غير أنّ الصّليبيين المحضرين لهذا النّوع من

الهجمات نصبوا خمسة معسكرات وحاصروا المدينة من كل المحاور.

واستمرّت المواجهات في الليل والنّهار، ولم يتمكّن السّكان من الرّاحة. وبما أنهم فقدوا الأمل بكل مساعدة وأحسّوا بالخطر المحدق بهم أخذوا يفكرون بعقد اتفاق مع العدو بعد أن فقدوا العديد من رجالهم. بدأوا بالتفاوض[1] ووضعوا شروطاً مواتية وسلّموا المدينة المحاصرة للمسيحيين، وحدث ذلك في 23 من أيار من العام 1485 هـ[2]، فدخلها الكفرة واحتلّوا القلاع وأصلحوا الدّعائم والممرّات والأبراج وغيرها من الدّفاعات التي قاموا بتدميرها أو بإلحاق الضّرر بها أثناء الهجوم. وسيطروا في هذه الأثناء على مدينة مربيلة[3] Marbella السّاحلية.

احتمى الملك الصّغير في البيازين في غرناطة، وقام الصّليبيون بحمايته، وكان لديه أتباع كثر من عامة الشّعب والعمّال الذين أرادوا الاستفادة من الظّرف ومن الاتفاق المبرم بين ملكهم والصّليبيين، غير أن العلماء والفقهاء والقرّاء والقضاة كانوا ينبذون الملك واصفين إياه بالألعوبة بين أيدي العدو وأداة لتدمير بلادهم. وبالتّالي كان معظم الولاة والقادة وكبار الرّؤساء والجنود في غرناطة منضوين تحت لواء الملك أبي عبد الله الزَّغَل، غير أنهم كانوا يشعلون فتيل الحرب الأهلية في المملكة، وأدّوا بسبب خلافاتهم المتكررة وعداوتهم إلى تمديد الحرب الأهلية التي كانت تجتاح كل البلاد.

وصل نبأ زحف الصّليبيين إلى مدينة ڤيليث مالَقة Vélez–Málaga، وكان الرّؤساء

---

(1) بعد أن قام الصّليبيون بهدم العديد من المباني العامة والمنازل بالقنابل والعبوات النّاسفة التي استخدمت وفق الكاتب للمرة الأولى في مدينة رُندة Ronda على الرّغم من أن هذا الأمر غير مؤكد تماماً. وقد أدّت الأسلحة التي استعملت في هذه الحرب إلى إضعاف عزيمة حتى أقوى الفرسان، فقد ظنّ السّكان أن السّماء تمطر نيراناً، ودفعهم هذا الأمر إلى الاستسلام. وقد يرى البعض أن الأمر هذا كان متسرّعاً خاصة في ظل بسالة وشجاعة المقاتلين المدافعين عن المدينة. (فوستر)

(2) بالاستناد إلى ماريانا. (كونده)

قلت: والمؤرّخ هو خوان دي ماريانا (1535–1624) Juan de Mariana صاحب «تاريخ إسپانيا العام» الشّهير: *Historia general de España* المنشور بمدريد عام 1780.

(3) لفظها بالإسپانيّة: ماربيّا. (أحمد)

وفقهاء غرناطة يدركون أهمّية الحفاظ على المكان، فرجوا الملك أبا عبد الله الزَّغَل المضيّ بهدف تحريره، ورجوه أيضاً نسيان أمر الحرب الأهلية في هذا الوقت على الأقلّ، قائلين إنه عند خروجه لتحرير المدينة سوف يزيد من مكانته ومن قوة مركزه، فانساق الملك لمطالبهم وأعدّ العدة للقيام بالحملة. وقبل ترك غرناطة قرّر إبرام عقد مع ابن أخيه الملك الصّغير، وقام ببعض التنازلات، وبما أن الصّغير لم يكن أهلاً للثّقة فلم يستمع إلى أيّ من مطالب عمّه ولم يتمّ التوصّل إلى اتفاق، فأُجبر الملك أبو عبد الله الزَّغَل على المضي قدماً لتحرير شعبه في مالقة، وسار على رأس جيش كبير لمساعدته. قسّم الملك أبو عبد الله الزَّغَل هذا الجيش إلى فصائل متعدّدة، سار قسمٌ منها بقيادة رضوان بن أغاس ابن عمّه وقسم آخر بقيادته.

أغار الجيش الأول على معسكر الصّليبيين المنصوب أمام موكلين Moclín، وهي قلعة محصّنة تحاصرها القوات المسيحية، وساعدته في هجومه طبيعة أرض المدينة وعلوّ أسوارها وشعبها، فهاجم رضوان معسكر الأعداء ساعة الفجر بشراسة ولم يتمكّن الكفرة من الدّفاع عن أنفسهم، ففرّ بعضهم وهوى الآخر تحت سيوف المسلمين.

أراد الملك الصّغير من جهته أن يبرهن لشعبه أنه قادر على الدّفاع عنه، فحشد قوة كبيرة وعقد العزم على مساعدة المسلمين في مدينة لوشة. في هذه الأثناء سيطر الصّليبيون على قلعتي كامبيل والباهار الذي يفصل بينها نهر فريو (البارد) بعد أن أخفق المسلمون في الدّفاع عنهما. خرج الملك الصّغير من المدينة وسار نحو لوشة والمعسكر الذي يحاصرها، ولم يكن فيه قوّات كثيرة للدّفاع. عندما علم الصّليبيون بأنّ أبا عبد الله الصّغير في لوشة عقدوا العزم على إضعافه دون إضاعة الوقت، فبعثوا بالدّعم لقواتهم المرابطة في المكان. سار الصّغير على رأس جيش من 15,000 نفر من الفرسان لوقف زحف الأعداء، وانتظر هؤلاء في ممرّات صخرية وعرة، غير أن جيشه هذا كان أشبه بمتدرّبين لا مقاتلين مخضرمين ولم يتمكّن من فعل أي شيء. فعاد إلى المدينة التي دخلها الصّليبيون من الضّواحي، وخسر المعركة واضطرّ للاحتماء

داخلها، فدمّر العدو الجسور وأجبروا فرسان لوشة على وقف الهجمات وهاجموا الأسوار ودكّوها بالكامل.

مخافة من الوقوع مجدّداً بين أيدي الأعداء أو الحلفاء المزعومين، طلب الملك الصّغير إجراء مفاوضات سمح بموجبها للمسلمين بترك المكان بأمان حاملين كل مقتنياتهم. واستسلمت المدينة للميسيحيين. اعتذر الملك الصّغير من الصّليبيين لما اقترفه، وللعهد الذي نكله معللاً أنه أقدم على ذلك مُكرهاً لأنّ أتباعه أجبروه على ذلك. وأكّد لهم أنّه ضمنياً لم يكن ينوي القيام بذلك، وأن ما قام به ليس عمل نكث أمانة أو ثقة بل فعل اضطراري. وبما أن الصّليبيين أرادوا الحفاظ على العلاقة بين الصّغير وبينهم، فقد تظاهروا بتصديق مزاعمه، فكظموا غيظهم وحقدهم، وحرصوا ألا يُعكّر صفو الاتفاق بينهم وبين الملك المسلم حيث أن هدفهم الوحيد كان تدمير المسلمين.

بعد السّيطرة على لوشة، تابع الصّليبيون زحفهم نحو مدن أخرى من الإمارة. أُجبر الملك أبو الحسن الذي لجأ إلى إيّورا على الفرار من وجه العدو، فاحتمى في المُنكّب Almuñécar ومات هناك بعد ان استسلمت المدينة. ويقول البعض إنّ وفاته جاءت على يد أخيه أبي عبد الله الزَّغَل، غير أن الله وحده يعلم الحقيقة فهو العليم بكل الخفايا. تمكّن الصّليبيون في هذه السّنة من إحراز تقدّم هائل، وسيطروا على عدّة مدن منها لوشة وإيّورا، وكانتا دعامتين أساسيتين في غرناطة، وعلى الزّهراء وبانيوس Baños وغيرها من المدن. عاد الملك أبو عبد الله الصّغير بعد إطلاق سراحه إلى غرناطة، وانتهز فرصة غياب عمّه للدّفاع عن بلاده في ڤليش مالقة، فسيطر على القلاع كلها واتّخذ من الحمراء مقرّاً له.

* * *

الفصل التاسع والثّلاثون

استسلام مدن عديدة مسلمة ووقوعها في أيدي الصّليبيين

بعد النّصر الذي حققوه في موكلين Moclín بقيادة رضوان بن أغاس، سارع القائد بأمر من أبي عبد الله الزَّغَل إلى مساعدة شعب ڤيليث مالقة Vélez–Málaga بعد أن هاجمه الأعداء بكل شراسة بالأسلحة الثّقيلة. وزحف أبو عبد الله الزَّغَل بدوره على رأس قوة لمساعدة القائد بعد أن علم أنّ هلاك المدينة سوف يؤدي إلى انتهاء المملكة بأسرها. كان جيش عبد الله مؤلفاً من 20,000 جندي وفارس، كما حشد من بين السّكان قوة بعدد مماثل. هاجم رضوان بن أغاس معسكر الصّليبيين مع فرسانه وقتل كل من وقع عليه نظره، غير أن زحف رضوان البطيء وبعد الجيوش المسيحيية حالت دون نصره. فلم تكن إرادة الله أن يكسب المسلمون هذه المعركة أو أن تصل إلى نهاية. وعندما وصلت جيوش عبد الله إلى الميدان هاجمتهم قوة كبيرة من الجيوش المسيحية جُمعت من كل أنحاء الإمارة وانقضّت عليهم كالوحش الكاسر، فهُزم لكون معظم المقاتلين إلى جانبه دون خبرة، وبالتالي قاموا بالفرار للاحتماء، ولم يكن أيٌّ منهم قادراً على مواجهة الجيش المسيحي.

حارب رضوان بن أغاس كاللّيث طوال اليوم، غير أنّ البلبلة ألمّت بصفوف المسلمين، فجمع ما بقي من قواته وانقضّ على المدينة ممّا أعطى دفعاً لجيش ڤيليث مالقة. بعد هذه الكارثة عاد الملك أبو عبد الله الزَّغَل إلى غرناطة مع بعض الفرسان الذين بقوا من قواته، وبما أن العديد من الفارّين وصلوا قبله ناقلين خبر الهزيمة، فقد ثار السّكان وتركه حتى من وقف في السّابق إلى جانبه وانضمّ إلى فريق عبد الله

الصّغير. أقفل السّكان أبواب المدينة بوجهه ومنح الجميع الولاء لعبد الله الصّغير فعاد الملك ومن تبعه إلى مدينة وادي آش التي اعترفت به ملكاً مثل بسطة Baza والمَريّة Almería واستقبله الوالي سليم وابنه يحيى واليا هاتين المدينتن.

حارب المدافعون في مالقة الأعداء بكل قوة، وهاجمهم رضوان بن أغاس في معسكرهم ليلاً على حين غرّة فأوقع عدداً هائلاً من القتلى ونشر فيه الدّمار. ولكن على الرّغم من شجاعته وتخطيطه كان من المتوقع سقوط المكان، فنصحه القادة والأعيان ممن رافقوه بإجراء مناقشات مع الغازي وعرضوا عليه التفاوض مع كونت ثيفوينتِس الذي ربطته به علاقة صداقة عندما كان أسيره في غرناطة. فتمكّن سكان ڤيليث مالقة من الخروج بكل أمان مع ممتلكاتهم واستسلمت المدينة للمسيحيين في 27 أكتوبر من العام 1487 م.

بعد مضي وقت قصير على استسلام ڤيليث مالقة، عملت مدينة بينتومِه Bentome المحصّنة بالمثل، ممّا أجبر مدينة مالقة على الاستسلام بعد أن رأت الخطر المحدق بها. وكانت مالقة مدينة رائعة قديمة أثرية ساحلية تطلّ على البحر وكأنها جنّة على الأرض، بنيت فيها عمارات رائعة الجمال بمعظمها على سهل تعلوها قلعتان هما جبل فارو Gebalfaro والقصبة وفيها تلال وحقول وبساتين كرمة ومرافق لترفيه السّكان. قام القائد ابن موسى خوفاً من جيش الكفرة بتدعيم دفاعاته وجيشه فحشد فرقه من الجيوش الأفارقة الأقوياء والشّجعان والشّرسين. وكان ابن موسى مقاتلاً بارزاً شجاعاً ونسيب الملك أبي عبد الله الزَّغَل وباسلاً، فحاصره الصّليبيون وسرعان ما فكّر بالمعاهدة غير أن الأفارقة البربر الذين شكّوا في أن المفاوضات السّرية قد تؤدّي إلى ضررهم ودمارهم واعتبروا أن الغموض الذي لفّ تلك المفاوضات ما هو إلا لتسليمهم للمسيحيين، سيطروا على القصبة وقتلوا كل جنودها.

حاول ابن كماشة[1] Aben Conixa الذي فقد أخاه في هذه المعارك إرجاع القوات الأفريقية إلى صوابها، غير أنه فشل فقد سيطروا على المدينة وعلى كامل

(1) يرد الاسم هنا بالإسپانيّة مغايراً للفظه المفترض. (أحمد)

أسوارها وأبوابها ولم يسمحوا أن يتحدّث أيّ من سكان مالقة بهذا الأمر وأن يصل إلى الصّليبيين وإلا قتل. خرج الصّليبيون من معسكرهم وبدأوا بحصار المدينة وحفروا الآبار وزنّروها بالحفر والدّشم من كل صوب، وحاولت قوات المسلمين ردع هذه الأمور يومياً ووقف تقدم الصّليبيين، فهاجمتهم مرات عدة فجرحت أعداداً هائلة منهم وزُرع الذّعر في قلوب الآخرين، ودامت هذه المحاولات طوال مدة الحصار.

بعد وقت، وبما أن المدينة كانت مكتظّة بالسّكان لم يتمكّن أهلها من الحصول على مؤن إضافية وبدأ الإحساس بالجوع يضرب الشّعب، ولم يعد بمقدور الأغنياء تحمّل الحرمان فقرّروا سراً إيقاف عذابهم عن طريق إعلان استسلام المدينة، وكان المحرّض الأساسي لذلك علي دردوش Aly Dordux وهو تاجر ثري فتمكّن من الوصول إلى معسكر الصّليبيين وقدم لهم عرضاً للاستسلام. غير أن ملك قشتالة رفض كل الشّروط وطلب أن يستسلم له كل شعب مالقة، وأمر علناً الموفد بحمل هذه الرّسالة وصرفه من حضرته، وأعطى علي دردوش مبلغاً كبيراً من المال شرط أن يساعده الأخير في السّيطرة على مالقة، وبما أن مصلحة الفرد كانت تطغى على مصلحة العامة وسلامة السّكان، فقد نقل علي للشّعب ما قاله الملك، غير أنه ساعد الصّليبيين سرّاً في السّيطرة على القلعة.

دبّ الذعر في قلوب السّكان، فاعتبر البعض أنّ دخول الصّليبيين جاء بمكيدة، وآخر أنه نتيجة اتفاق أو عمل جبان، وسرعان ما تحوّلت مخاوفهم إلى واقع مرير، حيث نهب المسيحيون كل ممتلكاتهم واعتقلوا العديد من المدافعين عن المدينة الذين لم يتمكّنوا من الفرار عبر البحر، بيد أنّ عدداً منهم تمكّن من الحفاظ على حياته. رأى أغنياء مالقة كل ثرواتهم تذهب أمام عيونهم ولم يتمكّنوا من فعل أي شيء، ووقعوا تحت ظلم العدو ما عدا علي دردوش الذي عيّن والياً على المدينة لتحصيل جزية من كل فرد أراد الحفاظ على حياته وتسليمه للملك المسيحي. وهكذا استسلمت مدينة مالقة الجميلة وأصبحت تحت سيطرة الملك المسيحي، وذلك في 18 من أغسطس 1487[1].

---

(1) هذا وفق ماريانا Mariana، غير أن السّنة الفعلية كانت 1488. (كوندِه)
قلت: هو خوان دي ماريانا صاحب «تاريخ إسپانيا العام».

كما سبق أن ذكرنا، كان الملك أبو عبد الله الزَّغَل قد احتمى في وادي آش وأوقع الذّعر على حدود مُرسية، وساعده سليم والي المَريّة Almería في هجماته على الأعداء في مُرسية. غير أنّ القائدين كانا يحاربان كلٌّ لمصلحة خاصّة. في هذه الأثناء كان عبد الله الصّغير يرسل هدايا ثمينة لملك قشتالة آملاً بالحفاظ على علاقات صداقة معه، ومنها أحصنة عربية أصيلة وأسلحة وأقمشة مزركشة للملوك، وأقمشة من الحرير وخيوط الذهب والعطور الشّرقية للملكات. وهنّأ الملك عبد الله دون فرناندو لسيطرته على مالقة وكل فتوحاته الأخرى، معتقداً أنه بذلك سوف يحمي أراضيه. وفرح الملكان المسيحيّان[1] لكل هذه الهدايا والكلمات، غير أنهما أكملا ما خطّطا له وفق ما جاء على لسان المؤرّخين القدماء. وكان هدفهما تدمير إمارة المسلمين وإنهاء سيطرتهم على إسپانيا، وازداد إصرارهما على ذلك.

بعد سقوط مالقة وغيرها من المدن كان ملك قشتالة متشوّقاً للوصول إلى أهدافه والسّيطرة على كل المدن المتبقية من الإمارة في غرناطة. فسار أولاً نحو المَريّة وحارب المسلمين فيها لوقف الهجمات على حدوده، غير أن الأمير سليم وابنه السّيد يحيى واجهاه مع فرسانهم فأُجبر الملك المسيحي على التراجع. وقام الملك أبو عبد الله الزَّغَل من جهته بالزّحف نحو إمارات الحدود، خاصة قلعة يحصب Alcala Yahseb، فقطع الحقول وأحرق كل الغلال وأخذ المواشي والقطعان وعاد عودة المنتصر إلى مدينة وادي آش. اهتم الملك المسيحي بالحرب التي شُنّت ضدّه على محور المَريّة، فحاصر ڤيرا Vera وهي مدينة ساحلية، حيث استسلم الشّعب خوفاً من بطش الملك وتفادياً للحرب الضّارية التي قد تقع. وهكذا كان في موشاكتاس Muxactas وبلد الأحمر Velad Alahmar وغيرها من قلاع الإمارة التي تركت دون جنود.

وقد ساعد الصّليبيين في السّيطرة على هذه المدن الخوف والذّعر الذي دبّ وزُرع في قلوب السّكان المسلمين بعد أن علموا بسقوط مالقة ورُندة Ronda. وفقد الشّعب الثّقة بملكه وكان بلا أيّ أمل للفوز على العدو الغازي، فلم يحاول الدّفاع عن نفسه، وكان جلّ ما أراده حماية حقوله وغلاله.

---

(1) هكذا يشير باقي المؤرّخين إلى الملكين فرناندو وإيزابيل. (فوستر)

حاصر الصّليبيون قلعة تابيرنا Taberna العصيّة وهاجموها ليلاً نهاراً، فسارع الملك أبو عبد الله الزَّغَل الذي كان في وادي آش إلى حماية المكان برفقة قوة من 1000 فارس وجنود مشاة من أبناء جبال السّييرّا، ولم يكن معهم الأسلحة الكافية بل كان الغضب والشّجاعة يملآن قلوبهم. تمركز الملك مع هذه القوة في الحقول وأوقع العديد من الخسائر في صفوف الصّليبيين، ووقعت مذابح ضارية وملأ الدّم المكان، فتقلّص عددهم إلى حدّ كبير وأُجبروا على رفع حصارهم عن تابيرنا، وجعلهم أبو عبد الله الزَّغَل يهربون نحو الحدود، فاستعاد كل المدن التي أخذوها في هذه المقاطعة. وكان الأمر عينه لأعداء الله في وشقة Huesca وڤيغا Vega وبسطة Baza حيث أجبرهم فرسان المسلمين على الهرب بعدما ألحقوا بهم الهزيمة. وقد قُتل في أحد المذابح القائد الأكبر لمونتيسا Montesa، وهو ابن أخ ملك قشتالة.



الفصل الأربعون

استسلام مدينتي وادي آش والمريّة

بعد أن علم الصّليبيون أن نجاح عملياتهم مبني على الملوك المسلمين وعلى الفتن التي تنمّيها الأحقاد، أخذوا يفكرون كيف يبثّون فتيل الحرب فيما بينهم، فأرسلوا إلى ملك غرناطة رسائل مقترحين عليه شروطاً للاتفاق وعارضين قواتهم لمساعدته على الانتصار على أعدائه والمدافعة عن أراضيه، ومن أحد الشّروط كان استسلام مدن وادي آش وبسطة والمَريّة (التي كانت تحت إمرة أبي عبد الله الزَّغَل وسليم)، إما عن طريق معاهدة أو بقوة السّلاح وأن يسيطر عليها الصّليبيون. وتعهّد دون فرناندو في حال حدث هذا الأمر إغراق ملك غرناطة بالثّروات والهدايا، وضمان أمنه وسلامته كونه تابعاً من أتباع الصّليبيين.

وبما أنّ عبد الله الصّغير كان معمي البصيرة ولا قوة له، فقد وافق على هذا الإذلال وعلى الاقتراح ووقّع معاهدة السّلام بلا قيد ولا شرط. وقام بكل ما طالب به الأعداء دون أن يشكّ لحظة أنهم سوف يقومون بتجريده كما فعلوا مع غيره من كل أراضيه. وكان شعب أبي عبد الله الزَّغَل يحقد عليه يوماً بعد يوم ويكرهه بسبب عدم قدرته ومنفعته واصفاً إياه بالألعوبة بين يدي الملك المسيحي، ومتهمين إياه بالعميل الخائن بالنّظر إلى معاهدته مع الصّليبيين الكفرة وبالمسلم الفاسق. وفي حال علم الشّعب بالمعاهدات الأخيرة لكان قطّع ملكه إرباً وأحرقوه حياً، غير أنها بقيت سرّية ولم يعلم أحد بوجودها إلا السّلطانة الأم والوزير موسى بن عبد الملك Muza Ben Almelic الذي رجا الصّغير لتوقيعها. وعوّل المسيحيون على الخوف الذي يعيشه عبد الله

الصّغير من عمّه ومن أنصاره، وعلى أن يتقدّم نحو غرناطة خاصّة بعد الانتصارات في بسطة ووشقة Huesca وخلعه عن العرش. فقبل عبد الله بكل شروط الملك المسيحي وعمل بناء على طلب دون فرناندو على إلهاء عمه ليتمكّن المسيحيون من دخول بسطة والمَريّة ووادي آش.

وكان أبو عبد الله الزَّغَل في وادي آش عندما وصله نبأ عقد ابن أخيه معاهدات جديدة مع ملك قشتالة، وبأن الأخير عازم على مساعدة الصّغير لمهاجمة أراضيه مجدّداً. وعلم أنّ دون فرناندو حشد جيشه في جيان Jaén المؤلف من 50 ألف جندي و12 ألف فارس من المخضرمين وزحف معهم نحو كوخار Cujar المحصّنة وهو في طريقه لمحاصرة مدينة بسطة. فأرسل أبو عبد الله الزَّغَل إلى سيدي يحيى بن سليم والي المَريّة، وكان سليم انتقل إلى رحمته تعالى، ولم يكن يحيى يودّ الهلاك لشعبه أو الدّمار لمدينته، فجمع قواته المؤلفة من 10 آلاف مسلم باسل من كل أرجاء المملكة وانقضّ على مدينة بسطة للدّفاع عنها. تقع بسطة Baza على منحدر، ويقع جزء منها في السّهل وكانت محصّنة بالأسوار وأيضاً أماكن أكثر انخفاضاً فيها منازل للسّكان. وكان في المدينة مؤن كافية فأعطت القوة التي وصلت عزماً للسّكان وثقة.

عندما نصب الصّليبيون معسكرهم، سار سيدي يحيى لمواجهتهم مع نخبة من الجنود والفرسان وانقضّ عليهم بكل وحشية ودارت بين الجيشين معارك طاحنة دامية هُزم فيها الصّليبيون وعمّت البلبلة صفوفهم ولاحقهم المسلمون نحو خيامهم فذعروا وهلعوا وافترشت جثثهم المكان. هاجم المسلمون معسكر العدو يومياً وذبحوا الكثيرين وفاجأوا آخرين وزرعوا الذعر بينهم، فقام الأعداء للانتقام بحرق الحقول والبساتين ممّا جعل قلوب مالكي هذه الأراضي تعتصر حزناً.

بما أن الدّفاع عن المدينة كان شرساً وبما أن قوة الصّليبيين كانت يوماً بعد يوم تقلّ والجثث في صفوفهم تسقط بالمئات بسبب الهجمات ليلاً نهاراً، قرّر الصّليبيون دعم معسكرهم، فحفروا الجباب العميقة والحفر والأنفاق حتى مشارف المدينة ومداخلها ودعموها بالقلاع في كل صوب، فتمكّنوا بالقيام بذلك من إيقاف هجمات المدافعين

الشّجعان الذين زرعوا الرّعب في قلوب الصّليبيين والقلق حتى أنهم لم يتجرّأوا على مواجهة المسلمين أو التقدّم ضدهم.

مضت ستة أشهر على هذه الغارات، عندها أرسل يحيى إلى عمّه أبي عبد الله الزَّغَل طالباً مساعدته السّريعة لتجنّب سقوط بسطة Baza بين أيدي الأعداء، وأرسل موفداً إلى معسكر الصّليبيين الشّيخ حسن Xeque Hassan حاكم مدينة بسطة محمّلاً إياه رسالة لبدء المفاوضات مع الملك المسيحي. شعر الملك عبد الله بالأسى بعد أن وصلته رسائل ابن عمّه يحيى الذي كان يكنّ له كل احترام وتقدير، ليس فقط بسبب رابط القرابة الذي كان يجمع بينهما، بل أيضاً بسبب كل مزاياه وشجاعته في الحروب وفي الدّفاع عن المدينة. وبما أن قواته غير كافية للدّفاع عن المكان، وبما أن لا أمل له بوصول أيّة مساعدة من غرناطة بما أن ابن شقيقه عبد الله الصّغير قد عقد معاهدة مع الصّليبيين، فقد ردّ عليه سائلاً إياه بدء المفاوضات لاستسلام المدينة بأفضل شروط يمكنه الحصول عليها. شعر شعب بسطة بالأسى والحزن من هذا الرّد ودبّ في صفوفهم الرّعب واليأس وعلت صرخات النّسوة.

كان القائد حسن في هذه الأثناء منشغلاً في معاهدة الاستسلام التي سيعقدها مع الملك المسيحي دون غوتييه كارديناس Gutier Cardenas الفارس المسيحي المفوّض بهذا الأمر من قبل ملك قشتالة. سار سيدي يحيى مع بعض فرسانه نحو معسكر الصّليبيين، وقدّموا أنفسهم للملك المسيحي الذي استقبلهم بكل حفاوة تليق بالملوك والفرسان. وقد أسرت محبّة هؤلاء الملوك قلب يحيى، فقطع عهداً بعدم حمل سيفه ضدّهم أبداً للنّبل والشّهامة اللذين صدرا منهم تجاهه. وبالتالي قام الصّليبيون بتقديره وأغدقوا عليه الهدايا الثّمينة والعائدات. دهشت ملكة قشتالة لشهامة يحيى وذوقه، وأعلنت أنها مستعدّة لقبوله بين أتباعها وأنها بذلك سوف توقف الحرب على غرناطة. وعدها السّيد يحيى النّيار بن سليم Yahye Alnayar Aben Zelim أنه سيقوم بكل ما بوسعه لجعل الملك أبي عبد الله الزَّغَل يسلّم مدن وادي آش والمَريّة عن طريق المفاوضات السّلمية لتفادي دمار الإمارات والمذابح وويلات الحرب الأليمة.

مقابل هذه الخدمات التي ستقدّم لملوك قشتالة، قُدّمت للأمير وكل ورثته ممتلكات في الإمارة، وأعطي فوراً قضاء مَرشينة Marchena ومدنها وأراضيها وأتباعها. وقال البعض إنّ الأمير يحيى قد اعتنق الدّيانة المسيحية بعد أن أقنعته الملكة بذلك، غير أنه أبقى هذا الأمر سرّياً لكي لا يخسر أتباعه ولكي لا يتركه هؤلاء حتى ينهي الصّليبيون حملتهم التي أرادوا القيام بها لمساعدته.

ذهب يحيى النّيار إلى مدينة وادي آش بعدها، وعقد لقاءً مع الملك أبي عبد الله الزَّغَل الذي كان في المدينة. وعرض عليه الوضع الذي آلت إليه المملكة وكيف أنها ستسقط حتماً، وناشده قبول شروط الصّليبيين كونهم يعقدون العزم على المضيّ بالحروب وذبح السّكان، وكونه لا يملك السّبيل لمواجهتهم. ورجاه أن يثق بعدل وكرم ملك قشتالة، مؤكداً له أنه لن يتمكّن من مواجهة القوة العدوّة، ومعيداً إلى ذاكرته كيف أنّ شعبه قد تخلّى عنه، وأيضاً كل ما قاله المنجّمون لأخيه أبي الحسن حول المصير الشّؤوم الذي يلفّ الملك الصّغير منذ مولده. وفي حال ظنّ البعض أن نُذر السّوء هذه قد ولت عندما قاد حملته على ليسانة Medina Lucena، فيظن الآخر أنّ نجمه مشؤوم وأنه سريعاً ما سيفقد منصبه. وأنهى قائلاً إنّ إرادة الله ومشيئته أن يؤول عرش غرناطة إلى ملوك الصّليبيين الأقوياء كون الله قد أعطاهم غيره من العروش في إسبانيا، وكون الله يريدهم أن يسيطروا عليها كلها. غرق الحضور في صمت مهيب بعد ما تلفظ به يحيى، ولم يُدلِ أبو عبد الله الزَّغَل بأيّة كلمة ولم يرفّ له جفن وكان يستمع بكل إنصات إلى أقوال يحيى. وبعد أن وصل حديث الأخير إلى نهايته، عمّ الصّمت المكان ولم يتلفّظ أيٌّ منهما بعبارة واحدة. وفي لحظة واحدة هبّ أبو عبد الله الزَّغَل صارخاً بصوت كسر الصّمت المهيب قائلاً: «اللّهم سبحانه، أدرك الآن أن مشيئة الله فعلاً هي هذه، وبما أن إرادة الله يجب أن تطبّق فعلينا إذن القيام بها، فلو لم تكن هذه إرادة الله ولم يكن يرغب في سقوط غرناطة عزّ وجلّ، لكان ساعد هذه اليد وهذا السّيف».

وقرّر الأمراء حضور اللقاء بين أبي عبد الله الزَّغَل وملوك قشتالة، وذهب الجميع

لهذا الغرض نحو معسكر الصّليبيين في أراضي المَريّة Almería. استقبل دون فرناندو الأمراء المسلمين بكل احترام ووضع شروط استسلام المَريّة ووادي آش، وضمّت العديد من التلال في غرناطة إلى المعاهدة بما أنها على السّاحل وتحت إمرة الملك أبي عبد الله الزَّغَل. وقدّم الملك المسيحي لعبد الله للتّعبير عن امتنانه قضاء أندرش Andarax ووادي الحورين Alhaurin، بما في ذلك القرى والمزارع وغيرها من الأراضي مع نصف ساليناس Salinas de Maleha وهو ثمن زهيد لقاء شراء المملكة المسلمة. وتقرّر أن يترك لأهالي وادي آش والمَريّة وبسطة كل ممتلكاتهم وأراضيهم، وأن ينعموا بما كما قبل الاستسلام والحصار، ولكن بصفتهم عبيداً وأتباعاً للملك في قشتالة، واشترط أن يدفعوا له أموالاً. وأصبحت هذه الشّروط علنية عندما دخل الأعداء المدن المذكورة.

لم يتمكّن المسلمون أو الصّليبيون من تصديق ما حدث، وكأنه حلمٌ، وذُهل سكان الإمارات من الاستسلام المروّع لقلاعهم القوية، وبالكاد صدّقوا ما حدث لجيرانهم. وسُرّ سكان هذه المدن لأنهم لم يقعوا تحت وزر الحرب وويلاتها، ولم يُخفوا هذا الأمر ونصحوا سكان المدن القوية الأخرى القيام بالمثل، وبالفعل قامت كل من مدن سيرون وتابيرنا بالاستسلام بإرادتها وقلعة المُنكَّب Almuñécar وشلوبانية (سالوبرينيا) Salobreña السّاحليتين. ووقعت هذه الأحداث كلها عام 896 هـ[1] خلال شهري محرّم وصفر.

* * *

(1) عام 1490-1491 للميلاد. (كونده)

الفصل الحادي والأربعون

استمرار الفوضى في غرناطة

وصلت هذه الأنباء إلى غرناطة، وعُلم أمر الاستسلام هذا بكل أسى، وكان حقد السّكان وعصيانهم على ملكهم عبد الله الصّغير ينمو يومياً، وكانوا ينظرون إليه على أنه سبب كل هذه الشّرور وحمّلوه مسؤولية انتهاء حكم المسلمين وسلطتهم في إسپانيا. وكان حقدهم له ينمو ويكبر ولم يتوانوا عن القول علناً إنّه خائن وجبان وبأنه عديم الإيمان. وكانت كلمات مثل تلك تتناقل على الألسن ولم يُخفِ الشّعب غضبه وثار، وسارت جماهير غفيرة إلى القصر وعلت صراخات الحقد والتّهديد، حتى ظنّ البعض أن الشّعب لن يهدأ إذا لم يحصل على مطالبه، أي تنحّي الملك عن عرشه أو قتله. ولولا تدخّل بعض الشّيوخ والفقهاء من غرناطة لكان هذا الأمر حدث لا محالة. فقد رجا بعض الشّيوخ والأعيان ممّن أرادوا الحفاظ على السّلام الشّعب بالعدول عن مطالبه بالنّظر إلى كل الويلات التي ألمّت بالبلاد بسبب الأحقاد الأهلية وكل المذابح، وذكّروهم أن الأمم تسقط بسبب الفوضى التي تعمّ في صفوف أبناء الشّعب الواحد، وأنهوا حديثهم قائلين إنّ الحل الوحيد لإنهاء هذه الخلافات هو الاتحاد للسّلامة العامة، ولإعادة الأمن للمملكة والحفاظ على قوتها.

وفي حين حاول هؤلاء التّخفيف من الخطر الدّاخلي المحدق بالبلاد، لم يفكّر أتباع الملك أبي عبد الله الزَّغَل سوى بتدمير الآخرين، فبعثوا مراسيل إلى الصّليبيين على الحدود مطالبين مساعدتهم كأصدقاء وحلفاء لواليهم. ولم يدع الكفرة هذه الفرصة تفلت من بين أيديهم، فأرسلوا قواتهم إلى ڤيغا ودمّروا كل ما صادفوه وأحرقوا

الأراضي، وأصبحت المدينة وكأنها صحراء قاحلة. غير أنّ نبأ هذه الكارثة أحدث تأثيراً كبيراً على شعب غرناطة عند سماعه، وكان له صدى أكبر من كلمات التعقّل التي كان يقولها لهم الشّيوخ والفقهاء الذين تمكّنوا حتى السّاعة من احتواء غضب النّاس الذين اجتمعوا حول القصر، وتمكّنوا من إنقاذ الصّغير من براثن الغضب المحدق به.

وأصبحت الضّرورة ملحّة الآن لكي يدافع المسلمون عن أنفسهم، فعُقدت هدنة داخلية وتوقّف غضب الشّعب. أرسل ملك قشتالة رسائل إلى عبد الله الصّغير بعد أن علم بأنباء الفوضى في غرناطة، مذكراً إياه بالمعاهدة التي وقّعها معه، وبكونه وافق أن يكون تابعاً لملك الصّليبيين، مطالباً إياه بتسليمه مدينة غرناطة ما أن يسيطر على وادي آش وبسطة والمَريّة التي كانت تحت إمره عمّه أبي عبد الله الزَّغَل، إما عن طريق المفاوضات أو بقوة السّلاح. أحسّ عبد الله الصّغير في هذه اللحظات بما أتت به يداه وشعر بالشّرّ الذي عرّض له بلاده، فأرسل للملك المسيحي معتذراً لعدم تمكّنه من إتمام رغبته وفق شروط المعاهدة، وأبلغ دون فرناندو أنّ هناك عدداً من الأعيان وأصحاب النّفوذ لن يستسلموا، ولن يعمل على إقناعهم بذلك، ورجا الملك بالاكتفاء بما قام بفتحه حتى السّاعة وبانتصاراته التي ساعده فيها.

في هذه الأثناء، كان شعب وادي آش قد أُخرج من المدينة حيث أجبرهم الصّليبيون على العيش في الضّواحي، فأعربوا عن عدم رضاهم، وتحوّل ذلك إلى ثورة بعد أن قرّر الكفرة تجريدهم من سلاحهم خوفاً من أن يرفعوه ضدّهم. ولكن جيش الصّليبيين كان قوياً للغاية. والأمر عينه حدث في أندرش Andarax حيث ثار الشّعب ضد ملكه أبي عبد الله الزَّغَل وكانوا ليذبحوه لولا أنّه هرب في الوقت المناسب، فلجأ إلى الملك المسيحي الذي أمّن له الحماية والمساعدة على ردع المتآمرين، غير أن عبد لله قرّر أن يترك البلاد بما فيها من ويلات والخروج إلى مكان آمن لينهي فيه حياته، ولم يعارضه الملك المسيحي بل أعطاه الحرية للخروج إلى أي مكان يختاره ويراه أفضل لمصالحه، فخرج الزَّغَل نحو أفريقيا بعد أن باع ساليناس وبعض الأراضي الأخرى التي يملكها إلى صهره يحيى النّيار ابن الوالي سليم.

وباع عبد الله المدن الثّلاث والعشرين التي استلمها من ملك قشتالة مع مقاطعة أندرش Andarax ووادي الحورين لقاء خمسة ملايين درهم، وحصل على العديد من الهدايا القيّمة وترك أرض إسپانيا. امتعض الملك المسيحي للغاية من الاعتذارات التي أعطاه اياها ملك قشتالة، فقرّر أن يدفع أهالي غرناطة الثّمن غالياً لقاء جُبن ملكهم وعدم طاعته، كون الشّرط الأول لإطلاق سراحه أن يكون عبد الله الصّغير من أتباعه، لكن الملك المسيحي أدرك الآن أن عبد الله قام بالوعود فقط لحماية رأسه ليس إلا. فأعلن الحرب على غرناطة وشعبها.

بقي عبد الله الصّغير يأمل بالدّفاع عن المملكة بعد أن تمكّن من إبعاد كل أعدائه الآخرين من والده وعمّه وكل الأمراء، فحشد كل قواته وطالب الدّفاع عن المدينة ضد المحتلّ المغتصب المسيحي. وأمر الفقهاء والعلماء وكل الخطباء بدعوة الشّعب إلى الجهاد المقدّس في سبيل الله للدّفاع عن أمة الإسلام والمسلمين. ولم يكن هذا القرار غير حكيم، فقد هبّت كل الشّعوب المسلمة هبّة واحدة ضد الصّليبيين في الأقضية التي سيطروا عليها، وسار الجميع وراء راية الجهاد التي رفعها الصّغير والحرب باسم الدّين، فحمل كل سكان المناطق المنكوبة المسلمين السّلاح بوجه العدوّ، وفعلت بالمثل مدينة العذرة Adra السّاحلية وكاستيل Castil-Ferruh وغيرها من المدن.

وسار الصّغير من إمارته على رأس جيش كبير من المشاة والفرسان، وألقى حصاراً على شلوبانية (سالوبرينيا) Salobreña وهاجمت قواته الهودين Alheudin وسيطر عليها، وأمر بأن تقطع رؤوس كل المسيحين وهدم القلعة، وحدث هذا في خريف العام 896 هـ[1].

أرسل المسيحيون الدّعم إلى قوّاتهم لمهاجمة أراضي غرناطة وللثأر لأنفسهم لقاء المهانات والويلات التي ألحقها بهم الصّغير، فاجتاحوا البلاد بطولها وعرضها وأحرقوا الزّرع ودمّروا البساتين وأحرقوها وأبادوا المحصول المُزمع حصده هذا الموسم قبل أن يتمكّن أي فرد من إنقاذه. ووصلت قوة كبيرة من الجنود المسيحيين

(1) العام 1491. (كونده)

لمساعدة مدينة شلوبانية، في حين كان المسلمون الذين تمكّنوا من السّيطرة على العذرة محاصرين من قبل الأمير النّيار ابن سيدي يحيى وحفيد الوالي سليم اللذين أعربا عن ولائهما التّام للملوك الصّليبيين، واستخدما سلاحهما في وجه أمّتهما عوضاً عن الأعداء فعملا على تدمير مملكة الإسلام. وأمر والده سيدي يحيى الذي عيّن قائداً على الجيش المؤلف بغالبيته من المسلمين، أتباعه بالزّحف نحو سواحل المنصورة Almanzora وأقضية مَرشينة، وحالفهم الحظ في مهمتهم هذه عن طريق الخداع والإقناع لا قوة السّلاح.

وبالطريقة عينها قام الولد بإضعاف المتآمرين في منطقة عذرة وقد أخفى عن سكان المدن أنّ سفنه كانت من فيلق الصّليبيين، ووضع عليها الرّايات الخاصة بالأفارقة وقد ألبس كل البحارة والجنود لباس المسلمين. وبما أن سكان عذرة كانوا يتوقعون وصول المساعدة من أفريقيا وبعد أن طالعتهم هذه السّفن التي تحمل الرّايات قاموا بمنحها كل الأمان وأدخلوها موانئهم فاحتلّوا المرفأ على الفور. من جهته وصل والد النّيار سيدي يحيى إلى الجهة المقابلة مع قواته، فعلم السّكان بالمكيدة التي وقعوا فيها وحاولوا الدّفاع عن المدينة، ولكن بعد فوات الأوان. فهاجموا المعتدي بكل بسالة وقاتلوا بإصرار، غير أنهم هزموا وذُبح الكثير منهم وأجبروا إلى الانكفاء داخل الأسوار حيث قاموا بتدعيم ذاتهم بأفضل ما أمكنهم. كان الملك عبد الله الصّغير في هذه الاثناء منهمكاً في السّيطرة على شلوبانية، لكنه لم يضع الوقت وهبّ مسرعاً للدّفاع عن عذرة، غير أنه عندما وصل على مقربة من المكان وصلته الأنباء غير السّارة أن العدو كسب المعركة فيها. وبما أنه علم أنّ المدينة سوف تستسلم قبل أن يتمكّن من الوصول إليها، عاد نحو المكان الذي انطلق منه لإكمال حصاره.

في عذرة اتُّهم الملك بأنه لم يقم بالهجوم لمساعدة أبناء شعبه، وذاع هذا الأمر بين أبناء شعبه وفقد المدافعون الأمل في وصول أي نوع من المساعدات له، فعقد العزم إلى اللجوء للتفاوض واستسلم بأفضل الشّروط التي تمكّن من الحصول عليها كما فعلت القلاع الأخرى. في هذه الأثناء تمكّن الصّليبيون المحاصَرون في شلوبانية من

إبلاغ ملك قشتالة بما يصيبهم، فأمر دون فرناندو أن يهبّ جيش باسل لمساعدتهم على الفور، ولكن قبل وصول طلائع هذا الجيش إلى الإمارة وصلت أنباء قدومهم إلى عبد الله الصّغير، فأزال حصاره بسرعة وعاد إلى غرناطة، وفي طريق عودته قام بمحاولة لإبادة قضاء مَرشينة، فسار ضده القائد الذي كان يحمي المكان لعمّه، غير أن الصّغير تمكّن من الفوز وأجبر القوات على تسليم المكان وجعله كالصّحراء القاحلة. ودمّر الحقول والبساتين وأحرق القرى، وذلك كما قال للانتقام من الأمراء الذين ألحقوا العار بالإسلام وبأعداء الأمة. وعندما انتهى من الثّأر عاد إلى غرناطة بكل كِبَر وعلوّ.



الفصل الثّاني والاربعون

حصار مدينة غرناطة – استسلام المدينة

في ربيع العام 897 هـ، تجدّدت كل ويلات الحرب في غرناطة وعانى منها الشّعب الذي كان تحت حكم الصّغير، حيث دخل الملوك الصّليبيون البلاد على رأس قوة من أربعينٍ ألف جندي وتقدموا نحو فحص (مرج) ڤيغا غرناطة ونصبوا معسكرهم في مكان أُطلق عليه اسم الينابيع الذي يبعد على أكبر تقدير 8.4 كلم عن المدينة. دبّ الذعر في قلوب السّكان عندما علموا أن الكفرة على أبواب مدينتهم، حتى أشجع الجنود منهم اقشعرّ خوفاً وارتعدت النّفوس من الآتي.

جمع الملك عبد الله الصّغير مجلسه في قصر الحمراء، واستشار الشّيوخ والقادة حول أفضل السّبل للدّفاع، فأبلغه الوزير أبو القاسم عبد الملك بوضع المدينة فيما يتعلّق بالمؤنة دون أن يتم احتساب ما يملكه الأغنى من القوم أو التّجار المرتبطين بالإمارة، وقدّم له سجلات حول كلّ الشّباب الذين يستطيعون حمل السّلاح. وقال الوزير إن الشّعب كثير ولكن ما الذي سنقوم بفعله للجماهير وأيّ غرض بإمكانهم القيام به ما لم يكن منحنا الحماية؟ في وقت السّلم يقوم هؤلاء بتلويح أيديهم ويرقصون فرحاً، غير أنهم في زمن الحرب يختبؤون في المنازل يرتعدون؟ أو يأكلون المؤن التي يفترض أن تكون قوتاً لمحاربينا.

أجابه القائد موسى بن أبي الغزاني[1] Muza Ben Abil El Gazani قائلاً: «لا

(1) هكذا يرد الاسم في الأصل الإسپاني، ومن الواضح أنّ فيه نقصاً حول كنية أبيه. وليس في المصادر العربيّة المنشورة ذكر لهذا البطل العظيم وأعماله، ومصدرنا الوحيد حوله حتى الآن

حاجة لإشعال فتيل الفتنة داخل صفوفنا ومواردنا، ففي حال قمنا بتوجيه الشّعب جيداً بحكمة ودهاء سوف يكفي الأمر لجعلهم من المحاربين، فنحن لا نملك فقط خيرة من الفرسان والجنود في الأندلس، بل عشرين ألف شاب من أبناء شعبنا في عز الشّباب سوف يظهرون أعمالاً بطولية في زمن الحرب، ولن يحاربوا بأقل من الفرسان المخضرمين، وسوف يواجهون الغازي بصدورهم كأشجع الجنود».

ثم قال الملك عبد الله لشيوخه: «أنتم درع المملكة، فبكم وبأمر من الله عزّ وجلّ سوف نتمكّن من الانتقام من كل أعداء الأمة الإسلامية الذين ألحقوا بها الأذى. سوف ننتقم لما حلّ بإخواننا وأنسبائنا ونسائنا، أعدّوا العدّة لهذه الحرب وفق ما يمليه عليكم ضميركم وحكمتكم، ففي أيديكم أمنها وسلامتها وخلاص الجميع».

سارع الشّيوخ إلى إعطاء الأوامر المطلوبة، وفُوّض إلى الوزير أمر جمع المؤن والأسلحة وإعطاء التّوجيهات لانخراط الشّعب في المقاومة وفق الجداول التي بحوزته. وعُيّن القائد موسى بن أبي الغزاني قائد القوات، وأوكل إليه مهمّة الدّفاع عن المدينة وحمايتها من هجمات الصّليبيين مع فرسانه. وكان نائبه نعيم بن رضوان ويليه محمّد بن زائدة[1] Zayde مع عبد الكريم الثّغري Zegri وغيرهما من القادة، أوكلت إليهم مهمة حراسة الأسوار في كل المدينة. وتُرك أمر حماية قلعتي القصبة والحمراء إلى القادة الذين كانوا يدافعون عنها في السّابق.

في الأشهر الأولى من السّنة، لم تقفل أبواب المدينة الأساسية وتم الحفاظ على أمنها كلها بفضل حرص ودراية القائد موسى. في كل يوم كان 3 آلاف فارس يخرجون للمشاركة في الهجمات والمعارك مع الصّليبيين في الصّفوف الأمامية، ولحماية

هو كتاب كوندِه هذا. وهو يسمّيه: موسى بن أبيل الغزاني، وقد ترجم الاسم الدّكتور محمّد عبد الله عنان وكل من تبعه: موسى بن أبي الغسّان، بينما ينصّ كوندِه بوضوح: الغزاني El Gazani. وكان من عادة الإسبان أن يستخدموا الأسماء المختصرة، كما نرى هنا: ابن أبيل (أي ابن أبي الـ)، وكتسميتهم لأبي عبد الله محمّد الحادي عشر الصّغير: أبو عبديل Boabdil. وعلى ذلك يبقى اسم البطل النّبيل موسى في علم الغيب. (أحمد)

(1) كذا تبيّن لي الاسم كما يكتبه كوندِه بالإسبانيّة، والله أعلم. (أحمد)

قافلات المؤن التي كانت تصل من التلال. عين القائد موسى لهذا الغرض محمّد زاهر ابن العطار Muhamad Zahir Ben Atar الذي أوكلت إليه مهمة حماية هذه القوافل، فسار نحو الجبال مع 1500 جندي وقاتل الصّليبيين الذي كانوا يحاولون دخول المقاطعة. حارب هؤلاء بالقرب من پادال Padal وفقد العديد من زهرة شباب الفرسان حياتهم في هذه المواجهة، وأضعافهم من الصّليبيين التي بقيت جثثهم في السّاحة. وقام المسيحيون بقطع الحقول وبحرق البساتين لمنع وصول المؤن للمسلمين، ودارت في القرى هذه معارك ضارية ودامية مات فيها الكثر.

ولم ينعم الصّليبيون بالرّاحة، فقد كان القائد المقدام موسى وفرسانه ينقضّون عليهم دائماً بكل عزم وإصرار، فأرعبوا العدو ونحروا جنوده بالحراب وتركوا جثثهم على مقربة من الخيام في المعسكرات. وقدّم القادة المسلمون الآخرون أمثلة عن البسالة. دفعت هذه الهجمات المتتالية والمعارك الطّاحنة والمستمرّة التي دارت بين المسلمين – وكانت أعدادهم وفيرة – والكفرة بشكل مستمرّ، دفعت المسيحيين إلى بناء سور حول معسكرهم وكأنه لم يكفِ، فقد عمدوا إلى حفر الخنادق العميقة حوله أيضاً، وكانت هذه الأشياء تشكّل حمايات كبيرة، وبالتّالي لم يرفع المسيحي الغاصب حصاره، عوضاً عن اشتباك الفرسان ببسالة في ساحة القتال للحفاظ عليه.

عندما شاهد القائد موسى بن أبي الغزاني هذا الفعل[1] أعرب للملك الصّغير عن رغبته في مقاتلة أعداء الله في داخل معسكرهم. وفي يوم من الأيام خرج من المدينة وسار نحو المعسكر ساعة الفجر مع عدد كبير من الجنود المشاة التابعة له وسط أصوات الأبواق والطّبول المدوية.

(1) لا يذكر الكاتب العربي الجهود التي بذلها القائد موسى لتدمير القوات المسيحية بعد أن علم التكتيك الذي يخطط له الملك فرناندو وبعد التّحصينات التي أحاط بها المعسكر، وقد يظهر عند قراءة النّص أنهم قاموا بذلك بين ليلة وضحاها وأنه لم يعلم بها إلا حين رآها. ولم يكن الكاتب يودّ هذا، حيث أنّ المؤرّخين الإسپان يصرّون على الموضوع وعلى أن القائد موسى قد أتمّ واجباته كافة كما كان ليفعل أي قائد متمرّس غيره. (فوستر)

لم يرفض له المسيحيون هذه المعركة كما في أوقات سالفة، فأصبح المعسكر ساحة حرب دارت فيه أشرس المعارك وأكثرها ضراوة، غير أن جنود المسلمين لم يتمكّنوا من مواجهة الجيش المسيحي المنظّم، فعادوا أدراجهم فارّين نحو المدينة ولحق بهم الغازي المسيحي وسيطر على كل عددهم ومعدّاتهم حتى مسافة قريبة من الأسوار وأبواب غرناطة.

ثارت ثورة القائد العظيم موسى وكاد أن يفقد الأمل، فعاد إلى المدينة مصاباً كليث أدركته طعنة. وأخذ على نفسه عهداً بعد ذلك بعدم التّعرّض وجهاً لوجه لأيّة قوات مع جنود المشاة[1].

في هذه الأثناء، كان المسيحيون قد سيطروا على قلاع المراقبة[2] حيث رابطت قواتهم من أقدر المقاتلين المحترفين في فنون القتال كافة. فأمر موسى بن أبي الغزاني أن تقفل أبواب المدينة من جهة الڤيغا بما أنه فقد الثّقة بالجيوش المشاة التي حمتها في السّابق وفي قدرتهم بالدّفاع عنها. أدّت الغارات التي قام بها العدو على قوافل المؤن إلى إضعاف الإمارة، وبدأ العوز والشّح يظهران، وكان المسيحيون شديدي الرّقابة وحذرين ومنعوا كل المحاولات للملمة الجراح، ولم تنجح كل المحاولات التي جرت لإبعاد ويلاتهم. ضاق ذرع الجماهير الغفيرة، حيث أن الشّعب لم يتعوّد على مثل هذا الحرمان والقهر، فنقلوا كل مخاوفهم إلى أبي القاسم عبد الملك الذي نقلها بدوره إلى الملك الذي تفهّمها وجمع مجلس الشّيوخ والأعيان وكبار القوم، وأبلغهم هؤلاء أن الشّح وإنهاك القوى التي أصابت الإمارة تجعل من المستحيل استمرار المقاومة، وبأن الصّليبيين عنيدون، وقد أصبح من المؤكد أنهم عاقدو العزم

---

(1) هذا النّجاح العسكري قد أثبت وجوده في الآونة الأخيرة كما يعلم القارىء دون شك، وقد تبيّن في سياق النّص أنّ الجنود المسلمين المشاة لطالما كانوا السّبب وراء هزيمة المسلمين، وخيّبوا آمال قادتهم ولعل ذلك يعود إلى الاهتمام الشّديد الذي كان يوليه هؤلاء بالفرسان وبمعنوياتهم ممّا دفعهم إلى التّغاضي عن تعبئة المشاة كما ينبغي. (فوستر)

(2) قلاع المراقبة وقد تمت الإشارة في هذا السّياق على أن قلاع المراقبة التي في الڤيغا أكثر تحصيناً. (فوستر)

على عدم ترك المعسكر وفكّ الحصار إلا عندما تستسلم المدينة[1].

وأضافوا قائلين: «إما أن نقبل الاستسلام ونحمي الجراح التي ألمّت بنا، أو نرتضي الموت». وقع رأيهم هذا على الملك الصّغير وقوع الصّاعقة ولم يتلفّظ بأيّة كلمة، وكان كل المجتمعين فيما عدا القائد الهمام مستعدين لفتح سبل الحوار مع الصّليبيين لضمان حياتهم. وأصرّ القائد موسى على وجود فسحة من الأمل، وأضاف أن الاستسلام ما هو سوى الحلّ الأخير في الأزمات. وقال إن الموارد لم تنضب بعد، وقال إنّ الشّعب لم يقم بأيّ مجهود بعد لمملكته، وطالب بعدم اللجوء إلى التفاوض إلا بعد استنزاف كل القوة وكل سبل الدّفاع وبعد فقدان الأمل، وأكّد للملك أنه يعدّ للعدو أسوأ ثأر.

هذا كان رأي الذي أعلن عنه القائد موسى بن أبي الغزاني، غير أنّ رأي المعارضين كان سيّد الموقف وتقرّر أن يمضي الوزير لعقد شروط للهدنة مع الصّليبيين. خرج هذا الرّجل العجوز النّبيل إلى معسكر الصّليبيين الذين استقبلوه بكل احترام، وبدأت المفاوضات بين الطّرفين ودارت سجالات عديدة ومداولات. وأخيراً تم التوافق على أنه في حال لم تصل أيّة مساعدة إلى ملك غرناطة في غضون شهرين من البحر أو البر ابتداء من السّاعة، سوف يقوم بعد انقضاء هذه المدة بتسليم قلعتي مدينة غرناطة إلى ملك قشتالة، وكل أبراجها وحصونها. وأن يحلف الملك عبد الله وجميع أتباعه وقادته قسماً بالولاء للملك المسيحي علناً ليصبح معلوماً من كل سكان المدينة وأن يعلنوا أنّه سيّدهم وملك عليهم. كما يجب أن يطلق سراح كل الأسرى الصّليبيين من المدينة دون أيّة فدية، وأن يوضع 300 شاب من أعرق عائلات غرناطة في هذه الأثناء

---

(1) أشار المجتمعون بالتأكيد في هذا السّياق إلى إنشاء مدينة سانتا فيه Santâ Fè (شنتفي) التي بدأ الملك المسيحي بناءها داخل المعسكر، وكان السّبب الدّافع إلى ذلك كما يعلم القراء بالتأكيد وكما يقول المؤرخون الإسبان، أن الملكة إيزابيل قبل وصولها إلى مشارف غرناطة كانت في المعسكر مع السّيدات والحريم حين قامت إحدى الجواري عن غير قصد بإضرام حريق في خيمتها، فأعربت إيزابيل عن رغبتها في إنشاء مدينة لتفادي مثل هذه الحوادث، واختارت لها اسم سانتا فيه بنفسها وبدأت الأعمال لبنائها. (فوستر)

بين يدي الملك المسيحي حتى إطلاق سراح أسراه، على أن تتم هذه الشّروط خلال 12 يوماً من تاريخ توقيع المعاهدة.

وقرّر الملك المسيحي أن تمنح بعض الأقضية Taa إلى الملك عبد الله الصّغير لتمكينه من العيش كالملوك، وقد اختار لذلك أراضيَ في مقاطعة البشرات Alpujarras. وأضيف إلى ما تم ذكره أعلاه الآتي: يسمح لجيمع المسلمين في غرناطة البقاء في منازلهم والتمتّع بجميع مقتنياتهم دون أيّ تدخل أو إزعاج ولا يحرمون ابداً من أراضيهم أو من ثرواتهم، ولهم الحرّية المطلقة في ممارسة ديانتهم علناً أو سراً، على أن يتم الإبقاء على الجوامع كافة، وأن تكون لهم الحرّية للصّلاة والقيام بطقوسهم الدّينية أياً كانت كما جرت العادة، وأن يبقوا على لباسهم الشّرعي وعلى لغتهم وأن يحكموا وفق أحكام الشّريعة الخاصّة بهم، ولهم قادة من سلالاتهم، على أن يقوم هؤلاء بمهامهم تحت إشراف وطاعة الصّليبيين وكحكّام لديهم. ولم تُفرض عليهم مبالغ غير تلك التي تسدّد وفق السُّنّة Sunna والشَّرع Xara التي كانت تُدفع لملكهم وتقرّر أن يتم إعفاؤهم خلال ثلاث سنوات تلي المعاهدة من أي مبلغ.

هكذا تمّ إبرام الاتفاق على هذه المعاهدة بين أبي القاسم عبد الملك وزير قُرطُبة، وغونثالو[1] دي كوردوبا Gonzalo de Cordova أحد كبار قوّاد ملك قشتالة، والكاتب فرناندو دي ثافرا Catib Fernando de Zafra، ووقّع الطّرفان على شروطها، وخرج كل منهم لتوديع الآخر بعد أن تعهّد الطّرفان بالالتزام بها. وكان هذا يوم 22 من محرم من العام 897 هجري الموافق 25 من نوفمبر 1491 وفق التقويم الغريغوري أو الميلادي.

* * *

(1) أو غنصلة كما يسمّى باللّهجة العربيّة في الأندلس. (أحمد)

الفصل الثّالث والأربعون

كيف تلقّى شعب المدينة خبر المعاهدة وشروطها - الخطاب الرّائع الذي ألقاه القائد موسى بن أبي الغزاني - زوال المملكة الإسلامية في إسپانيا

عندما عاد الوزير عبد الملك إلى غرناطة وأبلغ الحضور عن شروط المعاهدة لم يُخفِ الجميع دموعه، ما عدا القائد الأبيّ الباسل موسى بن أبي الغزاني الذي تمالك نفسه وخطب بالجمع قائلاً[1]:

«دعوا البكاء للنّسوة وللأولاد يا رجال غرناطة، فنحن رجال لا جبناء، في قلبنا عنفوان وإباء لا نبكي بل نبذل دماءنا في ساحات المعارك حتى القطرة الأخيرة. دعونا نمضي بقوّة سواعدنا وإيماننا ونواجه الكفرة بصدورنا كالرّجال. هيا لنمُت في ساحة المعركة موت الأبطال لا الجبناء. أنا مستعدّ للسّير في الطّليعة ولقيادتكم يا إخواني في الدّين، أتقعدون عن الموت في سبيل الله؟ أتقعدون عن الموت في ساحة القتال؟ أفضل لنا ولآخرتنا أن نكون من الشّهداء من أن نكون في عداد الجبناء الذين تركوا بلدهم للغازي دون حول ولا قوة واختبأوا في بيوتهم. لكننا إن لم نكن نملك القوة الكافية، وخذلتنا كل القيم والأخلاق التي تعتمل داخلنا وتدفعنا إلى المحاربة حتى آخر قطرة دماء عن أعراضنا وموطننا، فلنستمع إذن إلى ما يمليه علينا قلبنا في الصّميم وإلى الصّوت الذي بداخلنا نحن الرّجال، وعندها من كان منكم مستعدّاً لإحناء رأسه

---

(1) النّص هنا منقول عن ترجمة كونده بالإسپانيّة، وليس بفحواه الحرفي بالعربيّة كما هو بالأصل. والسّبب ضياع المخطوط الذي نقل عنه كونده أخبار غرناطة في أيّامها الأخيرة، مع بالغ الأسف. لكنّ هذا يجعل من كتابه الذي ننشره اليوم مصدراً أصيلاً في مادّته، ويحلّ محلّ الأصل الضّائع إلى أن تجود بمثله الأيّام. (أحمد)

فليفعل وليكن عبداً للآخرين. أرى أن عزيمة الشّعب قد نضبت وخارت، أرى أن قلوبهم ملأها الأسى ولم يعد هناك من أمل للمفرّ من خسارة المملكة. بل هناك ملجأ واحد، فحاشى لله أن يقال إنّ أشراف غرناطة تقاعسوا عن حمايتها من الهلاك، وأنا أفضّل الموت حرّاً على العيش عبداً».

«أيظنّ أيٌّ منكم أنّ الصّليبيين سيدعوكم تعيشون بأمان وسيحترمون الشّروط التي وعدوا بها؟ أتظنون أنّ ملكهم الذي قادهم إلى هذا الفوز سيكون رحيماً بالأمة المسلمة؟ كونوا أكيدين أنه لن يقوم بذلك. لا تخدعوا أنفسكم، فالمسيحي ما إن يطأ المملكة حتى يقوم بشفاء كل غليله، وصبّ كل حقده لإشباع رغبته بالانتقام. سوف يلحق بكم العار وسوف تذلّون على أيديهم. سوف يتنهكون حرمة مساجدنا وينهبون بيوتنا وينتهكون حرمة نسائنا وبناتنا، ويسيطرون علينا ويستعبدونا يا أمّة المسلمين. سوف يجمعون جثثنا في السّاحات العامة أو يحرقوننا أحياء[1] وسنرى كل هذه الأمور بأعيننا، ولا أعتقد أن هناك من يودّ رؤية هذا المنظر، أمّا أنا فوالله لن أراه».

ثم نظر إلى من حوله قائلاً: «إنّ الموت على كل منّا حقّ، فلماذا إذن لا نبادر إلى الموت شهداء؟ يا رجال الإسلام هيّا ننتقم لأنفسنا ولأمّتنا قبل فوات الأوان. يا إخواني يا ملسمي إسبانيا هلمّوا بنا نحمي حريتنا، هيّا نحمي أعراضنا. أين نخوتكم؟ هيا نموت بشجاعة عوضاً عن الموت قهراً، لنفترش الأرض بأجسادنا، وإن لم نجد لنا على الأرض قبراً سوف تفتح لنا الجنة أبوابها. معاذ الله أن يكون شعبه جباناً».

ثم سكت موسى وكلّ من حوله أيضاً، وساد جو من الإحباط على الشّيوخ وعلى الفقهاء والقادة ولم يتجرّأوا على النّظر بعينيه، فأدار ظهره وخرج. ويقال إنّ القائد

---

(1) كانت محاكم التّفتيش قد أسّست في إشبيلية عام 1480 م، وكان المكتب المقدّس قد شرع في ممارسة سلطاته الكارثيّة في العام التّالي حيث أحرق 7 يهود أحياء في السّاحة العامّة، ولذا فإنّ لدى موسى سبباً لكي يعي هذا الأمر ويحذّر أبناء بلده من محاكم تفتيش الغزاة المسيحيين. (دي مارلِس De Marles)

الباسل ذهب إلى منزله وهناك امتطى حصانه وأخذ سلاحه وخرج نحو بوابة إلبيرة، ولم يرَه بعد ذلك أحدٌ قطّ[1].

بعد خروج موسى ساد صمتٌ رهيب على القاعة التي اجتمع فيه الملك وأتباعه، ثم تحدّث الصّغير قائلاً إنّ الشّجاعة والقلب لمواجهة عدوّ قوي بهذا الشّكل غير موجودة في المملكة، وأضاف أنه لا يرغب أن تُهرق دماء أبناء شعبه الذي جهد للحفاظ على رفاهه في ساحات القتال، ولن يحتمل سماع الأنين والصّراخ. وبما أن كل الموارد قد تقلّصت ولم يعد بالمقدور انتظار أيّة مساعدة، فمن الأفضل العمل بما ورد في المعاهدة. وكان الوزير في هذه الأثناء وكل الأعيان يخافون ردّ فعل الشّعب، وكانوا يهابون أن ينتفض بعد سماع أقوال موسى القائد وأن يتم ذلك قبل استسلام المدينة. فنصحوا الملك الصّغير أن يكتب على الفور إلى ملك قشتالة يبلغه عن مخاوفه من أيّة ثورة شعبية لتجنّب أيّة مشاكل الكلّ بغنى عنها. فقبل الملك بهذا وعمل كما أشار له الأعيان والوزير، وبما أن ما يجري هو مشيئة الله، فقد أعلن أنه لن ينتظر حلول الأجل المذكور في المعاهدة بل سيسرّعه، وقرّر أن تستسلم المدينة وأن يعطيها للملك المسيحي في اليوم التالي.

خرج يوسف بن كماشة[2] Juzef Aben Tomixa وزير الصّغير مع خمسة جياد عليها أفخر الأقمشة المطرّزة والأسلحة الرّائعة نحو المعسكر المسيحي، وسلّم ملك قشتالة الرّسالة التي حمّله إياها الصّغير، ففرح فرناندو للغاية بها، وردّ بالمقابل أنّ

---

(1) هذا كلّ ما ينقله خوسيه كوندِه عن هذا البطل الكبير موسى، وبالتّالي لا نعلم ما آل إليه مصيره، لكنّ مؤرّخاً إسپانياً هو أنطونيو أغاپيدا ينقل روايةً مهمّة عن استشهاده في معركة مع خمسة عشر مقاتلاً من الإسپان، وبعدما أفنى معظمهم وأُثخن بالجراح وخارت قواه ألقى بنفسه في نهر شنيل ليموت شهيداً حرّاً كريماً. ونقل هذه الرّواية واشنطن إرڤينغ في كتابه *Conquest of Granada* الفصل 97. (أحمد)

(2) تسمّيه بعض المراجع العربيّة المستندة إلى من نقل عن كوندِه: ابن كماشة، مع العلم أننا لا نمتلك تواريخ عربيّة معاصرة لسقوط مملكة غرناطة، ويبقى كوندِه فيمن نقل عنهم هذا التّاريخ الثّمين بمثابة أهمّ المصادر المتبقية، وقد باد أو اختفى قسم من مخطوطات دير الإسكوريال التي ترجم عنها. ولدى كوندِه يرد الاسم بالإسپانيّة: طُميشة Tomixa. (أحمد)

كلّ ما سيطلبه ملك غرناطة نافذ. ثم أعاد دون فرناندو الوعود التي قطعها لسلامة القوم ورفاهه، وللصّداقة التي تجمعه مع عبد الله الصّغير، وأكد له أن كل الأراضي في پورشينا ودالياس وڤيرسا ومارشينا (مَرشينة) وفولودوي ولوتشار وأندرش وشوڤيلس وشيشار وجوبيليم وفيرّيرا وپوكَيرا وأورغيبا هي حقٌّ له بكل ما فيها من امتيازات وحقوق وملكيات. كما منح الملك عبد الله عائدات أخرى للحفاظ على مملكته وأعطى الوزراء أيضاً الامتيازات والحقوق ولكل القادة الكبار. وميّز من بينهم يوسف بن كماشة ويوسف بن أغاس Juzef Ben Egas. وأكّد الملك المسيحي للسّكان الأمان وحرّية ممارسة ديانتهم وطقوسهم وتقاليدهم وفق الشّريعة. وطلب أن توضع الأوراق التي كتبت عليها شروط المعاهدة بين يدي عبد الله أو بين يدي أيّ من الأشخاص رفيعي المستوى الذين يختارهم وفق رغبة المسلمين. وحدث هذا عام 891 هـ في الرّابع من شهر ربيع الأول[1].

ثم طلب الملك عبد الله أن تخرج عائلته من المدينة مع بزوغ فجر اليوم التّالي والتّوجّه نحو البشرات Alpujarras، وأرسل معها الكنوز وكلّ المقتنيات الثّمينة من القصر الملكي. وأصدر أمراً لوزيره ابن كماشة لتسليم القلعة في هذا اليوم المشؤوم إلى الصّليبيين.

حلّت ساعة القضاء المحتوم، وقرعت أصوات الطّبول والأبواق وسُمعت خطوات الجنود المسيحية، وعلم الجميع أن الكفرة يقتربون من المدينة للقتال، فخرج الملك عبد الله مع 50 فارساً لاستقبال الصّليبيين، وعندما تلاقى الملكان أراد الصّغير أن ينزل عن جواده، غير أن الملك المسيحي لم يرضَ بذلك، فتقدّم وقبّل المسلم يده اليمنى، ونظر إلى الأرض وقال بكل أسى وحزن: «نحن وكل أتباعي أتباعك الآن. أنت الملك العظيم والمملكة كلّها تحت قدميك. نحن نثق برأفتك ورحمتك وكرمك». ثم سلّم الوزير للملك مفاتيح المدينة.

---

(1) العام 1492 للميلاد. (كوندِه) – ووفق بعض المؤرخين الإسپان كان يوم 2 أو 3 أو 4 من يناير. (فوستر)

حَضَنَ ملك قشتالة الملك عبد الله، وحاول مواساته لمصابه الأليم، مؤكّداً له رابط الصّداقة الذي جمع بينهما سيستمرّ الآن ولم تعد تمنع منه الحروب التي دارت، وطمأنه أنه سيعيش بكل أمان. خرج عبد الله ولم ينظر إلى الخلف واتجه نحو الأراضي الجديدة التي أعطيت له للانضمام إلى عائلته. دخل القادة الصّليبيون برفقة الوزيرين إلى المدينة، وسيطروا على قلعة الحمراء أولاً ثم البيازين والقصبة، ومرّت الجنود الكافرة في المدينة دون أن يكون في شوارعها أيّ رجل، حيث احتمى السّكان داخل البيوت للنّدب على مصيرهم. ثم سارعوا في رفع راياتهم، وعبروا كل القلاع والأسوار والحصون واحتلّوها، وعينوا عليها قادة من قبلهم.

قدم القادة الكبار أنفسهم إلى كونت تِنديّا Conde de Tendilla الذي عُيّن قائداً على غرناطة، وأظهر لهم كل تقدير واحترام، ثم جالوا في المدينة مع الملك المسيحي كما يفعل الأتباع مع حاكمهم. ثم دخل ملوك قشتالة إلى المدينة المحتلّة بأنفسهم وعينوا حاكماً عليها السّيد يحيى بن النّيار بن إسماعيل، وأعطوا إمرة السّواحل لابنه. وكانت هذه الأمور من المكافآت التي حصل عليها الخونة لبلادهم، وكذلك مُنح أبناء عبد الحسن بن إسماعيل الثّروات والأراضي التي حرموا منها أبناء شعبهم وأمّتهم.

عندما وصل الملك الحزين عبد الله إلى پادول Padul أدار رأسه ونظر للمرة الأخيرة إلى المدينة، إلى مدينة غرناطة، وقال بكل أسى: «الله أكبر» فأجابته والدته قائلة: «إبكِ مثلَ النّساءِ مُلكاً مُضاعاً ... لم تحافظ عليه مثلَ الرِّجالِ». وأُطلق على المكان الذي وقف فيه وقال هذا الكلمات اسم: «الله أكبر»[1] "Fey Allah hu Akbar". أمّا الوزير ابن كماشة الذي رافق الملك والسّلطانة، فقد نظر إليهما وقال: «لا عليك يا مولاي، واذكر أنّ المُصاب الفادح والكبير إن تحمّله المرء بصبر وثبات يمنحه صيتاً حسناً كما هو الحال في رغد العيش والهناء». فأجاب الملك الحزين: «أين تراه يكون مصابٌ كمُصابي هذا يا وزيري؟».

* * *

(1) يُعرف ذلك المكان الذي وقف فيه بالإسبانيّة إلى اليوم: *el último suspiro del Moro* «زفرة العربي الأخيرة». (أحمد)

وهكذا انتهى حكم المسلمين في إسبانيا في الخامس من ربيع الأول من العام 897 هـ الموافق للعام 1492 ميلادي. وعاش الملك عبد الله بعد ذلك بأسى وحزن شديدين، ولم يتمكّن من تحمّل الوضع الذي وضع فيه ولم يتمكّن من التكيّف معه ومن العيش كالإنسان العادي، وقام كل من كان برفقته من القلّة التي تبعته بكل ما بوسعها لجعله يعاف الدّنيا. حتى أن الوزير ابن كماشة عرض على ملك قشتالة شراء الأقضية التي أعطيت لعبد الله في پورشينا دون استخارة ملكه أو استشارته ودفع ثمنها 8 آلاف دوقيّة ذهبيّة وحملها إلى الملك عبد الله الذي كان آنذاك في أندرش، ونصحه بالعبور فوراً من الأراضي التي حكمها في الماضي إلى أفريقيا. وقام أيضاً أنسباء ابن أبي الحسن وأصدقائه المقرّبون بطعنه في الظّهر كما فعل ابن كماشة.

وبما أنّ الكلّ أصبح ضدّه، وبما أنه أصبح دون أيّ حول ولا قوة بعد أن أدار له الكلّ ظهورهم، خرج عبد الله الصّغير إلى أفريقيا برفقة عائلته، ووصل إلى مدينة ابن عمه مولاي أحمد العام 898 هـ الموافق للعام 1493 ميلادي، بعد أن اعتُبر جباناً كونه لم يدافع عن مملكته فخسرها. وبدلاً من أن يقضي نحبه في الدّفاع عن أراضيه، مات في ساحة المعركة عند محاولة الدّفاع عن أراضي الغرباء حيث شارك في معركة Bacuba على ضفاف نهر وادي Gadisuelda حيث كان نسيبه مولاي أحمد ابن مريني ملك فاس يحارب، وكانت هذه مشيئة الله.

فسُبحان الله الذي خرّ لسلطانه له كل الملوك، معطي القدرة والنّعمة والعظمة والقادر على كل شيء، المذلّ والمُعزّ كما يشاء، إنه العدل الحكم الباقي المتحكّم بعباده، وهو بكلّ شيء عليم.

* * *

طرفة نادرة

بعد أن سقطت مدينة أنتقيرة Antequera بقبضة الصّليبيين، وجُعلت بلدة حدودية لمراقبة تحركات المسلمين، عُيّن فارس يدعى ناڤاريث Narvaez، قائداً على تلك المدينة. قام هذا القائد بغزوات كما كان معتاداً، على المقاطعات المجاورة لمنطقة غرناطة، وقاد تلك الحملات شخصياً في بعض الأوقات، وفي الأحيان الأخرى كان يبعث ضبّاطه للقيام بها بدلاً منه؛ وكان المسلمون أيضاً يقومون بالمثل، فيهاجمون الإمارات التي كانت بين أيدي الصّليبيين.

وقد حدث في وقت ما أن أرسل ناڤاريث مجموعة من الفرسان، غادر قائدها في السّاعة الأكثر ملاءمة لتعزيز نجاح غايته، غير أنهم دخلوا في عمق الحدود، في ساعة متأخرة إلى مقاطعة غرناطة قبل بزوغ الفجر. وفي طريقه لم يكن القائد قد وجد أيّة غنائم، فوقع الصّليبي على شاب مسلم جسور، هائم في الظّلمة، ولم يستطع الأخير النّجاة من العدو فجهّز نفسه لمهاجمة الكفّار، دون أن يتيح لنفسه مجالاً لمعرفة أعدادهم، وكان الكفّار على وشك الانقضاض عليه؛ ولكنهم عندما وجدوه وحيداً أخذوه دون أن يصيبوه بأيّ أذى، وعلموا منه أن المقاطعة التي هم فيها قد نُهبت وسُلبت وتخلّى عنها جميع سكانها، الذين نشدوا الأمان في حقولها البعيدة، وعاد الصّليبيون إلى أنتقيرة حيث قدّموا أسيرهم إلى القائد ناڤاريث.

كان السّجين، وهو شاب يبلغ من العمر حوالي اثنين وعشرين أو ثلاثة وعشرين عاماً، فارساً ذا مظهر جميل وطلعة بهية؛ وكان يرتدي ثوباً فضفاضاً من الحرير

الأرجواني الدّاكن الثّمين، مطرّز ومزيّن بطريقة رائعة، ويعتمر على رأسه بعمامة من أحسن أنواع الكتان؛ وكان يعتلي فرساً رائعاً، ويحمل رمحاً مزخرفاً، وكذلك كان سيفه كسيف أكثر الفرسان المسلمين شرفاً وأعلى مكانة.

وعندما تحقّق ناڤاريث عن هوية الشّاب ردّ الأخير قائلاً أنه ابن قائد رُندة Ronda، وهو فارس مسلم من منزلة رفيعة، معروف بين الصّليبيين لقدرته وقوته على القتال. وعندما سأله إلى أين كان هائماً عندما وجده جنوده، لم يستطع أن يتلفّظ بأي كلمة، وخنقت الدّموع صوته فجأةً وجعلته غير قادر على الرّد. ومن ثم قال ناڤاريث له: «أنا أعجب لرؤيتك بهذا الوضع! فإذا كنت الفارس الهمام من السّلالة الرّفيعة وابن نبيل شجاع، لا يجب أن تندب مثل النّساء، على الرّغم من أنك تبدو ضليعاً في فنون القتال وجندياً هُماماً، وهذا ما لا أفهمه!».

فردّ الشّاب: «أنا لا أندب لأن رمحي لم يسعفني، ولا لأني أسير، ولا أذرف هذه الدّموع لأنني خسرت حريتي، ولكن بسبب حزن عميق، وما يحزنني أمرٌ آخر غير أمور الولاية». بعد سماع هذه الكلمات، عامل القائد ناڤاريث الشّاب بكل لطف وطلب منه أن يأتمنه على سبب حزنه وأساه؛ فردّ الأخير بهذه العبارات:

«كنت لفترة طويلة قد عشقت ابنة قائد قلعة، غير أنني لن أبوح لك باسمها فأحببتُها بصدق ووفاء؛ أجل، وكم من مرّة قاتلت على شرفها ضدّكم أيها الصّليبيون. فبادرت الفتاة بعد فترة وبعدما أحسّت بمشاعري وشعرت بنبل عواطفي بقبول عرضي للزّواج منها، وأرسلت لي دعوة للحضور ولأخذها إلى منزلي، مُعربة أنها ترغب في مرافقتي وفي ترك منزل والدها نظراً لمشاعرها تجاهي. وبما أنني كنت فرحاً بهذا الطّلب بعد أن أحسستُ أنني سأحصل على مبتغاي خرجت للقائها، غير أن سوء الحظ أوقعني بين أيدي فرسانك؛ وبذلك لم أفقد حريتي فقط بل وأيضاً كل سعادة حياتي، والجوهرة النّفيسة التي لطالما أردت الحصول عليها. بالتّالي أذرفُ دمعاً ولا أظن أنّ أمراً نبيلاً كهذا يصعب دخوله في صميم قلب كل امرئ، وسوف يشعر الكلّ ويتفهم التّعاسة التي أعاني منها».

وعلى ذلك النّحو أنهى الأسير قصته؛ وشعر القائد ناڤاريث بالشّفقة تجاه الشّاب فقال له: «أنت فارس من سلالة عريقة، وأنا على يقين أنك ستفي بوعدك، لذا عدني أنك ستعود إلى سجنك، وبالتالي سأسمح لك بالذهاب للقاء حبيبتك، على أن تعلمها سبب عدم تمكّنك من القدوم إليها قبل ذلك والعودة إلى المعتقل قبل بزوغ الفجر».

أعطى المسلم لآسره الوعد المنتظر بكلّ امتنان، وفي تلك الليلة نفسها وصل إلى الحصن حيث تقطن فتاته. وأعلمها بالذي جرى له فاستقبلته بالتّرحاب المعتاد، وقرّرت الاستعلام منه عن اليوم الذي ستصبح فيه مُلكاً له. إلا أن ردّ الشّاب كان مخذلاً فأطفأ لهفة الحبيبة التي صاحت به مندهشة: «ما الذي أسمعه! الآن بعد أن تحققت أمانيك بالوعد الذي قطعته لك؛ وبعد أن لمست استعدادي لمرافقتك لا زلت حزيناً؟». فأجاب الفارس: «بما أنني كنت متلهفاً لرؤيتك، فقد أسرعت اليك يا غاليتي، ووقعت في أسر بعض فرسان أنتقيرة الذين قادوني إلى ناڤاريث؛ ولكنّه كان رجلاً نبيلاً للغاية كما يُعرف عنه، وبعد أن أخبرته بسبب تعاستي في حضرته، سمح لي الحضور لمقابلتك بعد أن أعطيتُه وعداً بأنني سأرجع إلى أسره».

أطبق الحزن على الفتاة والشّاب، لكنه وجد القوة ليقول لها: «ها هي ذي السّماء تشعّ نوراً وسوف تأتي ساعة الفجر، وعليّ أن أفي بوعدي؛ لقد أتيت لرؤيتك كما سمح لي، ولكن كأسير للصّليبيين وليس كرجل حرّ أبداً، لقد خسرت حريتي وحرمني الله منها، وبما أن حبّي لك كبير فينبغي ألّا آخذك إلى مكان يمكن أن تتعرّضي فيه للخطر؛ سأتركك الآن لأعود إلى أسري لأني قطعت وعداً؛ ولكن إن استطعت الحصول على حرّيتي سريعاً، وكان هناك متّسع من الوقت، فسأرجع إليكِ».

بعد ذلك أجابته الفتاة قائلة: «قبل هذه السّاعة قدّمت لي العديد من البراهين التي تثبت حقيقة حبّك لي، ولكنك الآن تقدّم لي برهاناً أقوى منها جميعاً، نظراً إلى أنك تريد سلامتي على الرّغم من محنتك. لذلك فأنت فارس نبيل بعدما قدّمته لي من براهين وبعد وعدك الذي قطعته للصّليبيين، بالتّالي فالله يمنعني من أن استمرّ في هذه الحياة بصحبة شخصٍ غيرك؛ لذلك سأذهب معك، حتى ولو أنك لم توافق على ذلك؛

فإذا كان لا بدّ من أن تصبح عبداً، سأكون أنا أيضاً كذلك، وإذا رضي الله أن يمنحك حريتك، فسيمنحني حريتي أيضاً». قائلةً ذلك، استدارت الفتاة نحو وصيفتها المنتظرة، وأخذت من يديها صندوقاً حديدياً مرصعاً، وقالت: «هذه علبة مجوهراتي وفيها كل حُليّ الثّمينة جداً؛ خذني على فرسك وسوف أتقاسم النّصيب المقدّر معك».

بعد أن لفظت هذه الكلمات الأخيرة، تقدّمت الفتاة إلى حبيبها فحملها على فرسه كما رغبت. وعند الصّباح وصلا إلى أنتقيرة حيث قدّما أنفسهما إلى ناڤاريث الذي استقبلهما بلطف كبير، وشرّفهما واستقبلهما بكل لطف مادحاً حبّ الفتاة للشّاب، وكذلك شرف الفارس وصدق وعده. وفي اليوم التّالي حرّرهما القائد وسمح لهما بالعودة إلى بلدهما دون تأجيل، وحمّلهما هدايا ثمينة، وأمر حرّاساً من جنوده بمصاحبتهما حتى يصلا إلى برّ الأمان.

تعجّب كل فرسان غرناطة النّبلاء لهذه المغامرة، وأشادوا بها وبقصة حبّ الفتاة، وبوفاء الشّاب وكذلك بأريحيّة القائد الصّليبي، وقيلت فيها أجمل الأبيات من الشّعر الرّائق البديع وغُنّيت في ذلك العصر.

* * *

مراجع التّحرير

الآثار الأندلسية الباقية في إسپانيا والپرتغال: محمد عبد الله عنان.

الإحاطة في أخبار غرناطة: لسان الدين ابن الخطيب.

أخبار مجموعة: مؤلف مجهول.

اختصار القِدح المُعلّى في التاريخ المحُلّى: علي بن موسى بن عبد الملك الأندلسي.

أعمال الأعلام: ابن الخطيب.

الاكتفاء في أخبار الخلفاء: ابن الكردبوس.

بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس: أحمد بن يحي بن عميرة الضبّي.

البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب: ابن عِذاري المراكشي.

البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب (قسم الموحّدين): ابن عِذاري المراكشي.

تاريخ افتتاح الأندلس: أبو بكر محمد ابن القوطية.

التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة: د. عبد الرحمن الحجّي.

تاريخ علماء الأندلس: عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الفرضي الأزدي.

تاريخ قضاة الأندلس: أبو الحسن علي بن عبد الله الجذامي المالقي النّباهي.

تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: د. السيد عبد العزيز سالم.

التّكملة لكتاب الصِّلة: محمد بن عبد الله ابن الأبّار الأندلسي.

جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس: الحميدي.

الحلة السِّيَراء: محمد بن عبد الله بن أبي بكر ابن الأبار القضاعي الأندلسي.

دراسات في تاريخ المغرب و الأندلس: د. أحمد مختار العبادي.
دول الطوائف في الأندلس: محمد عبد الله عنان.
دولة الإسلام في الأندلس: محمد عبد الله عنان.
الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسام الشنتريني.
الذّيل والتّكملة لكتابي الموصول والصِّلة: محمد بن عبد الملك المراكشي.
الرّوض المعطار في خبر الأقطار (صفة الأندلس): الحميري.
روضة النّسرين في دولة بني مَرين: إسماعيل بن الأحمر بن القائم بأمر الله النَّصري.
ريحانة الكتّاب ونجعة المنتاب: لسان الدين بن الخطيب.
سراج الملوك: أبو بكر الطرطوشي.
صِلة الصّلة: ابن الزُّبير الأندلسي.
الصِّلة في تاريخ علماء الأندلس: أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال.
العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر: ابن خلدون.
العقد الفريد: ابن عبد ربه الأندلسي.
فجر الأندلس: د. حسين مؤنس.
فرحة الأنفس في أخبار الأندلس: محمد بن أيوب بن غالب الغرناطي.
في تاريخ المغرب و الأندلس: د. أحمد مختار العبادي.
قضاة قرطبة: محمد بن حارث بن أسد القيراوني الخشني.
قلائد العقيان في محاسن الأعيان: الفتح بن خاقان.
كناسة الدّكان بعد انتقال السّكان: لسان الدين بن الخطيب.
اللمحة البدرية في الدولة النّصرية: لسان الدين بن الخطيب.
مطمح الأنفس ومسرح التأنّس في مُلح أهل الأندلس: الفتح بن خاقان.
معالم تاريخ المغرب و الأندلس: د. حسين مؤنس.
المُعجب في تلخيص أخبار المغرب: عبد الواحد التّميمي المراكشي.
معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار: لسان الدين بن الخطيب.
المُغرب في حلى المغرب: علي بن موسى ابن سعيد الأندلسي.

المُقتبس في أخبار بلد الأندلس: أبو مروان حيّان بن خَلَف بن حيّان.
المَنّ بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة: ابن صاحب الصّلاة.
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: الشريف أبو عبد الله محمد الإدريسي.
نفاضة الجراب في علالة الاغتراب: لسان الدين بن الخطيب.
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: التّلمساني المقّري.
نهاية الأندلس وتاريخ العرب المُتنصّرين: محمد عبد الله عنان.

Conde, J. A., *Historia de la dominación de los árabes en España, sacada de varios manuscritos y memorias arábigas*. Madrid, 1820-1821, tres vols.

Conde, J. A., *Thekr al Andalus taleef Sherif Aledris / Descripción de España de Xerif Aledris, conocido por El Nubiense,* con traducción y notas de José Antonio Conde, Madrid: Guillermo Blázquez, 2003. Ed. original Madrid: Imprenta Real, 1799.

Conde, J. A., *Memoria sobre la moneda arabiga, y en especial la acuñada en España por los principes musulmanes: leida en la real Academica de la Historia en junta de 21 Julio de 1804*, Madrid: [s. n.], 1817.

* * *

فهرس الكتاب

القسم الرّابع

* * *